مكتبة
Telegram
Network
2020

جون
شتاينبيك

# شتاء السخط

رواية

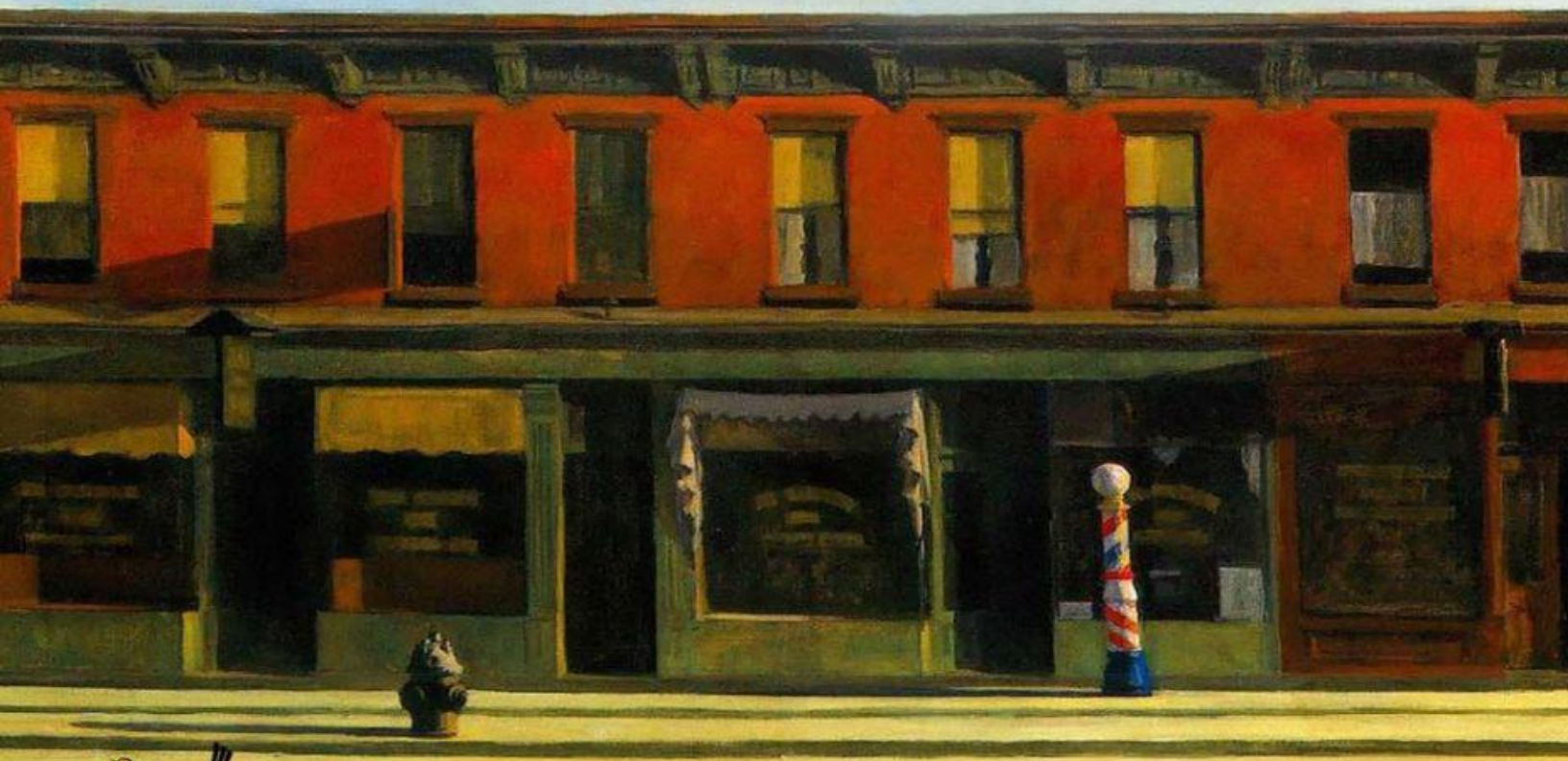

ترجمة: نور الدين مصطفى

مكتبة

Telegram Network

«المكتبة النصية»

قام بتحويل رواية:

**(شتاء السخط)**

**ل- « جون شتاينبيك»**

إلى صيغة نصية:

**(فريق الكتب النادرة)**

تنسيق

**ماجدة علي علي**

**Input/ Output**

**منصور التميمي**

# شتاء السخط

رواية

## جون شتاينبيك

ترجمة

**نور الدين مصطفى**

هذه ترجمة كتاب:

# THE WINTER OF OUR DISCONTENT

BY

## JOHN STEINBECK

رقم الإيداع: 25004 / 2017

الترقيم الدولي: ISBN 978 - 977-765 - 142 - 4

جميع الحقوق محفوظة.

لا يسمح بإعادة إصدار هذا الكتاب أو أي جزء منه. أو تخزينه في نطاق استعادة المعلومات، أو نقله بأي شكل من الأشكال دون إذن مسبق من الناشر.

.All rights are reserved

No part of this book may be reproduced, stored in a retrieval system, or transmitted in any form, or by any means without prior permission in .writing from the publisher

.Afaq Bookshop & Publishing House 1 Kareem El Dawla st

From Mahmoud Basiuny st. Talaat Harb CAIRO – EGYPT -

Tel: 00202 25778743 - 00202 25779803 -

Mobile: +202-01111602787

afaqbooks@yahoo.com :E-mail

www.afaqbooks.com

1 شارع كريم الدولة- من شارع محمود بسيوني - ميدان طلعت حرب- القاهرة - جمهورية مصر العربية

ت: 00202 25778743 - 00202 25779803

- موبايل: 01111602787

بطاقة الفهرسة

إعداد الهيئة العامة لدار الكتب والوثائق القومية

إدارة الشئون الفنية

شتاينبيك، جون.

شتاء السخط

- رواية

- ترجمة: نور الدين مصطفى

ط1 القاهرة

- دار آفاق للنشر والتوزيع

- 2018 480 ص، 21 سم.

رقم الإيداع 25004 / 2017

الترقيم الدولي 4 - 142 - 765 - 977 – 978

**1-** الأدباء (روايات)
**2-** شتاينبيك، جون

# القسم الأول

## الفصل الأول

عندما هز صباح شهر أبريل المشرق الذهبي ماري هولي فأيقظها من نومها، استدارت ناحية زوجها، فرأته يجذب لها بأصابعه الصغيرة فمًا أشبه بفم الضفدع.

قالت: «أنت أحمق، يا إيثان، فقد تملكتك عبقريتك الساخرة».

- أوه، قولي لي يا فأرتي الصغيرة، هل تقبلينني زوجًا؟

- هل استيقظت بهذا الحمق؟

- إن السنة تبين من يوم، واليوم من صباح.

- أعتقد أنك استيقظت بهذا السخف. أتذكر أن اليوم هو يوم الجمعة الحزينة؟

فقالت بصوت أجوف: «إن الرومان الأقذار يصطفون استعدادًا لصعود الجلجثة».

- لا تنتهك المقدسات. هل سيدعك مارولو تغلق المحل في الحادية عشرة؟

- يا زهرتي العزيزة، إن مارولو كاثوليكي ومهاجر قذر. وقد لا يبين على الإطلاق. سأقفل المحل من الظهر حتى ينتهي تنفيذ حكم الإعدام.

- ذلك كلام الآباء المغتربين، وهو ليس كلامًا مهذبًا.

- هراء فذلك كلام أخذته عن أهل أمي، فهو كلام قراصنة. لقد كان فعلًا تنفيذ حكم إعدام كما تعرفين.

- لم يكونوا قراصنة. أنت نفسك قلت إنهم كانوا صيادي حيتان، وأنت نفسك قلت إنه كانت لديهم خطابات –مما تدعوه- المؤتمر الأوروبي.

- لقد اعتبرتهم السفن التي أطلقوا عليها النار قراصنة، مثلما اعتبر جنود الرومان صَلب المسيح، تنفيذًا لحكم إعدام.

- ها قد أثرت ثائرتك، ولكني أوثر أن تكون أحمقًا.

- إنني أحمق، والجميع يعلمون ذلك.

- أنت دائمًا تحيرني -ولك كل الحق في أن تفخر– ففي أسلافك يجتمع الآباء المغتربون والربابنة من صيادي الحيتان في عائلة واحدة.

- وهل لهم هذا الحق؟

- ماذا تعني؟

- هل يحق لأسلافي العظام أن يفخروا، حين يعرفون أنهم أنجبوا موظفًا لعينًا في محل بقالة ملعون يمتلكه مهاجر أوروبي قذر، في بلدة كانوا يمتلكونها عادة؟

- لست كذلك، بل أنت أقرب إلى المدير، تمسك الحسابات، وتودع النقود في المصرف، وتطلب البضائع.

- بالتأكيد. كما أني أكنس المحل، وأحمل القمامة، وأمرغ جبهتي في التراب من أجل مارواللو. ولو كنت قطة ملعونة، لقمت أيضًا بصيد فيران مارواللو.

فطوقته بذراعيها. وقالت: «لنظل على حماقتنا، وأرجوك لا تفه بكلمات نابية في يوم الجمعة الحزينة فأنا أحبك».

وبعد برهة قال: «طيب! ذلك ما يقلنه جميعًا. ولكن لا تظني يا حمامتي، أن هذا القول يسمح لك بالنوم مع رجل متزوج».

- كنت أوشك أن أحدثك عن الأولاد.

- هل دخلوا السجن؟

- ها أنت قد عدت لحماقتك مرة أخرى. قد يكون من الأفضل أن يخبراك هما.

- ولم لا تقولين أنت؟

- ستقرأ مارجي يانج هنت طالعي اليوم مرة أخرى.

- كما تقرأ في كتاب؟ من تكون مارجي يانج هنت؟ من هي حتى يندفع العشاق جميعًا....؟

- إنك تعرف أنني لو كنت غيورة، أقصد أنهم يقولون... عندما يتظاهر رجل بأنه لا يكترث بفتاة جميلة.

- أوه، هل هذه فتاة؟ لقد تزوجت رجلين.

- لقد مات الثاني.

- أريد إفطاري. أتصدقين ذلك الهراء؟

- حسنًا، لقد رأت مارجي أخي في الورق. وقالت: هناك شخص عزيز وقريب.

- سيحصل شخص قريب وعزيز على رفسة، إذا لم تتحامل على نفسها.

- ها أنا ذاهبة. أتريد بيضًا؟

- أظن ذلك. لماذا يسمونها الجمعة الحزينة؟ ما وجه الحزن فيها؟

فقالت: «أفّ، منك! أنت تسخر دائمًا».

* * *

كانت القهوة قد أعدت، والبيض قد وضع في طبق وإلى جواره الخبز المحمص (التوست)، حين تسلل إيثان آلان هولي إلى الركن المخصص للطعام قرب النافذة، وقال:

- أشعر أنني في حالة طيبة. لم يسمونها الجمعة الحزينة؟

فأجابت من عند الموقد: «إنه الربيع».

- جمعة الربيع؟

- بل حمى الربيع. هل أولئك هم الأولاد بالطابق العلوي؟

- يا لها من فرصة عظيمة لأولئك الأوغاد الصغار الكسالى. فلنوقظهما ونجلدهما.

- ما أفظع كلامك حين تكون في حماقتك. هل ستأتي إلى البيت في الفترة بين الثانية عشرة والثالثة؟

- كلا.

- «ولم لا؟».

- بسبب النساء اللائي يترددن على المحل. وقد يكون الدور على مارجي.

- والآن يا إيثان. لا تقل كلامًا كهذا. فمارجي صديقة مخلصة، وقد تنزع قميصها عن بدنها لتهبه لك.

- هكذا؟ ومن أين جاءت بالقميص؟

- ها هو كلام الآباء المغترين مرة أخرى.

- أراهنك على أي شيء إننا قريبان. ففي عروقها يجري دم القراصنة.

- أوه، لقد عدت لحمقك مرة أخرى. هاك القائمة كما جاءتنا.

ودستها في جيب الصدر.

- قد يبدو أن بها طلبات كثيرة. ولكن لا تنس أنها عطلة عيد الفصح، ولا تنس كذلك إحضار دستتين من البيض. لأنك ستتأخر.

- أعرف. وقد تفوتني صفقة بخمسة وعشرين سنتًا لمارولو. لماذا دستتين؟

- للتلوين. فقد طلبهما آلان وماري إيلين بالذات. الأفضل أن تذهب.

- طيب يا زهرتي. ولكن أليس بوسعي أن أصعد وأشبع آلان وماري إيلين ضربًا؟

- أنت تفسدهما بتدليلك يا إيثان. وأنت تعرف أنك تفعل.

- وداعًا يا مركب الولاية.

قالها، وصفق الباب الزجاجي وراءه، وخرج إلى الصباح الأخضر الذهبي.

تطلع وراءه إلى البيت العتيق البديع، بيت أبيه وجده العظيم بطلائه الأبيض وأركانه المتوازية، وتلك الطاقة المروحية التي تعلو بابه الأمامي، والرسوم المعمارية من طراز «آدم»، ثم ذلك الممر الضيق الذي يسير بحذاء سقفه. لقد استقر البيت وسط حديقة ريانة بين أشجار الليالق، التي بلغ عمرها المائة عام، وسمك سيقانها خاصرة رجل، وتترنح بحملها من البراعم. لقد اتصلت رؤوس شجرات الدردار المغروسة في شارع «إلم»، واصفر لونها مبشر بظهور أوراقها الجديدة. كانت الشمس قد تنحت لتوها عن مبنى المصرف، وأخذت تلتمع على برج الغاز الفضي وهي تثير رائحة الغلفق([1]) والملح الآتية من الميناء القديم.

في تلك الساعة المبكرة، لم يكن يوجد في شارع «إلم» سوى شخص واحد هو كلب المستر بيكر الأحمر -كلب مدير المصرف– المسمى رد بيكر، والذي كان يتمشى في عظمة وأناة، متوقفًا بين الحين والحين؛ ليتشمم على جذوع الأشجار رائحة من سبقه من المارة.

- صباح الخير يا سيدي. اسمي إيثان آلان هولي. لقد التقينا في أثناء التبول.

توقف رد بيكر، وصادق على التحية بهزة بطيئة من ذيله الطويل الشعر.

قال إيثان: «كنت أنظر فقط إلى بيتي. كانوا يتقنون فن البناء في تلك الأيام».

رفع رد رأسه، ومد إحدى قائمتيه الخلفيتين ليحك ضلوعه بشكل عارض.

- ولم لا؟ كانوا يمتلكون المال. زيت الحيتان من البحار السبعة، ومن القيطس... ما هو القيطس؟

فأطلق رد زفرة معلولة.

- أرى أنك لا تعرف. إنه زيت خفيف، ذو رائحة حلوة كرائحة الورد، يستخرج من تجويف رأس حوت الكاشالوت الضخم. اقرأ (موبي ديك) أيها الكلب، تلك نصيحتي إليك.

رفع الكلب قائمته على مربط الجياد المصنوع من حديد الزهر قرب القناة.

وعندما استدار إيثان ليتابع سيره، التفت وراءه وقال: «ثم اكتب تقريرًا عن الكتاب؛ فلعلك تعلم ابني. فهو لا يستطيع مجرد تهجي كلمة (قيطس)، أو... أي كلمة أخرى».

يخترق شارع «إلم» شارع «هاي» بزاوية، بعد عمارتين من بيت إيثان آلان هولي العتيق. وفي منتصف الطريق إلى العمارة الأولى أخذت جماعة من العصافير الإنجليزية الشقيقة تتقاتل على العشب الجديد في حديقة الجار، لم تكن تلعب، بل تتدحرج وتنقر وتسحل عيون بعضها البعض بوحشية وضراوة، وتصخب صخبًا شديدًا، لم تر معه إيثان وهو يقترب؛ فوقف يرقب المعركة.

قال: «الطيور تتوافق في أعشاشها الصغيرة، فلم لا نستطيع نحن كذلك أن نتوافق؟ هاكم حفنة من شعير الخيل. أنتم يا صغاري لا يمكنكم الاتفاق حتى في صباح جميل كهذا. وأنتم أيها الأوغاد الذين تتمتعون بعطف القديس فرنسيس! هش!» وركض إليهم داقًّا الأرض بقدميه، وهبت العصافير وأجنحتها تبعث زئيرًا هامسًا، وهي تشكو بمرارة في صوت كصرير الأبواب. وقال إيثان في إثرها: «دعوني أقول لكم هذا! ستُظلم الشمس في الظهيرة، وستغمر الأرض ظلمة، ويتملككم الذعر». ثم عاد إلى الرصيف، وتابع سيره.

لقد صار بيت آل فليب العتيق الواقع في العمارة الثانية نزلًا، وقد خرج من بابه الأمامي جوي مورفي، صراف مصرف «فيرست ناشيونال». خلل أسنانه، وعدل صديريته (التاترسول)، ثم قال لإيثان: «هاي. كنت على وشك زيارتك، يا مستر هولي».

- لم يسمونها الجمعة الحزينة؟

- إنها كلمة مشتقة من اللاتينية جودوس. جوديليوس، جودوم، ومعناه قذرة.

كان جوي يشبه الحصان، ويبتسم كالحصان، رافعًا شفته العليا الطويلة ليظهر أسنانًا كبيرة مربعة. جوزيف باتريك مورفي، أو الفتى جوير –ويسمى مورف- وكان معروفًا فعلًا في نيوبايتون رغم أنه لم يفد إليها إلا منذ سنوات معدودة. كان دائم النكتة، يفتح فمه ليلقيها دون أن تفصح عيناه عن شيء مثل لاعب البوكر، ولكنه يصهل ضاحكًا لنكات غيره، سواء سبق له أن سمعها أم لا. كان هذا المورف حكيمًا –يعرف خبايا كل شيء- وكل شخص من المافيا إلى مونتباتن، إلا أنه كان يبوح بهذه الخبايا بصوت يعلو باطراد، وكأنه يتساءل. وكانت تلك اللهجة تبرئ نبرته من أي ادعاء، وتجعل من سامعه شريكًا له، فيصبح بوسعه أن يعيدها على أنها من عندياته. كان جوي قردًا ساحرًا، مقامرًا، ولكن لم يره أحد يومًا يراهن، وكان بارعًا في مسك الدفاتر، وصرافًا مدهشًا. وقد وثق مستر بيكر، مدير مصرف «فيرست ناشيونال»، بجوي ثقة تامة، فترك له تصريف معظم أعمال المصرف. كان هذا المورف يعرف الجميع معرفة وثيقة، ولم يناد أحد قط باسمه الشخصي.

فإيثان هو مستر هولي، ومارجي يانج هنت هي مسز يانج هنت بالنسبة لجوي، بالرغم من الهمس الذي دار عن علاقته بها. كان بلا عائلة، وبلا علاقات، ويسكن وحده في غرفتين بحمام خاص في منزل آل فليب العتيق، ويتناول معظم وجباته في مطعم وبار فورماستر. وقد كان ماضيه في الأعمال المصرفية معروفًا لمستر بيكر والشركة المشرفة على المصرف، وهو ماض لا تشوبه شائبة، إلا أنه كانت للفتى جوي طريقة في سرد أحداث وقعت لغيره، بشكل يجعلك تشك في أنها قد وقعت لجوي نفسه، وإذا كان الأمر كما رُوِيَ، فلابد أنه حضر هذه الأحداث فعلًا. بل زاد من محبة الناس له، أنه لا يستدين. وقد حافظ على العناية بنظافة أظافره، وارتداء الملابس الأنيقة الفخمة، فهو يلبس دائمًا

قميصًا نظيفًا وحذاء ملمعًا.

مضى الرجلان ببطء في شارع «إلم» متجهين إلى شارع «هاي».

«طالما نويت أن أسألك.. هل لك صلة قرابة بالأميرال هولي؟

وسئل إيثان: «ألا تقصد الأميرال هولس؟ لقد سمعنا عن قباطنة كثيرين في العائلة ولكني لم أسمع قط عن أميرال».

- سمعت أن جدك كان قبطان سفينة لصيد الحيتان. وأظن الأمر اختلط في ذهني بالأميرال.

قال إيثان: «في بلدة كهذه توجد أساطير، مثل قولهم إن أهل والدي قاموا ببعض أعمال القرصنة في طريق عودتهم إلى هنا، وإن عائلة أمي جاءت مع مهاجري الماي فلور».

فقال جوي: «وإيثان آلان. بالله! هل لك به أيضًا صلة قرابة؟».

فرد إيثان: «ربما، بل لابد أن يكون الأمر كذلك. يا له من نهار! هل رأيت أبدع منه قط؟ لأي سبب أردت رؤيتي؟».

- آه، نعم. أظنك تغلق المحل من الثانية عشر إلى الثالثة، فهل تعدّ لي شطيرتين حوالي الحادية عشر والنصف؟ سآتي لأخذهما. مع زجاجة لبن..

- ألن يغلق المصرف؟

- بلى، سيغلق المصرف. أما أنا فلا. سيظل جوي الصغير هناك، مشدودًا إلى الدفاتر، ففي عطلة نهاية أسبوع ضخمة كهذه، يقوم كل فرد وكلبه أيضًا بصرف شيكات.

فقال إيثان: «لم أفكر في ذلك أبدًا».

- أوه، بالتأكيد. فهذا هو الحال في عيد الفصح، ويوم الشهداء، وعيد الرابع من يوليو، وعيد العمل، وأية عطلة نهاية أسبوع طويلة. ولو رغبت في السطو على مصرف لفعلت ذلك تمامًا قبل عطلة نهاية أسبوع طويلة. حينذاك تكون النقود موجودة هناك، في الانتظار.

- ألم تتعرض لحادث سطو، يا جوي؟

- كلا. ولكن لي صديق تعرض للسطو مرتين.

- وماذا قال عن ذلك؟

- قال إنه كان خائفًا. وكان يتلقى الأوامر فحسب. لقد انبطح أرضًا وتركهم يأخذونها، وقال إن النقود مؤمَّن عليها بأفضل مما هو مؤمَّن عليه.

- سأحضر لك الشطيرتين بعدما أغلق المحل، وسأطرق الباب الخلفي. أي نوع من الشطائر تريد؟

- لا تزعج نفسك يا مستر هولي، سأدلف عبر الحارة –لتكن إحداهما لحم خنزير والثانية جبنًا في خبز الشعير، مع خس ومايونيز، وقد احتاج إلى زجاجة لبن، وزجاجة كوكاكولا أشربهما فيما بعد.

- عندنا (سلامي) جيد، وهي انتقاء مارواللو.

- لا، أشكرك. كيف حال عضو المافيا الوحيد؟

- أظنه بخير.

- حسنًا، لا بد لك -حتى لو لم تحب الغرباء– من الإعجاب برجل يستطيع أن يبني من عربة يد كل ما يقتني الآن من ممتلكات. إنه ذكي جدًّا، فالناس لا يعرفون شيئًا عن مقدار ما يكتنز. ربما لا ينبغي عليَّ قول ذلك، فالمفروض في موظف المصرف ألا يفشي سرًّا.

- ولكنك لم تفش سرًّا.

كانا قد وصلا إلى الناصية التي يلتقي فيها شارع «إلم» بزاوية مع شارع «هاي» وتوقفا بحركة آلية، واستدارا ليتطلعا إلى القرميد الوردي والملاط القذر، الذي كان في الماضي فندق «باي» العتيق، والذي أخذوا يهدمونه حاليًا؛ ليفسح مجالًا لفندق وول ورث الجديد. كان الجاروف الآلي الأصفر، والرافعة التي تطوح بكرة الهدم ساكنين، وكأنما حيوانان مفترسان يتربصان في تلك الساعة المبكرة من الصباح.

وقال جوي: «لقد رغبت دائمًا أن أفعل هذا. لابد أن يتملك المرء شعور باللذة، حين يطيح بتلك الكرة الفولاذية، ثم يرى جدارًا يتهاوى».

قال إيثان: «لقد رأيت في فرنسا ما يكفي من الجدران المتهاوية».

- أجل! فاسمك منقوش على النصب المقام قرب الميناء.

- هل تمكنوا من القبض على اللصوص الذين هاجموا صديقك؟

كان إيثان واثقًا أن هذا الصديق لم يكن سوى جوي نفسه. ولو سمعه أي شخص آخر لوثق من ذلك أيضًا.

- لقد اصطادوهم كالفيران. من حسن الحظ أن اللصوص ليسوا أذكياء، ولو ألف الفتى جوي كتابه عن كيفية السطو على مصرف، لما تمكنت الشرطة أبدًا من الإمساك بأحد.

وضحك إيثان وهو يقول: «وكيف ستتناول الموضوع؟».

- لديَّ معلوماتي الخاصة، يا مستر هولي. وإنني أقرأ الصحف فحسب، ثم إنه كانت لي معرفة وثيقة بفتى كان يعمل شرطيًّا. أتريد سماع المحاضرة التي ثمنها دولارين؟

- والتي تساوي ما يقرب من خمسة وسبعين سنتًا. لابد لي من فتح المحل.

قال جوي: «سيداتي سادتي! إنني هنا هذا الصباح. لا، انتبهوا! كيف يمسكون لصوص المصارف؟ رقم واحد» عن طريق صحيفة السوابق، إذا كان المرء قد قبض عليه من قبل. رقم اثنين: بالتقاتل على الغنائم، ثم إفشاء أحدهم للسر. رقم ثلاثة: النساء. فهم لا يستطيعون الابتعاد عن النساء، وهذا يؤدي بنا إلى رقم أربعة: إذ يكون عليهم إنفاق تلك النقود. راقبوا مُحْدثي الإنفاق، تضعوا أيديكم على اللصوص».

- إذن ما هي طريقتك، يا سيدي الأستاذ؟

- طريقة بسيطة بساطة ارتدائك جواربك. اجعل كل ما سبق عكسيًّا: لا تسرق مصرفًا على الإطلاق إذا كان قد سبق إلقاء القبض عليك، أو قيدت ضدك سابقة لأي سبب من الأسباب. لا شركاء، قم بالعملية وحدك ولا تخبر مخلوقًا، أي شخص. انس النساء. لا تنفق النقود، بل احفظها بعيدًا، ولو استمر ذلك سنوات. وحين يتوافر لديك مبرر لامتلاك بعض النقود، فأخرج القليل منها في كل مرة واستثمره. لا تبدده.

- وماذا لو تعرفوا على اللص؟

- إذا حجب وجهه ولم يتكلم، فمن ذا الذي يتعرف عليه؟ هل سبق لك أن قرأت أوصاف شهود الرؤية؟ إنهم أغبياء. ويقول صديقي الشرطي، إنهم كانوا يتعرفون عليه المرة تلو المرة عندما يضعونه أحيانًا في صف المشبوهين. وكان الناس يقسمون أن تقتلع أعينهم لو لم يكن هو فاعل تلك الفعلة. تلك المحاضرة تكلفك خمسة وسبعين سنتًا، تسمح.

أدخل إيثان يديه في جيبه، وقال: «سأكون مدينًا لك بها».

فقال جوي: «سآخذ شطائر في مقابلها».

عبر الاثنان شارع «هاي»، ودخلا الحارة التي تشكل زاوية قائمة مع الجانب الآخر. ودخل جوي من الباب الخلفي لمصرف «فيرست ناشيونال» الذي كان على جانبه من الحارة، بينما فتح إيثان قفل باب «محل مارواللو للفواكه والبقالة» المطل على الحارة، والذي كان إلى جانبه، وصاح: «لحم خنزير وجبن؟» في خبز الشعير، مع الخس والمايونيز.

تسرب خلال المخزن من الحارة الضيقة ضوء ضئيل أعتمته النافذة المتربة ذات القضبان الحديدية. وتوقف إيثان في المكان الذي تضيئه تباشير الصباح وترتفع أرففه إلى السقف، وتتكدس فيه صناديق الورق المقوى والخشب محتوية علب الفاكهة، والخضراوات، والأسماك، واللحوم، والجبن. وتُشمّ رائحة فضلات الفيران خلال روائح البقول المنبعثة من الدقيق والفول المجفف والفاصوليا، وخلال رائحة الورق والحبر المنبعثة من صناديق العصيدة، وخلال رائحة الحموضة الزائدة اللاذعة المنبعثة من الجبن، والسجق، وخلال الأبخرة المنبعثة من لحم الخنزير المملح ولحم الفخذ، ثم خلال التخمر المنبعث من ورق الكرنب المقطع التالف والخس، وشواشي البنجر المطلة من صفائح القمامة الفضية اللون قرب الباب الخلفي. وعندما تأكد من عدم وجود أي زناخة صدئة لرائحة فأر، فتح الباب المطل على الحارة الثانية ودحرج صفائح القمامة المغلقة إلى الحارة. واندفع قط رمادي ليدخل، ولكنه طرده

بعيدًا.

أشار إلى القط، وقال: «لا، لا تدخل، إن الاتعاب التي نقدمها للقطط، هي الفيران الكبيرة والصغيرة، أما أنت فقارض سجق. ألست كذلك! أنت تسمعني! أليس كذلك؟».

كان القط الجالس يعلق مخلبًا ورديًّا معقوفًا، ولكنه عند سماع عبارة «أليس كذلك» الثانية رفع ذيله إلى أعلى وسار مبتعدًا، ثم تسلق السور العريض خلف المصرف. فقال إيثان بصوت مرتفع: «لابد أن تكون تلك كلمة سحرية» ثم عاد إلى المخزن، وأغلق الباب خلفه.

اخترق آلان الغرفة المتربة متجهًا إلى الباب القلَّاب الذي يفضي إلى المحل، وعندما وصل إلى المرحاض سمع فحيح الماء المنساب. فتح الباب العريض ب «كَوَّته» الزجاجية ذات الشبكة السلكية، ثم زج الإسفين ليبقى مفتوحًا، وفي عزم دفع كتلة الخشب بمقدمة حذائه لتستقر في مكانها.

كان لون المحل ضاربًا إلى الخضرة؛ بسبب الستائر المسدلة على النوافذ الأمامية الضخمة. وهنا أيضًا ارتفعت الأرفف حتى السقف، وقد امتلأت -في عناية- بأطعمة محفوظة في علب وأوان زجاجية برَّاقة، إنها مكتبة للمعدة. وفي أحد الجوانب، كانت هناك آلة عد النقود، وأكياس الورق، والدوبارة، ثم ذلك الشيء الرائع المصنوع من صلب غير قابل للصدأ بطلائه الأبيض المتألق، إنه الثلاجة، وقد كان مكبسها يهمس لنفسه. أدار إيثان مفتاحًا، فغمر وهج النيون البارد المائل إلى الزرقة الشرائح الباردة، والجبن، والسجق، وقطع الكوستليتة، وشرائح اللحم البقري، والأسماك. وملأ المحل ضوء متكسر كالذي ينعكس عادة في الكاتدرائية، مثل كاتدرائية تشارتر. وتوقف إيثان يتأمل المشهد بإعجاب: أنابيب أرغن من علب الطماطم، ومعابد صغيرة من المسطردة والزيتون، ثم مائة قبر سردين بيضاوي الشكل.

وترنم بلحن ترتيلي في صلاة لا معنى لها، وختمها بكلمة «آمين!» كان بوسعه أن يسمع تعليق زوجته على صلاته: «ذلك سخف منك، فضلًا عن أنك قد تؤذي مشاعر شخص، وليس بمقدورك أن تتجول هنا وهناك، وأنت تؤذي شعور الناس».

موظف في محل بقالة –بقالة مارواللو- له زوجة وطفلان عزيزان. فمتى ينفرد بنفسه؟ متى يستطيع أن ينفرد بنفسه؟ الزبائن في أثناء النهار، ثم الزوجة والطفلان في المساء. «في الحمام.. ذلك هو الوقت الوحيد». قالها إيثان بصوت عال، «ثم الآن بالذات قبل أن أفتح البوابة لتدفق الفيضان. آه من تلك اللحظة المعتمة، المظلمة، المدلهمة، القذرة الحبيبة» وخاطب زوجته قائلًا: «والآن يا قالب السكر، مشاعر من تلك التي أستطيع إيذاءها؟ لا يوجد هنا ثمة إنسان أو مشاعر. ليس هنا سواي أنا وتراتيلي حتى... حتى أفتح ذلك الباب الأمامي اللعين».

تناول مئزرًا نظيفًا من درج خلف الطاولة المجاورة لآلة عد النقود، وفرده، ثم جذب الأربطة ووضعها حول خصره النحيل، ولف الرباطين حول جسده ثم أعادهما إلى الخلف ثانية. ومد يديه خلف ظهره وعقد عقدة منزلقة.

كان المئزر طويلًا يصل إلى ما تحت منتصف ساقيه. رفع يده اليمنى، وهي مضمومة في تراخٍ،

وراحتها إلى أعلى، ثم صاح: «استمعي إليَّ، أنتِ أيتها الكمثرى المحفوظة وأنت أيتها المخللات، وأنت أيتها الخضراوات المتبلة: - ولما كان النهار اجتمعت مشيخة الشعب ورؤساء الكهنة والكتبة، وأصعدوه إلى مجمعهم– ولما كان النهار. لقد بدأ السفلة عملهم مبكرين، أليس كذلك؟ لم يضيعوا لحظة واحدة بحال من الأحوال. ولنر الآن -وكان نحو الساعة السادسة– ربما كان ذلك في الساعة الثانية عشرة- فكانت ظلمة على الأرض كلها إلى الساعة التاسعة. وأظلمت الشمس. والآن كيف أتذكر ذلك يا إلهي الطيب، لقد استغرق وقتًا طويلًا ليموت، وقتًا طويلًا مرعبًا»، أسقط يده ونظر في تساؤل إلى الرفوف المزدحمة وكأنها قد ترد عليه. «أنت لا تكلميني الآن يا ماري، يا حلوتي! فهل أنت إحدى بنات أورشليم؟ لقد قال: «لا تبكين عليَّ بل على أنفسكن وعلى أولادكن؛ لأنه إذا كانوا بالعود الرطب يفعلون هذا فماذا يكون باليابس؟» لا تزال تلك الكلمات تثير شجوني لقد كان تأثير العمة ديبورا أفضل مما اعتقدت. لم تحن الساعة السادسة بعد، ليس بعد».

رفع الستائر الخضراء على النوافذ الكبيرة وهو يقول: «ادخل، أيها النهار» وبعدئذ فتح أقفال الأبواب الأمامية، وقال: «ادخلي، أيتها الدنيا».

طوح الأبواب ذوات القضبان الحديدية ففتحها، ثم شبكها لتظل مفتوحة. كانت شمس الصباح راقدة في نعومة على الرصيف كما ينبغي أن تكون، ففي شهر أبريل تشرق الشمس من نفس النقطة التي يندفع فيها شارع «هاي» إلى الخليج. عاد إيثان إلى المرحاض ليجلب مقشة يكنس بها الرصيف.

إن يومًا، يومًا بأكمله، ليس شيئًا واحدًا ولكنه أشياء عدة. إنه لا يتغير في تزايد الضوء وهو يتجه إلى سمت السماء ثم وهو يغيض ثانية فحسب، بل يتغير في مكوناته وحالته المزاجية، يتغير في نغمته ومعانيه، ويغلفه ألف عنصر من عناصر الفصول، والحرارة أو البرودة، والسكون أو الرياح المتعددة، وتكتنفه الروائح والمذاقات، وأنسجة من ثلج أو عشب، من برعم أو ورقة أو جذوع عارية مرسومة بالسواد. ومثلما يتغير اليوم تتغير كائناته، من حشرات وطيور، وقطط، وكلاب، وفراش وأناس.

لقد انتهى يوم إيثان آلان هولي الهادئ المعتم الداخلي. فالرجل الذي كنس الرصيف في الصباح بضربات موسيقية، لم يكن نفس الرجل الذي يستطيع أن يخطب في البضائع المحفوظة في العلب، ولم يكن رجل التراتيل، بل لم يكن حتى رجل الوقت المدلهم. جمع في كناسة مقشته أعقاب السجائر وأغلفة اللادن وأكياس البراعم المتساقطة من الشجر المخصب، والتراب العادي البسيط، ثم دفع صفوف المخلفات التي كونتها الريح تجاه الميزاب، لتنتظر عمال البلدية بسيارتهم الفضية.

اتخذ المستر بيكر طريقه السليم المرسوم من منزله في شارع «مابل» متجهًا إلى مبنى مصرف «فيرست ناشيونال» الروماني الطراز والمقام من القرميد الأحمر. ولو لم تكن خطواته متساوية الطول، فمن كان سيعرف أنه تجنب قصم ظهر أمه عن طريق عادة اكتسبها منذ القدم؟

- صباح الخير، مستر بيكر.

قالها إيثان، وأوقف هفة مقشته لينقذ سروال مدير المصرف الصوفي الأنيق من التراب.

- صباح الخير، يا إيثان. صباح بديع.

قال إيثان: «إنه بديع فعلًا، فقد هلَّ الربيع، يا مستر بيكر. وكان الفأر البري مصيبًا مرة أخرى».

- «نعم، كان مصيبًا». وصمت مستر بيكر برهة. «لطالما وددت التحدث إليك، يا إيثان. تلك النقود التي حصلت عليها زوجتك من وصية أخيها – إنها تزيد على خمسة آلاف، أليس كذلك؟».

قال إيثان: «بل ستة آلاف وخمسمائة، بعد الضرائب».

- حسنًا، إنها مجرد نقود ملقاة في المصرف ينبغي أن تستثمر. أود أن أتحدث معك بشأنها، ينبغي أن تشغّل نقودك.

- إن ستة آلاف وخمسمائة دولار، لا تصلح للقيام بعمل كبير يا سيدي، وكل ما يمكن هو الاحتفاظ بها لمواجهة الطوارئ.

- لست ممن يؤمنون بالنقود العاطلة، يا إيثان.

- حسنًا، هذا أيضًا يفيد – عليَّ فحسب أن أقف وأنتظر.

وصار صوت مدير المصرف جليديًّا وهو يقول: «لا أفهم هذا». إلا أن لهجته كانت تقول إنه يفهم فعلًا ويجده غباء، واستثارت نغمة صوته مرارة في نفس إيثان، وتمخضت المرارة عن كذبة.

ودارت المقشة في انحناءة رقيقة مع الرصيف «الأمر هكذا، يا سيدي، هذه النقود تأمين مؤقت لماري إذا حدث لي ثمة شيء».

- ينبغي عليها إذن أن تستعمل جزءًا منها لتؤمن حياتك.

- ولكنه مال مؤقت فحسب، يا سيدي. تلك النقود كانت ثمن ضيعة شقيق ماري. ولا تزال أمها على قيد الحياة. وقد تبقى حية عدة سنوات.

- أفهم هذا. ومن الممكن أن يكون العجائز عبئًا.

- وهم يستطيعون الجلوس أيضًا على أموالهم.

تطلع إيثان إلى وجه مستر بيكر وهو يلقي كذبته، ورأى اللون الأحمر يتصاعد أعلى ياقة مدير المصرف، فقال: «ها أنت ترى. يا سيدي، إنني لو استثمرت أموال ماري فقد أخسرها، كما خسرت أموالي، وكما خسر أبي ثروته».

- الماء موجود تحت القنطرة، يا إيثان! الماء موجود تحت القنطرة. أعرف أنك اكتويت بالإفلاس، ولكن الوقت يتغير، وفرص جديدة تتفتح.

- لقد واتتني فرصتي، يا مستر بيكر، فرصة أكبر مما أملك من عقل. لا تنس أنني امتلكت هذا المحل عقب الحرب مباشرة، واضطررت لبيع نصف عمارة من الأملاك الجيدة؛ لأملأه بالبضائع، آخر ما

كنا نملك من وسائل التجارة.

- أعرف يا إيثان. فأنا مدير مصرفك. وأعرف عن أعمالك مثلما يعرف طبيبك عن نبضك.

- بالتأكيد تعرف. لقد استغرق الأمر أقل من سنتين لأصبح على شفا الإفلاس اللعين. كان عليَّ أن أبيع كل شيء عدا منزلي، لكي أسدد ديوني.

- لا يسعك أن تلقي على نفسك كل اللوم من أجل ذلك. شخص مسرَّح جديد من الجيش، ولا خبرة له بالعمل التجاري، ولا تنس أنك اصطدمت رأسًا بمرحلة كساد اقتصادية، وإن كنا نحن قد سميناه انكماشًا مؤقتًا. لقد ضاع فيه عدد من كبار رجال الأعمال ذوي الخبرة الكبيرة.

- لقد ضعت فيه بالفعل، إنها أول مرة في التاريخ يحدث فيها على الإطلاق أن يعمل واحد من آل هولي موظفًا في بقالة أحد المهاجرين.

- والآن، هذا هو ما لا أستطيع فهمه يا إيثان. من الممكن أن يحل الإفلاس بأي شخص، ولكن الذي لا أفهمه هو: لماذا تبقى مفلسًا؟ وأنت رجل له مثل عائلتك وماضيك وتعليمك. ليس المفروض أن يلازمك هذا الإفلاس، إلا إذا كان دمك قد فقد حميته. ما الذي صرعك، يا إيثان؟ ما الذي يبقيك هكذا صريعًا؟

هم إيثان بأن يجيب إجابة سريعة غاضبة يقول فيها: «من الطبيعي ألا تفهم، فلم تتعرض لذلك أبدًا من قبل»، وعندئذ كنس حلقة صغيرة من أغلفة اللادن وأعقاب السجائر وكوّن منها هرمًا دفعه تجاه الميزاب.

- الرجال لا يُصرعون، أقصد أنهم يستطيعون المضي في الصراع مع أشياء ضخمة. إنما يقتلهم التفتت، فيساقون إلى الفشل. ويسيطر عليهم الخوف ببطء. وأنا خائف. فقد تقطع عنا شركة لونج إيلاند الإضاءة، وزوجتي تحتاج إلى ملابس. ويحتاج أطفالي إلى أحذية ولهو. ثم افترض أنهم لا يستطيعون الحصول على تعليمهم؟ ثم هناك الفواتير الشهرية والطبيب والأسنان واستئصال اللوَز، وأفترض -خلافًا لذلك- أنني مرضت ولم أعد قادرًا على كنس هذا الرصيف اللعين؟ من الطبيعي ألا تفهم؛ فهي عملية بطيئة، عملية تبعث العفن في صلابتك. أنا لا أستطيع أن أفكر فيما هو أبعد من قسط الشهر التالي للثلاجة. أنا أكره وظيفتي وأخشى فقدانها. فكيف تستطيع أن تفهم ذلك؟

- وكيف الحال مع والدة ماري؟

- قلت لك، إنها تجلس فوق النقود، وستموت وهي جالسة عليها.

- لم أكن أعرف. ظننت أن ماري تنحدر من أسرة فقيرة. ولكني أعرف أنك حين تمرض تحتاج إلى دواء، وربما إلى عملية جراحية أو إلى صدمة كهربية. لقد كان قومنا شجعانًا، وأنت تعرف هذا. فلم يتركوا أنفسهم يستسلمون للموت. وها قد تبدل الزمن. وهناك فرص لم يحلم بها أسلافنا، وهذه الفرص يلتقطها الأغراب، الأغراب يتغلبون علينا. فاستيقظ، يا إيثان.

- وماذا بشأن الثلاجة؟

- أتركها إذا اضطررت لذلك.

- وماذا بشأن ماري والأطفال.

- انسهم فترة. سيكون حبهم لك أكثر إذا تسلقت الحفرة، وخرجت منها. أنت لا تساعدهم بقلقك عليهم.

- ونقود ماري؟

- اخسرها إذا اضطررت لذلك، ولكن غامر بها. ولن تخسرها إذا توافرت لك العناية والمشورة الصادقة. ليست المغامرة هي الخسارة. لقد وُضع قومنا دائمًا في عداد المجازفين، ومع ذلك لم يخسروا شيئًا. سأصيبك بصدمة، يا إيثان. أنت تتغاضى عن ذكرى الكابتن هولي العجوز. وأنت مدين لذكراه بشيء ما. لقد امتلك هو وأبي سفينة «البلادير» مشاركة، إحدى أواخر ما بُنِيَ من سفن صيد الحيتان، ومن أروعها جميعًا. انفض عنك تكاسلك يا إيثان. أنت مدين للبلادير بشيء لم تدفعه بشجاعة وإقدام. وإلى الجحيم بالشركة المالية.

دفع إيثان قطعة متمنعة من ورق السوليفان إلى حافة الميزاب بطرف مقشته، وقال في رقة: «لقد احترقت البلادير حتى خط منسوب الماء، يا سيدي».

- أعرف أن هذا حدث، ولكن هل أوقفنا ذلك؟ إنه لم يوقفنا.

- كان مؤمَّنًا عليها.

- طبعًا، كانت كذلك.

- حسنًا، أما أنا فلم يكن مؤمنًا عليّ. فأنقذت بيتي ولا شيء سواه.

- يجب أن تنسى تلك الأمور. فإنك تمعن الفكر في شيء مضى. عليك أن تستجمع شيئًا من شجاعة، شيئًا من جرأة. لهذا قلت لك إنه ينبغي عليك أن تستثمر أموال ماري. إنني أحاول مساعدتك، يا إيثان.

- أشكرك يا سيدي.

- سنخلع عنك هذه الميدعة وأنت مدين بهذا لكابتن هولي العجوز. إنه لن يصدق عينيه إذا رآك.

- نعم أحسبه لن يصدق.

- هكذا يكون الكلام. سنخلع هذه الميدعة.

- لو لم يكن الأمر متعلقًا بماري والأطفال....

- ماري والأطفال! أقول لك: انسهم من أجل مصلحتهم هم. ستحدث هنا في نيوبايتون بعض الأمور المهمة. ويمكنك أن تكون شريكًا فيها.

- أشكرك يا سيدي.

- دعني فقط أتدبر الأمر.

- يقول مستر مورفي أنه سيعمل عندما تغلقون في الظهيرة. وسأعد له بعض الشطائر. فهل تريدني أن أعدَّ لك بعضًا منها؟

- كلا شكرًا. سأدع جوي يقوم بالعمل. إنه رجل طيب. وهنالك عقار أريد أن أبحث أمره، أقصد في مكتب موثق المقاطعة. فالمكان هناك يكون لطيفًا وخاليًا من الثانية عشرة حتى الثالثة، قد يكون هناك شيء من أجلك سنتكلم عنه عاجلًا. إلى اللقاء.

وخطا خطوة أولى طويلة ليتجنب شقًّا، ثم عبر مدخل الحارة متجهًا إلى الباب الأمامي لمصرف «فيرست ناشيونال»، وابتسم إيثان لظهره المتراجع.

أنهى كنسه بسرعة، فقد بدأ الناس الذهاب إلى أعمالهم فرادى وجماعات. نصب حوامل الفاكهة الطازجة عند مدخل المحل. وعندما تأكد من عدم مرور أحد، أزاح ثلاث علب من طعام الكلاب، ومد يده خلفها، ثم أخرج حقيبة النقود الصغيرة الكالحة، وأعاد علب طعام الكلاب إلى مكانها، ثم دق كلمة «لا بيع» على آلة عد النقود، ثم وضع الأوراق ذات العشرين، والعشرة، والخمسة والدولار الواحد في أماكنها تحت العجلات الماسكة الصغيرة. فرز القطع ذات النصف دولار والربع دولار، والعشرة سنتات، والسنت الواحد في الأدراج البلوطية الصغيرة التي في مقدمة درج آلة عد النقود، ثم دفع الدرج بشدة فأغلقه. ولم يظهر من الزبائن سوى القلة، أطفال أُرسلوا لجلب رغيف خبز، أو علبة لبن، أو رطل من القهوة الثقيلة، وبنات صغيرات بشَعرٍ لازال مشعثًا من أثر النوم.

دخلت مارجي يانج هنت، وقد نفر صدرها في سويتر لونه أصفر مشرب بحمرة. والتصقت جونلتها المصنوعة من التويد بفخذيها في إغراء، ورأى إيثان في عينيها العسليتين الناعستين ما لم تستطع زوجته أن تراه أبدًا، النظرة التي كانت تختفي عادة في حضور الزوجات. إنها نهَّابة، صيادة، آرتيميس قناصة الرجال. كان القبطان هولي العجوز يسمي هذا النوع «العين الزائغة». وكان هذا يحدث في صوتها أيضًا، كان هديره المخملي يتحول إلى مناجاة رقيقة ناعمة تبعث الثقة في الزوجات.

قالت مارجي: «سعدت صباحًا، إيثان، يا ألله من يوم للقيام بنزهة!».

- سعدت صباحًا. أتريدين رهاني أن قهوتك قد نفدت؟

- لو خمنت أن الألكاسلتزر هو الذي نفد، لتجنبتك.

- قضيتِ ليلة حافلة؟

- نوعًا ما. حكاية مع وكيل متجول. إن أمثاله يعتبرون كنزًا بالنسبة لامرأة مطلقة. إنه واحد ممن يحملون حقيبة صغيرة من العينات المجانية. أحسبك تسميه بائعًا متجولًا. لعلك تعرفه، اسمه بيجر أو

بوجر، ويتجول لحساب شركة ب.ب.د.و.د. والسبب في ذكر الموضوع هو قوله إنه آت لزيارتك.

- نحن نشتري معظم حاجياتنا من ويلاند.

- حسنًا، لعل المستر بجر قد بدأ في تسويق منتجاته، هذا إذا كان يشعر بأنه أحسن حالًا مني هذا الصباح. قل لي، أتستطيع أن تعطيني كوبًا من الماء؟ سأتناول الآن زوجًا من الأقراص الفوارة.

ذهب إيثان إلى المخزن ثم عاد بكوب من الورق ملأه ماء من الصنبور. وأسقطت فيه ثلاثة أقراص مسطحة وتركتها تئز. وبعدئذ قالت: «حصوة في عينك». ثم اجترعتها دفعة واحدة وقالت: «أبدأي العمل، أيتها الشياطين».

- سمعت أنك ستقرأين طالع ماري اليوم؟

- أوه يا إلهي! كدت أنسى. ينبغي أن أمارس المهنة، فقد أستطيع أن أجمع منها ثروة.

- ماري تحب هذا. فهل أنت بارعة فيه؟

- ليس هناك ما يبرع المرء فيه. أترك الناس –أو النساء بمعنى أصح- يتحدثن عن أنفسهن، وبعدئذ أعد سرد الكلام لهن، فيعتقدن أن لديك الرؤيا الثانية.

- والغرباء السمر الطوال؟

- إنهم موجودون بالتأكيد. لو استطعت قراءة طوالع الرجال، لما اجتذبت لنفسي اثنين من ذوي الكروش. أخي! هل كنت أُخطئ قراءة طالع شخصيتين؟

- ألم يتوف زوجك الأول؟

- كلا، بل الثاني، فليحل السلام برفاقه، ابن ال... كلا، دعنا من ذلك فليحل السلام برفاقه.

حيا إيثان مسز إيزيزينسكي العجوز في أثناء دخولها وهو مشغول البال، وتلكأ في مناولتها ربع رطل من الزبد، حتى إنه علق بكلمة أو كلمتين مثنيًا على الطقس، ولكن مارجي يانج هنت، أخذت تتفحص في تراخ وابتسام علب (الفواجراه) ذات الأختام الذهبية، وعلب الكافيار -الموضوعة خلف الطاولة بجانب آلة عد النقود- والشبيهة بعلب جواهر متناهية الصغر.

«والآن» قالتها مارجي حين خطت العجوز إلى الخارج في تثاقل، وهي تغمغم لنفسها بالبولندية.

- والآن- ماذا؟

- كنت لتوي أفكر - إنني لو عرفت عن الرجال مثلما أعرف عن النساء، لرفعت لافتة بابي. لماذا لا تعلمني عن الرجال، يا إيثان؟

- أنت تعرفين ما فيه الكفاية، بل ربما أكثر من الكفاية بكثير.

- أوه هيا! ألا يحتوي جسدك عظمة واحدة حمقاء؟

- أتريدين أن نبدأ الآن؟

- ربما في مساء ما.

- قال: «طيب. ونكون مجموعة. ماري وأنت والطفلان. الموضوع: الرجال – ضعفهم وغباؤهم وكيفية استعمالهم».

تجاهلت مارجي لهجته: «ألا تعمل أبدًا إلى ساعة متأخرة؟ حسابات أول الشهر أو شيئًا من هذا القبيل؟».

- بالتأكيد. ولكني آخذ الشغل إلى المنزل.

رفعت ذراعيها فوق رأسها وتخللت أصابعها شعرها وسألت: «لماذا؟».

- لو سألت قطة لأجابتك، لأصنع سراويل لقطيطاتي.

- أتدرك ما يمكنك أن تعلمني لو أردت؟

وقال إيثان: «وبعد ما استهزأوا به، نزعوا عنه الرداء وألبسوه ثيابه ومضوا للصلب. وفيما هم خارجون وجدوا إنسانًا قيراونيًّا، اسمه سمعان. فسخروه ليحمل صليبه، ولما أتوا إلى موضع يقال له جلجثة وهو المسمى موضع الجمجمة».

- أوه، بحق الله!.

- أجل – أجل- ذلك صحيح....

- أتعلم أي ملعون أنت؟

- أجل، يا بنت أورشليم.

وفجأة ابتسمت: «أتدري ماذا أنوي أن أفعل؟ سأقرأ أحد الطوالع الممتازة هذا الصباح. هل عرفت أنك ستكون شيئًا عظيمًا؟ وسيتحول كل شيء تلمسه إلى ذهب – وستغدو زعيمًا للرجال».

وسارت مسرعة إلى الباب، ثم استدارت إلى الخلف وهي تبتسم، وقالت: «وأتحداك أن تحتمل هذا وتحياه، وأتحداك أيضًا ألا تفعل. إلى اللقاء، أيها المخلص!».

كم هو غريب صوت دقات كعب حذاء على الرصيف، وهو يدقه في غضب.

في الساعة العاشرة تغير كل شيء. اندفعت أبواب المصرف الزجاجية الكبيرة المفتوحة. وغاص فيه نهر من البشر ليجلبوا نقودًا، ثم جاءوا بالنقود إلى محل مارواللو وأخذوا الأطعمة التي يتطلبها عيد الفصح. وظل إيثان مشغولًا كالمنزلق على سطح الماء حتى دقت الساعة السادسة.

انطلق جرس الحريق الغاضب من برجه الذي يعلو قاعة البلدية معلنًا الساعة السادسة. وانساق الزبائن مبتعدين ومعهم أكياسهم التي تحتوي فطائر اللحم.

أدخل إيثان حوامل الفاكهة، ثم أغلق الأبواب الأمامية، ودونما سبب سوى أن ظلمة اكتنفت العالم واكتنفته معه، جذب الستائر الخضر الكثيفة فاكتنفت الظلمة المحل أيضًا. وتألق النيون وحده داخل الثلاجة في لون أزرق خيالي.

قطع إيثان أربع شرائح سميكة من خبز الشعير وهو خلف الطاولة، ثم دهنها بوفرة بالزبد، وزلق الأبواب الباردة ففتحها، والتقط شريحتين من الجبن السويسري المطبوخ وثلاث شرائح من لحم فخذ الخنزير. وقال «خس وجبن، خس وجبن. حين يتزوج الرجل يعيش في جبن». طلا شرائح الخبز العليا بمايونيز من برطمان، ثم ضغط على الطبقة العليا من الشطائر وقطع أجزاء الخس ودهن اللحم من عند الأطراف. والآن عليَّ بعلبة لبن وقطعة مربعة من الورق المشمع لعملية اللف.

كان يطبق أطراف الورقة بعناية، عندما انبعث صليل مفتاح في الباب الأمامي، ودخل مارولو عريضًا كدب، منتفخ الصدر كزكيبة حتى بدا ذراعاه قصيرين ومندفعين من جسده. كانت قبعته على مؤخرة رأسه بحيث أظهرت ناصيته ذات الشعر الخشن الرمادي بلون الحديد وكأنها طاقية. كانت عينا مارولو دامعتين ماكرتين وناعستين، ولكن الأغطية الذهبية التي تغطي أسنانه الأمامية كانت تلمع في الضوء المنبعث من الثلاجة، وكان زران علويان من أزرار سرواله مفتوحين، ويبينان ملابسه الداخلية الثقيلة الرمادية. كان يشبك إبهامين قصيرين سمينين في عرواتي سرواله تحت معدته، ويطرف في الظلمة الخفيفة.

- طاب صباحك، مستر مارولو. أظن الوقت قد صار أصيلًا.

- هاي، يا فتى. لقد أغلقت ببراعة وبسرعة.

- البلدة كلها أغلقت. ظننتك في القداس.

- لا قداس اليوم. إنه اليوم الوحيد طوال السنة الذي لا يقام فيه قداس.

- «هكذا؟ لم أكن أعرف هذا! أي شيء أستطيع عمله من أجلك؟

امتدت الذراعان القصيرتان السمينتان وتأرجحتا إلى الخلف وإلى الأمام من عند المرفقين «ذراعاي تؤلماني، يا فتى. النقرس. إنه يزداد سوءًا».

- ألا تستطيع عمل أي شيء له؟

- لقد فعلت كل شيء -كمادات ساخنة، زيت سمك القرش، الأقراص- وما زالت تؤلمني. المكان هنا لطيف وهادئ. وربما نستطيع أن نتبادل حديثًا، إيه! يا فتى؟» وتألقت أسنانه.

- أهناك شيء ليس على ما يرام؟

- «ليس على ما يرام؟ ما هو الذي ليس على ما يرام؟».

- حسنًا، ما بالك لو انتظرت دقيقة، فسآخذ هذه الشطائر إلى المصرف فحسب، فقد طلبها مستر مورفي.

- أنت فتى ذكي. أنت تقوم بتوصيل الطلبات. هذا طيب.

اخترق إيثان المخزن، وعبر الحارة، وطرق باب المصرف الخلفي، ثم ناول جوي اللبن والشطائر.

- شكرًا. لم يكن لك أن تفعل.

- إنه توصيل الطلبات، كما قال لي مارولو.

- أرجو أن تحتفظ لي بزجاجتي كوكاكولا باردتين. ففي فمي تتوقف أصفار جافة.

حينما عاد إيثان، وجد مارولو يختلس النظر داخل صفيحة القمامة.

- أين تريد الكلام، يا مستر مارولو؟

- فلنبدأ هنا، يا فتى».

والتقط من الصفيحة أوراق قرنبيط، وقال: «إنك تقتطع كثيرًا جدًّا».

- ما يكفي لتشذيبه فحسب.

- القرنبيط يباع بالوزن، فكأنك تلقي بالنقود في صفيحة القمامة. أعرف صديقًا يونانيًّا ذكيًّا يمتلك حوالي عشرين مطعمًا. وهو يقول إن السر الكبير في نجاحه هو مراقبة صفائح القمامة. فما تلقيه فيها لا تبيعه. إنه صديق ذكي.

- أجل يا مستر مارولو.

وتحرك إيثان قلقًا تجاه مقدمة المخزن، ومارولو وراءه يثني مرفقيه إلى الخلف وإلى الأمام.

- أترش الخضراوات جيدًا، كما قلت لك؟

- بالتأكيد.

ورفع المعلم رأس خسة قائلًا: «ملمسها جاف».

- يا للجحيم، يا مارولو، أنا لا أريد أن أثقلها بالماء! إن ثلث وزنها ماء.

- إن الماء يجعلها تبدو ريانة بديعة طازجة. أتظنني لا أعرف؟ لقد بدأت بعربة يد واحدة – مجرد عربة واحدة. إنني أعرف. عليك أن تتعلم الخدع أيها الفتى، وإلا سنفلس. واللحم! أنت تدفع فيه كثيرًا جدًّا.

- حسنًا، إن إعلاننا يقول لحم من الدرجة الأولى.

- «الأولى، أو الثانية، أو الثالثة، من يدري؟ هذا مكتوب على البطاقة، أليس كذلك؟ والآن سوف نتبادل حديثًا وديًّا. فواتيرنا تثبت وجود من لا يدفعون ديونهم، وأي فرد لا يدفع حتى الخامس عشر من الشهر يرفع اسمه من دفاترنا.

- لا نستطيع عمل هذا. بعض هؤلاء الناس ظلوا يتعاملون معنا مدة عشرين عامًا.

- اسمع، يا فتى. إن المحلات التجارية ذات الأفرع لن تسمح حتى لجون د. روكفلر بأن يقيد خمسة سنتات على الحساب.

- أجل، ولكن هؤلاء الناس موثوق بهم، أعني بغالبيتهم.

- وما معنى موثوق بهم؟ إنها تعني تجميد النقود. المحلات التجارية ذات الأفرع تشتري حمولة عربات نقل، أما نحن فلا نستطيع ذلك. يجب أن تتعلم يا فتى. من المؤكد أنهم أناس ظرفاء! ولكن النقود أيضًا ظريفة. لقد ألقيت الكثير جدًّا من فضلات اللحم في هذا الصندوق!

- إنه الدهن والقطع الجافة.

- لا بأس ما دمت تزنها مع اللحم قبل أن تقطعها. عليك أن تراعي الرقم واحد. إذا لم تراع الرقم واحد، فمن سيفعل؟ يجب أن تتعلم يا فتى.

ولم تتألق الأسنان الذهبية الآن، فقد صارت الشفتان فخًّا صغيرًا مطبقًا.

واندفع رذاذ الغضب إلى رأس إيثان قبل أن يدري، وأصابته الدهشة فقال: «أنا لست غشاشًا، يا مارولو».

- ومن هو الغشاش؟ تلك هي التجارة الجيدة. التجارة الجيدة، هي النوع الوحيد من التجارة الذي يظل من صميم التجارة. أتظن مستر بيكر يوزع في مصرفه عينات مجانية، أيها الفتى؟

تحطمت رأس إيثان محدثة دويًّا، وصاح: «أصغ إليَّ، لقد عاش هنا آل هولي منذ منتصف عام ألف وسبعمائة. أما أنت فغريب، ولن تعرف شيئًا عن هذا. لقد ظللنا نعيش مع جيراننا وكنا مهذبين معهم طوال كل ذلك الوقت. إذا اعتقدت أن بوسعك أن تحشر نفسك بيننا بوقاحة وأنت آت من صقلية، ثم تغير هذه العلاقات، فأنت مخطئ. وإذا كنت راغبًا في وظيفتي، فتستطيع أخذها، هنا، والآن. ولا تنادني فتى وإلا جدعت لك أنفك...».

التمعت الآن أسنان مارولو جميعها، وقال: «طيب، طيب. لا يتملكك الحنق. إنني أحاول فحسب أن أسدي إليك جميلًا».

- لا تنادني فتى. فما زالت عائلتي تعيش هنا منذ مائتي سنة.

ورنت الجملة في أذنيه صبيانية، فأخذ غضبه يتلاشى.

- أنا لا أحسن الكلام بالإنجليزية. أنت تعتقد أن مارولو اسم صقلي، اسم أوروبي قذر، اسم مهاجر ايطالي حقير. إن آبائي واسمي يرجعان إلى ألفين أو ربما ثلاثة آلاف سنة. إن مارولوس أصلًا من روما، وهذا ما يذكره فاليريوس ماكسيموس. فما قيمة مائتي سنة؟

- ولكنك لم تنبع من هنا.

- ومنذ مائتي سنة لم تنبع من هنا أنت أيضًا.

والآن، بعد أن تلاشى كل غضب إيثان، رأى شيئًا يجعل المرء يشك في دوام الحقائق خارج نفسه. رأي المهاجر، الصقلي، بائع الفواكه المتجول يتحول أمام عينيه، رأى انبعاجة الجبهة، والأنف القوي المعقوف الذي يشبه المنقار، والعينين الوحشيتين العميقتي التجويف واللتين لا تخشيان شيئًا، رأى الرأس تدعمها عضلات عمودية، رأى كبرياء من العمق والثقة بحيث تستطيع تهزأ بالضعة. كان هذا هو الكشف المذهل الذي يجعل المرء يجعل المرء يعجب! إذا كنت قد أخطأت إدراك هذا، فما الذي فشلت أيضًا في إدراكه؟

وقال في رقة: «ليس عليك أن تتكلم وكأنك مهاجر إيطالي».

- التجارة الجيدة. إنني أعلمك الشغل. عمري ثمانية وستون عامًا. الزوجة توفيت. ثم النقرس! أنا أؤلمك!. إنني أحاول أن أريك الشغل. وقد لا تتعلم، فمعظم الناس لا يتعلمون. ويفلسون.

- ليس عليك أن تضايقني لأنني أفلست.

- كلا. لقد فهمت خطأ. إنني أحاول أن أعلمك سبل التجارة الجيدة؛ حتى لا تتعرض للإفلاس مرة أخرى.

- يا للفرصة العظيمة، فليس لديَّ تجارة.

- أنت لا تزال فتى.

وقال إيثان: «استمع إليَّ، يا مارولو. إنني عمليًّا أدير لك هذا المحل. أمسك الحسابات وأودع النقود في المصرف، وأطلب البضائع، وأُبقي على زبائنك، فيعودون إلى هنا. أليست هذه تجارة جيدة؟».

- بالتأكيد. لقد تعلمت شيئًا، ولم تعد فتى بعد. إن الجنون ينتابك حين أدعوك فتى. ولكن بأي اسم سأناديك؟ إنني أُسمي كل شخص فتى.

- حاول أن تستعمل اسمي.

- ليس في وقعه مودة. كلمة فتى فيها مودة.

- ولكن ليس فيها عزة نفس.

- عزة النفس ليست هي المودة.

وضحك إيثان: «لو كنت موظفًا في بقالة مهاجر صقلي، لوجب أن تكون لك عزة نفس – من أجل زوجتك، ومن أجل أطفالك. أتفهم؟».

- هذه أكذوبة.

- هي كذلك طبعًا. فلو كانت لي أي عزة نفس حقيقية، لما فكرت فيها. كدت أنسى شيئًا قاله أبي العجوز قبل وفاته بوقت قصير، لقد قال: إن الإهانة تربطها علاقة مباشرة بالذكاء والطمأنينة، وقال إن سب الأم لا يكون إهانة إلا بالنسبة لرجل لا يثق في أمه ثقة مطلقة، ولكن كيف يمكنك أن تهين ألبرت أينشتين؟ كان لا يزال حيًّا آنذاك. وهكذا لك أن تمضي في مناداتي بفتى إذا أردت ذلك.

- أترى هذا يا فتى؟ إنها ودية أكثر.

- حسنًا إذن، ماذا كنت تريد أن تقول لي عن الشغل الذي لا أؤديه؟

- الشغل هو النقود، والنقود ليست لفظًا وديًّا، ولعلك يا فتى ودود جدًّا، ولطيف جدًّا، أما النقود فليست لطيفة، ليس للنقود من أصدقاء سوى المزيد من النقود.

- ذلك هراء، يا مارولو. فإني أعرف كثيرين من رجال الأعمال، وهم لطاف، ودودون، وشرفاء.

- أجل، يا فتى، عندما لا يمارسون العمل، وستكتشف هذا. وحين تكتشفه سيكون الوقت قد تأخر جدًّا. إنك تدير المحل جيدًا، يا فتى، ولكنه لو كان محلك فربما تفلس بسبب الود، إنني ألقنك درسًا حقيقيًّا وكأنك في المدرسة. إلى اللقاء. يا فتى.

ثنى مارولو ذراعيه، وخرج مسرعًا من الباب الأمامي، وأغلقه وراءه بعنف، وأحس إيثان بالظلمة تجتاح العالم.

تناهى إلى إيثان طرق معدني حاد على الباب الأمامي، فدفع الستارة جانبًا وصاح: «إننا نغلق حتى الثالثة».

دخل الغريب: رجل نحيف، دائم الشباب ولكنه لم يكن قط شابًّا، أنيق الملبس، يتألق شعره خفيفًا على جلدة رأسه، والعينان مرحتان قلقتان.

- آسف لإزعاجك. عليّ أن أجوب البلدة. أردت أن أراك بمفردك، وتصورت أن العجوز لن ينصرف أبدًا.

- مارولو؟

- أجل. كنت أقف عبر الشارع.

تطلع إيثان إلى اليدين النظيفتين. ورأى في الإصبع الثالث من اليد اليسرى عين قطة كبيرة مثبتة إلى خاتم ذهبي.

رأى الغريب نظرته، فقال: «ليس مسروقًا، لقد التقيت بصديقة لك الليلة الماضية».

- نعم؟

- مسز يانج هنت. مارجي يانج هنت.

- أوه؟

استطاع إيثان أن يحس بذهن الغريب في تشممه القلق، وهو يبحث عن مدخل، أو رابطة يبني عليها حديثه.

- فتاة لطيفة. أثنت عليك ثناء عظيمًا، لذا فكرت في المجيء إليك. اسمي بيجرز، وأغطي هذه المقاطعة لحساب شركة ب.ب.د.و.د..

- نحن نشتري حاجياتنا من ويلاندز.

- أعرف أنكم تفعلون، ولهذا السبب أنا هنا، ظننت أنكم تودون أن توسعوا نطاقكم قليلًا. نحن جدد في هذا الحي. وأعمالنا تتسع بسرعة. علينا أن نقدم بعض الامتيازات؛ حتى ترسخ قدمنا في هذا المكان. وسيفيدك أن تستغل هذه الفرصة.

- سيكون عليك أن تقابل مستر مارولو في هذا الشأن، إنه يتعامل دائمًا مع ويلاندز.

لم يخفت الصوت ولكن نغمته صارت أكثر سرية، وهو يسأل: «هل أنت الذي تعد الطلبيات؟».

- حسنًا، نعم. فأنت ترى أن مارولو مصاب بالنقرس، وإلى جانب ذلك لديه مهام أخرى.

- يمكننا أن نخفض قليلًا في الأثمان.

- أعتقد أن مارولو خفضها أكبر تخفيض ممكن. أجدر بك أن تقابله.

- وهذا ما لا أرغب فيه، إنني أريد الرجل الذي يعد الطلبيات، وهذا الرجل هو أنت.

- إنني مجرد موظف.

- أنت تعد الطلبيات، يا مستر هولي. يمكنني أن أخصم لك خمسة في المائة كعمولة.

- قد يوافق مارولو على مثل هذا الخصم إذا كان الصنف واحدًا.

- أنت لا تدرك الأمر. أنا لا أريد تدخل مارولو. هذه الخمسة في المائة ستكون نقدًا لا شيكات، ولا سجلات، ولا مشاكل مع رجال الضرائب، مجرد ورق أخضر نظيف لطيف من يدي إلى يدك، ومن يدك إلى جيبك.

- ولماذا لا يستطيع مارولو الحصول على هذا الخصم؟

- اتفاقيات الأثمان.

- حسنًا. افترض أنني أخذت الخمسة في المائة وأعطيتها لمارواللو؟

- أظنك لا تعرفهم مثلما أعرفهم، فحين تعطيها له، سيتساءل عن المبلغ الأكبر الذي لم تعطه له. وهذا أمر طبيعي تمامًا.

وخفض إيثان صوته: «أتريد مني أن أخدع الرجل الذي أعمل عنده؟».

- من الذي يخدع؟ أنه لا يخسر شيئًا في حين تكسب أنت دولارًا. من حق كل فرد أن يكسب دولارًا. لقد قالت مارجي إنك لطيف وذكي.

وقال إيثان: إنه يوم مظلم.

- كلَّا، إنه ليس كذلك. ولكنك أسدلت الستائر. أما الذهن المتشمم فقد اشتم رائحة الخطر.

- فأر حائر بين رائحة المصيدة السلكية وبين قطعة الجبن.

وقال بيجرز: «ماذا أقول لك، عليك أن تفكر في الأمر. وسترى إذا كان في استطاعتك أن ترسل إلينا بعض الطلبات، وسآتي لزيارتك حينما أكون في المنطقة. إني أفعل هذا كل أسبوعين إليك بطاقتي».

بقيت يد إيثان إلى جانبه. ووضع بيجرز البطاقة فوق الثلاجة الباردة.

- وهناك تذكارًا صغيرًا نهديه لأصدقاؤنا الجدد.

وأخرج من جيبه الجانبي حافظة ثمينة بديعة الصنع -من جلد الفقمة المحبب- ووضعها إلى جوار البطاقة فوق البورسلين الأبيض. «شيئ لطيف صغير. تضع فيه رخصة قيادتك، أو بطاقة ناديك».

لم يجب إيثان.

وقال بيجرز: «سأمر عليك خلال أسبوعين. عليك أن تفكر في الأمر. سأمر عليك حتمًا، فلديَّ موعد مع مارجي. إنها فتاة رائعة».

ودون أن يتلقى ردًّا، قال: «سأسمح لنفسي بالخروج، وسأراك قريبًا». ثم اقترب فجأة من إيثان وقال: «لا تكن غبيًّا، فكل شخص يفعلها. كل شخص!».

وخرج مسرعًا من الباب، ثم أغلقه خلفه بهدوء.

استطاع إيثان أن يسمع في السكون المظلم الأزيز المنخفض المنبعث من محول نور النيون في الثلاجة. واستدار في بطء إلى المتفرجين المكومين والمرصوصين على الأرفف.

- حسبتكم أصدقائي! ولكنكم لم تحركوا يدًا من أجلي. يا محار الجو الصافي ويا مخللات الجو الصافي، ويا خلطة كعك الجو الصافي. لا تراتيل بعد الآن من أجلكم.

عجبي! ماذا كان يقول القديس فرنسيس لو أن كلبًا عضه، أو طائرًا يبرز عليه؟ أكان يقول: «شكرًا مستر كلب، متشكر جدًّا يا سنيور طائر؟» وأدار رأسه تجاه صوت قرقعة وخبط ودق على باب الحارة، وذهب مسرعًا خلال المخزن وهو يغمغم: «الزبائن أكثر مما لو كان المحل مفتوحًا».

دخل جوي مورفي متعثرًا، وهو يمسك برقبته وقال في أنين: «حبًّا في الله. النجدة. كوكا كولا أو بيبسي كولا على الأقل، فإني ميت من العطش. لِمِ كل هذا الظلام هنا؟ أم أن عيني قد غشيتا أيضًا؟».

- لقد أسدلت الستار محاولًا تثبيط همة الصرافين العطشى.

اتخذ طريقه إلى الثلاجة، ونبش عن زجاجة مكسوة بالثلج، وفتحها، ومد يده بحثًا عن أخرى وقال: «أعتقد أني سأتناول واحدة أنا الآخر».

استند الفتى جوي إلى الزجاج المضيء، وقبل أن ينزل الزجاجة عن فمه كان قد اجترع نصفها ثم قال: «هاي! لقد نَسِيَ شخص ما حافظته الثمينة» والتقط الحافظة.

- تلك هدية صغيرة من الوكيل المتجول لشركة ب.ب.د، إنه يحاول تسويق بعض بضائعه لنا.

- حسنًا، إنه لا يسوق الفول. أما هذه، يا بني، فهي من صنف ممتاز، وعليها الأحرف الأولى من اسمك أيضًا، ومن الذهب.

- حقًّا!

- أتعني أنك لا تدري؟

- لقد انصرف منذ دقيقة فحسب.

فتح جوي بإصبعيه الجلد المطوي، ثم خشخش بالأظرف البلاستيك الشفافة التي توضع فيها البطاقات الشخصية، وقال: «يجدر بك أن تبدأ في الانضمام إلى نادٍ ما». وفتح ظهر المحفظة «والآن، هذا ما أسميه التفكير الجيد». وأخرج بين إصبعيه الأول والثاني ورقة جديدة من ذات العشرين دولارًا. «كنت أعلم أنهم يقومون بالغزو، ولكن لم يكن في علمي أن معهم دبابات. ذلك تذكار يستحق التذكر».

- هل كانت تلك بداخلها؟

- أتحسبني زرعتها؟

- جوي، أريد أن أتحدث معك. لقد عرض عليَّ الرجل خمسة في المائة عمولة عن أي عملية أطلبها منهم.

- حسنًا، رائع، رائع! التوفيق أخيرًا. ولم يكن وعدًا فيه نكوص؟ قدِّم لنا الكوكاكولا؛ فهذا يومك.

- أنت لا تعني أنه عليَّ أن أقبل....!».

- «ولِمِ لا، ما داموا لا يضيفونها إلى الثمن؟ من الذي سيخسر؟

- لقد قال إنه ينبغي عليَّ ألا أخبر مارولو، وإلا ظن أنني آخذ أكثر من ذلك.

- أجل سيظن ذلك. ماذا دهاك، يا هولي؟ هل أنت غبي؟ أظن هذا من أثر ذلك الضوء. إنك تبدو أخضر، فهل أبدو أنا أخضر؟ لعلك لم تكن تفكر في التخلِّي عن العرض؟

- كان لديَّ من المتاعب ما يكفي لكيلا أركله في مؤخرته.

- أوه! إن الأمر كذلك – معك أنت والدنيا صور.

- لقد قال إن كل شخص يفعلها.

- «ولكن ليس بوسع كل شخص الحصول عليها. إنك أحد المحظوظين فحسب.

- ولكنه ليس عملًا أمينًا.

- وكيف لا؟ ومن الذي يضار؟ أهو عمل ضد القانون؟

- أتعني أنك كنت تقبلها؟

- أقبلها! كنت أركع وأستجدي من أجلها. لقد أغلقوا عليَّ كل المنافذ في عملي. وكل ما تستطيع عمله في مصرف يعتبر ضد القانون من الناحية العملية، إلا إذا كنت مديرًا. أنا لا أفهمك! ما الذي يجعلك تتردد في التفكير؟ لو كنت تستقطعه من الصبي ألفيو، لقلت لك إن هذا عمل ليس غاية في الاستقامة، ولكنك لا تفعل ذلك.

أنت تسدي إليهم جميلًا، وهم يسدون إليك جميلًا، جميلًا من ورق مالي لطيف هش أخضر. لا تكن أحمقًا! عندك زوجة وأطفال عليك أن تفكر فيهم، وتربية الأطفال لن تخفض نفقاتها أي تخفيض.

- أود أن تنصرف الآن.

وضع جوي مورفي زجاجته التي لم تفرغ بعد بعنف فوق ظهر الثلاجة، وقال في برود: «مستر هولي! كلا، مستر إيثان آلان هولي، حين تعتقد أنني قد أفعل أي شيء غير أمين أو أقترحه عليك، فتستطيع أن تذهب وتدفن نفسك».

وسار جوي في كبرياء تجاه المخزن.

- لم أقصد ذلك. لم أقصده صادقًا أمام الله، لم أقصده، يا جوي. لقد تلقيت لتوي صدمتين اليوم، أضف إلى ذلك، أن هذه إجازة مرعبة- مرعبة.

توقف مورفي: «ماذا تعني؟ أوه! أجل، أعرف. أجل، إني فعلًا أعرف. أتعتقد أني أعرف؟

- إن هذا الشعور يلازمني كل عام، منذ أن كنت صبيًّا، ولكنه يزداد سوءًا فحسب؛ لأن –ربما لأن

إدراكي لمعناه يتزايد- وأنا أسمع تلك الكلمات الموحشة (إلهي لماذا تركتني؟).

- أعرف، يا إيثان، أعرف. إن الأزمة على وشك الانتهاء الآن، يا إيثان. تناس إساءتي إليك، هل ستفعل؟

ودق جرس الإطفاء الحديدي – دقة واحدة مفردة.

فقال جوي: «لقد انتهت الأزمة الآن. زالت كلها ولمدة عام».

وتهادى في هدوء خارجًا عبر المخزن، ثم أغلق باب الحارة في سكون.

رفع إيثان الستائر، وفتح المحل ثانية، إلا أن حركة البيع لم تكن كبيرة. بضع صغار جاءوا يطلبون زجاجة لبن أو رغيفًا من الخبز، وشريحة صغيرة من لحم الخنزير وعلبة فاصولياء ل «مس بورتشر» لتعد منها وجبة عشائها الساخنة. ولم يكن الناس قد بدأوا بعد سيرهم في الشارع. وخلال النصف ساعة الذي يسبق الساعة السادسة، وبينما كان إيثان يعد العدة للإغلاق، لم يدخل المحل شخص واحد. وأغلق بالمفتاح وسار مبتعدًا قبل أن يتذكر حاجيات البقالة المطلوبة لبيته.

كان عليه أن يعود ويرتبها في كيسين كبيرين، ثم يعيد غلق المحل ثانية. لقد تملكته رغبة في أن يسير إلى شاطئ الخليج، ويرقب الأمواج الرمادية بين أعمدة حوض السفن، ويشم رائحة ماء البحر، ويتكلم إلى نورس يقف على مرسى عائم ومنقاره في الريح. وتذكر قصيدة لسيدة، كتبتها منذ زمن بعيد إنسانة ما، كادت تجن لمنظر الانزلاق الحلزوني الذي يصنعه النورس في طيرانه.

كانت القصيدة تبدأ: «أوه! أيها الطير السعيد – ما الذي يبعث فيك كل هذه النشوة؟» ولم تكتشف الشاعرة السبب أبدًا، ولعلها لم ترد أن تعرف.

أوهنت أكياس البقالة الثقيلة التي أخذها للعطلة عزيمته للمشي. وتحرك إيثان في تهالك عبر شارع «هاي»، ثم اتخذ طريقه ببطء في شارع «إلم» متجهًا إلى بيت هولي العتيق.

# الفصل الثاني

جاءت إليه ماري من عند الموقد، وتناولت منه أحد كيسي البقالة الكبيرين.

- لديَّ الكثير جدًّا لأخبرك به. لا أستطيع الانتظار.

قبَّلها ولمست جلد شفتيه، وسألته:

- ماذا بك؟

- مُتعَب قليلًا.

- ولكنك أغلقت المحل ثلاث ساعات.

- كان أمامي الكثير لأعمله.

- آمل ألا تكون مكتئبًا.

- إنه يوم كئيب.

- بل لقد كان يومًا رائعًا. انتظر حتى تسمع.

- أين الأولاد؟

- في الطابق العلوي إلى جوار الراديو، وهم أيضًا يودون أن يقولوا لك شيئًا.

- مشكلة؟

- والآن، لم تقول ذلك؟

- لا أدري.

- أنت تشعر بأنك في خير حال.

- اللعنة، أنني أشعر بهذا أيضًا.

- مع كل تلك الأشياء البديعة! سأنتظر إلى ما بعد العشاء حتى يحل دورنا. هل سيدهشك ذلك؟

اندفع آلان وماري إيلين نازليْن السلم في جلبة، ثم دخلا المطبخ. كانا يقولان: «إنه في البيت».

- بابا، هل لديكم بيكس Peeks في المحل؟

- أتقصد مسحوق العصيدة ذاك؟ بالتأكيد يا آلان.

- أود أن تحضر بعضًا منه. إنه ذلك الذي على علبته قناع على شكل فأر يمكنك أن تقصه.

- ألست أكبر قليلًا لتستعمل قناعًا على شكل فأر؟

وقالت إيلين: «لو أرسلت غطاء العلبة وعشرة سنتات، فإنك تحصل على لعبة تجعلك تتكلم من بطنك مع تعليمات باستعمالها. لقد سمعنا ذلك لتونا في الراديو.

وقالت ماري: «أخبرا والدكما بما تنويان عمله».

- حسنًا، نحن ننوي الاشتراك في المسابقة الوطنية «أحب أمريكا». والجائزة الأولى هي الذهاب إلى واشنطون، ومقابلة الرئيس -مع الوالدين- وكثير من الجوائز الأخرى».

قال إيثان: «رائع! ولكن ما هي هذه المسابقة؟ ماذا ينبغي عليكما أن تفعلا؟».

فصاحت إيلين: «ألم تسمع من الصحف، في طول البلاد وعرضها؟ عليك فحسب أن تكتب مقالًا موضوعه لماذا تحب أمريكا. وسيظهر جميع الفائزين في التليفزيون».

وقال آلان: «إنها الشهرة. ما رأيك في الذهاب إلى واشنطون، والفنادق، والمسارح، ومقابلة الرئيس، والمصانع. كيف يكون ذلك بالنسبة للشهرة؟».

- وكيف حال عملك المدرسي؟

- ستكون المسابقة في هذا الصيف. وسيعلنون أسماء الفائزين في الرابع من يوليو.

- حسنًا، ربما لا يكون هناك بأس من ذلك. وهل تحبان أمريكا حقيقة أم أنكما تحبان الجوائز؟

وقالت ماري: «والآن، أيها الأب، لا تفسد عليهما بهجتهما».

- كنت أريد فحسب أن أفصل مسحوق العصيدة عن القناع الذي على شكل فأر. فقد اختلط الأمر كله عليّ؟

- بابا، أيمكن أن تقول لنا أين نبحث عن مصادر للمقال؟

- تبحثا عن مصادر؟

- بالتأكيد، مثلما قال بعض الفتية الآخرين.

- لقد كان لدى جدكم العظيم بضعة كتب رائعة جدًّا. إنها في السندرة.

- مثل ماذا؟

- أوه، مثل خطب لينكولن ودانيال ويبستر وهنري كلاي، وبإمكانك أن تلقي نظرة على كتب ثورو أو والت ويتمان أو إمرسون، ومارك توين أيضًا. إنها جميعًا هناك بأعلى في السندرة.

- وهل قرأتها، يا بابا.

- كان جدي هو الذي اعتاد أن يقرأها لي في بعض الأحيان.

- ربما تستطيع مساعدتنا في المقالات.

- وعندئذ لا تكون من صنعكما.

فقال آلان: «حسنًا، هل ستذكر أن تحضر إلى البيت بعضًا من البيكس؟ إنه مليء بالحديد والمواد الغذائية.

- سأحاول.

- أيمكننا الذهاب إلى السينما؟

قالت ماري: «كنت أظن انكما ستقومان بتلوين بيض عيد الفصح. إنني أسلقه الآن، تستطيعان أخذه إلى الخارج لتلوينه تحت السقيفة بعد العشاء».

- أيمكننا الصعود إلى السندرة والاطلاع على الكتب.

- إذا أطفأتما النور بعد انتهائكم. فقد ظل مضاء طيلة أسبوع ذات مرة. لقد تركته أنت مضاء، يا إيثان.

وحين انصرف الطفلان، قالت ماري:

- ألست مسرورًا لدخولهما المسابقة؟

- بالتأكيد، إذا أدياها على الوجه الصحيح.

- إنني لا أستطيع الانتظار لإخبارك. لقد قرأت مارجي طالعي في الورق اليوم، ثلاث مرات، لأنها – كما قالت- لم تر أبدًا أي شيء كهذا. ثلاث مرات! لقد رأيت الورق بنفسي وهو يتشكل.

- أوه! يا إلهي!

- لن يكون لديك كل هذا الشك عندما تسمع. لقد كنت دائمًا تحشر الفكاهة فيما يتعلق بأشخاص سمر غرباء. وأنت لا تستطيع أن تخمن عن أي شيء دار الطالع.

حسنًا، أتريد أن تحزر؟

وقال: ماري، أود أن أحذرك.

- تحذرني؟ لماذا، وأنت حتى لم تعرف بعد. إن طالعي هو أنت.

وقال كلمة خشنة لاذعة بصوت منخفض.

- ماذا قلت؟

- قلت، فضلات تافهة.

- هذا ما تعتقده، ولكن ليس هذا ما يعتقده الورق. لقد فردته ثلاث مرات.

- الورق يعتقد؟

قالت ماري: «إنه يعرف. لقد قرأت ورقي هنا، وكان كله يدور حولك. أنت ستصبح واحدًا من أهم رجال هذه البلدة، هذا ما قلته، من أهم رجالها. كما أن هذا لن يستغرق وقتًا طويلًا. إنه سيحدث سريعًا جدًّا. كانت كل ورقة تقلبها تبين نقودًا ومزيدًا من النقود. إنك ستصير غنيًّا».

وقال: «يا عزيزتي، أرجوك دعيني أحذرك، أرجوك!».

- وستقوم بعملية استثمار.

- بأي شيء؟

- حسنًا، كنت أفكر في نقود أخي.

فصاح: «كلا لن ألمسها. إنها تخصك. وستظل ملكك. هل فكرت في ذلك من تلقاء نفسك أم هل.....

- هي لم تذكرها أبدًا. وكذلك لم يذكرها الورق. أنت ستستثمر مالًا في شهر يوليو، ومنذ ذلك الحين فصاعدًا، سيتوالى شيء وراء الآخر، حق وراء آخر. ولكن ألا يبدو وقع هذا بديعًا؟ لقد قالتها بتلك الطريقة، إن طالعك هو إيثان. إنه سيكون رجلًا واسع الثراء، وربما أهم رجل في هذه البلدة.

- فلتحل عليها لعنة الله! ليس لها أي حق في هذا الكلام.

- إيثان!

- أتعرفين ماذا تفعل؟ أتعرفين ماذا تفعلين؟

- أعرف أني زوجة صالحة وأنها صديقة طيبة. وأنا لا أريد شجارًا والأطفال على مسمع منا. إن مارجي يانج هنت هي أفضل صديقاتي. أعلم أنك لا تميل إليها. أما ما أعتقده فهو أنك تغار من صديقاتي، ذلك ما أعتقده. لقد تمتعت بأصيل سعيد وأنت تريد أن تفسده. هذا ليس لطيفًا منك.

وتلون وجه ماري بعدة ألوان بسبب خيبة الأمل والغضب، واعتراه تعبير انتقامي تجاه هذه العقبة التي اعترضت طريق حلم يقظتها.

- أنت تجلس هناك فحسب، أيها السيد الأنيق، وتمزق فروات الناس، إنك تحسب أن مارجي رتبت الأمر كله. إنها لم تفعل؛ لأني قطعت الورق ثلاث مرات. بل حتى لو فرضنا أنها فعلت، فلماذا كانت ستفعل ذلك لولا أنها ودودة عطوفة وتريد أن تقدم قليلًا من المساعدة؟ عليك أن تخبرني بذلك أيها السيد الأنيق! عليك أن تجد سببًا كريمًا لذلك.

قال: «أود لو أعرف. ربما يكون لمجرد الرغبة في إلحاق الأذى. فليس لها من زوج أو عمل. ربما يكون لمجرد الرغبة في إلحاق الأذى».

خفضت ماري من صوتها وتكلمت في ازدراء: «أنت تتكلم عن الرغبة في إلحاق الأذى. إنك لن تعرف الرغبة في إلحاق الأذى حتى ولو صفعتك هذه الرغبة على وجهك. أنت لا تعرف ما تتعرض له مارجي. هناك رجال في هذه البلدة يسعون في إثرها طول الوقت. رجال مهمون، رجال متزوجون، يتهامسون ويلحون. أقذار.

وأحيانًا لا تدري أين تولي وجهها. لهذا السبب تحتاجني، كصديقة. أوه، لقد حكت لي أشياء – عن رجال لا يمكن أن تصدق أنهم هم. بل إن بعضهم يتظاهرون بكراهيتها أمام الناس، وبعدئذٍ يتسللون إلى بيتها أو يطلبونها في التليفون ويحاولون الحصول على موعد. رجال يتظاهرون بالتقوى، ودائمًا يعظون بالأخلاق، ثم بعدئذٍ يأتون أمورًا كهذه. أنت تتكلم عن الرغبة في إلحاق الأذى».

- وهل قالت من يكونون؟

- كلا لم تفعل، وهذا برهان آخر. فمارجي لا تريد إيذاء أحد حتى ولو أذوها. ولكنها قالت إن هناك واحدًا لا يمكنني أن أصدق أنه هو، وقالت إنني لو عرفت لأحال ذلك شعري أشيبًا.

أخذ إيثان نفسًا عميقًا، ثم استبقاه، وتركه يخرج على شكل تنهيدة هائلة. وقالت ماري: «إني لأعجب من يمكن أن يكون؟! فالطريقة التي تكلمت بها جعلته يبدو وكأنه شخص ما تعرفه جيدًا، ولا يمكن أن نصدق عنه ذلك».

- ولكنها ستقول تحت ضغط ظروف معينة.

قالها إيثان برقة.

- إذا أرغمت على ذلك فحسب. لقد قالت هذا بنفسها. إذا اضطرت فحسب، إذا تعرضت لشيء سيئ مثل: شرفها، أو سمعتها الطيبة، أنت تعرف. من تظنه يمكن أن يكون؟

- أظن أني أعرف.

- أنت تعرف؟ من؟

- أنا.

وفغرت فاها. ثم قالت:

- أوه! أيها الأحمق! لو لم أكن منتبهة إليك، لخدعتني في كل مرة حسنًا، هذا أفضل من الكآبة.

- مسألة محيرة رجل يعترف بخطايا الجسد التي ارتكبها مع أفضل صديقات زوجته، فتضحك منه ساخرة.

- ليس ذلك كلامًا مهذبًا.

- ربما كان ينبغي على الرجل أن ينكر الأمر. فحينئذٍ على الأقل كانت زوجته ستسبغ عليه شرف الريبة. عزيزتي، إني أقسم لك بكل ما هو مقدس، إني لم أحاول أبدًا سواء بالقول أو الفعل التقرب من مارجي يانج هنت. والآن هل ستصدقين أني مذنب؟

- أنت!

- أنتِ لا تعتقدين أنني صالح بما فيه الكفاية، ومرغوب بما فيه الكفاية، في قول آخر ألا تظنين أنه بإمكاني أن أصل إلى المستوى؟

- إني أحب النكات. وأنت تعرف هذا، ولكن ليس ذلك شيئًا للتندر به. أتمنى ألا يكون الأطفال قد بعثروا محتويات الصناديق التي هناك بأعلى، فهم لا يعيدون شيئًا إلى مكانه أبدًا.

- سأحاول مرة أخرى يا زوجتي الجميلة. امرأة ما، اختصار اسمها م.ى.ه وقد أحاطتني بالفخاخ، لأسباب معروفة لها وحدها. وأنا في خطر عظيم من التردي في واحد أو أكثر منها.

- لم لا تفكر في طالعك؟ لقد قال الورق، شهر يوليو، وقالها ثلاث مرات، وأنا رأيته. ستحصل على نقود، كميات وافرة من النقود. فكر في ذلك.

- أتحبين النقود كثيرًا، أيها الأرنب الصغير؟

- أحب النقود؟ ماذا تعني؟

- أترغبين في النقود للدرجة التي تبرر تحضير الأرواح، أو الشعوذة، أو استخدام سحر قبائل غرب أفريقيا، وأي عمليات سحرية أخرى؟

- لقد قلتها! لقد بدأتها. ولن أدعك تختفي وراء كلماتك. هل أحب النقود؟ كلا، أنا لا أحب النقود، ولكني أيضًا لا أحب القلق. أحب أن أكون قادرة على رفع رأسي في هذه البلدة. لا أحب أن يشعر الأطفال بالخجل لأنهم لا يستطيعون أن يلبسوا في مثل أناقة، وفي مثل رفاهية، بعض الأطفال الآخرين. أحب أن أرفع رأسي.

- وهل النقود هي التي ستدعم رأسك؟

- إنها ستزيل ابتسامات السخرية من وجوه أهل بلدتك المقدسة.

- لا أحد يسخر من آل هولي.

- «أهذا ما تعتقده! إنك لا ترى سخريتهم فحسب.

- ربما لأنني لا أبحث عنها.

- هل ستلقي عليَّ عظات آل هولي المقدسين؟

- كلَّا، يا عزيزتي. إنها لم تعد بعد سلاحًا ذا قيمة.

- حسنًا، إني سعيدة لأنك اكتشفت ذلك، فوجود موظف بقالة من آل هولي في هذه البلدة أو في أي بلدة أخرى، لا يجعله أكثر من مجرد موظف في محل بقالة.

- أتلوميني على فشلي؟

- كلَّا. أنا لا ألومك بالطبع. ولكني ألومك لأنك جالس تتمرغ في الفشل. كان بإمكانك الخروج منه، لو لم تكن أفكارك العتيقة الخيالية. إن كان فرد يضحك منك، فذلك لأن سيدًا مهذبًا عظيمًا وبلا نقود يكون صعلوكًا.

دوت الكلمة في رأسها، وتملكها الصمت والخجل.

وقال إيثان: «إنني آسف لقد علمتني شيئًا ما – وربما ثلاثة أشياء، يا أرنبتي الحمقاء. ثلاثة أشياء لا يمكن أن تصدق أبدًا – الحقيقي، والمحتمل، والمنطقي- إنني أعرف الآن من أين أحصل على النقود لأبدأ تحقيق طالعي».

- من أين؟

- سأسطو على مصرف.

وتصاعد صفير بطيء منقطع من الجرس الصغير الذي في الحلة الميقاتية.

قالت ماري: «اذهب وناد الأطفال. لقد نضج الأكل. قل لهم أن يطفئوا النور».

ثم أخذت تنصت لوقع أقدامه.

# الفصل الثالث

زوجتي، عزيزتي ماري، تشرع في النوم بنفس الطريقة التي تغلق بها باب حجرة. وكم من مرات عديدة كنت أرقبها في حسد. يتلوى جسدها الجميل لحظة، وكأنها تهيئ نفسها للدخول في شرنقة. وتتنهد مرة وعند نهاية التنهيدة تغمض عينيها، ودونما إزعاج، تتهاوى شفتاها إلى تلك الابتسامة الحكيمة الطفيفة التي لآلهة الإغريق القدماء. وتظل مبتسمة في نومها طول الليل، ويهر نَفَسها في حنجرتها، وهو ليس شخيرًا، ولكنه هرير قطة. وللحظة تتصاعد درجة حرارتها حتى يصبح في إمكاني أن أحس بوهجها إلى جواري على الفراش، وبعدئذٍ تهبط درجة الحرارة وتكون هي قد راحت في سبات. وأنا لا أدري إلى أين تروح. فهي تقول إنها لا ترى أحلامًا. ولكن لابد طبعًا من أن ترى وهذا معناه ببساطة، أن أحلامها لا تشغلها، أو أنها تشغلها إلى درجة كبيرة جدًّا بحيث تنساها قبل استيقاظها. وهي تحب أن تنام، والنوم يرحب بها. أود لو كان الأمر كذلك معي. إنني أحارب النوم، وفي نفس الوقت أتوق إليه.

ولقد ظننت أنه ربما كان الفرق بيننا، إن عزيزتي ماري تعرف أنها ستعيش إلى الأبد، وأنها ستخطو من الحياة إلى حياة أخرى بمثل السهولة التي تنزلق بها من النوم إلى اليقظة. وهي تعرف هذا بكامل جسدها، تعرفه تمامًا، حتى إنها لا تفكر فيه أكثر من تفكيرها في التنفس، وهكذا لديها وقت لتنام، ووقت لتستريح، ووقت تنفي فيه وجودها لبرهة قصيرة.

ومن ناحية أخرى، أعرف أنا بعظامي وأنسجة جسمي، أنه يومًا ما سواء عاجلًا أو أجلًا سأتوقف عن الحياة، وهكذا أقاوم النوم، وأتوسل إليه، بل أحاول حتى أن أخدعه ليجيء. ولحظة نومي هي تشويه كبير، وألم شديد. وأنا أعرف هذا لأنني استيقظت في هذه اللحظة ولا زلت أحس بالضربة الساحقة. وإذا حدث ونمت، فإنني أقضي فترة حافلة بالمشاغل، وأحلامي هي مشاكل يومي، وقد خرجت إلى مرحلة عبث، تشبه إلى حد قليل رجالًا يرقصون وهم يلبسون قرونًا وأقنعة لحيوانات.

إنني أنام في المرة الواحدة أقل من ماري بكثير. وهي تقول إنها تحتاج إلى كمية كبيرة من النوم، وأوافقها أنا على أني أحتاج إلى كمية أقل، ولكنني أبعد ما أكون عن الإيمان بهذا. فهناك فحسب مقدار من الطاقة مختزن في الجسم وهو يزداد طبعًا مع الغذاء. ويستطيع الإنسان أن يستهلكه بسرعة، مثلما يلتهم بعض الأطفال حلواهم، أو يفضون الورق عنها ببطء. ودائمًا توجد الفتاة الصغيرة التي تحتفظ بجزء من حلواها ليتبقى لديها، بينما يكون الملتهمون قد فرغوا منها منذ وقت طويل. أظن أن عزيزتي ماري سوف تعيش أطول مني بكثير. ستكون قد ادخرت بعض حياتها لما بعد. وإذا وصلنا للتفكير في هذا، سنجد غالبية النساء يعشن مدة أطول من الرجال.

دائمًا ما بعث في يوم الجمعة الحزينة الكدر. بل حتى في طفولتي كان ينتابني أسى عميق ليس مبعثه عذاب الصلب، بل إحساسي بوحدة المصلوب المدمرة. ولم أفقد مطلقًا الأسى، الذي غرسه فيَّ «متى» حين كانت عمتي العظيمة «ديبورة» تقرأ إنجيله بإلقائها المتوتر المتكسر الذي من خصائص

أهل نيو إنجلاند.

وربما كان الأمر أسوأ هذا العام. فنحن نجعل من أنفسنا موضوع القصة ثم نتجسدها. فاليوم تعلمت من مارولو الحياة، وهكذا فهمتها لأول مرة من خلال وجهة نظر التجارة. وبعد ذلك مباشرة قدمت لي أول رشوة. وغريب على من هو في مثل سني أن يقول ذلك، ولكني لا أذكر أي رشوة غيرها. ينبغي أن أفكر في مارجي يانج هنت. هل هي شيء شرير؟ ما غرضها؟ أعرف أنها وعدتني بشيء وهددتني إذا لم أقبله. أيستطيع المرء أن يفكر خارج نطاق حياته؟ أم ينبغي عليه أن يتابعها فحسب؟

كم من ليالي عديدة رقدتها ساهرًا، أسمع هرير ماري الخافت إلى جواري، وإذا حدَّقت في الظلام فستبدأ نقط حمراء في السباحة أمام عينيك، ويطول الوقت.

ماري تحب نومها جدًّا؛ لذا أحاول أن أحميها في أثنائه حتى عندما يلسع تيار جسدها الكهربي بشرتي. وهي تستيقظ لو غادرت الفراش؛ إذ يبعث هذا فيها القلق، وتعتقد أنني لست بخير؛ لأن تجربتها الوحيدة عن الأرق كانت في أثناء مرضها.

كان عليَّ في هذه الليلة أن أنهض وأخرج. وكان تنفسها يهر برقة، وكنت أستطيع رؤية الابتسامة الأثرية على فمها. وربما كانت تحلم بحسن الطالع، بالنقود التي سأحصل عليها. وماري تريد أن تتيه كبرياء.

إنه لأمر غريب! كيف أن المرء يعتقد أنه يستطيع التفكير بطريقة أفضل في مكان خاص. ولديَّ مثل ذلك المكان، ولقد كان لي دائمًا، ولكنني أعرف أن ما أقوم به هناك ليس التفكير، بل الإحساس والتجربة والتذكر. إنه مكان أمان – ولابد أن لكل شخص مكانه، رغم أنني لم أسمع مطلقًا امرأً يتحدث عنه. غالبًا ما توقظ حركة هادئة وخفية نائمًا، بينما لا يفعل ذلك حدث متعمد عادي. وأنا مقتنع أيضًا أن الأذهان النائمة تتجول في أفكار الناس الآخرين، وأخذت أقنع نفسي بأنني أحتاج إلى الذهاب إلى الحمام، وحين صار الأمر كذلك، نهضت وذهبت. بعد ذلك نزلت الدرج في هدوء، وأنا أحمل ملابسي، ثم ارتديتها في المطبخ.

ماري تقول إنني أشارك الآخرين متاعب ليس لها وجود. ربما يكون الأمر كذلك، ولكني رأيت مشهدًا قلما يحتمل حدوثه -يتمثل أمامي في المطبخ ذي الضوء المعتم– ماري مستيقظة وهي تنقب المنزل بحثًا عني، والانزعاج على وجهها. فكتبت ملحوظة على مفكرة البقالة تقول: «عزيزتي، إنني قلق. خرجت لأتمشى، وسأعود سريعًا». وأظن أني تركتها في منتصف منضدة المطبخ تمامًا حتى إذا ما أُضيء النور من مفتاح الحائط، تكون هي أول الأشياء المرئية.

بعدئذٍ فتحت الباب الخلفي في هدوء، واختبرت الهواء. كان قارس البرد، وتنبعث منه رائحة غشاء صلب من الجليد الأبيض. وتدثرت في معطف ثقيل، وجذبت فوق أذني طاقية بحارة من الصوف المحبوك. ودمدمت ساعة المطبخ الكهربائية، كانت تعلن الثالثة إلا الربع. كنت قد ظللت راقدًا أرقب النقط الحمراء في الظلام منذ الحادية عشرة.

إن بلدتنا نيوبايتون بلدة أنيقة، بلدة عتيقة، واحدة من أول البلدان الواضحة المحددة المعالم في أمريكا

كلها، أما سكانها الأُوَّل وكذلك أسلافي، فيما أعتقد، فقد كانوا أبناء أولئك البحارة العديمي الاستقرار، المخادعين، المحبين للشجار، المولعين بحشد المال، الذين كانوا يسببون صداعًا لأوروبا تحت حكم إليزابيث، والذين استولوا على جزر الهند الغربية لأنفسهم تحت حكم كروميل، ثم جاءوا في النهاية ليستقروا على الشاطئ الشمالي، وهم يحملون تراخيصهم من تشارلز ستيوارت العائد إلى العرش، ولقد وُفِقوا بنجاح بين القرصنة والتزمت الديني، وهما شيئان على أقصى درجة من التشابه حين تتعمق في الموضوع. فكلاهما تتوافر فيه كراهية شديدة للمعارضة، ولكلاهما عين زائغة بالنسبة لممتلكات الآخرين. وحينما كانوا يمتزجون بالأهالي، كانوا ينتجون حفنة من الصغار الصلبي الإرادة المنتصرين على الحياة. وأنا أعرف أمرهم؛ لأن والدي جعلني أعرف أنه كان نمطًا من الهواة العظام الذين يهتمون بأسلافهم، ودائمًا ما لاحظت أن الناس الذين يهتمون بأسلافهم، غالبًا ما يفتقدون الصفات التي للأشخاص الذين يجلونهم. كان أبي سيدًا مهذبًا، أحسن تثقيفه، وأُسيء نصحه، وكان أحيانًا أحمق رائعًا.

فقد أضاع الأرض دون معين وكذلك النقود، والهيبة، والمستقبل، والواقع أنه أضاع تقريبًا كل ما جمعه آل آلان وهولي فيما يزيد على بضع مئات من السنين، أضاع كل شيء ماعدا الأسماء –وهي كل ما كان يهم أبي على أي حال- ولقد اعتاد أبي أن يعطيني دروسًا فيما كان يسميه «دروس في التراث». وذلك هو السبب في أنني أعرف الكثير عن الفتية القدامى، وربما كان ذلك أيضًا هو السبب في أنني أعمل موظفًا في بقالة صقلي في عمارة اعتاد آل هولي أن يمتلكوها. ليتني لم أمتعض من عملي إلى هذا الحد. فلم يكن الإفلاس أو الأزمنة العصيبة هي التي أطاحت بنا.

لقد حضرني كل ذلك عندما بدأت أقول إن نيوبايتون بلدة بديعة، استدرت يمينًا في شارع «إلم» بدلًا من يسارًا، وسرت مسرعًا إلى شارع «بورلوك»، الذي يستدير محاذيًا لشارع «هاي». سيكون «وي ويلي»، كونستابل البلدة السمين، وسنانًا في سيارة البوليس في شارع «هاي»، وأنا لا أريد أن أقضي الليل معه ليسألني. «ماذا تفعل بالخارج في مثل هذا الوقت المتأخر، إيث؟ هل أنت في ورطة صغيرة؟». وي ويلي تصيبه الوحشة ويحب الكلام، ثم هو يتكلم مؤخرًا عما اعتاد أن يتكلم عنه.

ومن شعور ويلي بالوحشة نمت بضع فضائح صغيرة ولكنها كريهة. أما الكونستابل الذي يعمل في أثناء النهار فهو ستونول جاكسون سميث، وذلك ليس اسم دعاية، فقد سمي ستونول[2] جاكسون، وقد ميزه هذا عن كل الآخرين الذين يحملون اسم سميث. أنا لا أدري لم يتعين على رجال شرطة البلدة أن يكونوا متناقضين، ولكنهم غالبًا ما يكونون كذلك. وستوني سميث رجل خشن، لا يبوح باسم اليوم الكائن، إلا إذا كان واقفًا على منصة الشهود بعد أن أدى القسم.

ومدرس البوليس سميث يدير قسم البوليس في البلدة، وقد كرس له نفسه، ويدير أحدث الطرق، وقد تلقى تدريب مكتب الأبحاث الجنائية الاتحادي في واشنطون. وأعتقد أنه رجل بوليس جيد مثلما يحتمل أن تجد، طويل القامة هادئ ذو عينين لهما وميض المعدن، وإذا كنت تدبر لارتكاب جريمة، فسيكون مدير البوليس هو الرجل الذي عليك أن تتجنبه.

لقد حضرني ذلك كله أثناء ذهابي إلى شارع «بورلوك» لكي أتجنب الحديث مع وي ويلي. وفي

«بورلوك» توجد المنازل الجميلة في بلدة نيوبايتون. أنت ترى إننا كنا نمتلك في فترة مبكرة من القرن التاسع عشر ما يزيد على مائة سفينة لصيد الحيتان. وعندما كانت السفن تعود من رحلة سنة أو سنتين بالخارج من مكان بعيد مثل القطب الجنوبي أو بحر الصين، فإنها تكون محملة بالزيت والغنى الكثير. ولكنها كانت على اتصال بموانئ غريبة تلتقط منها أشياء مثلما تلتقط أفكارًا، وذلك هو السبب في أنك ترى أشياء صينية عديدة في منازل شارع «بورلوك». ولقد كان لبعض أولئك الربابنة القدامى -من أصحاب السفن- ذوق طيب أيضًا. فقد أحضروا، بكل ما لهم من نقود، مهندسين معماريين إنجليز لكي يبنوا منازلهم. وذلك هو السبب في أنك ترى الكثير من تأثير فن آدم وإحياء فن العمارة الإغريقية في شارع «بورلوك». لقد كانت موضة ذلك العصر في إنجلترا. ولكن رغم كل النوافذ المروحية الشكل فوق الأبواب، ورغم الأعمدة ذوات التجاويف المستطيلة والأقواس الإغريقية، فانهم لم يهملوا أبدًا وضع ذلك الممر على السقف. وكانت الفكرة منه هي أن يصبح في استطاعة الزوجات المخلصات حبيسات المنزل الصعود إلى هناك ليرقبن السفن العائدة، وربما كان بعضهن يفعل ذلك. وقد كانت عائلتي، آل هولي وكذلك آل فيليبس، وآل إيلجر وبيكر أقدم من سكان شارع «بورلوك»؛ فقد ظلوا يسكنون شارع «إلم»، وكانت منازلهم بسقوفها المدببة ودعاماتها ذات الخشب المُلبس من الطراز المسمى «البيوت الأمريكية الأولى». وعلى هذا الطراز كان منزلي، منزل هولي العتيق. وكان شجر الدردار العملاق في ذلك الشارع في مثل عمر المنازل.

وقد أبقى شارع «بورلوك» مصابيحه التي كانت تضاء بالغاز، وإن صارت تضاء الآن بلمبات كهربائية. ويأتي السياح في الصيف ليروا فن العمارة، وما يسمونه «سحر العالم القديم» الذي في بلدتنا. لماذا ينبغي أن يكون السحر في العالم القديم؟

إنني لا أذكر كيف امتزج آل فيرمونت الآن بآل هولي. حدث ذلك عقب الثورة مباشرة، وباستطاعتي طبعًا أن أعرف. فسيكون هناك سجل في مكان ما بالسندرة عندما تُوفيَ والدي، كانت ماري قد سئمت تمامًا تاريخ عائلة هولي، ولهذا فحينما اقترحت تخزين كل شيء في السندرة، كنت أفهم طبيعة شعورها. فمن الممكن أن تسأم تمامًا تاريخ أسرة أناس آخرين. بل إن ماري ليست حتى من مواليد نيوبايتون. فقد انحدرت من أسرة ذات أصل إيرلندي ولكنها ليست كاثوليكية. ودائمًا ما تشير إلى ذلك. عائلة ألستر، كما تدعوها. وهي من بوسطن.

كلَّا، بل إنها ليست كذلك من بوسطن. لقد التقيت بها هناك. وأستطيع الآن أن أرى كلينا، ربما أكثر وضوحًا الآن عن ذي قبل، ملازم ثان عصبي وخائف، وهو الملازم هولي ومعه تصريح بإجازة نهاية الأسبوع، ثم الرقة، وخدان كورق الزهر، والرائحة الحلوة التي تنبعث من فتاة عزيزة، بل كان تأثير هذا كله مضاعفًا بسبب الحرب وكتب الدراسة. كم كنا جادين، كنا جادين إلى درجة كبيرة. كنت معرضًا للقتل، وكانت هي على استعداد أن تهب حياتها لذكرى بطولتي. كان واحدًا من مليون حلم متشابه يحلم به مليون زي رسمي زيتوني، ومليون ثوب من القطن المطبوع. وربما كان قد انتهى بالخطاب التقليدي الذي يبدأ بعبارة «عزيزي جون» فيما عدا أنها قد وهبت حياتها لمحاربها. أما خطاباتها، الحلوة لما فيها من رصانة، فقد تبعتني في كل مكان، بخط منحن واضح في حبر أزرق على ورق أزرق فاتح، حتى عرفت فرقتي كلها خطاباتها، وكان كل فرد في سعادة غريبة من أجلي. وحتى لو لم أكن راغبًا في الزواج من ماري، لأرغمني عليه وفاؤها، رغبتي في تخليد حلم العالم في

النساء الجميلات المخلصات.

وهي لم تتهاو، أمام انتقالها من مسكنها ذي الطراز الإيرلندي في بوسطن إلى بيت آل هولي العتيق في شارع «إلم». كما لم تتهاو مطلقًا أمام يأسي القاسي لفشلي في العمل، ولا أمام إنجاب أطفالنا، أو أمام الشلل الذي ساد عملي كموظف في محل زمنًا طويلًا. إنها ممن ينتظرون. أستطيع أن أرى ذلك الآن، وأعتقد أنها بعد طول انتظار للنهاية، تملكها السأم من الانتظار فلم تبن أبدًا من قبل عن صلابة رغباتها، فعزيزتي ماري لم تكن ممن يسخرن، ولم يكن الازدراء من أسلحتها. لقد كانت مستغرقة بكليتها في جعل مواقف عدة تبدو في أحسن صورة. فقط بدا واضحًا أن السم تسرب إلى ذهن ما، لأنه لم يسبق له من قبل أن تسرب إليه. يا لها من سرعة تلك التي كانت الصورة تتشكل بها مع وقع الخطوات التي تسحق الجليد على أرض الشارع المظلم. ليس هناك ثمة سبب للإحساس بأني أسترق السير في الصباح المبكر في نيوبايتون، «فوي ويلي» يسخر من هذا سخرية سخيفة، ولكن غالبية الناس الذين يروننني أسير في اتجاه الخليج في الثالثة صباحًا، سيفترضون أنني ذاهب لصيد السمك، ولن تتبادر إلى ذهنهم أي فكرة أخرى. وقومنا يعرفون كل نظريات صيد السمك، وبعضها سري سرية وصفات الطبخ العائلية، وأمثال هذه الأشياء تحترم وهي جديرة بالاحترام.

كانت أنوار الشارع تجعل الجليد الأبيض الصلب الذي يغطي عشب الحدائق والأرصفة يتألق وكأنه ملايين من الماسات الدقيقة. وجليد مثل هذا ينطبع عليه أثر القدم، ولم يكن يوجد أمامي أي أثر لذلك. ولقد كنت أشعر دائمًا ومنذ طفولتي باستثارة غريبة من السير فوق ثلج أو جليد ليس عليه أثر قدم. إن هذا يشبه أن تكون أول من يطأ عالمًا جديدًا، ويبعث فيك إحساسًا عميقًا مريحًا باكتشاف شيء ما نظيف، وجديد، لم يستعمل، ولم يتسخ. أما أهل الليل العاديون، القطط، فهم لا يحبون المشي فوق الجليد. وأذكر مرة، وفي لحظة شجاعة، أن خطوت حافيًا على ممشى مغطى بالجليد، فشعرت كأن قدمي تحترقان. ولكن الآن وأنا ألبس الأحذية الواقية من المطر والجوارب الثقيلة، فإنني أضع الندبات الأولى على الجدّة المتألقة.

وحيث يتقاطع شارع «بورلوك» مع شارع «توركي»، أعني حيث يقع مصنع الدراجات، وعلى مبعدة من شارع «هيكس»، كان الجليد النظيف مشوهًا بآثار طويلة لجر أقدام – إنه داني تيلور، شبح قلق مترنح يرغب في أن يكون في مكان آخر ويجر نفسه إلى هناك، وبعدئذٍ يود أن يكون في مكان آخر؛ داني هو سكير البلدة.

وأعتقد أن لكل بلدة سكيرًا. وداني تيلور –ويهز الكثيرون جدًّا من أهل البلدة رؤوسهم ببطء من جانب إلى جانب- من عائلة طيبة، عائلة عريقة، آخر سلالتها، وعلى قسط طيب من التعليم. ألم يلق بعض المتاعب في الأكاديمية؟ لماذا لا يلم شتات نفسه؟ إنه يقتل نفسه بالشراب، وهذا عيب لأن داني سيد مهذب. إنه أمر مخجل، أن يشحذ النقود من أجل الشراب. ومما يبعث العزاء أن والديه ليسا على قيد الحياة ليشاهداه. كان هذا سيقتلهما، ولكنهما قد توفيا الآن. ولكن ذلك كان مدار الحديث في نيوبايتون.

وداني يبعث في أعماقي أسى باردًا، ويترتب على ذلك إحساس بالذنب. كان ينبغي أن أكون قادرًا على معاونته. ولقد حاولت، ولكنه لم يكن يدعني أفعل. وداني قريب إليَّ قرابة الأخ لو كان لي مطلقًا أخ، نفس السن والنشأة، نفس الوزن والقوة، وقد يكون منشأ إحساسي بالذنب، أنني الأمين على أخي

ومع ذلك لم أنقذه.

وبإحساسي له ذلك العمق المتأصل، فإن المبررات – حتى القوي منها- لا تقدم أي إحساس بالراحة، فآل تيلور، عائلة عريقة مثل هولي أو بيكر أو أي عائلات عريقة أخرى. لا أستطيع أن أتذكر في طفولتي أي رحلة، أي سيرك، أي مباراة، أو أي عيد ميلاد دون أن يكون داني إلى جواري ولصيقًا بي، كأنه ساعدي الأيمن. وربما لو كنا قد ذهبنا إلى الكلية معًا، لما كان هذا قد حدث. فقد ذهبت إلى هارفارد، وتنعمت باللغات واغتسلت بالعلوم الإنسانية، وأقمت في القديم، والجميل، والغامض، وانغمست بكليتي في معرفة لم تفدني على الإطلاق في إدارة محل بقالة، حين نضجت. وكنت أود دائمًا لو استطاع داني أن يكون معي في تلك الرحلة البهيجة المثيرة. ولكن داني كان قد نشأ من أجل البحر. كان التحاقه بالأكاديمية البحرية قد تم تخطيطه وتمحيصه، وكان مؤكدًا حتى منذ أن كنا صبية. وكان أبوه يدعم هذا الالتحاق في كل مرة يكون لدينا فيها مرشح جديد للكونجرس.

وحظى بالشرف ثلاث سنوات وبعدئذٍ طرد. ويقولون إن هذا قتل والديه كما قتل معظم ما في داني. وكل ما تبقى منه هو الأسى الذي يجرجر قدميه - هذا الأسى المتجول في أثناء الليل ليتسول دريهمات يشتري بها نصف لتر من (مدمر الجماجم). وأظن الإنجليز يعبرون عن هذا بقولهم: «إنه قد أسقط عن نفسه الكبرياء»، وهذا يجرح دائمًا من يسقط عن نفسه الكبرياء، أكثر مما يجرح الكبرياء. وداني الآن متجول ليلي، رجل يستيقظ في البكور، شيء وحيد يجرجر قدميه. وهو حينما يطلب ربع دولار ليشتري (مدمر الجماجم)، ترجوك عيناه أن تغفر له لأنه لا يستطيع أن يغفر لنفسه. وهو ينام في كوخ خلف مصانع الزوارق وحيث اعتاد آل تيلور أن يكونوا بناة سفن. وتوقفت عند آثار أقدامه لأرى ما إذا كانت قدماه قد اتجهتا ناحية البيت أم بعيدًا عنه. ومن جر القدمين على الجليد عرفت أنه ذهب إلى الخارج، وأنني قد ألتقي به في أي مكان. ولم يكن «ويي ويلي» ليقبض عليه، إذ ما جدوى ذلك؟

لم يكن ثمة تساؤل بشأن المكان الذي أذهب إليه. فقد رأيته وأحسست به وشممت رائحته قبل أن أغادر الفراش. كان الميناء القديم قد ولى الآن منذ أمد بعيد. فبعد امتداد حاجز الأمواج الجديد ورصيف البلدية، كان الرمل والطين قد زحفا إلى الداخل وجعلاه ضحلًا. ذلك المكان الذي كان ذات يوم مرسى عظيمًا للسفن تحميه شعاب «ويتصن» ذات الأسنان المشرشرة. ذلك المكان حيث كانت توجد ذات يوم أحواض السفن ومصانع الحبال والمخازن التجارية وعائلات بأكملها من صانعي البراميل الذين يصنعون براميل زيت الحوت، وحيث كانت توجد أيضًا الأرصفة التي كانت المقدمات المدببة لسفن صيد الحوت تستطيع أن تندفع فوقها حتى سلاسل صواريها، بل وحتى التمثال المنحوت عليها أو النقوش المحفورة فيها. كانت غالبًا سفنًا ذوات ثلاثة أشرعة رئيسية، تندفع أشرعتها الأساسية أفقيًّا على صواريها، ويحمل الصاري الخلفي أشرعة مربعة مثلما يحمل الصاري الطويل أشرعة المقدمة والمؤخرة. سفن ذوات غاطس عميق بنيت لتحتمل سنوات في البحر في أي جو. كان صاري الشراع الأمامي الثاني صاريًا منفصلًا والصاري العمودي المزدوج الذي تحت صاري المقدمة يؤدي هو الآخر مهمة الصاري الذي يرفع مقدمة شراعي المقدمة والمؤخرة.

لديَّ رسم محفور على الصلب للميناء القديم وهو يعج بالسفن، وبعض الصور الفوتوغرافية الحائلة

مطبوعة على صفيح، ولكني في الواقع لا أحتاجها، فأنا أعرف الميناء وأعرف السفن. كان جدي يعيد بناؤها لي بعصاه المصنوعة من ناب الحوت، وهو يرغمني على معرفة المسميات؛ ويصرخ بالمصطلحات وعصاه تخبط جذع ركيزة خشبية تآكلت من المد والجزر، وكانت ذات يوم رصيف آل هولي، كان رجلًا عجوزًا قاسيًا ذا سوالف أطرافها بيضاء، وكنت أحبه كثيرًا جدًّا لدرجة أن هذا الحب كان يوجعني.

«حسنًا»، كان يقولها، بصوت لا يحتاج إلى مكبر صوت وهو عند القنطرة، «أنشد بصوت مرتفع أسماء القلوع والأشرعة والصواري، أنشدها بصوت عال. فأنا أكره الهمس».

وكنت أنشد بصوت مرتفع، وكان هو يخبط الركيزة الخشبية بعصاه التي من ناب الحوت مع كل إيقاع. كنت أنشد: «الشراع الأمامي المستعرض (خبطة)، الشراع الأمامي الخارجي (خبطة)، الشراع الأمامي الداخلي، الشراع الأمامي المستعرض الثاني (خبطة! خبطة!)».

- ارفع صوتك منشدًا! أنت تهمس.

- الشراع الأمامي المستعرض الأول، الشراع الأمامي المستعرض الثاني، الشراع الأمامي المستعرض الثالث، الشراع الأمامي المستعرض الرابع، الشراع الأمامي المستعرض الخامس، الأشرعة الأمامية المستعرضة.

ومع كل شراع خبطة!

- الأشرعة الرئيسية! ارفع صوتك منشدًا.

- «الشراع الرئيسي العلوي»، خبطة.

ولكنه أحيانًا، وحين زاد به تقدم العمر، كان يصيبه التعب فيصيح: «أطو الأشرعة الرئيسية. انتقل إلى أشرعة المؤخرة. والآن ارفع صوتك منشدًا».

- حاضر، يا سيدي. شراع المؤخرة العلوي الأول، شراع المؤخرة الثاني، شراع المؤخرة الثالث، شراع المؤخرة الرابع، شراع المؤخرة الخامس، عارضة الأشرعة الوسطى.

- وبعد ذلك؟

- الشراع الخلفي.

- كيفية إعداده؟

- صاري عند القاعدة وصاري منتصب يا سيدي.

خبطة – خبطة – خبطة – بالعصا التي من ناب الحوت على الركيزة الخشبية المستقرة في الماء.

وكلما تزايد التشويش في سمعه، كان يتهم مزيدًا ومزيدًا من الناس بالهمس، كان يصيح: «لو كان

شيء صحيحًا، أو حتى غير صحيح وأنت تعنيه، فصح به».

وربما يكون الضعف قد اصاب أذني القبطان العجوز قرب نهاية حياته، ولكنه لم يصب ذاكرته. كان يستطيع أن يسرد لك حمولة وسيرة كل سفينة، وكان يبدو من سرده، وكأنه يعرف كل سفينة أبحرت من الخليج، وماذا أحضرت عند عودتها، وكيف قسم هذا. وكان الشيء الغريب أن أيام صيد الحيتان الرائعة كانت قد انتهت تقريبًا قبل أن يصير قبطانًا. كان يسمي الكيروسين زيت الظربان ومصابيح الكيروسين أوعية النتن، وعندما أتى الوقت الذي وصلت فيه المصابيح الكهربائية، لم يكن يهتم بالأمر كثيرًا، أو ربما كان مسرورًا بمجرد الذكرى. ولم تكن وفاته صدمة لي. كان العجوز قد أدخل إلى ذهني فكرة موته مثلما أدخل إليه فكرة السفن. كنت أعرف كيف أتصرف، داخل نفسي وخارجها.

وعلى حافة الميناء القديم الذي غطاه الطين والرمل، وفي نفس المكان الذي كان فيه رصيف آل هولي بالضبط، كان الأساس الحجري لا يزال هناك. إنه إلى أسفل مباشرة وإلى مستوى الجزر المنخفض، وتصدم الأمواج العالية بناءه الحجري المربع. وبعد عشر أقدام من نهايته يوجد ممر صغير عرضه حوالي أربع أقدام وارتفاعه أربع أقدام وعمقه خمس أقدام. سقفه مقبو. ربما كان مصرفًا في يوم ما، ولكن نهايته التي ناحية اليابسة مسدودة من الداخل بالرمل وحطام الصخور. ذلك هو مكاني، المكان الذي يحتاجه كل واحد. فبداخله تكون مختفيًا عن الأنظار ما عدا ناحية البحر. والميناء القديم لا يوجد فيه شيء الآن سوى بضع عشش لصائدي المحار، وهي عشش هشة يصدر عنها صرير، وغالبًا ما تكون مهجورة في فصل الشتاء. وعلى أي حال فصيادو المحار قوم هادئون إلى حد كبير، فهم نادرًا ما يتكلمون من بداية اليوم إلى نهايته؛ وهم يسيرون خافضي الرؤوس والأكتاف محنية.

ذلك هو المكان الذي كنت متوجهًا إليه. لقد أمضيت هناك فترة الجزر الليلي قبل أن أنضم إلى الخدمة العسكرية، وفترة الجزر الليلي قبل أن أتزوج ماري، وجزءًا من الليلة التي ولدت فيها إيلين، وقد آلمها هذا إلى درجة قاسية. كنت مرغمًا على الذهاب والجلوس هناك بالداخل وسماع الأمواج الصغيرة وهي تصفق الأحجار وأنا أتطلع إلى صخور «ويتصن» التي كأسنان المنشار. رأيت مكاني هذا، وأنا راقد في فراشي أرقب رقصة النقط الحمراء، وعرفت أنه ينبغي عليَّ أن أجلس هناك. إن التغيرات الكبيرة هي التي تأخذني إلى هناك... التغيرات الكبيرة.

يجري شارع «سوث ديفون» على امتداد الساحل، وتوجد أضواء مسلطة على الشاطئ وضعها أناس طيبون لكي يجنبوا العشاق الوقوع في المآزق. إذ سيكون عليهم أن يذهبوا إلى مكان آخر للتلاقي. وهناك تشريع من البلدية يقرر أن على «ويي ويلي» أن يقوم بداورية مرة كل ساعة. لم يوجد ثمة مخلوق على الشاطئ – ولا مخلوق، وكان ذلك شاذًّا؛ لأنه دائمًا ما كان يوجد ثمة شخص على وشك الصيد، أو يصطاد، أو يأتي إلى الشاطئ. أدليت جسدي من فوق الحافة ووجدت الحجر البارز على السطح، ثم ثنيت جسدي داخلًا في الكهف الصغير. ولم أكد أستقر في مكاني حتى سمعت سيارة «ويي ويلي» تمر. بذلك أكون قد تجنبت قضاء الليل معه مرتين.

قد يبدو غريبًا وسخيفًا، أن تجلس بساقين متقاطعين في كوة وكأنك بوذا بعينين تطرفان، ولكن الحجر يناسبني بشكل ما، أو أنا الذي أناسبه. وربما كنت أتردد هناك منذ فترة طويلة حتى تشكل عجزي بشكل الأحجار. أما بالنسبة لسخافة العمل، فأنا لا أهتم بذلك. فأحيانًا تكون السخافة فكاهة عظيمة،

مثل الأطفال الذين يمثلون التماثيل ثم يستغرقون في الضحك. وأحيانًا عندما يتملكك السخف فإنه يحطم إيقاع حياتك المنتظم ويجعلك تبدأ بداية جديدة. وحينما أكون مهمومًا، فإنني أمثل دور السخيف حتى لا تنتقل عدوى الهم مني إلى عزيزتي. وهي لم تكتشف لعبتي بعد، وإذ كانت قد فعلت، فلن أعرف أبدًا. هناك أشياء عديدة لا أعرفها عن ماري، ومن بينها، مقدار ما تعرفه عني. لا أظنها تعرف شيئًا عن المكان. وكيف كانت تستطيع؟ أنا لم أخبر أحدًا عنه. فليس له أي اسم في ذهني سوى المكان – إنه ليس قديسًا أو طقسيًّا أو أي شيء. إنه بقعة فيها تفكر في أشياء. لا يوجد إنسان يعرف حقًّا ما يتعلق بالبشر الآخرين. وأحسن ما يستطيع عمله هو أن يفترض أنهم يشبهونه. والآن، وأنا جالس في المكان، محتجبًا عن الريح، أرى تحت أضواء الحراسة المد يزحف إلى الداخل، أسود بلون السماء المظلمة.

كنت أعجب إذا ما كان لكل رجل نظرة في عينين، نظرة حيوان مجنون وكأنها تحتاج إلى مكان هادئ خفي حيث تستطيع رعدات النفس أن تهدأ، حيث يكون الإنسان بمفرده ويستطيع أن يحاسب نفسه. أنا أعرف طبعًا نظريات الرجوع إلى الرحم والرغبة في الموت، وربما تكون هذه صادقة مع بعض الرجال، ولكني لا أحسبها تصدق عليّ، إلا إذا كانت وسائل سهلة لقول شيء معقد. وأنا أُسمي أي شيء يحدث في المكان «حساب النفس». وقد يسميه البعض الآخر صلاة، وقد يكونا نفس الشيء. ولو رغبت في رسم صورة لنفسي عما يحدث، فتكون صورة ملاءة ندية تدور وتصطفق في نسمة حلوة، ثم تجف ويكتسب بياضها الجمال. وما يحدث لي حق، سواء أكان خيرًا أم لا.

كانت توجد مسائل عدة تستوجب التأمل، وكانت تقفز وتلوح بأيديها لتسترعي الانتباه مثل صبية في مدرسة. وعندئذٍ سمعت الدمدمة البطيئة المنبعثة من آلة قارب، قارب ذي محرك واحد، مركب صيد. كان الضوء الذي على قمة صاريها يتحرك إلى الجنوب خلف صخور «ويتصن». كان عليَّ أن أترك كل شيء جانبًا حتى أطفات أضواءها الحمراء والخضراء دلالة على وصولها سالمة إلى القناة، مركب محلي لأنها عثرت على المدخل بمنتهى السهولة وألقت المرساة في المياه الضحلة، ثم جاء رجلان في زورقها في اتجاه الشاطئ. ومسحت الأمواج الصغيرة الشاطئ، واستغرقت طيور النورس المنزعجة وقتًا، قبل أن تعود لتستقر فوق مراسي السفن الطافية.

بند: كانت هناك ماري، عزيزتي، لأفكر فيها، وهي نائمة وابتسامتها الغامضة على شفتيها. وتمنيت ألا تستيقظ وتبحث عني. ولكن لو فعلت، فهل ستخبرني على الإطلاق؟ أشك في ذلك. وأعتقد أن ماري، مع كل ما يبدو عليها من أنها تخبرني بكل شيء، تخبرني بالقليل جدًّا. كان هناك الطالع للتفكير فيه. هل كانت ماري ترغب في طالع أم كانت تريده من أجلي؟ وحقيقة أنه طالعًا زائفًا، دبرته مارجي يانج هنت لأسباب لا أعلمها، ولم تكن تعني بالنسبة لي أي فرق على الإطلاق. ولقد كان الطالع الزائف مفيدًا فائدة أي طالع آخر، ويحتمل أن تحتوي جميع الطوالع قليلًا من الزيف. فأي رجل على مستوى معقول من الذكاء يمكنه أن يجمع ثروة إذا كان ذلك هو ما يريده. ولكنه غالبًا ما يرغب حقيقة في النساء أو الثياب أو الإعجاب، وهذا ما يحيد به عن غرضه. وفنانو المال العظام أمثال مورجان وروكفلر لم يحد بهم شيء من غرضهم. لقد أرادوا المال وحصلوا عليه، مجرد مال بسيط. أما ماذا فعلوا به بعد ذلك فهذا شيء آخر. ولقد كنت أشعر دائمًا أن الخوف دب فيهم من المارد الذي أثاروه، وأنهم حاولوا أن يرشوه ليتخلصوا منه.

بند: النقود، وكانت تعني بالنسبة لماري ستائر جديدة، وتعليمًا مضمونًا للأولاد، وأن ترفع رأسها إلى أعلى قليلًا و– فلنواجه الأمر ونقول، إن تكن فخورة بي خيرًا من أن تخجل مني ولو خجلًا ضئيلًا. لقد قالت هذا في ساعة غضب، ولكنه كان حقيقيًّا.

بند: هل أريد أنا نقودًا؟ حسنًا، كلَّا. كان شيء ما في أعماقي يكره لي أن أكون موظفًا في محل بقالة. ففي الجيش وصلت إلى رتبة كابتن، ولكني أعرف ما الذي نقلني من بين المجندين إلى معسكر تدريب الضباط. كانت العائلة والصلات. لم يتم اختياري لسواد عيني، ولكني جعلت من نفسي ضابطًا جيدًا. ولكني لو كنت حقًّا أحب الأمر والنهي، وفرض إرادتي على الآخرين، ورؤيتهم وهم يثبون عند سماع أوامري، فربما كنت بقيت بالجيش، وصرت كولونيلًا الآن. ولكني لم أفعل، كنت أرغب في التخلص منه. وهم يقولون إن الجندي الجيد يقاتل معركة، وليس حربًا أبدًا، فذلك متروك للمدنيين.

بند: كان مارولو يقول لي الحقيقة عن التجارة، فالتجارة هي عملية الحصول على المال. وكان جوي مورفي يقولها بشكل صريح، وكذلك مستر بيكر والوكيل المتجول. لقد قالوها جميعًا بصراحة. فلماذا أثار هذا ثائرتي وترك في فمي طعمًا كالبيض الفاسد؟ أأكون أنا في غاية الطيبة أو العطف أو العدل؟ لا أعتقد أن الأمر كذلك. هل أكون في غاية الكبرياء؟ حسنًا، عندي شيء منها. أأنا كسول، في غاية الكسل بحيث لا أتورط في الأمر؟ لديَّ مقدار هائل من الشفقة الخاملة التي ليست شيئًا سوى الكسل، وعدم الرغبة في أي متاعب، أو اضطراب، أو مجهود.

تتولد ثمة رائحة وإحساس بالفجر قبل ظهور الضوء بفترة طويلة، ولقد كان هذا في الهواء الآن، خفت حدة الريح، وأضاء نجم جديد أو كوكب الأفق متجهًا ناحية الشرق. كان ينبغي عليَّ أن أعرف أي نجم أو كوكب هذا، ولكني لا أعرف. ومع الفجر الكاذب تنشط الريح أو تسكن. إنها تفعل ذلك فعلًا. وسيكون عليَّ أن أتأهب للعودة حالًا. وهذا النجم الصاعد قد تأخر به الوقت كثيرًا ليظهر الكثير من إشراقته قبل أن يطلع عليه النهار. ما هو المثل: «حين تنحرف النجوم عن مساراتها، تفقد سيطرتها»؟ حسنًا، لقد سمعت أن عددًا كبيرًا جدًّا من رجال المال الجادين يذهبون إلى المنجمين طلبًا لمشورتهم فيما يتعلق بالبضائع التي يشترونها. فهل تنحرف النجوم في اتجاه سوق للثيران؟ هل تتأثر المدافع المضادة للدبابات والدبابات بالنجوم؟ لا شيء في طالعي حلو وبعيد مثل نجم. مجموعة مخلوطة من أوراق اللعب التي تستخدم في التنبؤ بالطالع في يد امرأة كسولة خبيثة، ثم إنها تلاعبت بالورق. هل ينحرف الورق عن مساره ثم لا يفقد سيطرته؟ حسنًا، لقد انحرف بي الورق إلى المكان في منتصف الليل، وانحرف بي ليجعلني أفكر أكثر مما أردت في موضوع أشمئز منه. وذاك جزء من الانحراف. فهل يستطيع الورق أن ينحرف بي إلى ذكاء في الشغل لم يتوافر لي أبدًا، وإلى حب تملك غريب عليّ؟ أيمكن أن أنحرف بحيث أريد ما لم أكن أريد؟ في عالمنا يوجد الآكل والمأكول. وتلك قاعدة جيدة نبدأ بها. هل يكون الآكل أكثر لا أخلاقية من المأكول؟ ثم في النهاية يؤكل الجميع - الجميع- تلتهمهم الأرض، حتى أكثرهم وحشية وأشدهم دهاء.

منذ وقت طويل والديكة آخذة في الصياح فوق تل «كلام»، وكنت قد سمعتها ولم أسمعها. وددت لو استطعت البقاء؛ لأرى الشمس وهي تشرق مباشرة من خارج المكان.

لقد قلت إنه لا توجد قدسية تكتنف المكان، ولكن ذلك ليس صحيحًا تمامًا، ففي فترة معينة من كل

زيارة أعيد بناء الميناء القديم من أجل متعتي الذهنية – الأرصفة، مخازن الميناء، غابات الصواري وشجيرات قلوع السفينة وقماش القلوع، ثم أرى أسلافي، دمي– وفتيانهم على سطح السفينة، والممتلئون شبابًا عند قمتها، والناضجون على الجسر المفضي إلى مقر الربان. لم يكن يثار حينذاك أي هراء عن شارع «مايسون» أو عن تقليم أوراق كثيرة جدًّا من القرنبيط كان للإنسان حينذاك شيء من عظمة، شيء من أهمية. كان باستطاعة الإنسان أن يتنفس.

كان ذلك ما يدور حوله حديث أبي، الأحمق، أما القبطان العجوز فكان يذكر المعارك التي تقوم من أجل الأنصبة، والتلاعب بالمؤن والشك في كل ملاءة وسروال، والقضايا. أجل ثم التفاؤل، هل من أجل النساء، والمجد، والمخاطرة كلًّا بتاتًا، بل من أجل المال. كان يقول إنها شركة نادرة تلك التي كانت تستمر أكثر من رحلة واحدة، ثم يتلوها عداء مستحكم، يظل قائمًا بعد أن يكون سببه قد نُسِيَ.

كانت هناك ضغينة واحدة لم ينسها القبطان هولي العجوز، جريمة لا يستطيع أن يغتفرها. ولابد أن يكون قد قص عليَّ أمرها مرات عديدة، وهو واقف أو جالس على حافة الميناء القديم. كنا نمضي وقتًا طيبًا، أنا وإياه. وأذكره وهو يشير بعصاه المصنوعة من ناب الحوت، كان يقول:

- انظر إلى تلك الصخرة الثالثة من شعاب «ويتصن» هل رأيتها؟ والآن، اربطها بخط مع رأسي بورتي بوينت ساعة ارتفاع المد. أتراها هناك؟ والآن على مبعدة 304 قدم ناحية البحر على هذا الخط، يوجد المكان الذي ترقد فيه أو على الأقل قاعدتها.

- البيل آدير؟

- نعم، البيل آدير.

- سفينتنا.

- نصفها كان لنا، كانت شركة. احترقت وهي راسية – احترقت حتى خط منسوب الماء. ولم أصدق أبدًا أن يكون هذا مصادفة.

- أتعتقد، يا سيدي، أن النار أشعلت فيها عمدًا.؟

- أجل.

- ولكن – ولكنك لا يمكن أن تفعل ذلك؟

- لم أكن أستطيع.

- ومن فعلها؟

- لا أعرف؟

- ولماذا؟

- من أجل التأمين.

- فالأمر ليس مختلفًا عنه الآن.

- كلَّا، ليس مختلفًا.

- ولكن لابد أن يوجد اختلاف ما.

- في رجل واحد بمفرده فحسب – في رجل واحد بمفرده فحسب. تلك هي القوة الوحيدة – رجل واحد بمفرده. لا أستطيع الاعتماد على أي شيء آخر.

أخبرني والدي أنه لم يكلم الكابتن بيكر بعد ذلك أبدًا، ولكنه لم يحمل نفس الشعور تجاه ولده، مستر بانكر بيكر. لم يكن ليفعل ذلك ثانية، فقد كان أهون عليه أن يشعل النار في سفينة.

يا إلهي الرحيم، عليَّ أن اذهب إلى البيت، ونهضت. كنت أجري تقريبًا، وذهبت إلى شارع «هاي» دونما تفكير. كانت الدنيا لا تزال ظلمتها سائدة؛ ولكن إطارًا من الضوء كان يرقد على حافة البحر ويجعل الأمواج بلون رمادي كلون الحديد. ودرت حول نصب الحرب التذكاري وتجاوزت مكتب البريد. وفي مدخل باب، كان داني تيلور يقف كما توقعت أنه لابد أن يكون، يداه في جيوبه، وياقة معطفه المهلهل مرفوعة إلى أعلى، وطاقية صيده العتيقة المدببة قد فرد غطاءا أذنيها إلى أسفل.

كان وجهه أزرق رماديًّا من البرد والمرض.

قال: «إيث، آسف لإزعاجك – آسف. ينبغي أن أحصل على شيء من (مدمر الجماجم). أنت تعرف أنني لم أكن لأطلب ذلك، لولا اضطراري إليها».

- «أعرف. أقصد إنني لا أعرف، ولكنني أصدقك». وأعطيته ورقة من فئة الدولار.

- هل ستفي تلك بالغرض؟

كانت شفتاه ترتعشان بنفس الطريقة التي ترتعد بها شفتا طفل حين يكون على وشك البكاء، وقال:

- «شكرًا لك، يا إيث. أجل، فستجعلني تلك أغيب عن وعيي طول النهار وربما طول الليل». وبدا التحسن يبدو عليه من مجرد التفكير في الأمر.

- داني، عليك أن تقلع عن هذا. أتظنني نسيت؟ لقد كنت أخًا لي، يا داني. ولا زلت كذلك. وسأفعل أي شيء في العالم لمساعدتك.

وتسرب قليل من اللون إلى وجنته الناحلتين. تطلع إلى النقود في يده، وبدا كما لو كان قد تناول جرعته الأولى من (مدمر الجماجم) ثم تطلع إليَّ بعينين قاسيتين باردتين.

- أولًا، ليس هذا من اختصاص أي إنسان لعين. وثانيًا، إنك ليس لك مخ، يا إيثان. أنت أعمى مثلي، ولكنه نوع مختلف من العمى فحسب.

- أصغ إليَّ، يا داني.

- لماذا؟ إنني أفضل منك حالًا، فلديَّ ورقة رابحة في يدي. أتذكر ضيعتنا في الريف؟

- حيث احترق المنزل وتقوض؟ وحيث اعتدنا أن نلعب في فجوة البدروم؟

- ما زلت تذكرها جيدًا. إنها ملكي.

- داني، يمكنك أن تبيعها وتبدأ بداية جديدة.

- لن أبيعها. الدولة تستولي كل سنة على قطعة صغيرة منها نظير الضرائب. ولكن المرجة الكبيرة لا تزال ملكي.

- ولم لا تبيعها؟

- لأنها قطعة مني. إنها دانيل تيلور. فطالما أمتلكها لن يقدر أولاد الكلاب أن يحددوا ما أفعل، ولن يستطيع الأوغاد إرسالي إلى السجن من أجل مصلحتي الخاصة هل فهمت؟

- اسمع يا داني.

- لن أسمع. إذا كنت تعتقد أن هذا الدولار يعطيك الحق في أن تعظني – فهاك. خذه ثانية.

- احتفظ به.

- سأفعل. فأنت لا تدري عن أي شيء تتحدث. إنك لم تكن أبدًا سكيرًا. إني لا أقول لك كيف تلف لحم الخنزير، هل أفعل! والآن لو سرت في طريقك، فسأطرق محلًا وأحصل على شيء من (مدمر الجماجم) – ولا تنس- أنني أفضل منك حالًا؛ فأنا لست موظفًا.

استدار ووضع رأسه في زاوية الباب المغلق مثل طفل ينفي وجود العالم بالتطلع بعيدًا عنه، ثم بقي هناك حتى يئست وسرت في طريقي.

كان «ويي» قد أوقف سيارته أمام الفندق. أفاق من غفوته، وأدار زجاج سيارته الشيفروليه إلى أسفل. وقال:

- طاب صباحك، يا إيثان. هل استيقظت مبكرًا أم تأخرت بالخارج.

- الأمران معًا.

- لابد أن تكون قد وجدت لنفسك امرأة رائعة.

- بالتأكيد يا ويلي، حورية بحر.

- والآن، يا إيثان، لا تقل لي أنك تصادق أي امرأة تلقاها في الطريق.

- أقسم أنني سأفعل.

- لا أستطيع أن أصدق شيئًا بعد ذلك. أراهن أنك كنت تصطاد السمك. كيف حال السيدة؟

- نائمة.

- وهذا ما سأكونه، بعد أن تنتهي نوبة عملي.

وغادرته دون أن أذكره بأن هذا هو ما كان يفعله.

صعدت الدرجات الخلفية لمنزلي بهدوء، ثم أضأت نور المطبخ. كانت الورقة على المنضدة إلى اليسار قليلًا من الوسط. وإني لأقسم أنني تركتها في وسط المنضدة تمامًا.

وضعت القهوة على النار وجلست أنتظر أن تغلي، وكانت قد بدأت لتوها في الغليان حين نزلت ماري. وزوجتي العزيزة تبدو مثل فتاة صغيرة حين تستيقظ من النوم. ولا تستطيع أن تتصور أنها أم لطفلين كبيرين. وتنبعث من بشرتها رائحة محببة، مثل العشب المشذب حديثًا، وهي أكثر الروائح التي أعرفها دفئًا وتهدئة.

- ما الذي تفعله في مثل هذا الوقت المبكر؟

- حسنًا، في إمكانك أن تسألي، قد يسرك أن تعلمي أنني ظللت ساهرًا معظم الليل، انظري إلى حذائي الواقي من المطر هناك إلى جوار الباب، وتحسسيه لتعرفي أنه مبلل.

- وأين ذهبت؟

- هناك إلى جوار البحر يوجد كهف صغير، يا بطتي، لقد زحفت داخلًا إليه وتأملت الليل.

- والآن كفاك.

- ورأيت نجمنا يخرج من البحر، حيث إنه لم يكن له صاحب، فقد أخذته ليكون نجمًا، وقد استأنسته ثم أعدته ليسمن.

- لقد بدأت السخف، أعتقد إنك قد استيقظت لتوك، وذلك ما أيقظني.

- إن كنت لا تصدقيني، فسلي «ويي ويلي»، لقد تحادثت معه أو سلي داني تيلور، لقد أعطيته دولارًا.

- كان ينبغي ألا تفعل، فهو سيسكر به فحسب.

- أعرف، وتلك كانت رغبته، أين تستطيع نجمتنا النوم يا زهرتي الحلوة؟».

- ألا تجد رائحة القهوة طيبة، إني سعيدة لأنك عدت لسخافتك، فإن الأمر يكون مزعجًا حين تستولي عليك الكآبة، وإني لآسفة من أجل موضوع الطالع ذاك، أنا لا أريدك أن تظن أني لست سعيدة.

- لا تقلقي بالك بهذا الشأن، فهو أمر أبانه الورق.

- ماذا؟

- أنا لا أمزح، سأحقق طالعنا.

- أنا لا أعلم مطلقًا في أي شيء تفكر.

- إن أصعب الأمور هو قول الحقيقة، هل أستطيع أن أضرب الأطفال قليلًا احتفالًا باليوم السابق لعيد القيامة، وأعدك أني لن أكسر لهم عظامًا.

قالت: «إنني لم أغسل وجهي بعد، فلم أكن أستطيع أن أتصور من الذي كان يعبث في المطبخ» عندما صعدت إلى الحمام، وضعت الورقة التي كنت قد كتبتها لها في جيبي، وكنت ما زلت لا أعرف، هل استطاع امرؤ قط أن يعرف حتى ولو الغشاء الخارجي لشخص آخر، ماذا تشبهين في أعماقك؟ ماري! هل تسمعين؟ من تكونين في دخيلتك؟

# الفصل الرابع

بدأ صباح يوم السبت ذاك وكأن له نمطًا خاصًّا، وإني لأعجب إذا ما كان لكل الأيام أنماطها، كان يومًا ينسحب على الماضي، وجاء في همس العمة ديبورا الكئيب الخافت، «طبعًا، المسيح ميت وهذا هو اليوم الوحيد من أيام العالم الذي يكون فيه ميتًا، كل الرجال والنساء أيضًا يموتون، ولكن غدًا، انتظر إلى الغد فحسب، وحينئذ سترى شيئًا ما».

أنا لا أتذكر شكلها بوضوح تام، مثلما لا تتذكر شكل شخص يكون وثيق الصلة جدًّا بك بحيث لا تحاول التطلع إليه، ولكنها كانت تقرأ لي في الكتاب المقدس وكأنه جريدة يومية، وأحسب أن تلك كانت فكرتها عنه، كما لو كان شيئًا دائم الحدوث بشكل خالد، ولكنه دائمًا مثير وجديد، ففي كل عيد قيامة، يقوم يسوع حقًّا من بين الأموات ويحدث تفجر متوقع، ولكنه لا يفقد جدته بحال من الأحوال، فبالنسبة لها لم يكن الأمر قد انقضى عليه ألفي عام، بل كان وكأنه يحدث الآن، ولقد غرست فيَّ شيئًا من ذلك.

لا أستطيع أن أتذكر أنه كانت لديَّ الرغبة من قبل في فتح المحل، أظن أنني كنت أكره كل ما يتعلق بالصباح من كسل وتشويش في الهندام، ولكني في هذا اليوم كنت أريد الذهاب؛ وأنا أحب عزيزتي ماري من كل قلبي؛ وفي بعض الأحيان أكثر من نفسي بكثير؛ ولكن الحقيقة أيضًا أنني لا أصغي إليها دائمًا بانتباه تام؛ وحينما تحكي أخبار الملابس والصحة ومحادثاتها التي تمتعها وتسري عنها؛ فإنني لا أنصت لها على الإطلاق؛ لدرجة أنها تصيح أحيانًا في دهشة: «ولكن لا بد أنك تعرف! لقد أخبرتك؛ إني أذكر جيدًا جدًّا أنني قلت هذا صباح يوم الخميس»؛ وليس ثمة شك على الإطلاق في هذا، لقد قالت لي، فهي تقول لي كل شيء ضمن مواضيع معينة.

ولم يكن الأمر في هذا الصباح إنني لم أصغ إليها فحسب، بل إنني كنت أريد الابتعاد عنها. وربما كنت أنا نفسي أرغب في الحديث ولم يكن لديَّ أي شيء أقوله؛ لأنها –أقول ذلك إيفاء لحقها- لا تنصت إليَّ هي أيضًا، ويكون هذا أحيانًا شيئًا جيدًا، فهي تنصت لنغمة الكلام ووقعه، ومنهما تجمع حقائقها عن صحتي وحالتي المزاجية، وهل أنا متعب أم مرح. وتلك طريقة جيدة كأي طريقة أخرى. والآن وحينما أفكر في الأمر، فإنها لا تصغي إليَّ لأنني أتحدث إليها، وإنما أتحدث إلى مستمع ما خفي يقبع داخلي. كما أنها في الواقع لا تتكلم إليَّ هي أيضًا. وطبعًا يتغير ذلك كله، حينما يتعلق الأمر بالأطفال أو ببعض الأزمات الخطيرة.

كنت أفكر في أغلب الأحيان، وكيف أن الحديث يتغير بتغير طبيعة المستمع. فمعظم حديثي أخاطب به أناسًا توفوا، مثل عمتي الضئيلة الحجم ديبورا التي كانت في بلايموث روك، أو القبطان العجوز. وأجد نفسي أجادلهم. وأذكر ذات مرة أنني في أثناء نزاع مزعج كئيب، ناديت على القبطان العجوز، وقلت: «هل ينبغي عليَّ أن أستمر؟»، فأجاب بصوت غاية في الوضوح: «طبعًا، ينبغي عليك. ولا تهمس». ولم يجادل، فهو لم يفعل ذلك أبدًا، قال فحسب إنه ينبغي عليَّ أن أفعل، وفعلت. وليس في

هذا شيء غامض أو مبهم. إنه طلب المشورة أو المبرر من دخيلتك التي تم تشكيلها وأصبحت مؤكدة.

أما فيما يتعلق بالتحدث الخالص، الذي هو طريقة أخرى لإلقائي السؤال، فإن بضائعي الصامتة البليغة في علبها المحفوظة وزجاجاتها في المحل، تؤدي الغرض على خير وجه. مثلما يفعل أي حيوان عابر أو طير. فهي لا تجادل ولا تكرر ما تسمع.

قالت ماري: «إنك لست ذاهبًا الآن؟ ما زالت أمامك نصف ساعة. هذا ما تجنيه من الاستيقاظ مبكرًا هكذا».

فقلت: «عليَّ أن أفتح حشدًا بأكمله من صناديق الفاكهة، وأن أضع الأشياء على الأرفف قبل أن أفتح المحل. ثم عليَّ أن أتخذ قرارات خطيرة. هل يتوافق وضع المخللات والطماطم على نفس الرف؟ هل يتشاجر المشمش المحفوظ في العلب مع الخوخ؟ إنك تعرفين مقدار أهمية علاقات الألوان بالنسبة لفستان».

وقالت ماري: «إنك لتجعل من كل شيء فكاهة. ولكني مسرورة، فهذا أفضل من حدة الطبع. إن كثيرًا جدًّا من الرجال لهم طباع حادَّة».

كان خروجي مبكرًا، ولم يكن «رد بيكر» قد خرج بعد. في استطاعتك أن تضبط ساعتك على هذا الكلب، أو أي كلب. فهو سيبدأ جولته المقررة في خلال نصف ساعة بالضبط. كذلك لن يظهر جوي مورفي، أقصد لم يظهر بعد. فالمصرف لن يفتح أبوابه، ولكن ليس معنى ذلك أن جوي لن يكون هناك منكبًّا على الدفاتر. كانت البلدة هادئة للغاية، وهذا طبعًا لأن كثيرًا من الناس غادروها لتمضية عطلة عيد القيامة. كان ذلك العيد، ويوم الرابع من يوليو، وعيد العمل هي أضخم العطلات. فالناس يغادرون البلدة حتى ولو لم يرغبوا في ذلك. بل إني أعتقد أنه حتى عصافير شارع «إلم» كانت قد غادرت البلدة.

رأيت ستونول جاكسون سميث يقوم بالخدمة. كان آتيًا لتوه بعد تناول فنجان من القهوة في محل «فور ماستر» للقهوة. كان نحيفًا للغاية وهشًّا حتى بدت مسدساته وقيوده الحديدية أكبر من حجمها. وهو يلبس قبعة الضابط بزاوية، مرح، ويخلل أسنانه بريشة إوزة مسنونة.

- عمل ضخم، يا ستوني. أمامي يوم طويل شاق لكسب النقود.

قال: «هه؟ لا أحد في البلدة» كان يقصد أنه يتمنى لو كان هو أيضًا قد رحل.

- هل توجد أي جرائم قتل يا ستوني، أو أي أحداث أخرى شنيعة؟

قال: «إن الحالة هادئة إلى حد كبير، حطم بعض الفتيان سيارة عند الجسر. ولكن، يا للجحيم، كانت سيارتهم هم. سيجعلهم القاضي يدفعون ثمن إصلاح الجسر. هل سمعت عن حادثة المصرف في فلود هامبتون؟».

- كلَّا.

- ولا حتى في التليفزيون؟

- ليس لدينا جهاز حتى الآن. هل استولوا على كثير؟

- ثلاثة عشرة ألفًا، فيما قال. كان ذلك بالأمس قبل موعد الإغلاق مباشرة. ثلاثة فتيان، وأبلغ الإنذار إلى أربع ولايات، لقد ذهب ويلي الآن إلى الطريق العمومي، وهو يشكو من أن رأسه ستنفجر.

- إنه ينال حظًّا وافرًا من النوم.

- أعرف، أما أنا فلا. لقد ظللت بالخارج طول الليل.

- أتظنهم سيمسكون بهم؟

- أوه! أظن ذلك. إذا كانت نقودًا فغالبًا سيمسكون بهم، فشركات التأمين تظل تلح ولا تيأس مطلقًا.

- يمكن أن تكون عملية لطيفة إذا لم يشركوك فيها.

قال: «بالتأكيد تكون كذلك».

- ستوني، أود لو تبحث عن داني تيلور. فهو يبدو في غاية المرض.

وقال ستوني: «إنها مسألة وقت فحسب. ولكني سأذهب للبحث عنه. إنه لأمر مخجل. شاب لطيف ومن عائلة طيبة.

- إن هذا يعذبني، فأنا أحبه.

- حسنًا، إنك لا تستطيع أن تفعل شيئًا من أجله. الدنيا ستمطر، يا إيثان. وويلي يكره أن يبلله المطر.

لأول مرة فيما تعي ذاكرتي، ذهبت إلى الحارة وأنا سعيد وفتحت الباب الخلفي وأنا في نشوة. كان القط بجوار الباب، ينتظر. ولا يمكنني تذكر صباح لم ينتظر فيه ذلك القط النحيل المقتدر ليحاول الدخول من الباب الخلفي، ولم أفشل أنا إطلاقًا في قذفه بعصا أو طرده بعيدًا. وحسب أوثق معلوماتي، لم يتمكن أبدًا من الدخول. وأنا أدعو القط «هو» لأن أذنيه ممزقتان من العراك. هل القطط حيوانات غريبة عنا أم أنها قريبة الشبه بنا، لدرجة أننا نجدها غريبة عجيبة مثلما نحس تجاه القردة؟ فلقد حاول ذلك القط ربما ستمائة أو ثمانمائة مرة أن يدخل ولم يتوصل إلى ذلك أبدًا.

قلت للقط: «أنت تستحق مفاجأة مذهلة». كان جالسًا وسط دائرة من ذيله، ونهاية الذيل تتردد بين قدميه الأماميتين. دخلت إلى المخزن المظلم، وتناولت من فوق الرف علبة لبن، وضغطت عليها ففتحتها، ثم تركت اللبن يندفع في فنجان، وبعدئذ حملت الفنجان إلى المخزن ووضعته في الداخل تقريبًا وتركت الباب مفتوحًا.

راقبني باهتمام، وتطلع إلى اللبن، وبعدئذٍ سار مبتعدًا وانزلق فوق السور الذي خلف المصرف.

كنت أراقبه وهو ينصرف حين دخل جوي مورفي الحارة وقد أعد في يده مفتاح باب المصرف الخلفي. كان يبدو معتلًّا، مغضنًا. كأنه لم يأو إلى فراشه.

- هاي، مستر هولي.

- حسبتكم تغلقون اليوم.

- يبدو أنني لن أغلق أبدًا. توجد غلطة في ستة وثلاثين دولارًا في الدفاتر. لقد ظللت أعمل حتى منتصف الليل ليلة الأمس.

- عجز؟

- كلَّا، زيادة.

- لابد أن ذلك جيد.

- حسنًا، إنه ليس كذلك. عليَّ أن اكتشف الخطأ.

- هل المصارف بهذه الأمانة؟

- إنها كذلك. الناس فقط هم الذين ليسوا كذلك. ولو كنت أنوي الحصول على أي عطلة فينبغي أن أجد الخطأ.

- ليتني كنت أعرف شيئًا عن الأمور المالية العملية.

- أستطيع أن أخبرك بكل ما أعرف في جملة واحدة، النقود تجلب النقود.

- ذلك يفيدني كثيرًا.

- وكذلك أنا. ولكني أستطيع بالتأكيد أن أقدم نصيحة.

- مثل ماذا؟

- مثل: لا تقبل أبدًا العرض الأول، ومثل: لو أراد شخص ما أن يبيع فلابد أن لديه سببًا، ومثل: إن قيمة الشيء تكون بالنسبة للراغب فيه.

- هل هذا هو منهج الدراسة السريع؟

- إنه لكذلك، ولكنه لا يعني شيئًا بالمرة دون الفقرة الأولى.

- النقود تجلب النقود؟

- وهذا ما يستبعد الكثيرين منا.

- ألا يقترض بعض الناس؟

- أجل، ولكن ينبغي أن يكون لديك رهن، وهذا أحد أنواع النقود.

- أعتقد أنه من الأفضل لي أن ألتزم البقالة.

- يبدو أن الأمر كذلك. أسمعت بما حدث في مصرف فلودهامبتون؟

- لقد أخبرني ستوني. إنه لأمر مضحك، فقد كنا نتحدث عن هذا بالأمس فحسب؟ أتذكر؟

- لي صديق هنا. قال إنهم ثلاثة فتيان، أحدهم يتكلم بلكنة، وواحد أعرج. ثلاثة فتيان. سيمسكونهم بالتأكيد. ربما خلال أسبوع، وربما خلال أسبوعين.

- يا للبراعة!

- أوه أنا لا أدري. إنهم أغبياء. هناك قانون ضد الأغبياء.

- أنا آسف على ما حدث بالأمس.

- انس ذلك. إنني أتكلم كثيرًا، وتلك قاعدة أخرى، لا تتكلم. لن أتعلم أبدًا تلك القاعدة. قل لي، إنك تبدو في صحة جيدة.

- ما كان ينبغي أن أكون، فلم يتيسر لي كثير من النوم.

- ألديك شخص مريض؟

- كلا. مجرد ليلة من تلك الليالي.

- ألم يكن في علمي....

كنست المحل ورفعت الستائر، ولم أكن أدري هل كنت أقوم بالعمل أم أمارس كراهيته. كانت قواعد جوي تدور وتدور بسرعة في رأسي. وناقشت الأمور مع أصدقائي على الأرفف، وربما تم ذلك بصوت مرتفع، وربما لا. فأنا لا أدري.

قلت: «يا أفراد عشيرتي الأعزاء، لو كان الأمر بمثل تلك السهولة، فلِمَ لا يقوم به عدد أكبر من الناس؟ لماذا يقع كل فرد تقريبًا في نفس الأخطاء مرات ومرات؟ هل يوجد دائمًا ثمة شيء ليُنسَى؟ ربما كان الضعف الحقيقي الأساسي شكلًا من أشكال الشفقة. لقد قال مارولو إن النقود لا قلب لها. ألا يكون من الصدق إذن أن أي شفقة تنتاب رجل المال هي نوع من الضعف؟ كيف يتأتى لك أن تجعل الأفراد البسطاء العاديين يذبحون الناس في حرب؟ حسنًا، قد يساعد على ذلك أن العدو يبدو مختلفًا في الشكل، أو أنه يتكلم بلغة أخرى. ولكن كيف يكون الحال في حرب أهلية إذن؟ كان الاتحاديون يأكلون الأطفال، والثوار يُميتون أسراهم جوعًا. ذلك ما يساعد على قيامها. سأستدير إليك في لحظة يا حبات البنجر ويا عيش الغراب المخروطي المحفوظ في العلب. أعرف أنكم تريدون مني

أن أتحدث عنكم. كل واحد يريد ذلك. ولكني على وشك الوصول إلى نقطة أستشهد بها. لو كانت قوانين التفكير هي قوانين الأشياء، إذن ستكون الأخلاقيات نسبية أيضًا، وكذلك الفضيلة والرذيلة، ذلك أيضًا نسبي في دنيا نسبية. وينبغي أن تكون كذلك. لا مهرب منها، هذه نقطة أستشهد بها».

«أنت يا مسحوق العصيدة الجاف، ذا الصندوق الذي عليه قناع ميكي ماوس والشريط الذي هو أداة للكلام من البطن، والثمن الذي هو عشرة سنتات، سيكون عليَّ أن آخذك إلى البيت؛ ولكن ينبغي عليك الآن أن تجلس وتنصت. إن ما قلته لماري العزيزة على أنه فكاهة، هو الحقيقة، من المؤكد أن أسلافي أولئك الربابنة وملاك السفن المبجلين جدًّا؛ كانوا مكلفين بالإغارة على التجارة خلال الثورة، وأيضًا خلال عام 1812. كانوا في غاية الوطنية والفضيلة، ولكنهم بالنسبة للبريطانيين كانوا قراصنة، وكانوا يستولون على ما يأخذون. وبتلك الطريقة بدأ تكوين ثروة العائلة، تلك الثروة التي بددها أبي. ومن هناك أتت النقود. ونستطيع أن نفخر بذلك».

أتيت بصندوق يحتوي علب صلصة الطماطم، ومزقته ففتحته، ثم رصصت العلب الصغيرة الأنيقة البديعة على رفها الفارغ. «ربما لا تعلمون فأنتم نمط من الغرباء. فالنقود لا تفتقد القلب فحسب بل الشرف وأي ذاكرة أيضًا. إن النقود تكون جديرة بالاحترام تلقائيًّا لو أبقيت عليها فترة من الوقت. لا ينبغي أن تحسبوا أنني أحط من قيمة النقود. فإنني أعجب بها أشد الإعجاب. أيها السادة، هل يمكنني أن أقدم لمجموعتنا بعض الوافدين الجدد. فلنر، سأضعهم هنا بجواركم يا علب عصير الطماطم المركز. فلنحتف بمخللات شطائر الزبد هذه في بيتها الجديد. إنها من نيويورك، ولدت وقطعت إلى شرائح وعبئت هناك. كنت أناقش موضوع النقود مع أصدقائي هنا. إن عائلة من أرقى عائلاتكم... أوه، لابد أنكم تعرفون اسمها! وأظن أن أي فرد في العالم يعرفه. حسنًا، لقد بدأت بدايتها الضخمة من بيع اللحم البقري للبريطانيين حينما كانت بلدنا في حرب مع البريطانيين، وثروة هذه العائلة تحظى بالإعجاب مثل أي ثروة. وكذلك أفراد أسرتها. هناك أسرة أخرى، وربما كانت تتكون من أعظم رجال المصارف جميعًا. لقد اشترى مؤسسها ثلاثمائة بندقية من الجيش. كان الجيش قد نبذها لأن بها تلفًا خطيرًا، وهكذا اشتراها هو بثمن بخس، ربما بخمسين سنتًا للقطعة. وبعد فترة قصيرة جدًّا كان الجنرال «فريمونت» قد استعد ليبدأ هجرته البطولية إلى الغرب، واشترى البنادق، دون معاينة، بعشرين دولارًا للقطعة. ولم يسمع أحد مطلقًا إذا ما كانت قد انفجرت في أيدي قواته. وتلك كانت النقود التي تجلب النقود. لا تهم كيفية الحصول عليها طالما أنك تحصل عليها وتستغلها للحصول على المزيد. إنني لا أتهكم. فولي نعمتي وسيدنا مارولو، ذو الاسم الروماني القديم، محق كل الحق.

فحين يتعلق الأمر بالنقود، تقوم قواعد السلوك العادية بإجازة. لِمَ أتحدث إلى أصناف البقالة؟ ربما لأنكم تكتمون السر. فأنتم لا ترددون كلماتي، ولا تنقلون الإشاعات. النقود موضوع سمج وغير محمود حينما تكون متوافرة لديك فحسب. أما الفقير فيجدها ساحرة. ولكن ألا توافقونني على أنه إذا اهتم المرء فعلًا بالنقود، فينبغي عليه أن يعرف شيئًا عن طبيعتها وشخصيتها وميولها؟ أخشى أن يكون المهتمون بالنقود لذاتها باستثناء الفنانين العظماء والمقترين قلة نادرة من الرجال. وباستطاعتك أن تركل بعيدًا أولئك المقترين الذين يقيد الخوف تصرفاتهم».

كانت على الأرض الآن كومة ضخمة من صناديق الورق المقوى الفارغة، حملتها إلى المخزن لكي

تسوى حافاتها وتحفظ. فكثير من الناس يحملون فيها مؤنهم إلى البيت، وهي كما قد يقول مارولو: «إنها توفر أكياس، يا فتى».

وها هي كلمة «فتى» تعود ثانية. لن آبه لها أكثر من ذلك. إنني أريده أن يدعوني «فتى» بل حتى أن يفكر فيَّ على أنني «فتى». بينما كنت أرص الصناديق، تناهى إليَّ طرق على الباب الأمامي، وتطلعت إلى ساعتي الضخمة الفضية العتيقة التي من طراز ساعات السكة الحديد، هل تعلم أني لأول مرة في حياتي لم أكن قد فتحت حالما صارت الساعة التاسعة. وها قد بدأ واضحًا أمامي أنها التاسعة والربع. لقد استغرقتني تلك المناقشة مع أصناف البقالة. كنت أستطيع من ستار الباب الزجاجي الذي يقطعه الحديد أن أرى أنها كانت مارجي يانج هنت. لم أكن في الحقيقة قد تطلعت إليها من قبل، ولم أكن قد تفحصتها. وربما كان ذلك هو سبب قيامها بقراءة الطالع، لمجرد أن تتأكد من إحساسي بوجودها. لا ينبغي أن أتغير بسرعة كبيرة.

دفعت الأبواب ففتحتها.

- لم أكن أقصد إزعاجك.

- ولكني تأخرت في الفتح.

- صحيح؟

- بالتأكيد. إنها تجاوزت التاسعة.

دخلت وهي تسير في تلكؤ، وبرز ردفاها إلى الخارج، بديعين مستديرين كأن ثدياها نافرين، ولذا لم تكن في حاجة إلى تأكيد وجودهما. ومارجي هي ما يطلق عليه الفتى جوي اسم «وجبة»، وربما سماها كذلك ابني آلان أيضًا. ربما كنت أراها للمرة الأولى. كانت تقاطيعها متناسقة، وأنفها طويل قليلًا، والشفتان قد حددتا بشكل أكثر امتلاء عما هما عليه، والسفلى على الأخص. كان شعرها مصبوغًا بلون بني كستنائي غامق مما لا يحدث في الطبيعة، ولكنه كان بديعًا. كان ذقنها رقيقًا ومحددًا، ولكن كان بالوجنتين كثير من العضلات، وعظام الوجنتين متسعة جدًّا. وقد لقيت عينا مارجي كل عناية. وكانت بذلك اللون الذي كلون البندق الضارب إلى الزرقة، وإلى لون الصلب الذي يتغير في الضوء. كان وجهًا فيه جَلَد، وجهًا تحمل واستطاع أن يتحمل حتى العنف، وحتى اللكم. كانت عيناها تضربان فيما حولها، ناحيتي، وناحية أصناف البقالة، ثم تعودان إليّ. وتخيلت أنها ذات ملاحظة دقيقة جدًّا وذات ذاكرة قوية أيضًا.

- أتعشم ألا تكون لديك نفس مشكلة الأمس؟

وضحكت: «كلا، كلا. أنا لا ألتقي بوكيل متجول كل يوم هذه المرة نفدت القهوة التي لدي فعلًا».

- معظم الناس كذلك.

- ماذا تقصد؟

- حسنًا، إن الأفراد العشرة الأول في كل صباح يكونون ممن نفدت قهوتهم.

- صحيح؟

- بالتأكيد. على فكرة، أريد أن أشكرك على إرسالك وكيلك المتجول لي.

- تلك كانت فكرته.

- ولكنك اقترحتها. أي نوع من القهوة؟

- لا يهم، إني أصنع قهوة رديئة مهما كان النوع الذي آتي به.

- هل تستعملين المكيال؟

- بالتأكيد، ولكنها تظل رديئة. إن القهوة ليس هي... كدت أقول ليست مثل «فنجاني من الشاي».

- لقد قلتها فعلًا. جربي هذه الخلطة.

والتقطتُ علبة من الرف وعندما مدت يدها لتأخذها مني –ومع تلك الحركة الصغيرة فحسب- تحرك كل جزء في جسدها، وأعلن عن نفسه في هدوء: إني هنا، ليس هناك ما هو أفضل مني. كان كل شيء جديدًا، أراه من جديد. وحبست أنفاسي. ماري تقول إن المرأة تستطيع أن تبعث باشارات أو لا تبعث، حسبما تشاء.

وإذا كان الأمر كذلك، فإن مارجي تملك نظام إرسال يمتد من طرف حذائها المدبب ذي الجلد اللامع حتى شعرها المتموج الكستنائي الناعم.

- يبدو إنك تخلصت من آلام أمعائك.

- كانت آلامها شديدة عليّ بالأمس، ولا أعرف من أين تأتي.

- أنىّ لي أن أعرف! فهي حينما تحدث لي لا تكون لنفس السبب المعتاد.

- لقد أديتِ عملًا طيبًا بقراءة ذلك الطالع.

- وهل أزعجك هذا؟

- كلَّا. أردت أن أعرف فحسب كيف قمت بذلك.

- أنت لا تعتقد في هذه الأمور.

- إن الأمر ليس اعتقادًا. لقد أصبت بعض الأشياء في الصميم. أشياء كنت أفكر فيها. وأشياء كنت أقوم بها.

- مثل ماذا؟

- مثل أن الوقت قد حان لحدوث تغيير ما.

- أنت تحسبني قد رتبت الورق، أليس كذلك؟

- هذا لا يهم. لو كنت قد قمت بذلك، فما الذي جعلك تفعلين؟ هل فكرت في ذلك؟

أمعنت النظر في عيني، في شك وتساؤل. وقالت في رقة: «أجل! لم أقصد ذلك، لم أفكر أبدًا فيه. فلو كنت قد رتبته، فما الذي جعلني أفعل ذلك؟ كان ذلك يبدو وكأنه تحطيم لنظام ثابت».

أطل مستر بيكر برأسه من الباب، وقال: «طاب صباحك، يا مارجي. إيثان، هل فكرت أي تفكير في اقتراحي؟».

- أجل بالتأكيد. وأود أن أتحدث إليك.

- في أي وقت تشاء، يا إيثان.

- حسنًا، أنا لا أستطيع الخروج خلال الأسبوع. أنت تعلم أن مارولو لا يكاد يأتي إلى هنا إطلاقًا. هل ستكون بالبيت غدًا؟

- بالتأكيد، بعد العودة من الكنيسة. تلك فكرة. فلتأت بماري حوالي الساعة الرابعة. وبينما تثرثر السيدات حول قبعات عيد القيامة، نتسلل نحن و....

- لديَّ مائة شيء أود السؤال عنها. أعتقد أنه من الأفضل أن أكتبها.

- مرحبًا بأي سؤال يتعلق بأي شيء أعرفه. إلى اللقاء إذن. طاب صباحك، يا مارجي.

وحين انصرف، قالت مارجي: «إنك تبدأ بسرعة».

- ربما كان مجرد انصياع. على فكرة... أتعرفين ما الذي سيكون ممتعًا؟ كيف سيكون الحال إذا قلبت الورق، دون توضيب أو شيء من هذا القبيل، ورأيت مدى مطابقته للأمس.

قالت: «كلا! ذلك لن ينفع – أتسخر مني، أم أنت تعني ذلك حقًّا؟».

- إن الكيفية التي أنظر بها إلى الأمر، لا تهتم باعتقادي. فأنا لا أؤمن بالإدراك الحسي الزائد، ولا بالبرق أو القنبلة الهيدروجينية، ولا حتى بأزهار البنفسج أو مدارس تربية الأسماك، ولكني أعرف أنها موجودة. أنا لا أؤمن بالأشباح ولكني رأيتها.

- إنك تسخر الآن.

- كلا أنا لا أسخر.

- أنت تبدو نفس الرجل.

- وأنا لست كذلك. وربما لن يكون أحد، لمدة طويلة.

- ما الذي سبب هذا التغير، يا إيثان؟

- لا أدري ربما مللت بقائي موظفًا في محل بقالة.

- لقد آن الأوان.

- هل تحبين ماري حقًّا؟

- أحبها بالتأكيد، لماذا تسأل ذلك السؤال؟

- لأنه لا يبدو عليك أنك من نفس النوع – حسنًا، إنك مختلفة عنها أشد الاختلاف.

- أدرك ماذا تعني. ولكني أميل إليها فعلًا، أحبها.

- وكذلك أنا.

- محظوظ.

- أعرف أني كذلك.

- كنت أقصدها هي. حسنًا، سأذهب لأصنع قهوتي الرديئة. وسأفكر في اتفاق الورق ذاك.

- كلما أسرعت كان أفضل، قبل أن تهبط فورة الحماس.

خرجت يصاحبها وقع أقدامها، وعجبت كم من الناس كنت أنظر إليهم طيلة حياتي ولكني لم أرهم قط. إن التفكير في ذلك أمر مخيف. ها هي نقطة استشهاد مرة أخرى. حين يلتقي اثنان من الناس، يتغير كل واحد منهما بتأثير الآخر، وهكذا يكون لديك شخصان جديدان. وربما يعني ذلك.... يا للجحيم! إنها مسألة معقدة.

لقد أفزعني عدم فتح المحل في الموعد المحدد. ذلك يشبه إسقاط منديلك أو عويناتك لدى رؤيتك مشهدًا لجريمة قتل، مثل أولئك الذين يسمونهم ماذا... في شيكاغو. ما معنى ذلك؟ أي جريمة؟ وأي قتل؟

عند الظهر أعددتُ أربع شطائر من الجبن ولحم الخنزير بالخس والمايونيز. «لحم خنزير وجبن، لحم خنزير وجبن – حين يتزوج الرجل، يعيش في جبن» وأخذت اثنين من الشطائر وزجاجة كوكاكولا إلى باب المصرف الخلفي وناولتها للفتى جوي «هل وجدت الغلطة».

- ليس بعد. أتعرف إنني قريب جدًّا منها، ولكني أعمى.

- لم لا تستريح حتى يوم الإثنين؟

- لا أستطيع، فالعمل في المصارف عملية غريبة الشكل.

- أحيانًا إذا لم تفكر في شيء فإنه يتبادر إلى ذهنك.

- أعرف ذلك. شكرًا من أجل الشطائر.

وتطلع داخلهما ليستوثق من وجود الخس والمايونيز.

إن العمل في محل البقالة في أصيل يوم السبت السابق لعيد القيامة هو ما يمكن أن يطلق عليه ابني الجاهل المبجل «عمل يذهب للشيطان». ولكن حدث فعلًا شيئان أثبتا لي على الأقل أنه كان يجري في أعماقي بعض التغير العميق الكامن. أقصد أنه بالأمس، أو في أي أمس، لم أكن لأفعل ما فعلت. كان الأمر يشبه النظر إلى عينات لورق الحائط. وأظن أنني فضضت نموذجًا جديدًا.

كان أول ما حدث هو دخول مارولللو. كان داء النقرس المصاب به يؤلمه بشكل فظيع جدًّا، وكان يوالي ثني ذراعيه مثل حاملي الأثقال.

- كيف تسير الأمور؟

- «ببطء، يا ألفيو» لم أكن قد ناديته باسمه الأول من قبل أبدًا.

- لا أحد بالبلدة.

- إنني أفضل أن تناديني بيا فتى.

- ظننت أنك لا تحب هذا.

- لقد اكتشفت أنني أحبه، يا ألفيو.

- «الجميع غادروا البلدة». لابد أن كتفيه كانا يحترقان وكأن رملًا ساخنًا كان يجري في مفاصله.

- منذ متى أتيت من صقلية؟

- منذ سبع وأربعين سنة. زمن طويل.

- وهل عدت مطلقًا إلى هناك؟

- كلَّا.

- لِمَ لا تذهب في زيارة؟

- لماذا؟ لقد تبدل كل شيء.

- ألا ينتابك الفضول للذهاب إلى هناك؟

- ليس كثيرًا.

- ألك أي أقارب أحياء؟

- بالتأكيد، هناك أخي وأولاده؛ وقد أنجب أولاده أولادًا.

- أظنك تريد رؤيتهم؟

وأعتقد أنه تطلع إلي: مثلما تطلعت إلى مارجي، ورآني لأول مرة.

- ماذا دبرت في ذهنك، يا فتى؟

- يؤلمني أن أراك مريضًا بالنقرس. وقد فكرت كيف يكون الجو دافئًا في صقلية وربما خلصك هذا من الآلام.

ونظر إليَّ في شك: «ماذا جرى لك؟» - ماذا تعني؟

- أنت تبدو متغيرًا.

- أوه! لقد تواترت إليَّ بعض الأنباء الطيبة.

- أنت لا تنوي ترك العمل؟

- ليس الآن، وإذا كنت تود القيام برحلة إلى إيطاليا، فيمكنني أن أعدك بأنني سأبقى هنا.

- ما هي الأنباء الطيبة؟

- لا أستطيع بعد أن أخبرك. إنها تشبه الآتي...

ومددت راحتي إلى الأمام وإلى الخلف.

- نقود؟

- محتمل. اسمع، إنك غني بما فيه الكفاية؛ لماذا لا ترجع إلى صقلية وتريهم كيف يبدو الثرى الأمريكي؟ وتغمر جسدك ببعض حرارة الشمس. يمكنني أن أعني بالمحل، وأنت تعلم هذا.

- «ولن تترك المحل؟».

- كلا، يا للجحيم! أنت تعرفني بما يكفي لتعلم أني لن أتركك وأهرب؟

- إنك تغيرت يا فتى. لماذا؟

- لقد قلت لك اذهب وداعب الأطفال.

قال: «إنني لا أنتمي إلى هناك».

ولكني كنت أعلم أنني غرست في نفسه شيئًا ما – شيئًا ما بالفعل.

وكنت أعلم أنه سيأتي إلى المحل في ساعة متأخرة تلك الليلة ويتفحص الدفاتر. إنه وغد شكاك.

كان قد انصرف لتوه حين... حسنًا، مثلما حدث بالأمس- دخل الوكيل المتجول لشركة ب.ب.د.

قال: «لست في عمل، إنني أقضي عطلة نهاية الأسبوع في مونتوك، وفكرت في المجيء إلى هنا».

وقلت: «إني سعيد أنك فعلت، فإني أود إعطائك هذه».

ومددت المحفظة وقد برزت منها الورقة ذات العشرين دولارًا.

- يا للجحيم! تلك نية حسنة. لقد أخبرتك أني لست في عمل.

- خذها!

- ما الذي ترمي إليه؟

- إنها في عرفنا تمثل عقدًا.

- ما الأمر، هل أنت متضايق؟

- كلا بالتأكيد.

- إذن لماذا!

- خذها! إنها لا تحتوي كل الزيادات.

- يا للمسيح! عرضت عليك شركة وايلاند عرضًا أفضل؟

- كلا.

- من إذن، مؤسسات التنزيل اللعينة؟

ودفعت الورقة ذات العشرين دولار في جيبه الأمامي خلف منديله المدبب، وقلت:

- سأحتفظ بالمحفظة، إنها لطيفة.

- اسمع، لا أستطيع أن أقدم عرضًا دون التحدث إلى المكتب الرئيسي. لا تغلق الباب بيننا حتى يوم الثلاثاء. وسأتصل بك تليفونيًّا. وإذا قلت إني هيو الذي يتكلم، فستعرف من يكون.

- أنت الذي ستدفع أجر المكالمة التليفونية.

- حسنًا، إذن أبق الباب مفتوحًا بيننا، هل ستفعل؟

قلت: «إنه مفتوح. هل ستقوم بصيد السمك؟».

- من أجل السيدات فحسب. لقد حاولت أن آخذ تلك المرأة الشهية مارجي إلى هناك، ولكنها لم ترد الذهاب. لقد ردت عليَّ بوقاحة تقريبًا. أنا لا أفهم السيدات».

- إنهن يزددن غرابة على غرابة.

قال: «تستطيع أن تقول ذلك ثانية». ولم أكن قد سمعت ذلك التعبير خلال خمسة عشر عامًا. وبدأ عليه القلق، فقال:

- لا تتصرف أي تصرف قبل أن تسمع نبأ مني. يا للمسيح! وكنت أحسب أنني أستطيع أن أخدع فتى ريفيًّا.

- لن أبيع معلمي بثمن بخس.

- هراء. أنت رفعت النسبة فحسب.

- بل رفضت رشوة فحسب، إذا كنت تحس بدافع للكلام عن الموضوع.

وأظن ذلك يثبت أنني كنت مختلفًا عن الآخرين. وبدأ الشاب يتطلع إليَّ في احترام، وارتحت إلى ذلك بل أحببته. كان الغبي يعتقد أني مثله، وأنني أمهر منه في التجارة فحسب.

قبل أن أستعد مباشرة لغلق المحل، طلبتني ماري في التليفون. قالت:

- إيثان، والآن لا يركبك الجنون!

- من أي شيء، يا ساق الزهرة؟

- حسنًا، هي تشعر أنها في غاية الوحشة وظننت... حسنًا، لقد دعوت مارجي للغذاء.

- ولم لا؟

- ألست حانقًا؟

- يا للجحيم! كلا.

- إياك أن تسب، فغدًا عيد القيامة.

- هذا يذكرني بشيء، اكو أجمل ثيابك، فسنذهب إلى منزل بيكر في الساعة الرابعة.

- إلى منزلهم؟

- أجل، لتناول الشاي.

- «سيكون عليَّ أن أرتدي ثوبي الذي أعددته للذهاب إلى الكنيسة في عيد القيامة.

- رأي طيب، يا رأس نبات السرخس.

- ألست حانقًا بسبب دعوة مارجي؟

وأجبتها: «إني أحبك» وأنا أحبها. أحبها حقًّا. هنا تذكرت تفكيري في كيف يمكن للإنسان أن يتحول من نمط إلى نمط.

# الفصل الخامس

عندما اقتربت من نهاية شارع «إلم» واستدرت في الممشى المرصوف بالحصى والأحجار، توقفت وتطلعت إلى البيت العتيق. كان يبدو مختلفًا، يبدو أنه ملكي. لم يكن ملكًا لماري، ولا لأبي، أو للقبطان العجوز، ولكنه كان ملكي. كنت أستطيع أن أبيعه أو أحرقه أو أحتفظ به.

كنت قد صعدت درجتين فحسب من درجات السلم الخلفي، عندما انفتح الباب الزجاجي محدثًا ضجة، واندفع آلان خارجًا وهو يصيح:

- أين البيكس؟ ألم تحضر لي البيكس؟

قلت: «كلا». وزدت دهشة على دهشة؛ لأنه لم يصرخ معبرًا عن ألمه وخسارته. ولم يضرع إلى والدته كي توافقه على أنني قد وعدت.

قال: «أوه!» وانصرف في هدوء.

- «طاب مساؤك» قلتها لظهره المتقهقر، فتوقف وقال: «طاب مساؤك». وكأنه يقول كلمة غريبة قد تعلمها لتوه.

جاءت ماري إلى المطبخ، وقالت: «لقد قصصت شعرك» وهي تشخص أي تبدل فيَّ على أنه إما حمى أو قص شعر.

- كلا، يا دبوس الشعر، لم أفعل.

- حسنًا، كنت أدور كالسيخ لأهيئ البيت.

- لتهيئ البيت؟

- لقد قلت إن مارجي قادمة لتناول الغداء.

- أعرف ولكن لم كل ضجة الأعياد تلك؟

- لم يتوفر وجود ضيف عندنا لتناول الغداء منذ دهور.

- ذلك صحيح. ذلك صحيح فعلًا.

- هل تنوي أن ترتدي حلتك الغامقة؟

- كلا، بل الأولد دوبين، حلتي الرمادية اللطيفة.

- ولم لا ترتدي الغامقة؟

- لا أريد أن أفسد كيَّها؛ لأذهب بها إلى الكنيسة غدًا.

- يمكنني أن أكويها غدًا صباحًا.

- سأرتدي الأولد دوبين، أكثر الحلل أناقة في المقاطعة.

وصاحت: «يا أولاد، لا تلمسوا أي شيء! لقد أخرجت الصحف. ألا تريد ارتداء الحلة الغامقة؟».

- كلا.

- ستكون مارجي في أتم أناقة وأحلى هندام.

- مارجي تحب الأولد دوبين.

- وكيف عرفت؟

- لقد أخبرتني.

- إنها لم تخبرك.

- كتبت خطابًا إلى الصحيفة بهذا الشأن.

- كن جادًّا. هل ستكون لطيفًا معها فعلًا؟

- إنني أنوي أن أطارحها الهوى.

- كنت أحسب أنك تفضل ارتداء الغامقة – بمناسبة حضورها.

- اسمعي، يا زهرتي، حين جئت إلى هنا، لم أكن أهتم أدنى اهتمام بما أرتديه أو بأي شيء. وفي لحظتين قصيرتين جعلت من المستحيل عليَّ أن أرتدي أي شيء سوى الأولد دوبين.

- لمجرد أن تكون مزعجًا؟

- بالتأكيد.

- «أوه!» قالتها بنفس النغمة التي استعملها آلان.

- ماذا أعددت للغداء؟ أريد أن أرتدي ربطة عنق تتناسب مع اللحم.

- دجاج محمر. ألا تستطيع شم رائحته.

- «أظن أني لم أستطيع - ماري-» ولكني– أتم عبارتي. ولماذا أتمها؟ أنت لا تستطيع أن تقاوم غريزة قومية. لقد ذهبت ماري إلى محل «سيف رايت» يوم سوق الدجاج؛ لأنه يباع هناك أرخص منه عند مارولو. ولكني طبعًا أحصل عليه بسعر الجملة، وقد سبق أن شرحت لماري المساومات

اللبقة التي تحدث في المحلات ذات الإدارة الواحدة. فالصفقة تجتذبك وتجعلك تشتري عديدًا من الأشياء الأخرى التي لا يكون شراؤها صفقة، مجرد أنك تجدها في متناول يدك. وكل واحد يعرف هذا وكل واحد يفعله.

ماتت محاضرتي لماري مني فورًا قبل أن تولد. إيثان آلان هولي الجديد يتماشى مع الحماقات القومية ويستفيد منها عندما يستطيع.

قالت ماري: «آمل ألا تعتبرني خائنة».

- عزيزتي، وماذا يمكن أن يكون فاضلًا وآثمًا فيما يتعلق بدجاجة؟

- كانت غاية في الرخص.

- أعتقد أنك فعلت الصواب – فعلت ما يليق بزوجة.

- إنك تهزل.

كان آلان ينتظرني في غرفة نومي، قال: «هل أستطيع أن أتفرج على سيف الفرسان الرهبان الذي لديك؟».

- بالتأكيد. إنه في ركن الدولاب.

كان يعرف جيدًا جدًّا أين يوجد. وبينما كنت أخلع ملابسي، أخرجه من جرابه الجلدي ثم من غمده، وشرع السلاح المطل المتألق في الضوء، ثم تطلع إلى وقفته النبيلة في المرآة.

- كيف تسير في كتابة المقال؟

- هه؟

- أليس ما تقصده هو: عفوًا يا سيدي؟

- أجل، يا سيدي.

- قلت، كيف يسير العمل في المقال؟

- أوه! رائع.

- هل تنوي أن تتمه؟

- بالتأكيد.

- بالتأكيد؟

- بالتأكيد، يا سيدي.

- تستطيع التفرج على القبعة أيضًا. إنها في ذلك الصندوق الجلدي الكبير على الرف. لقد اصفرت ريشتها نوعًا ما.

دخلت حوض الاستحمام الضخم العتيق المتسع القاع ذي الأرجل التي على شكل أقدام أسد. كانوا يصنعونها ضخمة في تلك الأيام لينعم المرء فيها بحمّامه.

وفركت عن جلدي بفرشاة آثار ماروللو واليوم كله، وحلقت ذقني وأنا في حوض الاستحمام دون النظر في مرآة. وأخذت أتحسس بأطراف أناملي بحثًا عن سالفي، وقد يجمع الكل على أن ذلك عمل ممعن في رومانيته وانحطاطه. وعندما مشطت شعري، نظرت في المرآة. لم أكن قد رأيت وجهي منذ فترة طويلة. من المحتمل جدًّا أن تحلق ذقنك كل يوم، ولكنك فعلًا لا ترى وجهك أبدًا، خاصة إذا كنت لا تهتم به كثيرًا. إن الجمال لا يعدو أن يكون بسمك البشرة فحسب، ولكنه يجب أيضًا أن ينبع من الداخل. وأفضل لي أن أكون الثاني إذا كان عليَّ أن أحصل على مكانة ما. ليس معنى هذا أن لي وجهًا قبيحًا، كل ما في الأمر، أنه بالنسبة لي لا يثير الاهتمام. ورسمت بوجهي بعض تعبيرات ثم أقلعت. فلم تكن تعبيرات نبيلة أو متوعدة أو متكبرة أو هازلة، بل كان الوجه هو نفس وجهي اللعين يتصنع تلك التعبيرات.

حين عدت إلى مخدعي، كان آلان يرتدي قبعة الفرسان ذات الريشة، وإذا كان ارتداؤها يجعلني أبدو أبلهًا إلى ذلك الحد، فينبغي أن أتنازل عنها. كان صندوق القبعة الجلدي مفتوحًا فوق الأرض، وكانت له ساندة من الورق المقوى المكسو بالقطيفة تشبه سلطانية حساء مقلوبة.

- ترى هل يستطيعون تبييض ريشة النعام تلك؟ أم ينبغي عليَّ أن آتي بواحدة جديدة؟

- لو أتيت بواحدة جديدة، فهل أستطيع أن آخذ هذه؟

- ولم لا؟ أين إيلين؟ إني لم أسمع صوتها الفتي الزاعق.

- إنها تكتب في مقالتها، أنا أحب أمريكا.

- وأنت؟

- إنني أفكر فيها. هل ستأتي ببعض البيكس إلى البيت؟

- ربما أنساه. لم لا تأت إلى المحل يومًا وتأخذه؟

- حسنًا. أتسمح لي أن أسألك عن شيء ما – يا سيدي؟

- سأحس بالتملق.

- هل كنا نمتلك شارع هاي بأكمله ما عدا عمارتين؟

- أجل.

- وهل كانت لدينا سفن لصيد الحيتان؟

- أجل.

- حسنًا. ولماذا لا نمتلكها الآن؟

- لقد فقدناها.

- وكيف حدث ذلك؟

- حين أفقنا من نومنا، كنا قد فقدناها.

- تلك نكتة!!

- إنها نكتة عميقة جدًّا وجادة، لو شرحتها.

- كنا نشرح ضفدعة في المدرسة.

- هذا في صالحك، ولكنه ليس في صالح الضفدعة. أي ربطة من هذه الربطات الجميلة ألبس؟

- «الزرقاء»، قالها دونما اهتمام. «قل لي هل تستطيع –بعد أن ترتدي ملابسك- هل يسمح وقتك بالصعود إلى السندرة؟».

- سأدبر أمر الوقت إذا كان الموضوع مهمًّا.

- وهل ستأتي؟

- نعم.

- حسنًا. سأصعد الآن وأضيء النور.

- سألحق بك خلال لحظتين من اللحظات التي يستغرقها ربط رباط العنق.

كان وقع قدميه يبعث صوتًا أجوف فوق سلم السندرة الذي لا تغطيه سجادة. إذا فكرت في عملية عقد ربطتي في أثناء أدائها، فإن العقدة تميل إلى أخذ شكل مستدير، أما إذا تركت أصابعي تتابع طريقها وحدها، فإنها تتم العملية بإتقان. ووكلت الأمر إلى أصابعي. وأخذت أفكر في سندرة منزل آل هولي العتيق، منزلي، وسندرتي. إنها ليست سجنًا مظلمًا يملؤه العنكبوت، ويلقي فيه الحطام وما نحن في غنى عنه. فلها نوافذ ذات ضلف زجاجية صغيرة من القدم بحيث يتسرب الضوء منها بنفسجيًّا، ويبدو المنظر الخارجي متمايلًا مثل عالم مرئي خلال الماء. والكتب المخزونة هناك ليست كتبًا تنتظر إلقائها بعيدًا أو إعطائها إلى معهد البحرية. بل إنها تجلس مستريحة على أرففها تنتظر من يكتشف قيمتها من جديد. والكراسي بعضها قد انقضت موضته منذ بعض الوقت، وبعضها تراخت مقعدته، ولكنها لا تزال ضخمة لينة. وهي أيضًا ليست مكانًا متربًا. فتنظيف المنزل يشمل تنظيف السندرة أيضًا، وحيث إنها تظل مغلقة معظم الوقت، فإن الغبار لا يدخلها. وأذكر حين كنت طفلًا أحبو بين

روائع الكتب، أو حين كانت الكروب تثقل عليَّ، أو عندما كنت أصل إلى مرحلة خيالية لا تنبض تمامًا بالحياة وتتطلب الوحدة، أنني كنت أعتكف في السندرة، لأرقد مكومًا في كرسي ضخم وأتخذ قالب الجسم، في ضوء اللافندر البنفسجي المنبعث من النافذة، كنت أستطيع هناك أن أتأمل الدعامات الضخمة ذات الأربعة أوجه التي تسند السقف، وأرى كيف عشقت واحدة في الأخرى، وكيف ثبتت مكانها بخوابير من خشب البلوط. وحتى حينما تمطر الدنيا مطرًا يتدرج وقعه على السقف من خشخشة الرذاذ إلى الزئير، تظل السندرة مكانًا لطيفًا آمنًا. ثم هناك الكتب، الكتب التي يسبغ عليها الضوء لونًا هادئًا، الكتب المصورة التي كانت ملك أطفال نموا، وتركوا ذريتهم، ثم مضوا، كتب «الثرثارين» وسلسلة «رولو» وألف كتاب من أعمال الرب –النار، والطوفان، وأمواج المد، والزلازل- وكلها حافلة بالصور، ثم «جحيم جوستاف دوريه المصورة» ومعها قصائد دانتي الرباعية وكأنها قوالب طوب بين الصور، ثم قصص «هانز كريستيان أندرسن» التي تحز في القلب، والعنف والقسوة اللذان يجمدان الدم في العروق في كتب الإخوة جريم، ثم كتاب «وفاة آرثر» بجلاله ولوحاته التي رسمها «أوبري بيروسلي» ذلك المخلوق الملتوي العليل، وكيف كان اختياره غريبًا حين صور «مالوري» العظيم الممتلئ رجولة.

أذكر كيف كنت أفكر في مدى حكمة رجل مثل «ه.ك. أندرسن» لقد باح الملك بأسراره إلى أعماق بئر، فبقيت أسراره في مأمن. والرجل الذي يبوح بأسرار أو يحكي قصصًا ينبغي عليه أن يفكر فيمن يسمعه أو يقرؤه؛ لأن للقصة عددًا من التأويلات بمثل عدد ما لها من قراء. فكل امرئ يأخذ منها ما يريده أو يقدر عليه، وهكذا يغيرها بما يتناسب معه. البعض ينتقي أجزاء وينبذ الباقي، والبعض يصفي القصة خلال شبكة تحيزه، والبعض يضفون عليها ابتهاجهم. وينبغي أن يكون في القصة بضع نقاط اتصال مع القارئ؛ لكي تجعله يحس معها بالألفة، فحينئذ فحسب يمكنه تقبل غرائبها. فالحكاية التي قد أحكيها لآلان ينبغي أن يختلف بناؤها عن بناء نفس الحكاية حين تُحكى لماري، وتلك بدورها تشكل بشكل يتناسب مع مارولو، إذا كان مارولو سيشترك في سماعها. ولكن ربما يكون بئر هوساي أندرسون هو الأفضل. فهو يتلقى فحسب، والصدى الذي يردده منخفض وسرعان ما يزول.

أحسب أننا جميعًا، أو أن غالبيتنا، نقيم من أنفسنا حُرَّاسًا على علم القرن التاسع عشر، ذلك العلم الذي أنكر وجود أي شيء لم يتمكن من قياسه أو تفسيره.

فالأشياء التي لم نستطع تفسيرها، استمرت، ولكن المؤكد أنها استمرت دون أن نؤيدها ببركاتنا. ونحن لم ندرك ما لم نستطع تفسيره، وخلال ذلك ترك جزء كبير من العالم للأطفال والمجانين والأغبياء والمتصوفين، لأولئك الذين كان اهتمامهم بما هو كائن أكثر من اهتمامهم بسبب وجوده. وكثيرة جدًّا هي الأشياء القديمة الحلوة المخزونة في سندرة العالم، لأننا لا نريدها من حولنا ولا نجسر على إلقائها بعيدًا.

تدلى من إحدى دعامات السقف مصباح وحيد غير مظلل. أما أرضية السندرة فتكسوها ألواح من خشب الصنوبر المحفور باليد، عرض الواحد منها عشرون بوصة وسمكه بوصتان، وهي ركيزة متينة فسيحة للأكداس المرتبة من الحقائب الكبيرة والصناديق، والمصابيح والفازات الملفوفة في الورق، وكل ما استبعد من أنواع الحلي. ويتألق الضوء في رقة على أجيال من الكتب موضوعة في

خزانات كتب مكشوفة – وكلها نظيفة لا يعلوها التراب. وعزيزتي ماري متعقبة تراب حازمة لا تلين، وهي أنيقة الهندام مثل باشجاويش؛ لذا ترتب الكتب حسب حجمها ولونها.

كان آلان يسند جبهته إلى الجزء الأعلى لخزانة كتب، ويحملق بناظريه إلى أسفل حيث الكتب، وقد وضع يده اليمنى على شعيرة سيف الفرسان المقدسين وجعل طرفه المدبب إلى أسفل وكأنه عصا.

- أنت تشكل صورة رمزية، يا بني. فلنسمها (شباب، وحرب، وتحصيل).

- أريد أن أسألك: لقد قلت إنه توجد كتب أرجع إليها للحصول على المادة.

- أي نوع من المادة؟

- وطنية عصر الجاز، لأكتبها في المقالة.

- أفهم. وطنية عصر الجاز. ما رأيك في هذا؟ (هل عزت الحياة وحلا السلم، بحيث صار ثمن شرائهما هو الأغلال والعبودية؟ ألا فلتمنع عنا هذا، يا إلهي العظيم!

أنا لا أعرف أي طريق سيسلك الآخرون. ولكن فيما يتعلق بي امنحني الحرية أو هبني الموت!).

- عظيم تلك هي البذور.

- هي كذلك بالتأكيد. في تلك الأيام كانت الأرض مأهولة بالعمالقة».

- ليتني عشت حينذاك، في سفن القراصنة. ويا لي من صبي! بانج بانج! سلموا سيوفكم! آنية من ذهب وسيدات يرتدين ثيابًا حريرية وجواهر. ليتني عشت فعلًا حينذاك. لقد عاش بعض أهلنا تلك الفترة، عاشوها فعلًا. لقد قلت هذا أنت نفسك.

- كان نمطًا من القرصنة المهذبة، كانوا يسمونها سفنًا تجارية تابعة للأسطول الحربي. وأظن أن الحياة لم تكن بمثل العذوبة التي تبدو بها من بعد. لحم مملح وبسكويت. ففي تلك الأيام أيضًا كان مرض الأسقربوط موجودًا على سطح الأرض.

- لم يكن ذلك ليهمني. كنت سأحصل على الذهب وأعود به إلى البيت. أظنهم لن يدعوك تفعل هذا الآن.

- كلًا، لقد صارت القرصنة الآن أكثر ضخامة وتنظيمًا. إنهم يسمونها دبلوماسية.

- هناك ولد في مدرستنا كسب جائزتي تلفزيون – خمسين دولارًا ثم مائتي دولار. فكيف حدث ذلك؟

- لابد أنه ذكي.

- هو؟ طبعًا لا. إنها حيلة كما يقول. عليك أن تتعلم الحيلة وحينئذ تصير ملمًّا بسر المهنة.

- سر المهنة؟

- بالتأكيد، مثل قولك إنك مقعد أو إنك تعول أمك العجوز بتربية الضفادع. وذلك يكسبك اهتمام الجمهور وهكذا يختارونك. ولديه مجلة تنشر فيها أي مسابقة تجري في القطر كله. هل أستطيع الحصول على واحدة من تلك المجلات، يا بابا؟

- حسنًا، لقد انتهت القرصنة، ولكني أعتقد أن دافعها لا يزال حيًّا.

- ماذا تقصد؟

- الحصول على شيء من لا شيء. ثروة دون ما جهد.

- هل أستطيع الحصول على تلك المجلة؟

- كنت أظن أن أمثال تلك الأشياء قد لطخها العار منذ فضائح البايولا.

- يا للجحيم! كلا. أقصد كلا، يا سيدي. إنهم بدلوا قليلًا في شكلها. إنني أحب فعلًا أن أقتطع نصيبي من بعض تلك الأسلاب.

- هي أسلاب، أليس كذلك؟

- كلها نقود، ولا تهم كيفية الحصول عليها.

- إني لا أومن بذلك. فإن الحصول على النقود بتلك الطريقة لا يضيرها، ولكنه يضير الشخص الذي يحصل عليها.

- لا أدرك كيف. إنه ليس عملًا منافيًا للقانون. كما أن بعض أعاظم الناس في هذا البلد...

- تشارلز، يا ولدي، يا ولدي.

- ماذا تقصد بقولك، تشارلز؟

- هل ينبغي أن تكون غنيًّا، يا آلان؟ هل ينبغي أن تكون؟

- أتظنني أحب أن أعيش دون موتوسيكل؟ ينبغي أن يكون هناك عشرون فتى لديهم موتوسيكلات. ثم كيف يكون الحال إذا لم تكن لدى أسرتك ولو سيارة، ولندع جانبًا التليفزيون؟

- إنني مذهول حقًّا.

- إنك لا تدري كيف يكون الحال، يا بابا. في أحد الأيام كتبت في الفصل موضوعًا عن جدي العظيم، وكيف كان قبطان سفينة لصيد الحيتان.

- أجل، لقد كان كذلك فعلًا.

- ثم انفجر الفصل كله ضاحكًا. أتدري ماذا يطلقون عليَّ؟ الحيتاني. فهل يعجبك ذلك؟

- يا للشناعة!!

- لم يكن الأمر ليصير بهذه الشناعة، لو كنت محاميًا أو موظفًا في مصرف أو شيئًا من هذا القبيل. أتدري ماذا أنوي أن أفعل بأول جزء أكسبه من الأسلاب؟

- كلا، ماذا تنوي أن تفعل؟

- سأشتري لك سيارة، لكيلا تشعر بالأسى وأنت ترى الآخرين جميعًا يمتلكون سيارات.

وقلت: «شكرًا لك، يا آلان» وأصاب الجفاف حلقي.

- أوه حسنًا. على كل أنا لا أستطيع الحصول على رخصة الآن.

- ستجد كل خطب أمتنا العظيمة في ذلك الصندوق يا آلان. وأتعشم أن تقرأ بعضها.

- سأفعل حتمًا، فإني أحتاج إليها.

- إنك تحتاج إليها بالتأكيد. صيد طيب.

نزلت السلم بهدوء، وكنت أبلل شفتي في أثناء نزولي. كان آلان على حق، فقد كنت أشعر بالأسى. عندما جلست في كرسي الكبير أسفل مصباح القراءة، وأحضرت لي ماري الجريدة.

- كم أنت مبعث رائحة، يا حبيبي.

- تلك البذلة تبدو لطيفًا حقًّا.

- أنت تخسرين جيدًا وتطبخين جيدًا.

- وربطة العنق تناسب لون عينيك.

- أنت تدبرين شيئًا ما. أستطيع أن أحدس. سأبادلك سرًّا بسر.

قالت: «ولكن ليس لدي سر».

- اصنعي واحدًا!

- لا أستطيع، هيا، يا إيثان، أخبرني.

- هل ثمة أطفال متسمعون يسترقون السمع؟

- كلا.

- حسنًا، زارتني اليوم مارجي يانج هنت. نفدت قهوتها، هذا ما قالته، ولكني أعتقد أنها تستحثني على شيء ما.

- هيا، تكلم.

- حسنًا، كنا نتكلم عن الطالع وقلت إنه سيكون من الممتع أن نعيد قراءته مرة أخرى لنرى ماذا قد بقي بلا تغيير.

- غير معقول!.

- بل هذا ما فعلته وقد قلت إنه سيكون أمرًا ممتعًا.

- ولكنك لا تحب مثل تلك الأمور.

- إني أحبها حينما تكون مفيدة.

- وتعتقد أنها ستفعل ذلك الليلة؟

- لو اهتممت بأن تعطيني بنسًا نظير أفكاري، فإنني أظن أن ذلك هو سبب قدومها.

- أوه، كلا! بل أنا التي دعوتها.

- بعد أن هيأت ذهنك لذلك.

- إنك لا تميل إليها.

- بالعكس، لقد بدأت أميل إليها جدًّا، وأحترمها.

- أود لو أستطيع معرفة متى تهزل.

حينئذ دخلت إيلين في هدوء بحيث لا يسعك أن تعرف ما إذا كانت تسترق السمع أم لا، وإن كنت أشك في أنها كانت تتسمع علينا. وإيلين فتاة بكل ما في الكلمة من معان، وتبدو عليها أنوثة فتاة الثالثة عشرة بكل وضوح، حلوة وحزينة، مرحة ورقيقة، بل متمارضة حين تدعو الحاجة. وهي في تلك المرحلة التي تشبه العجين الذي بدأ في التخمر. وربما تغدو جميلة، وربما لا تغدو. وهي تحب الاستناد، وتستند إليَّ، وتتنفس في وجهي أيضًا، ولكن نفسها حلو كتنفس بقرة. كما أنها تحب اللمس أيضًا..

استندت إيلين إلى مسند كرسي. ولمس كتفها الصغير الرقيق كتفي وجرت بإصبع قرمزي منحدرة مع كم ردائي، ثم وصلت إلى الشعرات التي على معصمي فسرت فيه دغدغة. كان الشعر الأشقر الذي على ذراعها يلمع، مثل التبر تحت ضوء المصباح. فتاة منحرفة، إنها كذلك، ولكني أعتقد أن كل الفتيات الممتلئات أنوثة، منحرفات أيضًا.

قلت: «أتستعملين طلاء أظافر؟».

- ماما تسمح لي باستعماله إذا كان قرمزيًّا فحسب. أظافرك غير مشذوبة.

- هل هي كذلك؟

- ولكنها نظيفة.

- لقد دعكتها.

- إني أكره الأظافر القذرة التي كأظافر آلان.

- لعلك تكرهين آلان كله، جملة وتفصيلًا.

- أجل.

- هذا خير لك. ولماذا لا تقتلينه؟

- «أنت أحمق». وتسللت أصابعها خلف أذني.

ربما تكون قد وصلت بالفعل إلى مرحلة إثارة بعض الصبية.

- سمعت أنك تعملين في مقالك.

- أخبرك آلان.

- هل هي مقالة جيدة؟

- أوه، أجل جدًّا. سأدعك تقرؤها حين تتم.

- لي الشرف. أرى أنك ارتديت ثيابك استعدادًا للمناسبة.

- هذا الثوب القديم؟ انني أدخر ثوبي الجديد للغد.

- فكرة طيبة، فسيكون هناك فتيان.

- أنا أكره الفتيان. أنا أكره الفتيان فعلًا.

- أعلم أنكِ تكرهينهم. فالعداوة مبدؤك. أنا نفسي لا أميل إليهم كثيرًا. والآن دعي الاستناد إليّ دقيقة، أريد قراءة الصحيفة.

وانتفضت مثل كواكب السينما في عام 1920، وانتقمت لنفسها في الحال حين سألت:

- متى ستصبح غنيًّا؟

أجل، إنها ستهب رجلًا ما وقتًا سيئًا. كانت غريزتي تدفعني إلى أن أجذبها إليَّ ثم أصفعها، ولكن هذا بالضبط ما كانت راغبة فيه. وإني واثق أنها كانت تظلل عينها.

فقد انبعث منها قليل من الشفقة مثل تلك التي تجدها في عيني نمر أو قط.

قلت: يوم الجمعة القادم.

- حسنًا، أود أن تسرع، فقد سئمت الفقر.

وانسلت خارجة بسرعة، وهي أيضًا متسمعة من وراء الأبواب. إنني أحبها فعلًا، وذلك غريب لأنها تمثل كل ما يثير اشمئزازي في أي شخص آخر، ولكني أعبدها.

ليست الجرائد لي، فقد وصلت مارجي يانج هنت حتى قبل أن أفض جريدتي، كانت أنيقة الهندام – أناقة الهندام التي يضيفها حلاق السيدات- وأظن أن ماري كانت تعرف كيف تم إضفاء تلك الأناقة، أما أنا فلم أعرف.

في الصباح كانت مارجي التي نفدت قهوتها قد تهيأت من أجلي مثل فخ لصيد الدببة. وفي مساء نفس اليوم، كانت تصوب رميتها إلى ماري، كانت ضيفة كاملة –وبالنسبة لامرأة أخرى- مسعفة، وساحرة، ومجاملة، وحصيفة، ومتواضعة، كانت تعاملني كما لو كنت قد أمضيت أربعين سنة منذ الصباح، كم هي شيء مدهش، المرأة. أستطيع أن أُعجب بما يفعلن، وإن كنت لا أفهم لماذا يفعلنه.

بينما انهمكت مارجي وماري في ثرثرتها المرحة، «ماذا فعلت بشعرك؟»، «إنه يعجبني»... «ذلك هو لونك الذي يلائمك. ينبغي أن ترتديه دائمًا» –شارات التعرف غير المؤذي بين النساء- كنت أفكر في أن أكثر القصص التي سمعتها أنثوية، تلتقي امرأتان وتصيح إحداهن: «ماذا فعلت بشعرك؟ إنه يشبه الشعر المستعار»، «إنه شعر مستعار»، «حسنًا، إنك لم تكوني لتعرفيه أبدًا».

ربما كانت تلك استجابات أعمق مما نعرفه أو مما لنا أي حق في معرفته.

كان الغداء سلسلة من صيحات الإعجاب بروعة الدجاج المحمر، وعمليات إنكار أنه لا يصلح للأكل، وكانت إيلين تدرس ضيفتنا وعينها تسجل ما ترى، كل تفاصيل تصفيف شعرها وزينة وجهها. وعرفت حينئذ إلى أي حد يبدأان صغارًا فحصهن الدقيق لما يبنين عليه ما يسمى بسرعة بديهتهن، وتجنبت إيلين عيني، كانت تعلم أنها قد أطلقت سهمها ليُردِي، وكانت تتوقع الانتقام، حسنًا جدًّا، يا ابنتي المتوحشة. سأقتص من نفسي بأقسى طريقة يمكنك تصورها، سأنسى الأمر.

كان غداء طيبًا، فاخرًا وبكميات كبيرة، مثلما ينبغي أن تكون عليه وليمة، واستعملنا جبلًا من الصحاف مما لا يستعمل عادة. وتلت القهوة العشاء، وتلك أيضًا لا نتناولها عادة.

- ألا تبقيك ساهرة؟

- لا شيء يبقيني ساهرة.

- ولا أنا؟

- إيثان!

وتلا ذلك الحرب الساكنة المميتة مع الصحاف: «دعيني أساعدك».

- لا يمكن، فأنت الضيفة.

- حسنًا، دعيني أحملها عنك.

وبحثت عينا ماري عن الطفلين واستحثتهما همتها بسونكي مشرع. كانا يعرفان ما هو آت، ولكنهما كانا عاجزين.

وقالت ماري: «دائمًا ما يقوم الطفلان بهذه العملية، بل إنهما يحبان القيام بها، كما أنهما يؤديانها على خير وجه. إني لفخورة بهما».

- أليس ذلك لطيفًا؟ لم تعودي تري ذلك كثيرًا الآن.

- أعرف. ونحن نشعر بأننا محظوظان لأنهما يرغبان في المعاونة.

كنت أستطيع قراءة ما يدور في ذهنيهما الصغيرين المتصيدين، وهما يبحثان عن مهرب، ويفكران في الاحتجاج، أو التمارض، أو إسقاط الصحاف الجميلة العتيقة.

ولابد أن تكون ماري أيضًا قرأت ما يدور في ذهنيهما الشريرين.

فقالت: «والجدير بالملاحظة أنهما لا يكسران أبدًا أي شيء، بل حتى لم يُشرخ منهما كوب».

وقالت مارجي: «طوبى لك! وكيف علمتهما ذلك؟».

- أنا لم أعلمهما. إنه شيء فطري فيهما. أنت تعرفين أن بعض الناس أغبياء بالسليقة، ولكن آلان وإيلين مفطوران على الذكاء فيما يتعلق بمهارتهما اليدوية.

نظرت إلى الطفلين لأرى كيف تقبلا الأمر. كانا يعرفان أنهما قد غلبا على أمرهما. وأظنهما تساءلا إذا ما كانت مارجي يانج هنت تدرك هذا. كانا لا يزالان يبحثان عن مهرب. وأسقطت الحمل عليهما بكامل ثقله.

قلت: «إنهما يودان طبعًا سماع المديح، ولكن نحن نعطلهما. ستفوتهما السينما إذا لم نتركهما يلحقانها».

كانت مارجي من الكياسة بحيث لم تضحك، ومنَّت على ماري بنظرة إعجاب سريعة متحيرة. لم يكونا قد طلبا حتى الذهاب إلى السينما.

الأطفال في سن المراهقة حتى إذا لم يحدثوا صوتًا ما، إلا أن الجو يصير أكثر هدوءًا بعد انصرافهم، فهم يبثون في الهواء حولهم جوًّا من الغليان. فحينما انصرفا، بدا وكأن البيت كله يرسل زفرة ارتياح ويستكن. لا عجب إذن في ألا تغزو أشباح الضوضاء الغامضة إلا المنازل التي بها أطفال مراهقون.

كنا ثلاثتنا ندور في حرص حول الموضوع الذي أدرك كل منا أنه آت ولا ريب. ذهبت إلى الدولاب ذي الواجهة الزجاجية، وأخرجت ثلاث كؤوس طويلة العنق، على شكل زهرة الزنبق، وفيها التفافة

زهرة القطن، وقد أحضرت من إنجلترا، يعلم الله منذ متى، وصببت من قنينة سعة جالون مغطاه بالقش، أحال الزمن لونها وجعله داكنًا.

وقلت: «روم جامايكا. لقد كان آل هولي رجال بحر».

فردت مارجي يانج هنت: «لابد أنها معتقة جدًّا».

- أكبر سنًّا منك ومني ومن أبي.

وقالت ماري: «إنها ستفقدك الوعي. ولكن، حسنًا، لابد أن هذا حفل حقيقي. فإيثان لا يأتي بها إلا في الأفراح والمآتم فحسب. أتظن أن شرب هذا صواب يا عزيزتي؟

أعني، قبل عيد القيامة مباشرة؟».

- لم يكن العشاء الرباني كوكاكولا، يا حبيبتي.

- ماري، أنا لم أر زوجك أبدًا بمثل هذا الحبور.

وقالت ماري: «إنه الطالع الذي قرأتيه، لقد بدله في ليلة».

كم هو شيء مرعب ذلك الكائن البشري، حشد من المقاييس والأرقام والمجلات، ونحن لا نستطيع أن نقرأ منها إلا القليل فحسب، وربما لا تكون قراءتنا لذلك القليل متقنة. وهج من الألم اللافح الدامي تكون في أحشائي وتحرك إلى أعلى حتى انتشر في المكان الذي تحت ضلوعي مباشرة ومزقه. وزأرت في أذني ريح هائلة دفعتني مثل سفينة عاجزة، تحطمت صواريها قبل أن نتمكن من إنزال قلوعها. وأصبح لفمي مذاق الملح المر، ورأيت غرفة تنبض وتلهث. كانت كل إشارة تحذير تصرخ بالدمار، تصرخ بالصدمة، واقتنصتني بينما كنت أمر خلف كراسي السيدات وثنتني على نفسي في ألم احتضار مزلزل، ومثلما حدثت فجأة اختفت فجأة.

شددت جسدي وواصلت حركتي ولم تدركا حتى أن شيئًا حدث. أدرك الآن كيف اعتقد الناس ذات يوم أن الشيطان يستطيع أن يستولي عليهم. وأنا غير واثق أنني لا أؤمن بذلك... الاستيلاء! الميلاد المضطرم لشيء غريب، بينما كل عصب يقاوم ويفقد المعركة ثم يستقر مهزومًا ليعقد الصلح مع غازيه. الاغتصاب – تلك هي الكلمة، إذا أمكنك التفكير في وقع كلمة يحدها لهيب أزرق كذلك المندفع من وابور لحام.

وجاء في صوت حبيبتي، كانت تقول: «ليس من المؤذي حقًّا أن يسمع المرء أشياء لطيفة».

وجربت صوتي، كان قويًّا ثابتًا، «قليل من الأمل، بل حتى الأمل الذي لا أمل فيه، لا يؤذي أحدًا على الإطلاق».

قلتها ووضعت القنينة في الدولاب، ثم عدت إلى كرسي، وشربت نصف كأس الروم العتيق ذي الرائحة الفياحة، ثم جلست ووضعت ساقًا على ساق وشبكت أصابعي في حجري.

قالت ماري: «أنا لا أفهمه. كان دائمًا يمقت قراءة الطالع، ويسخر منها بالنكات. إنني فعلًا لا أفهم».

كانت أطراف أصابعي تخشخش مثل عشب الشتاء الجاف حين تحركه الرياح، وقد ابيضت أصابعي المتشابكة من الضغط عليها.

قلت: «سأحاول شرح الأمر لمسز يانج هنت – أقصد، لمارجي. إن ماري تنحدر من عائلة إيرلندية نبيلة ولكنها فقيرة».

- لم نكن فقراء إلى ذلك الحد.

- ألا تستطيعين سماع الفقر في حديثها؟

- حسنًا، والآن ما دمت تذكر هذا.

- حسنًا، إن ماري قديسة، أو كان ينبغي أن تكون، فقد كانت جدتها مسيحية طيبة، ألم تكن كذلك يا ماري؟

بدا لي قليلًا من العداوة بدأ ينمو في أعماق عزيزتي، واستطردت:

«ولكنها لم تصادف مشكلة في الاعتقاد في أهل الجان، ورغم أن الاثنين لا يلتقيان من وجهة نظر علم اللاهوت المسيحي الخالص الذي لا التواء فيه».

- ولكن الأمر مختلف.

- طبعًا إنه كذلك، يا حبيبتي. كل شيء تقريبًا مختلف. هل تستطيعين أن تكفري بشيء لا تعرفين عنه شيئًا.

وقالت ماري: «انتبهي إليه فسيوقعك في فخ من الكلمات».

- لن أفعل، فأنا لا أفهم في الطوالع وقراءة الطوالع. فكيف أستطيع إنكارها؟ إني أؤمن بوجودها لأنها تتحدث.

- ولكنك لا تؤمن بصحتها.

- الصحيح هو أن الناس يمارسونها، الملايين منهم، ويدفعون النقود من أجلها. ويكفي أن يعرف المرء ذلك ليهتم بها، أليس كذلك؟

- ولكنك لا.....

- انتظري! إن الأمر ليس هو إني لا أؤمن بل إنني لا أعرف. وهما ليسا نفس الشيء. وأنا لا أعرف أيهما يأتي أولًا: الطالع أم قراءة الطالع.

- أحسبني أعرف ماذا يعني.

- «صحيح؟» لم تكن ماري مسرورة.

- فنفترض أن قارئ الطالع كان ذا حساسية تجاه أشياء ستقع مهما كان الحال. أهذا ما تقصدين؟

- ذلك شيء مختلف. ولكن كيف يستطيع الورق أن يعرف؟

قلت: «الورق لا يستطيع مجرد الحركة دون أن يكون هناك ثمة شخص ليقلبه».

لم تنظر مارجي إليَّ ولكني أدركت أنها أحست بتزايد قلق ماري، وكانت تريد توجيهات.

وسألت: «ألا نستطيع أن نقوم باختبار؟».

- «حسنًا، ذلك أمر مضحك. إذ يبدو أن هذه الأشياء تقاوم الاختبار وتهرب، ولكن لا ضرر من المحاولة. أتستطيع أن تفكر في اختبار؟».

- «أنتما لم تمسسا شرابكما!».

رفعتا كأسيهما معًا وارتشفتا ثم وضعتاهما. وأفرغت كأسي ثم أحضرت الزجاجة.

- «إيثان، أتظن أنه لابد أن تشرب؟».

- «أجل، يا عزيزتي». وملأت كأسي. «لم لا تستطيعين أن تقلبي الورق وأنت مغمضة العينين؟».

- «لأنه ينبغي أن يُقرأ».

- «وكيف يكون الحال لو قلبته ماري أو أنا، ثم قرأته أنت؟».

- «من المفروض أن يكون هناك اتصال وثيق بين القارئ والورق، ولكني لا أعرف – نستطيع أن نجرب».

وقالت ماري: «أعتقد أننا إذا كنا سنقوم بالقراءة بأي حال من الأحوال، فينبغي أن نقوم بها على الوجه الصحيح». إنها دائمًا كذلك. لا تحب التغيير – أقصد، التغيير الطفيف. أما التغييرات الضخمة فتستطيع معالجتها أفضل من أي شخص آخر، فهي تنفجر ثائرة إذا جرح لها إصبع، ولكنها تكون هادئة متماسكة إذا قطعت رقبتها. كنت أحس باختلاجة قلق؛ لأنني سبق أن أخبرت ماري أننا ناقشنا هذا الموضوع، ثم ها نحن أولاء يبدو علينا أننا نفكر فيه للمرة الأولى.

- «لقد تكلمنا عن الموضوع في الصباح».

- «أجل، حين ذهبت للإتيان بالقهوة. لقد كنت افكر في الأمر طوال اليوم. وأحضرت الورق». إن ماري على استعداد أن تشوش على التصميم بالغضب، وعلى الغضب بالعنف، ولكنها ترتعب من العنف. وقد غرس ذلك الرعب فيها بعض أعمامها ممن يدمنون الخمر، وهذا عار. كنت أستطيع أن أحس بخوفها يتزايد.

قلت: «فلنترك العبث بالطوالع، ولنلعب لعبة الباتشيكا[3] بدلًا من ذلك». وأدركت مارجي التكتيك، عرفته، وربما سبق لها أن استعملته.

- هذا يلائمني.

- إن طالعي تقرر. سأصبح غنيًّا. فدعو الأمر يسير في ذلك الاتجاه.

- ها أنت ترين، لقد أخبرتك أنه لا يؤمن به. إنه يدور بك حول الموضوع تمامًا وبعدئذٍ يتخلى عنك. إنه يدفعني إلى الجنون أحيانًا.

- صحيح؟ أنت لم تظهري ذلك أبدًا. أنت دائمًا زوجتي العزيزة.

أليس غريبًا ما يحدث أحيانًا من قدرتك على الإحساس بتيارات مضادة لها – ليس دائمًا، بل أحيانًا فحسب. إن ماري لا تستخدم عقلها في التفكير المنظم، وربما يجعلها ذلك أكثر استجابة للتأثيرات. كان ثمة توتر قد أخذ ينمو في الغرفة. وعبرت ذهني فكرة أنها قد لا تصبح من أحسن صديقات مارجي بعد الآن– إنها قد لا ترتاح إليها أبدًا بعد ذلك.

قلت: «إنني أحب في الواقع أن أفهم ما يتعلق بالورق. فإني جاهل بهذا الأمر. سمعت دائمًا أن الغجر يمارسون قراءة الورق، فهل أنت غجرية؟ لا أظن أنني التقيت بواحدة منهن أبدًا».

وقالت ماري: «لقد كان اسمها الأول قبل الزواج روسيًّا، ولكنها من آلاسكا».

إذن فذلك ما يفسر عظمتي الوجنة العريضتين.

قالت مارجي: «لديَّ سر آثم لم أبح لك به أبدًا من قبل يا ماري، وهو كيف حدث أن جئنا إلى ألاسكا؟».

قلت: «كانت ملك الروس، ثم اشتريناها منهم».

- أجل، ولكن هل عرفت أنها كانت سجنًا، مثل سيبيريا، سجنًا لأبشع الجرائم؟

- أي نوع من الجرائم؟

- أبشعها. لقد حكم على جدتي لأمي بالنفي إلى ألاسكا لممارستها فنون السحر.

- وماذا فعلت؟

- كانت تثير العواصف.

وضحكت: «أرى أنك توصلت إلى هذا بطريقة طبيعية».

- إلى إثارة العواصف؟

- بل إلى قراءة ورق اللعب – فهي نفس الشيء تقريبًا.

وقالت ماري: «إنك تمزحين، ليس ذلك حقيقيًّا».

- ربما كنت أمزح، يا ماري، ولكنه حقيقي. كانت تلك هي أبشع من القتل -ولازلت أحتفظ بأوراقها– إلا أنها باللغة الروسية فحسب.

- أتستطيعين الكلام بالروسية؟

- القليل منها فحسب، الآن.

وقلت: «ربما لا تزال ممارسة فنون السحر هي أبشع الجرائم؟».

قالت ماري: «أفهمت ماذا أعني؟ إنه يقفز إلى هذا الجانب وذاك الجانب. ولا تعرفين أبدًا في أي شيء يفكر.. وليلة الأمس استيقظ -نهض قبل شروق الشمس هذا الصباح، وذهب ليتمشى».

وقلت: «إنني وغد! نذل لا رادع له ولا يعوض».

- حسنًا، أحب أن أرى مارجي تقلب الورق، ولكن بطريقتها الخاصة ودون تدخلك. وإذا بقينا نتكلم، فسيأتي الأطفال إلى البيت وحينئذ لن نستطيع ممارسة التجربة.

قلت: «معذرة للحظة». صعدت الدرج إلى مخدعنا. كان للسيف فوق الفراش وصندوق القبعة مفتوحًا على الأرض. ذهبت الحمام وشددت السيفون. تستطيع أن تسمع الماء مندفعًا في البيت كله، بللت قطعة قماش في الماء البارد وضغطتها على جبهتي وبالذات على عيني. كانتا تبدوان كأنهما تجحظان بفعل ضغط داخلي، وكان ملمس الماء البارد حلوًا، فجلست على قعدة المرحاض وخفضت وجهي إلى المنشفة المبللة وحين صارت دافئة بللتها ثانية. وفي أثناء عودتي خلال المخدع، التقطت قبعة الفرسان ذات الريشة من صندوقها، ونزلت الدرج في خطوة عسكرية وأنا أرتديها.

قالت ماري: «أوه، أيها الأحمق».

وبدا عليها السرور والراحة. لقد مضى الكرب من الجو.

وسألت: «هل يستطيعون قصر لون ريش النعام؟ لقد استحالت ريشتها صفراء».

- أظن ذلك. سل مستر شولتز.

- سآخذها معي يوم الإثنين.

وقالت ماري: «أتمنى أن تقوم مارجي بتقليب الورق. إنني توَّاقة جدًّا لذلك».

وضعت القبعة على العمود الأخير في الدرابزين، وبدا منظرها مثل أميرال مخمور لو كان يوجد شيء كذلك.

- أحضر منضدة الورق، يا إيثان. فالعملية تحتاج إلى مكان فسيح.

أحضرتها من دولاب الصالة، وجذبت أرجلها ففتحتها.

- مارجي تحب كرسيًّا مستقيم الظهر.

ووضعت أحد كراسي مائدة الطعام: «أينبغي علينا أن نفعل شيئًا؟».

فأجابت مارجي: «ركز تفكيرك».

- في أي شيء.

- قريبًا بقدر الإمكان من لا شيء. الورق في حقيبة يدي هناك على الأريكة.

كانت فكرتي دائمًا عن الورق المستعمل في قراءة الطالع أنه قذر وسميك ومثني، ولكن هذا الورق كان نظيفًا لامعًا، وكأنه مغطى بطبقة من البلاستيك. كان ورقًا أطول وأقل عرضًا من ورق اللعب، وأكثر بكثير من اثنين وخمسين ورقة. جلست مارجي منتصبة إلى المنضدة وفردت الورق على شكل مروحة– صورًا زاهية الألوان ومجموعات معقدة. كانت الأسماء مكتوبة بالفرنسية: الإمبراطور، الناسك، المركبة، العدالة، الصاري، الشيطان– أرض، وشمس، وقمر، ونجوم، ومجموعات من السيوف، والفناجين، والهراوات، والنقود، فيما أعتقد، لو كانت كلمة درهم تعني النقود، ولكن شعار الورق كان على شكل وردة مما تزين به الدروع، وكان لكل مجموعة ملكها، وملكتها، وفارسها، وبعدئذ رأيت ورقًا غريبًا –ورقًا مزعجًا- برج شرخته الصاعقة، عجلة حظ، رجل معلق من ساقيه في مشنقة، يسمى المشنوق ثم الموت – la mort، هيكل عظمي معه منجل. وقلت: «كئيبة بعض الشيء. هل تعني الصور وما تبدو عليه؟».

- الأمر متعلق بكيفية حدوث علاقتها ببعضها. فلو جاء وضع الصور بالمقلوب، فإنها تعني عكس معناها.

- وهل يوجد اختلاف في المعنى؟

- نعم. وذلك هو تفسير الطالع.

اللحظة التي أخذت مارجي فيها الورق، صارت جامدة المظهر. وتحت الأضواء أظهرت يداها ما كنت قد رأيته من قبل، وهو أنها أكبر سنًّا مما تبدو.

سألتها: «أين تعلمت قراءة الورق؟».

- اعتدت أن أرقب جدتي، ومارستها مؤخرًا كخدعة في الحفلات، أعتقد كوسيلة لجذب الانتباه.

- وهل تؤمنين بها؟

- لا أدري، فأحيانًا ينتج عنها أشياء ملحوظة. لا أدري.

- أيمكن أن يكون الورق نوعًا من التركيز الديني– التمرين النفسي؟

- أحيانًا أعتقد أن هذا صحيح. حينما أجد أنني أسبغ على ورقة قيمة لم تكن لها من قبل، حينئذ غالبًا ما يكون الطالع صحيحًا.

كانت يداها كشيئين ينبضان بالحياة وهما تخلطان الورق وتقطعان ثم تخلطان وتقطعان ثانية، ثم تمدهما إليَّ لأقطع.

- طالع من الذي سأقرأه؟

وصاحت ماري: «اقرئي طالع إيثان، لنرى إذا ما كان سيتفق مع طالع الأمس».

ونظرت ماري إليَّ، وقالت: «شعر أشقر، وعينان زرقاوان. هل أنت أقل من الأربعين؟».

- بالضبط.

- «ملك الهراوات» وعثرت على الورقة في الشدة. «هذا هو أنت» –صورة ملك متوَّج يلبس لباس الملك ويمسك صولجانًا ضخمًا لونه أحمر وأزرق ومطبوع تحت الصورة بالفرنسية (ملك الهراوة). وضعت مارجي الورقة ووجهها إلى أعلى ثم أعادت خلط الشدة. وبعدئذ قلبت الورق بسرعة، وهي تتكلم بصوت غنائي أثناء قيامها بذلك. ورقة فوق ورقتي – «هذه تغطيك». وورقة متقاطعة مع الورقة العلوية – «هذه تعترضك». وواحدة أعلاها – «هذه تتوجك». وواحدة إلى أسفل – «هذه أساسك. وهذه أمامك، وهذه خلفك». كانت قد كونت صليبًا من الورق فوق المنضدة. وبعدئذ وبسرعة قلبت أربع ورقات وجعلتهم في خط إلى يسار الصليب، وهي تقول: «نفسك، وبيتك، وآمالك، ومستقبلك». كانت الورقة الأخيرة هي الرجل المشنوق بالمقلوب، وقد كتب تحتها بالفرنسية (المشنوق) ولكن من حيث كنت أجلس عبر المائدة كان وضعه معتدلًا إلى أعلى.

- هذا كثير جدًّا على مستقبلي.

قالت: «قد يعني هذا النجاة». كانت سبابتها تتابع خط شفتها السفلي.

وتساءلت ماري: «هل النقود موجودة هناك؟».

- «أجل– إنها هناك» قالتها بذهن شارد. وفجأة جمعت الورق، وخلطته مرات ومرات، ثم فردته ثانية، وهي تغمغم ترتيلها بصوت هامس. لم يكن يبدو عليها أنها تدرس أوراقًا بعينها، بل كانت تنظر إلى المجموعة كلها مرة واحدة، كانت عيناها غائمتان تائهتان.

وفكرت، إنها خدعة جيدة، مثل الشغف في الأندية النسائية– أو في أي مكان آخر. لابد أن العرافة القديمة كانت بهذا الشكل، باردة ومعقدة ومركبة. فلو استطاعت أن تبقي الناس متوترين، يأخذون أنفاسهم بصعوبة، وينتظرون وقتًا طويلًا، فهم سيصدقون أي شيء– إنه ليس التمثيل، بقدر ما هو التكتيك، والتوقيت الجيد. هذه المرأة كانت تضيع مع الوكلاء التجاريين المتجولين. ولكن ما الذي أرادته منا أو بالأحرى مني، وفجأة جمعت الورق، وربتت عليه لتسويته في شكل مربع، ثم وضعته

في الصندوق الأحمر الذي كتب عليه بالفرنسية: رقم واحد. موللروسي. مصنع أوراق لعب.

قالت: «لا أستطيع القراءة. يحدث هذا أحيانًا».

قالت ماري مبهورة بالأنفاس: «هل رأيت شيئًا لا تريدين قوله؟».

- «أوه، بل سأقول كل شيء. ذات يوم عندما كنت صبية صغيرة، رأيت حية تغير جلدها، حية من ذوات الأجراس مما يوجد في جبل روكي. وأخذت أرقب الأمر كله. حسنًا والآن، في أثناء تطلعي إلى الورق، اختفى الورق ورأيت الحية تغير جلدها، جزء منه مغير وممزق وجزء نظيف وجديد. وعليك أنت تتصوري الأمر».

قلت: «يبدو أنها حالة غيبوبة. هل حدثت لك مطلقًا من قبل؟».

- ثلاث مرات قبل هذه.

- وهل كان لها أي دلالة في المرات الأخرى؟

- لا، على ما أعلم!

- ودائمًا تبدو الحية!

- أوه كلا؟ أشياء أخرى، ولكنها بنفس السخف.

وقالت ماري بحماس: «ربما كانت رمزًا لتغير الحظ الذي سيحدث لإيثان».

- هل إيثان حية ذات أجراس؟

- أوه. أدرك ما تقصدين.

قالت مارجي: «هذا يجعلني أحس بالتوتر والخوف. ففيما مضى كنت أحب الحيات، ولكني حين كبرت صرت أكرهها. إنها تسبب لي الرعب. يحسن بي أن أذهب».

- يستطيع إيثان أن يوصلك إلى البيت.

- لم أكن لأفكر في ذلك.

- سيسعدني أن أفعل.

وابتسمت مارجي لماري، وقالت: «إن عليك تبقيه هنا معك؛ لأنك لا تعرفين كيف يكون الحال حين تكونين بدون رجل».

فردت ماري: «هراء، كنت تستطيعين الحصول على زوج بإشارة من إصبعك».

- «وذلك ما فعلته من قبل. ولكن هذا لا فائدة منه، فهم إذا جاءوا بهذه السهولة، لا يستحقون عناء

الحصول عليهم. احتفظي به في بيتك، فقد يختطفه شخص منك». وأتت بمعطفها بينما كانت تتكلم– يا لها من امرأة سريعة الانسحاب. «غداء ممتع. أتعشم أن تدعواني مرة أخرى. آسفة من أجل قراءة الطالع، يا إيثان».

- هل سنراك غدًا في الكنيسة؟

- كلا. إنني ذاهبة إلى مونتوك الليلة.

- ولكن الجو بارد جدًّا ورطب.

- إني أحب أن أرى إشراقات الصباح فوق البحر هناك. طابت ليلتكما.

كانت قد خرجت قبل أن أتمكن حتى من فتح الباب لها، خرجت وكأن شيئًا ما كان يطاردها.

قالت ماري: «لم أكن أعلم أنها ذاهبة الليلة إلى هناك؟».

ولم أستطع أن أقول لها: «وكذلك هي لم تكن تعلم».

- إيثان – ماذا تستنتج من قراءة الطالع الليلة؟

- إنها لم تقرأ طالعًا.

- إنك تنسى، لقد قالت إنه ستكون هناك نقود. ولكن ماذا تستنتج من هذا؟ أظن أنها رأت شيئًا ما لم ترد قوله، شيئًا بث فيها الرعب.

- ربما تكون قد رأت الحية ذات مرة، ولا زالت ذكراها باقية في ذهنها.

- ألا تعتقد أن لها معنى؟

- يا قرص العسل، إنك أنت الخبيرة في الطوالع، فكيف أستطيع أنا أن أعرف؟

- حسنًا، إنني سعيدة على أي حال لأنك بت لا تكرهها. وكنت أظنك تكرهها.

قلت: «إنني خدَّاع، فأنا أخفي أفكاري».

- ليس عني، إنك لا تستطيع أن تفعل. إن الأطفال سيبقون إلى العرض الثاني.

- وهل سيعودون ثانية؟

- أقصد الأطفال. إنهما دائمًا يفعلان ذلك. في اعتقادي أنك كنت مدهشًا في قصة الأطباق.

قلت: «إنني ملتو. وبالمناسبة، لدي خطط لتكريمك».

# الفصل السادس

لقد عودتني خبرتي أن أضع جانبًا اتخاذ قرار، إلى أن أفكر فيه مستقبلًا. وذات يوم، كنت أنسج قطعة من الزمن لأواجه بها المشكلة، فوجدتها قد اكتملت فعلًا، وحُلت وأُتخذ فيها قرار. ولابد أن هذا يحدث لكل شخص، ولكني لا أملك أي وسيلة لمعرفة ذلك. إن الأمر يبدو كما لو أن هيئة محلفين بلا وجوه قد التقت في كهوف العقل المظلمة المنعزلة، واتخذت قرارها. ولقد اعتدت دائمًا أن أتخيل هذه المنطقة الغامضة الأرقة مني، على أنها تشبه ماء أسود، عميقًا، بلا أمواج، منطقة تفريخ لا يبزغ منها إلى السطح سوى بضعة أنماط فحسب. أو ربما كانت مثل مكتبة عظيمة تحتوي تسجيلًا لكل شيء حدث على وجه الإطلاق للكائن الحي منذ اللحظة الأولى التي بدأ فيها الحياة.

وأظن أن بعض الناس أكثر دنوًّا إلى هذا المكان من الآخرين -كالشعراء مثلًا- وذات مرة، حينما كنت أعمل مبكرًا وليس لدي منبه، استخدمت وسيلة أرسل بها إشارة ثم أتلقى الرد عليها. ففي أثناء رقادي على الفراش ليلًا، كنت أرى نفسي واقفًا على حافة الماء الأسود، وكنت أتصور حجرًا أبيض أمسك به في يدي، حجرًا مستديرًا، كنت أكتب على وجهه بحروف حالكة السواد «الساعة الرابعة»، وبعدئذ ألقي بالحجر وأرقبه وهو يغرق، ثم يدور ويدور، حتى يختفي. وأفلحت هذه الطريقة معي. ففي الرابعة بالثانية، كنت أستيقظ. واستطعت فيما بعد أن أستعملها لإيقاظي في الرابعة إلا عشر دقائق أو في الرابعة والربع. ولم تخب معي هذه الطريقة أبدًا.

وكان يندفع إلى السطح حينئذ شيء غريب، وأحيانًا شيء مرعب وكأن ثعبان بحر أو وحشًا بحريًّا قد برز الأعماق الهائلة.

منذ عام مضى فحسب، تُوفي دنيس شقيق ماري في بيتنا، مات ميتة شنعاء بسبب مرض أصاب الغدة الدرقية وأرغم إفرازات الخوف على البقاء داخل جسده، لدرجة أنه صار عنيفًا، ومرعوبًا، وشرسًا. وصار وجهه الإيرلندي العطوف الذي يشبه وجه حصان، وجهًا وحشيًّا. وقد ساعدت في الإمساك به، وتهدئته، وطمأنته خلال أحلامه بالموت. واستمر الحال أسبوعًا قبل أن تبدأ رئتاه في الامتلاء بالإفرازات. ولم أشأ أن تراه ماري وهو يموت. لم تكن قد رأت أبدًا منظر الموت، وكنت أعلم أن هذا المنظر الحالي، قد يزيل ذكراها الحلوة عن رجل عطوف كان أخاها. وبعدئذ، وأثناء جلوسي منتظرًا بجوار فراشه، سبح مسخ طافيًا من مائي الأسود، وكرهته. وددت أن أقتله، أن أقضم رقبته بأسناني. وانقبضت عضلات فكي، وأعتقد أن شفتي تراجعتا إلى الخلف مثل ذئب على وشك القتل.

وحين انتهى الأمر، وفي إحساس مريع بالذنب، اعترفت بما كنت أحسه للطبيب العجوز بيل، الذي وقع شهادة الوفاة.

قال: «لا أعتقد أن هذا أمر غير عادي. لقد رأيته على وجوه الناس، ولكن قليلين منهم يصرحون به».

وسألته «ما الذي يسببه؟».

أجاب: «لعلها ذكرى قديمة، لعلها عود إلى زمن القبيلة حين كان الفرد المريض أو المصاب يعتبر خطرًا. وبعض الحيوانات ومعظم الأسماك تمزق أخاها الضعيف وتأكله».

- «ولكني لست حيوانًا، ولا سمكة!».

- «كلا، إنك لست كذلك. وربما كان ذلك هو السبب في أنك تجد الأمر غريبًا. ولكنه موجود. إنه جميعه موجود هناك».

إنه رجل طيب عجوز، الطبيب بيل، رجل عجوز منهك. لقد ولّد نساء عائلتنا، ودفن أمواتنا طيلة خمسون عامًا.

فلنعد إلى ذلك المؤتمر المنعقد في الظلام – لابد أنه كان يعمل بعد انتهاء الوقت المحدد له. أحيانًا يبدو على امرئ أنه يناقض نفسه لدرجة أن تقول: «لا يمكن أن يفعل ذلك. إن هذا مناف لشخصيته». وربما لا يكون الأمر كذلك. ربما بدت صورته من زاوية أخرى، أو ربما يكون الضغط فوقه وتحته قد غير من صورته. وأنت ترى هذا كثيرًا في الحرب، جبان ينقلب بطلًا، شجاع يرتعد فرقًا. أو تقرأ في صحيفة صباحية عن رجل لطيف، ورب عائلة عطوف، يقطع رقبة زوجته وأطفاله ببلطة، أعتقد أنني أؤمن بأن المرء يتغير طوال الوقت. ولكن هناك لحظات بعينها يصير التغير فيها ملحوظًا. ولو أردت أن أنقب بالعمق الكافي لاستطعت أن أتعقب في الماضي مباشرة جذور تغيري منذ ولادتي بل وقبلها. ففي الفترة الأخيرة بدأ كثير من الأشياء الصغيرة يشكل نمطًا لأشياء أكبر. وكأن الأحداث والخبرات كانت تلكزني وتدفعني بالمناكب في اتجاه مضاد لاتجاهي العادي، أو للاتجاه الذى توصلت إلى التفكير في أنه عادى -اتجاه الموظف في محل بقالة، وفشله، اتجاه الرجل المقيد بمسؤوليات ملء بطون أفراد أسرته وكساء أجسادهم، الرجل الذى حبس داخل قفص من العادات والتصرفات التى كنت أفكر فى أنها أخلاقيه وفاضلة.

وربما انتابنى نوع من الرضا عن النفس؛ لكونى أصبحت ما أطلق عليه «رجلًا طيبًا».

وكنت أعرف بالتأكيد ماذا يدور حولي. لم يكن مارولو في حاجة لأن يخبرني. فأنت لا يمكنك العيش في بلدة بحجم نيوبايتون دون أن تعرف كل شيء. لم أفكر كثيرًا في الأمر. لقد ثبت القاضي «دور كاس» ثمن تذاكر المواصلات لقاء مجاملات. وحتى هذا لم يكن سرًّا. والمجاملات تتطلب المجاملات. والعمدة، وهو أيضًا مقاول لأعمال البناء في شركة «بد» لمواد البناء، كان يبيع المعدات للبلدية بسعر مرتفع، ولم تكن هناك حاجة إلى بعضها. فلو أن شارعًا مرصوفًا جديدًا كان سيمد، فغالبًا ما يتبين أن المستر بيكر ومارولو ونصف دستة من قادة رجال الأعمال الآخرين قد اشتروا جميع الأراضي قبل أن يعلن تخطيط الشارع. كانت هذه مجرد حقائق عن الطبيعة، ولكني أومن دائمًا أنها ليست حقائق طبيعتي. كان مارولو ومستر بيكر والوكيل المتجول ومارجي يانج هنت وجوي مورفي يدفعونني في تزاحم، وفجأة تحول دفعهم إلى دفعة قوية، جعلتني أقول: «ينبغي أن أحتجز بعض الوقت لكي أتدبر الأمر».

كانت عزيزتي تهر في نومها، بابتسامتها الأثرية على شفتيها، وقد بدا عليها التألق الزائد المنبعث من الراحة والسلوى.

كان لابد أن ينتابني النعاس بعد تجوالي في الليلة السابقة، ولكني لم أكن كذلك. وقد لاحظت أنني نادرًا ما أنعس إذا علمت أن باستطاعتي النوم طويلًا في الصباح. كانت البقع الحمراء تسبح أمام عيني، وضوء الشارع يلقي ظلال أغصان شجرات الدردار الجرداء على السقف، فشكلت أمهادًا بطيئة الحركة ومستقرة، لأن ريح الربيع كانت تهب. كانت النافذة نصف مفتوحة، والستائر البيضاء تنتفخ وتمتلئ كأشرعة فوق سطح مركب ألقى مراسيه. كانت ماري تصر على أن تكون ستائرها بيضاء نظيفة دائمًا، وكانت تبعث فيها إحساسًا بالرقة والطمأنينة. وهي تتظاهر بشيء من الغضب حين أقول لها إن سبب ذلك هو روحها الإيرلندية الموشاة بستائر الدانتيل.

كنت أحس أنني بخير وأنني مشبع أيضًا، ولكن حين تغوص ماري في لجة النوم، تنتفي لديَّ الرغبة في النوم. كنت أريد أن أستمر في التذوق الكامل لإحساسي الطيب. كنت أريد أن أفكر في مسابقة مقال «أحب أمريكا» التي كان أولادي سيدخلونها. خلاف تلك الأشياء وغيرها، كنت أريد أن أفكر فيما كان يحدث لي وماذا سأفعل فيه، ولذا كان طبيعيًّا أن أستخرج آخر شيء لأضعه في المقدمة. ووجدت أن محلفي الظلام السود قد اتخذوا قرارهم فعلًا بشأني. كان هناك، منشورًا ومؤكدًا. كان الأمر كأنه تدريب لسباق ثم استعداد ثم تجد نفسك أخيرًا عند نقطة البدء وأنت على أهبة الاستعداد. لا خيار في الأمر إذن. عليك أن تتحرك حين يُطلق المسدس. ووجدتني مستعدًّا وعلى أهبة الاستعداد، وفي انتظار الطلقة فحسب. ومن الواضح أنني كنت آخر من يعلم. كان جميع الناس الذين التقيت بهم في يومي قد لاحظوا أنني أبدو في خير حال، وكانوا بهذا يقصدون أنني أبدو مختلفًا، أكثر ثقة بالنفس، ومتغيرًا. لقد كان يبدو على ذلك الوكيل المتجول أثر الصدمة عصر اليوم. ولقد تفحصني مارولو في قلق. وأحس الفتى جوي بحاجته للاعتذار عن شيء فعله. وبعد ذلك مارجي يانج هنت لعلها كانت أحدّهم بصيرة في حلمها عن الحية ذات الأجراس، فلقد نفذت إلى أعماقي بطريقة ما، واكتشفت فيّ شيئًا مؤكدًا قبل أن أتأكد أنا منه، وكان الرمز حية ذات أجراس، ووجدت نفسي أبتسم في الظلام. وبعدئذٍ، وفي اضطراب، لجأت إلى أقدم حيلة –التهديد بالخيانة الزوجية، طعم يلقى في مد منساب لمعرفة أي أنواع السمك يقتات هناك.

لم أذكر النداء الخفي لجسدها المستتر– كلا، كانت الصورة صورة يديها المخلبيتين اللتين تبينان السن والعصبية، وصورة القسوة التي تتأتى للمرء حين يفقد السيطرة على موقف ما.

أحيانًا أرغب في معرفة طبيعة الأفكار الليلية؛ لأنها وثيقة الصلة بالأحلام. فتارة أستطيع توجيهها، وتارة أخرى تجمح وتأتي مندفعة مثل خيل قوية لا يمكن التحكم فيها.

ودخل داني تيلور الصورة. لم أرغب في التفكير فيه والشعور بالحزن عليه، ولكنه جاء إلى الصورة على أي حال. كان عليَّ أن أستعمل خدعة تعلمتها ذات مرة من شاويش عجوز صلب المراس، وكانت تفلح. في أثناء الحرب كان يحل نهار ثم ليل ثم نهار وكلها تشكل قطعة واحدة. وحدة واحدة تدور كل أجزائها حول سائر الفظاعات القذرة التي قد تحدث في تلك العملية المقززة. وفي أثناء ذلك لم أكن موقنًا أنني أعرف آلامها لأنني كنت مشغولًا ومتعبًا بدرجة لا توصف، ولكن مؤخرًا عاودتني

تلك الوحدة من نهار ثم ليل ثم نهار، ثم أخذت تعاودني ثانية في أفكاري الليلية، حتى صارت بالنسبة لي مثل ذلك الهوس الذي يطلقون عليه اسم «التعب من المعارك» والذي سموه ذات مرة «صدمة القنابل». واستخدمت كل حيلة تسعها طاقتي كيلا أفكر في تلك الوحدة، ولكنها كانت تزحف عائدة على الرغم مني. كانت تنتظر النهار لكي تهاجمني بالليل. وذات مرة وأنا مقلوب المعدة من الويسكي حكيت الأمر لل «باشاويش» الذي يعمل تحت إمرتي، وهو رجل عجوز اشترك في حروب نسينا نحن إذا ما كانت قد حدثت على الإطلاق. ولو ارتدى أوسمته، لما تبقى مكان لأزراره –مايك بولاسكي، بولندي شيكاغو، ولا علاقة له بالبطل الذي بهذا الاسم. ومن حسن الظن، أنه كان مخمورًا بدرجة خفيفة، وإلا فربما كان قد أغلق فمه خوفًا من تهمة مؤكدة وهي التآخي مع ضابط.

استمع مايك إليَّ ذاهلًا، وهو يحدق في نقطة بين عيني. وقال: «أجل! أعرف هذه الحالة. والمشكلة هي، أن المرء يحاول دفعها بعيدًا عن ذهنه ثم لا يجدي ذلك.

والذي ينبغي عليك عمله هو الترحيب بها».

- «ماذا تقصد، يا مايك بها؟».

- «فلنتناول الأمر بشيء من التطويل– لتبدأ من البداية ولتتذكر كل ما تستطيع، حتى تصل مباشرة إلى النهاية. وكلما عاودتك افعل ذلك أبدًا من البداية حتى النهاية مباشرة. وسرعان ما ستتعب من معاودتك فتزول أجزاء منها، ولن يمضي كثير من الوقت قبل أن تزول كلها».

وجربتها وآتت ثمارها. ولا أدري إذا ما كان مقلصو الرؤوس يعرفون هذا، ولكن ينبغي عليهم أن يعرفوه.

وحين جاء داني تيلور إلى مجال رؤيتي عالجته بطريقة الشاويش مايك.

حينما كنا صبيين معًا، بنفس السن، ونفس الحجم، ونفس الوزن، كانت عادتنا أن نذهب إلى مخزن الحبوب والعلف في شارع «هاي» ونعتلي الميزان. كنت أسبوعًا أكون أثقل من داني برطل، وفي الأسبوع التالي كان داني يصل إلى وزني. وكانت عادتنا أن نصطاد السمك والطيور ونسبح معًا ونخرج في نزهات مع نفس الفتيات. وكانت عائلة داني في حالة طيبة من الاستقرار مثل معظم العائلات القديمة في نيوبايتون. وبيت آل تيلور هو ذلك البيت الأبيض ذو الأعمدة الطويلة المخططة والقائم بشارع بورلوك. وذات يوم كان لآل تيلور بيت ريفي أيضًا– على مبعدة حوالي ثلاثة أميال من المدينة.

الريف الذي حولنا كله تلال متدحرجة مغطاة بالأشجار، بعضها من الصنوبر الوحشي، وبعضها الآخر من النمو الثاني لأشجار البلوط، وشجر الجوز الأمريكي وبعض شجر الشربين. وذات يوم، وقبل مولدي بزمن طويل، كانت أشجار البلوط عملاقة، كانت من الضخامة بحيث كانت تقطع منها قواعد السفن المصنوعة محليًّا ودعاماتها وألواحها الخشبية من على مسافة قصيرة من الترسانة حتى اختفت كل تلك الأشجار. وفي هذا الريف ذي المساحة الصغيرة الكثيفة كان لآل تيلور ذات يوم بيت مقام وسط مرجة كبيرة، هي المكان الوحيد المنبسط في عدة أميال حولنا. ولابد أنه كان ذات يوم قاع

بحيرة؛ لأنه كان منبسطًا مثل منضدة ومحاطًا بتلال واطئة. وربما احترق بيت آل تيلور منذ ستين عامًا مضت، ولم يعد بناؤه ثانية. وحين كنا أطفالًا اعتدت أنا وداني أن نركب الدراجات إلى هناك. كنا نلعب في البدروم الحجري، وبنينا كوخ صيد من طوب الأساس القديم. ولابد أن الحدائق كانت رائعة، فقد كان باستطاعتنا أن نرى طرقات على جانبيها الأشجار، وما يشير إلى سياج نباتي مرسوم وحواجز، بين الآثار المشوشة للغاية المتراجعة. وقد يوجد هنا أو هناك امتداد لسور حجري، وقد وجدنا ذات مرة تمثالًا نظيفًا للإله «بان» على حامل مخروطي الشكل، كان قد سقط على وجهه ودفن قرنيه وذقنه في الأرض الرملية الرطبة. فأقمناه ونظفناه واحتفلنا به لبعض الوقت، ولكن الشره والفتيات استحوذا علينا. وفي النهاية نقلناه على عربة إلى فلود هامبتون وبعناه إلى تاجر عاديات بخمسة دولارات. ولابد أنه كان قطعة جيدة، بل ربما كان قطعة أثرية قديمة.

كنت أنا وداني صديقين مثلما ينبغي أن يكون لكل الصبية أصدقاء. وبعدئذ تم التحاقه بالأكاديمية البحرية. ورأيته مرة واحدة بالزي الرسمي ولم أره ثانية طيلة سنوات. ولقد كانت نيوبايتون ولا تزال بلدة ضيقة، صلات أهلها ببعضهم وثيقة. كان كل امرئ يعلم أن داني قد طُرد ولم يناقش أحد الأمر. انقرض آل تيلور، حسنًا، تمامًا مثلما انقرض آل هولي. فإنني الوحيد الذي تبقى منهم، وكذلك طبعًا آلان، ولدي. ولم يعد داني إلا بعد أن ماتوا جميعًا وعاد سكيرًا. وحاولت في أول الأمر مساعدته ولكنه لم يكن يريدني. لم يكن يريد أي شخص، ولكن بالرغم من ذلك كنا وثيقي الصلة، وثيقي الصلة جدًّا.

نقبت في كل ما أستطيع تذكره، إلى أن وصلت إلى ذلك الصباح حين أعطيته دولارًا ليتسنى له أن يجد مسكنه الموضعي.

كان تركيب تحولي ناجمًا عن إحساس بضغوط خارجية، من رغبة ماري ورغبات آلان، وحنق إيلين، ومعونة المستر بيكر. وفي النهاية فحسب وحينما يصبح العمل مهيئًا ومعدًّا، يرسي الفكر السقف على البناء، ويأتي بالكلمات للشرح والتبرير. فلنفترض أن وظيفتي المتواضعة التي لا تنتهي لم تكن فضيلة وإنما كانت كسلًا أخلاقيًّا؟! فأي نجاح، يتطلب جرأة. وربما كنت مجرد جبان، أخشى النتائج، وفي كلمة واحدة: كسولًا. والنجاح العملي في بلدتنا ليس معقدًا أو غامضًا، كما أنه ليس نجاحًا واسع المدى؛ لأن من يمارسونه قد وضعوا حدودًا مصطنعة لنشاطاتهم. فجرائمهم صغيرة وكذلك نجاحهم صغير. فلو حدث لك أن فحصت بتعمق الحكومة المحلية وتعقيد العمل في نيوبايتون، فسيتضح لك أن مائة قانون تشريعي وألف قاعدة أخلاقية قد كُسرت، ولكنها انتهاكات بسيطة– اختلاسات طفيفة.

لقد ألغوا من حياتهم جزءًا من الوصايا العشر واحتفظوا بالباقي. وحينما يحصل أحد رجالنا الناجحين على ما يحتاج إليه أو يريده، يعاود انتحال فضيلته بمثل البساطة التي يغير بها قميصه، وكما قد يتضح لكل إنسان، فهو لا يؤذى على تقصيره، مادام يأخذ على عاتقه ألا يُمسك متلبسًا. هل فكر أي منهم في هذا، لا أدري. وإذا أمكن التجاوز عن الجرائم الصغيرة، فلم لامع جريمة خاطفة، عنيفة، جريئة؟ وهل القتل بوساطة الضغط البطئ الثابت، أخف وطأة -بأي شكل من الأشكال- عن قتل سريع رحيم بطعنة سكين؛ إنني لا أشعر بالإثم من أجل حياة من قضيت عليهم من الألمان. ولنفترض أنني

لوقت محدد ألغيت كل القوانين، وليس مجرد بعضها. ألا يصير ممكنًا استعادتها جميعًا، حالما أتم التوصل إلى مقصدي؟! مما لا شك فيه أن التجارة نوع من الحرب. لماذا، إذن، لا نجعلها حربًا شاملة سعيًا وراء السلام، إن مستر بيكر وأصدقاءه لم يطلقوا على أبي الرصاص، ولكنهم نصحوه وحينما انهار كيانه، ورثوه. أليس ذلك نوعًا من القتل، هل هناك أي ثروة واحدة ضخمة مما نعجب به، جمعت دون قسوة قلب؟ لا يستطيع التفكير أن يهديني إلى أي واحدة.

وإذا كان ينبغي عليَّ أن أضع القوانين جانبًا بعض الوقت، فأنا أعلم أنه ستصيبني بعض الندبات. ولكن هل ستكون أسوأ من ندبات الفشل التي أصابتني؟ كون المرء حيًّا بأي شكل من الأشكال معناه أن يصاب بالندبات.

كان هذا التفكير كله هو دوارة الهواء على سقف بناء من القلق والضجر كان من الممكن أن يحدث لأنه قد حدث فعلًا. ولكن هل أستطيع إذا فتحت ذلك الباب، أن أغلقه ثانية بأي حال من الأحوال؟ لم أكن أستطيع أن أعرف إلى أن أفتحه.... هل كان مستر بيكر يعرف؟ وهل حدث أن فكر فيه مستر بيكر قط؟... كان القبطان العجوز يعتقد أن آل بيكر أحرقوا «البيلادير» من أجل التأمين. فهل يمكن أن يكون ذلك -متحالفًا مع سوء حظ أبي- هما السبب في رغبة مستر بيكر في مساعدتي؟

هل كانت تلك ندباته؟

كان من الممكن وصف ما يحدث بأنه مثل سفينة ضخمة تجذبها وتخبطها وتدفعها وتسحبها قاطرات صغيرة عديدة. وحالما تستدير بفعل المد والقاطرات، ينبغي عليها أن تتخذ طريقًا جديدًا ثم تبدأ في إدارة آلاتها. وعلى القنطرة التي هي مركز التخطيط، فينبغي أن يطرح السؤال: «حسنًا، إنني أعرف الآن إلى أين أريد الذهاب. فكيف أذهب إلى هناك؟ وأين توجد الصخور الكامنة؟ وكيف سيكون حال الطقس؟».

وكنت أعرف أن الكلام هو إحدى الشعاب المهلكة. فكثيرون جدًّا يوشون بأنفسهم قبل أن يُوشى بهم، ويدفعهم لذلك نوع من الجوع التوَّاق إلى العظمة، ولو حتى عظمة العقاب. إن بئر أندرسن هي محل الثقة الوحيد الذي يوثق به – بئر أندرسن.

ناديت على القبطان العجوز: «هل أتخذ طريقي يا سيدي؟ هل هو طريق جيد؟ هل سيوصلني إلى هناك؟».

ولأول مرة أنكر عليَّ قيادته: «سيكون عليك أن تنفذها بنفسك. وما هو خير بالنسبة لشخص يكون شرًّا بالنسبة لآخر، ولن تعرف ذلك إلا فيما بعد».

ربما كان الوغد العجوز قد ساعدني حينذاك، ولكن ربما لم تؤد مساعدته إلى أي اختلاف. ما من أحد يريد النصيحة، وإنما التأييد فحسب.

# الفصل السابع

عندما استيقظت، كانت ماري العجوز النؤوم قد استيقظت وغادرت فراشها، وكان إعداد القهوة ولحم الخنزير يجري على قدم وساق، كنت أستطيع شم رائحتها.

وما كان عليك أن تبحث عن يوم أفضل للقيامة، يوم اختلط فيه اللون الأخضر والأزرق. ومن نافذة حجرة النوم كنت أستطيع أن أرى أن كل شيء قد بدأ يبعث:

العشب، والأشجار. لقد اختاروا لذلك العيد فصلًا مناسبًا. وارتديت (الروب دي شامبر) الذي أرتديه في عيد الميلاد وخُفيّ عيد ميلادي. ووجدت في الحمام بعضًا من دهان الشعر الذي يستعمله آلان، فدهنت منه حتى أحسست أن فروة رأسي الممشطة التي سويتها بالفرشاة قد ضاقت عليّ مثل قبعة.

وإفطار يوم الأحد الموافق لعيد القيامة هو خليط من البيض والفطير المقلي، ولحم الخنزير الذي يلتف حول كل شيء. وتسللت إلى ماري وربت عليها.

وقالت: «أوه. إنني لم أسمعك وأنت قادم». ونظرت إلى (الروب دي شامبر) المنقوش، ثم قالت: «جميل، أنت لا تلبسه كثيرًا».

- «لا وقت لديَّ، لم يكن لديَّ الوقت».

قالت: «حسنًا، إنه جميل».

- «ينبغي أن يكون كذلك، فقد اخترته أنت. هل ينام الأطفال رغم تلك الروائح الرائعة؟».

- «أوه، كلا. إنهم بالخارج خلف البيت، يلونون البيض. إني لأعجب ما الذي يريده مستر بيكر». والقفزة السريع في الكلام لا تفشل أبدًا في إثارة ربكتي: «مستر بيكر، مستر بيكر. أوه، ربما يريد أن يساعدني على البدء في تحقيق طالعي».

- «هل أخبرته؟ عن موضوع الورق؟».

- «كلا، بالطبع يا عزيزتي. ولكن ربما يكون قد خمن». ثم قلت بلهجة جادة: «اسمعي، يا فطيرة الجبن، أنت تعتقدين أنني أتمتع بعقلية رجل أعمال عظيمة، أليس كذلك؟».

- «ماذا تعني؟» كانت معها فطيرة لكي تقلبها، وظلت الفطيرة مرفوعة.

- «يعتقد المستر بيكر أنه ينبغي عليَّ أن أستثمر ما أوصي لك به أخوك».

- «حسنًا، إذا كان مستر بيكر.....».

- «والآن انتظري. أنا لا أريد فعل ذلك، فتلك نقودك التي تكفل لك الأمن».

- «ألا يعرف المستر بيكر عن تلك الأمور أكثر مما تعرف يا عزيزي؟».

- «لست متأكدًا. كل ما أعرفه أن أبي كان يعتقد أنه يعرف. وذلك هو السبب في أنني أعمل لدى مارولللو».

- «لا زلت أعتقد أن مستر بيكر...».

- «هل ستهتدين برأيي، يا حبيبتي؟».

- «حسنًا، طبعًا...».

- «في كل شيء؟».

- «هل بدأت سخفك».

- «إنني جاد جدًّا، جدًّا».

- «أعتقد أنك كذلك. ولكنك لا تستطيع أن تستمر في الشك في مستر بيكر. لماذا، إنه... إنه...».

- «إنه المستر بيكر. سنستمع إلى ما عليه أن يقوله ثم بعدئذ... إنني ما زلت أرغب في إبقاء تلك النقود في المصرف حيث هي».

اندفع آلان عبر الباب الخلفي كما لو كان قد قُذف بنبلة. وقال: «مارولللو. المستر مارولللو بالخارج. إنه يريد رؤيتك».

وتساءلت ماري: «والآن ما الأمر؟».

- «حسنًا، ادعه للدخول».

- «لقد فعلت ولكنه يريد رؤيتك بالخارج».

- «إيثان، ما الأمر؟ أنت لا تستطيع الخروج بروبك. إنه أحد عيد القيامة».

وقلت: «آلان، عليك أن تخبر مستر مارولللو أنني لست مرتديًا ملابسي. قل له إنه يستطيع العودة فيما بعد. ولكنه إذا كان في عجلة من أمره، فيمكنه أن يدخل من الباب الأمامي إذا كان يريد أن يراني بمفردي». وانطلق مسرعًا.

- «لا أعرف ماذا يريد. ربما يكون المحل قد سرق».

واندفع آلان عائدًا. «إنه يستدير إلى واجهة البيت».

- «والآن، يا عزيزي، لا تدعه يفسد عليك إفطارك، أتسمعني؟».

مررت خلال البيت وفتحت الباب الأمامي، كان مارولللو واقفًا تحت السقيفة، وهو يرتدي أحسن

ملابسه، حلة من الجوخ الأسود الناعم وسلسلة ساعة ذهبية ضخمة. كان يمسك قبعته السوداء بيده وابتسم لي في عصبية مثل كلب خرج عن نطاق بيته.

- «تفضل».

قال: «كلا، لديَّ كلمة واحدة فحسب أقولها، لقد سمعت كيف قدم لك ذلك الفتى رشوة».

- «أجل؟».

- «وسمعت كيف طردته».

- «من أخبرك؟».

- «لا أستطيع أن أقول». وابتسم مرة أخرى.

- «حسنًا، وماذا بشأن ذلك؟ أتحاول أن تقول إنه كان ينبغي عليَّ أن أخذها؟».

خطا إلى الأمام وهز يدي، رفعها وخفضها مرتين بطريقة رسمية. وقال: «إنك فتى طيب».

- «ربما لم يقدم عرضًا كافيًا».

- «أتمزح؟ أنت فتى طيب. هذا كل ما في الأمر إنك فتى طيب».

مد يده إلى جيبه الجانبي المنتفخ وأخرج كيسًا. «خذ هذا». ربت على كتفي، وبعدئذ استدار في حمأة ارتباكه وانصرف هاربًا، كانت ساقاه القصيرتان تدفعانه بعيدًا ورقبته السمينة ملتهبة حيث تبرز فوق ياقته الصلبة البيضاء.

- «ما ذاك؟».

نظرت داخل الكيس– بيض ملون من الحلوى لعيد القيامة. كان لدينا منه ملء برطمان زجاجي مربع كبير في المحل وقلت: «لقد أتى بهدية للأطفال».

- «مارولو؟ أتى بهدية. لا أستطيع تصديق ذلك».

- «حسنًا، ولكنه فعل».

- «لماذا؟ إنه لم يفعل شيئًا مثل ذلك من قبل أبدًا».

- «أعتقد أنه بصراحة، يحبني».

- «هل يوجد ثمة شيء لا أعرفه؟».

- «يا زهرتي الأليفة، يوجد ثمانية ملايين شيء لا يعرفها واحد منا».

كان الطفلان إلى الداخل من الباب الخلفي المفتوح. ومددت الكيس إليهما: «هدية من معجب. لا تبدأا في التهامها إلا بعد الإفطار».

* * *

بينما كنا نرتدي ملابسنا استعدادًا للذهاب للكنيسة، قالت ماري: «أود أن أعرف، لماذا كان كل ذلك؟».

- «تقصدين مارولو؟ عليّ أن أعترف يا عزيزتي، بأنني أود أن أعرف أنا أيضًا لماذا كان كل ذلك؟».

- «ولكن كيسًا من الحلوى الرخيصة!!».

- «أتعتقدين أنها ربما كانت إمعانًا في البساطة؟».

- «لا أفهم!».

- «زوجته متوفاة، وليس له فرخ ولا ولد. وقد أخذ السن يتقدم به. ربما... حسنًا، ربما يحس بالوحشة».

- «إنه لم يأت إلى هنا من قبل أبدًا. وبما أنه يشعر بالوحشة فينبغي عليك أن تطلب منه رفع مرتبك. عسى ألا يأتي لزيارة المستر بيكر، فسيجعلني هذا عصبية».

لقد راعيت أناقتي مثل زهور الحقل، فارتديت حلتي الغامقة الأنيقة، حلة الجناز السوداء، والقميص والياقة المنشيين اللذين بلغا من البياض حدًّا جعلهما يلقيان بضوء الشمس ثانية في وجهها، والربطة الزرقاء السماوية ذات النقط الحريرية المنمقة.

هل كانت المسز مارجي يانج هنت تثير عواصف الأجداد؟ من أين أتى مارولو بمعلوماته؟ لا يمكن أن يكون المستر بجر قد حكى إلى المسز يانج هنت، ثم حكت هي إلى المستر مارولو. إنني لا أثق بك يا مارجي يانج، والسبب لا يمكنني التفوه به. ولكن هذا ما أعرفه، ما أعرفه تمامًا. إنني لا أثق بك يا مسز يانج. وبهذا الغناء المتردد في رأسي، أخذت أنقب في الحديقة عن زهرة بيضاء أضعها في عروتي في عيد القيامة. في الزاوية التي صنعها التقاء أساس البيت مع باب البدروم المنحدر يوجد مكان مصان، والتربة يدفئها الفرن وتتعرض لكل شعاع صغير من شمس الشتاء، وهناك ينمو البنفسج الأبيض، الذي جُلب من الجبانة حيث ينمو بريًّا فوق قبور أسلافي. قطفت لعروتي ثلاث زهرات صغيرة شكلها كوجه الأسد، ثم جمعت دستة من الزهور المستديرة لعزيزتي، ورتبت حولها أوراقها الشاحبة لتصير باقة، ثم ربطتها جيدًا بقطعة من سلك الألمونيوم من المطبخ.

قالت ماري: «يا أله!، إنها جذابة. انتظر حتى آتي بدبوس، سوف أتزين بها».

- «إنها أولى الزهرات، إنها التباشير الأولى، يا دجاجتي الحلوة، إنني عبدك. المسيح قام، وعمّ الخير العالم».

- «أرجوك، لا تسخر من الأشياء المقدسة يا عزيزي».

- «يا أله! ماذا فعلت بشعرك؟».

- «أيعجبك هكذا؟».

- «إنني أحبه هكذا. صففيه دائمًا بتلك الطريقة».

- «لم أكن واثقة أنه سيعجبك. لقد قالت مارجي إنك لن تلاحظه مطلقًا. انتظر حتى أخبرها أنك فعلت». وضعت على رأسها تاجًا من الزهور، هدية الربيع السنوية إلى عيد القيامة. «أيعجبك؟».

- «إني أحبه».

كان الصغيران يمران الآن بمرحلة الفحص، فحص آذانهما، وأنفيهما، وتألق حذائيهما، وكل دقائق هندامهما، وكانا يقاومان كل لحظة من هذه المرحلة. كان شعر آلان كثير الدهان إلى حد صعب عليه معه أن يطرف بعينيه. وكان كعبا حذائيه غير ملمعين، ولكنه -وبعناية فائقة- كان قد سوى خصلة من الشعر لكي تتأرجح فوق حاجبه الهلالي مثل موجة صيف.

كانت إيلين فتاة الفتيات، وكان كل ما يبدو منها منسقًا. جربت حظي مرة أخرى وقلت: «إيلين، لقد غيرت طريقة تصفيف شعرك، ولكنها تناسبك. ألا تعجبك يا عزيزتي ماري؟».

وقالت ماري: «أوه. لقد بدأ الزهو يتملكها».

وشكلنا موكبًا سار من ممرنا إلى شارع «إلم» وبعدئذٍ اتجه يسارًا إلى بورلوك، حيث توجد الكنيسة، كنيستنا العتيقة ذات الأبراج البيضاء، والتي سرق تصميمها بكامله من تصميمات كريستوفرورن. كنا جزءًا من مجرى متزايد، وكانت كل امرأة في أثناء مرورها تبدي بهجتها بقبعات النساء الأخريات.

قلت: «قد صممت قبعة لعيد القيامة. تاج بسيط أعلى الوجه من الشوك المصنوع من الذهب، مع قطرات صغيرة من العقيق الحقيقي على الجبهة».

- «إيثان». قالتها ماري بحزم. «افترض أن شخصًا سمعك».

- «كلا، لا أظنها يمكن أن تشيع».

- «أعتقد أنك شنيع». قالتها ماري، وهذا ما كنته، أسوأ من شنيع. ولكني كنت أعجب كيف سيستجيب مستر بيكر للتعليق على شعره.

انضم نهير عائلتنا إلى السيالات الأخرى وتبادلنا تحيات فخمة، ثم صار السيال نهرًا يصب في كنيسة سانت توماس الأسقفية، وهي كنيسة متوسطة الارتفاع، ربما أعلى قليلًا من الوسط.

حين يأتي الوقت الذي ينبغي عليَّ فيه أن أعرف ابني بأسرار الحياة، والتي لا شك في أنه يعرفها، فينبغي عليَ أن أتذكر أن أقدم له معلومات عن الشعر، فسيتوصل إلى أبعد ما يرغب فيه قلبه

الشهواني الصغير، إذا تسلح بكلمة رقيقة عن الشعر. وعلى أي حال، ينبغي عليَّ أن أحذره، فبوسعه أن يرفسهن، يضربهن، يسقطهن، يوشوشهن، أو يضربهن بالأرض. ولكنه ينبغي عليه ألا يهمل أبدًا -أبدًا- شعرهن، وبهذه المعرفة يستطيع أن يكون ملكًا عليهن.

كان آل بيكر يصعدون الدرجات أمامنا مباشرة، وتبادلنا تحيات منمقة:

- «أعتقد أننا سنراكم على تناول الشاي».

- «أجل، حقًّا. عيد قيامة سعيد لكم».

- «أيمكن أن يكون ذلك آلان! كم كبر! وماري إيلين. حسنًا، لم يعد بإمكاني التعرف عليهما وهما ينموان بهذه السرعة».

هناك شيء ما غال جدًّا بالنسبة لكنيسة ترعرعت فيها. فأنا أعرف كل ركن خفي، وكل باب سري في كنيسة سانت توماس، ففي هذا الحوض عمدت، وعند ذلك الدرابزين وثق تعميدي، وعلى ذلك المقعد جلس آل هولي مدة يعلم الله مداها، وليس ذلك مجرد كلام. فلابد أن القداسة تركت في نفسي أثرًا عميقًا، وذلك لأنني أتذكر كل تدنيس، وقد كان يوجد منه الكثير، وأظنني أستطيع أن أبين كل مكان حفرت فيه الحروف الأولى من اسمي بمسمار، وعندما ثقبت أنا وداني تايلور أحرف كلمة مفردة قبيحة بدبوس في كتاب الصلوات العامة، أمسك بنا مستر هويلر وعوقبنا، ولكنهم اضطروا لفحص كل كتب الصلوات والتراتيل ليتأكدوا أنه لا يوجد المزيد.

وذات مرة، في مكان المرتلين ذاك أسفل منبر قراءة الكتاب المقدس، حدث شيء فظيع. كنت أرتدي الدانتيل وأحمل الصليب وأغنى بصوت كالثور من طبقة السوبرانو. وحدث أن كان القس يقوم بالطقوس الدينية، وهو رجل عجوز لطيف، بلا شعر، ورأسه مثل بصلة مسلوقة، ولكنه كان بالنسبة لي يتألق بأشعة القدسية. كان الحال كذلك، وأنا مأخوذ بالإلهام، حين وضعت الصليب في جرابه عند نهاية الاحتفال، ونسيت أن أسقط المزلاج النحاسي الذي يثبته بالداخل.

وعند قراءة الدرس الثاني رأيت –وأنا مرعوب- الصليب النحاسي الثقيل يتأرجح، ثم يصدم تلك الرأس المقدسة الخالية من الشعر. وتهاوى القس إلى أسفل مثل بقرة ضربت ببلطة. وفقدت الدانتيل لصبي لم يكن يستطيع الغناء بمثل جودتي، صبي كان اسمه «سكنك فوت هيل»، وهو الآن عالم في تاريخ الأجناس البشرية، في مكان ما بالغرب. وبدت الحادثة وكأنها تبرهن لي أن النوايا، سواء كانت خيرة أو شريرة، ليست كافية. فهناك حظ أو قدر أو شيء ما آخر، يتم وقوع الحوادث.

جلسنا طيلة أداء الطقوس، وسمعنا الأنباء تعلن أن المسيح قد قام فعلًا. وكالعادة جعل ذلك الرعدة تسري في عمودي الفقري. وأخذت العشاء الرباني بقلب خالص. لم يكن تعميد آلان وماري إيلين قد ثبت بعد، وصارا في غاية القلق، وكان لابد من أن يريا النظرة الصلبة لكي يتوقفا عن حركتهما. وحين تكون نظرات ماري عدائية، فإنها تستطيع أن تخترق حتى درع المراهقة.

وبعدئذ وفي ضوء الشمس الغامر، شددنا على الأيدي وحيينا، ثم شددنا على الأيدي وتمنينا للفيف جيراننا أطيب التمنيات بحلول الربيع. وكل أولئك الذين تحدثنا إليهم وهم يدخلون، أعدنا تحيتهم وهم

يخرجون – استمرار للترتيل، لترتيل مستمر يأخذ شكل عادات سلوكية طيبة منمقة، وتوسل هادئ يفرض ملاحظته واحترامه.

- «صباح الخير. وكيف حالك في هذا اليوم البديع؟».

- «بخير تمامًا، شكرًا لك. كيف حال والدتك؟».

- «العمر يتقدم بها –يتقدم بها- إنها آلام ومتاعب تقدم السن. سأخبرها أنك سألت عنها».

لا معنى للكلمات إلا في مجال الإحساس. فهل يتصرف أي فرد نتيجة للتفكير؟ أم أن الإحساس هو الذي يستحث على القيام بالفعل، وأحيانًا ما يستحث التفكير على القيام به. وفي مقدمة استعراضنا الصغير تحت الشمس سار مستر بيكر، وهو يتجنب الخطو فوق الحفر، فأعاد إلى ذهني صورة والدته التي توفيت منذ عشرين عامًا، والتي ظلت في مأمن من كسر ظهرها. أو المسز بيكر، واسمها إميليا، فكانت تتعثر إلى جواره، محاولة أن تتوافق مع خطوه غير المنتظم بقدميها المترددتين، كانت امرأة ضئيلة تشبه طائرًا متألق العينين، ولكنه طائر يتغذى على الحبوب.

سار ابني، آلان بجوار أخته، ولقد حاول كلاهما أن يعطي الانطباع بأنه غريب عن الآخر تمامًا. أعتقد أنها تحتقره وأنه يشمئز منها. وقد يستمر هذا طيلة حياتهما، ولكنهما قد يتعلمان إخفاءه في سحابة وردية من كلمات الحب. امنحيهما غداءهما، يا شقيقتي، يا زوجتي، بيضها المسلوق جيدًا والمخللات، وشطائرهما المحشوة والبقول والزبد، تفاحهما الأحمر الذي لا تزال تنبعث منه رائحة البراميل، ثم أطلقيهما أحرارًا في الدنيا لينجبا.

وكان ذلك ما فعلته. وسارا مبتعدين. وهما يحملان كيسيهما المصنوعين من الورق، وكل واحد منهما إلى عالمه الخاص المفضل.

- «هل استمتعت بالخدمة الدينية يا عزيزتي؟».

- «أوه، أجل. إني أستمتع بها دائمًا. ولكن أنت –أحيانًا ما أتعجب إذا كنت مؤمنًا- كلا، إني أعني ما أقول. حسنًا، إن نكاتك – أحيانًا ما-».

- «ارفعي مقعدك، يا عزيزتي الحلوة».

- «ينبغي أن أتناول غذائي عليه».

- «غذاء الأقذار».

- «ذلك ما أعنيه. نكاتك».

- «ليس الغذاء شيئًا مقدسًا. ولو كان أكثر دفئًا؛ لاستطعت أن أحملك إلى قارب بمجدافين، ولأنطلق بعيدًا عن حاجز الأمواج ونصطاد سمك البورجي».

- «إننا ذاهبون إلى آل بيكر. هل تعرف إذا ما كنت تؤمن بالكنيسة أم لا، يا إيثان؟ لماذا تطلق عليَّ

أسماء سخيفة؟ إنك لا تكاد أبدًا تستعمل اسمي».

- «لأتلافى أن أكون متكررًا ومملًّا، ولكن اسمك يرن في قلبي مثل جرس. هل أؤمن؟ يا له من سؤال! هل أستخلص من «مجمع نيقية» كل جمله البراقة، المشحونة مثل رصاصة بندقية سريعة الطلقات، ثم أتفحصها؟ كلا. ليس هذا ضروريًّا. إنه شيء فريد يا ماري. فلو جف عقلي وروحي وجسدي من الإيمان جفاف حبة بقول، فإن الكلمات، «الرب راعي فلا يعوزني شيء في مراع خضر يربضني» لازالت تقلب معدتي رأسًا على عقب وتحدث خفقة في صدري ونارًا في عقلي».

- «لا أفهم».

- «فتاة طيبة. ولا أنا. فلنقل إنه عندما كنت طفلًا صغيرًا، وكل عظامي لينة رخوة، وضعت في صندوق أسقفي صغير على شكل الصليب، وهكذا اتخذت شكلي.

وبعدئذ، حين كسرت الصندوق وخرجت منه، بنفس الطريقة التي يهرب بها الفروج من البيضة، هل يكون غريبًا أنني أكون بشكل الصليب؟ ألم تلاحظي إطلاقًا أن الفراريج تكون بشكل البيضة بوجه عام؟».

- «إنك تقول مثل هذه الأشياء المرعبة، حتى للأطفال».

- «وهم يقولونها لي. فلقد سألتني إيلين، الليلة الماضية فحسب، بابا، متى سنصبح أغنياء؟».

ولكني لم أقل لها ما أعرفه، وهو: «سنصير أغنياء سريعًا، وأنت يا من تعاملت مع الفقر بشكل سيئ، ستتعاملين مع الغني أيضًا بشكل سيئ». «وذلك صحيح.

فهي في الفقر حسودة. وفي الغنى قد تصبح وضيعة متعاظمة. فالنقود لا تغير الداء، بل الأعراض فحسب».

- «إنك تتكلم بهذا الشكل عن أطفالك، فما الذي سيكون عليك أن تقوله عني؟».

- «أقول إنك نعمة، إنك غالية، إنك الإشراقة في حياة مليئة بالضباب».

- «إنك تبدو مخمورًا – على أي حال لست ثملًا».

- «إني كذلك».

- لست كذلك. وإلا لاستطعت أن أشم رائحتك.

- «أنت تشمينها، يا حبيبتي».

- «ما الذي اعتراك؟».

- «آه. أنت تعرفين، أليس كذلك؟ تحول – عاصفة ضخمة لعينة من التحول، وأنت تحسين بالأمواج القصية فحسب».

- «إنك تقلقني، يا إيثان. إنك تقلقني حقًّا، ففيك وحشية».

- «أتذكرين أوسمتي؟».

- «ميدالياتك التي نلتها في الحرب؟».

- «لقد منحت جائزة للوحشية... للضياع. لم يكن هناك رجل على ظهر الأرض قط يحمل في قلبه قدرًا من القتل أقل مني. ولكنهم صنعوا صندوقًا آخر وحشروني فيه. كانت الفترة، اللحظة، تتطلب أن أذبح مخلوقات بشرية وفعلت».

- «كان ذلك زمن الحرب، وفعلت ما فعلت من أجل بلدك».

- «إنه دائمًا نوع ما من الزمن. كم من وقت طويل تجنبت فيه زمني الخاص. كنت جنديًّا بارعًا لعينًا، ومن صنف سيئ: ذكي وسريع ومجرد من الرحمة، كنت وحدة ذات فعالية، في زمن الحرب. وقد أستطيع أن أكون وحدة بنفس المقدرة في هذا الزمن».

- «أنت تحاول أن تخبرني بشيء ما».

- «من المحزن بما فيه الكفاية إنني أحاول. ووقع الكلام يرن في أذني كأنه اعتذار. وأتعشم ألا يكون».

- «أنا ذاهبة لإعداد الغداء».

- «لست جائعًا بعد إفطار عيد القيامة ذاك».

- «حسنًا، باستطاعتك أن تأكل شيئًا ما. هل رأيت قبعة مسز بيكر؟ لابد أن تكون قد أتت بها من نيويورك».

- «ما الذي فعلته بشعرها».

- «هل لاحظت ذلك؟ إنه بلون الشليك تقريبًا».

- «حتى يكون، (نور إعلان للأمم)».

- «ولِمَ ترد مارجي الذهاب إلى مونتوك في هذا الوقت من العام؟».

- «إنها تحب الصباح المبكر».

- «إنها ليست ممن يبكرون في الاستيقاظ. وأنا أمزح معها بشأن ذلك. ولكن ألا تظن أن إحضار مارولو لحلوى البيض أمر غريب؟».

- «أتربطين بين الحادثين، استيقاظ مارجي المبكر وإحضار مارولو للبيض».

- «لا تكن سخيفًا».

- «لست كذلك، ولمرة واحدة لست كذلك. إذا بحت لك بسر، فهل تعدين بعدم البوح به؟».

- «إنها نكتة».

- «كلا».

- «حسنًا، أعدك».

- «أعتقد أن مارولو ينوي القيام برحلة إلى إيطاليا».

- «وكيف تعرف؟ هل أخبرك؟».

- «ليس تمامًا. إنني أرتب الأشياء مع بعضها، أربطها ببعضها».

- «ولكن ذلك يعني أنه سيتركك وحدك في المحل. سيكون عليك أن تجد شخصًا ما ليساعدك».

- «أستطيع معالجة الأمر».

- «إنك تقوم الآن بكل شيء من الناحية. سيكون عليك أن تجد شخصًا ما ليساعدك».

- «تذكري – إن الأمر ليس مؤكدًا وأنه سر».

- «أوه، إنني لا أنسى وعدًا مطلقًا».

- «ولكنك قد تلمحين إليه».

- «لن أفعل، يا إيثان».

- «أتعلمين من تكونين؟ أرنب صغير عزيز توج رأسه بالزهور».

- «فلتتناول ما تشاء من طعام في المطبخ. إنني ذاهبة لأغتسل».

حينما ذهبت، تمددت في مقعدي وسمعت في أذني الخفيتين: «الآن تطلق عبدك يا سيدي حسب قولك بسلام». وملعون أنا إذا لم أستغرق في النوم. سقطت على صخرة عالية إلى جوف الظلام، هناك مباشرة في غرفة الجلوس، وأنا لا أفعل ذلك عادة. ولأنني كنت أفكر في داني تيلور فقد حلمت بداني تيلور، لم نكن صغيرين ولا عظيمين بل مكتملي النمو، وكنا في قاع البحيرة المسطح الجاف، ومعنا أساس المنزل العتيق وفتحة البدروم. كان الوقت بداية الصيف؛ لأنني أبديت ملاحظة بشأن امتلاء أوراق الشجر، وكان العشب من الثقل بحيث كان ينثني تحت صقله، إنه ذلك النوع من الأيام الذي يجعلك تشعر بالسمنة والحماقة أيضًا. ومضى داني خلف شجرة «دفران» فتيًّا منتصبًا ورشيقًا كأنه عمود. وسمعت صوته، مشوهًا وغليظًا مثل كلمات ينطق بها تحت ماء، وبعدئذٍ صوت معه وكان هو يذوب ويسيل منحدرًا فوق إطار جسده. وحاولت براحتي أن ألمه برقة إلى أعلى، إلى مكانه مرة أخرى، بالطريقة التي تحاول بها أن تلم إسمنتًا لزجًا حين ينساب من القالب، ولكني لم أستطع. كان جوهره ينساب بين أصابعي. وهم يقولون إن الحلم لحظة. ولكن هذا الحلم أخذ يستمر ويستمر وكلما

زادت محاولتي زاد ذوبانه.

حين أيقظتني ماري كنت ألهث من المجهود.

قالت: «إنها حمى الربيع، تلك أولى بوادرها. حين كنت فتاة في طور النمو كنت أنام كثيرًا جدًّا، حتى أرسلت أمي في طلب الدكتور «جرادي». كانت تظني مريضة بمرض النوم، كل ما في الأمر أنني كنت أنمو في فصل الربيع».

- «لقد اعتراني كابوس نهاري. لا أتمنى لأحد أن يرى حلمًا مثل ذلك».

- «سبب هذا كل ما يحيط بك من اضطراب. اصعد ومشط شعرك واغسل وجهك. إنك تبدو متعبًا، يا عزيزي. هل أنت بخير؟ لقد حان تقريبًا وقت ذهابنا. لقد نمت ساعتين: لابد أنك كنت تحتاجها: ليتني أعرف ما الذي يدور بخلد مستر بيكر».

- «ستعرفين، يا عزيزتي. عديني أنك ستنصتين لكل كلمة».

- «ولكنه قد يود الكلام معك على انفراد. فرجال الأعمال لا يحبون أن تنصت إليهم السيدات».

- «حسنًا، إنه لا يستطيع أن يتناول الأمر هكذا. فأنا أريدك معي».

- «أنت تعرفين أنه لا خبرة لي بالأعمال».

- «أعرف – ولكن نقودك هي ما سوف يتحدث عنه».

لا تستطيع أن تعرف أناسًا مثل آل بيكر إلا إذا ولدت وأنت تعرفهم. فالعلاقة، بل حتى الصداقة، شيء مختلف. وأنا أعرفهم لأن آل هولي وآل بيكر كانوا متشابهين في الدم، ومنبت الأصل، والتجربة، وثروة الماضي. وهذا يوجد نواة مسورة ومحفورة حولها خندق ضد الدخلاء. وحين فقد والدي نقوده، لم أنبذ تمامًا. ولازال آل بيكر يتقبلونني كفرد من آل هولي ربما طيلة حياتي لأنهم يحسون بأنني قريب لهم. ولكنني قريب فقير. والنبالة دون مال تقل تدريجيًّا ولن تظل نبالة. ودون نقود، لن يعرف آلان ولدي آل بيكر وسيكون ابنه غريبًا عليهم، دون أن يهم اسمه أو أسلافه. لقد صرنا أصحاب ضياع بلا أرض، وقادة بلا فيالق، وخيالة نسير على الأقدام. ولا نستطيع أن نبقى أحياء، وربما كان ذلك أحد الأسباب في التحول الذي أخذ يحتل مكانه في نفسي، إنني لا أريد النقود، ولم أردها أبدًا، من أجل ذاتها، ولكن النقود ضرورة لأحتفظ بمكاني في مرتبة اعتدتها واسترحت إليها، ولابد أن هذا كله كان يعمل في المكان المظلم الكائن أسفل مستوى تفكيري، وهو لم يبرز كفكرة بل كاعتقاد.

قالت مسز بيكر: «طاب أصيلكم، إني في منتهى السعادة لأنكم تمكنتم من الحضور، لقد أهملتمونا يا ماري، ألم يكن يومًا رائعًا؛ هل استمتعت بالقداس؟ أما فيما يتعلق بالقس، فإنني أعتقد أنه رجل ممتع جدًّا».

وقال المستر بيكر: «نحن لا نكاد نراكم بما فيه الكفاية، وإنني لأتذكر جدك وهو جالس في نفس ذاك المقعد، يحكي أن الإسبانيين القذرين قد أغرقوا السفينة «مين»، وانسكب منه الشاي، ولكنه لم يكن

شايًا فحسب، كان القبطان هولي العجوز معتادًا أن يخلط الروم بقليل من الشاي. كان رجلًا عنيفًا، وكان البعض يعتقدون أنه رجل مشاكس».

كنت أستطيع أن أرى أن ماري بهتت أول الأمر، ثم تملكها السرور بعدئذ من حرارة اللقاء. كانت لا تدري طبعًا أني قد رقيتها بجعلها وارثة. وصيت امتلاك النقود غالبًا ما يكون مثار حديث كالنقود نفسها.

أما المسز بيكر، ورأسها تهتز في شيء من الاضطراب العصبي، فكانت تصب الشاي في فناجين رقيقة وهشة مثل براعم زهرة المانوليا، وكانت يدها الجزء الوحيد الثابت في جسمها.

كان المستر بيكر يقلب بملعقة متأمله، وقال: «لا أدري ما إذا كنت أحب الشاي أم الاحتفال المصاحب له. إنني أحب كل الاحتفالات، حتى الحمقاء منها».

وقلت: «أحسبني أفهم؛ لأنني أحسست هذا الصباح بالراحة في أثناء أداء الطقوس لأنه لم تكن بها مفاجآت. كنت أعرف الكلمات قبل أن ينطق بها».

- «في أثناء الحرب، يا إيثان -استمعن إلى هذا أيتها السيدات، لترين إذا ما كنتن تستطيعن تذكر أي شيء يشبهه- أثناء الحرب كنت أعمل كمستشار لوزير الحرب، وأمضيت بعض الوقت في واشنطون».

- «كنت أمقتها» قالتها مسز بيكر.

- «حسنًا، كان ثمة حفل شاي حربي ضخم، حفل حقيقي، فيه ما يقرب من خمسمائة ضيف، كانت سيدة الحفل الأولى زوجة جنرال بخمس نجوم، والتالية لها في الأهمية زوجة لفتنانت جنرال. وطلبت زوجة الوزير، وهي المضيفة، من السيدة زوجة الجنرال ذي النجوم الخمس أن تصب الشاي، ومن زوجة ذي النجوم الثلاث أن تصب القهوة. حسنًا، رفضت السيدة ذات المركز العالي الآن، وأنا أستخدم كلماتها: «كل واحد يعلم أن القهوة أعلى مرتبة من الشاي». والآن، هل سمعتم مثل ذلك قط؟» وضحك. «وعندما انتهى الحفل، كان الويسكي أعلى مرتبة من أي شخص».

وقالت مسز بيكر: «كان مكانًا لا استقرار فيه. وكان الناس يرحلون قبل أن يتوافر لديهم الوقت ليلموا بمجموعة من العادات أو الأخلاق».

وقصت ماري حكايتها عن شاي إيرلندي في بوسطن، كان يعمل بغليه في الماء في أوعية مستديرة فوق نار مكشوفة، ويقدم من مغارف من صفيح. وقالت: «وكانوا لا ينقعون الشاي، بل يغلونه. ومثل ذلك الشاي قد يزيل طلاء منضدة».

لابد أنه توجد بوادر شعائرية في مناقشة جادة أو عمل، وكلما زادت حدة الموضوع، انبغى أن يزيد الغناء طولًا ومرحًا. إذ يجب على كل شخص أن يضيف إلى اللوحة قطعة من ريش أو قطعة ملونة. فلو لم تكن ماري ومسز بيكر جزءًا من الموضوع الجاد، لكانتا قد حددتا منذ مدة طويلة نمطهما الخاص لتبادل الحديث.

كان مستر بيكر قد صب بنبيذه فوق تربة الحادثة، وكذلك فعلت عزيزتي ماري، وقد كانت مبتهجة ومنفعلة لإثارة انتباههما. وبقي على مسز بيكر وعليَّ أن ندلي بنصيبنا، وشعرت أن الكياسة فحسب تقضي أن أكون الأخير.

أخذت دورها واشتقت منبع حديثها من إناء الشاي مثلما فعل الآخرون: «أذكر الوقت الذي كانت توجد فيه عشرات الأنواع من الشاي». ومهدت لحديثها مبتهجة:

«أجل كان لكل امرئ وصفات لكل شيء تقريبًا. وأعتقد أنه لم يكن هناك عشب أو ورقة شجر أو زهرة لم يصنع منها نوع ما من الشاي. أما الآن فيوجد نوعان فحسب، الهندي والصيني، ولا يوجد الكثير من الصيني. أتذكرون حشيشة الدود والبابونج وأوراق البرتقال وأزهاره – ثم شراب الكامبرك؟» وسألت ماري: «ما هو الكامبرك؟».

- «مقادير متساوية من الماء الساخن واللبن الساخن، ويحبه الأطفال. وليس له طعم الماء واللبن». كانت تلك قصة مسز بيكر.

وجاء دوري، وقصدت أن أبدي بضع ملاحظات حريصة لا معنى لها بشأن حفل شاي بوسطن، ولكنك لا تستطيع دائمًا أن تفعل ما تقصده، فالمفاجآت تفلت دون إذن.

سمعت نفسي أقول: «لقد ذهبت للنوم بعد القداس، وحلمت بداني تيلور حلمًا فظيعًا. أنتم تذكرون داني!».

وقال مستر بيكر: «يا له من شاب مسكين».

- «لقد كنا ذات يوم أقرب من الأخوة. ولم يكن لي أخ. وأظننا كنا أخين بصورة من الصور. إنني أحس أنه ينبغي عليَّ أن أكون حارسًا لأخي داني، رغم أنني لا أنفذ ذلك طبعًا». انزعجت ماري مني لكسري مجرى المحادثة. واقتصت قصاصًا صغيرًا: «إن إيثان يعطيه نقودًا. ولا أعتقد أن هذا صواب. فهو لا يستغلها إلا في الشراب».

وقال مستر بيكر: «حسنًا!».

- «إني لأعجب –على أي حال لقد كان الحلم كابوس ظهيرة. إنني أعطيه القليل جدًّا– دولارًا بين الحين والآخر. وماذا يستطيع أن يفعل بدولار سوى أن يسكر؟ ربما يستطيع بمبلغ محترم أن يحسن حاله».

وصاحت ماري: «لا يجرؤ أحد على فعل ذلك. سيكون ذلك بمثابة قتله. أليس الأمر كذلك يا مستر بيكر؟».

وقال مستر بيكر: «يا للشاب المسكين. لقد كانت عائلة تيلور عائلة محترمة. ومما يؤلمني أن أراه على هذه الحالة. ولكن ماري على صواب، فيحتمل أنه قد يشرب حتى الموت».

- «إنه يفعل ذلك على أي حال. ولكنه في مأمن مني، فليس لديَّ المبلغ المحترم لأعطيه له».

وقال مستر بيكر: «إن الأمر أمر مبدأ».

ساهمت مسز بيكر بوحشية نسائية: «ينبغي أن يكون في إصلاحية حيث يمكنهم أن يرعوه» وتضايق ثلاثتهم جميعًا مني، إذ كان ينبغي أن أظل في موضوع حفل شاي بوسطن. غريب كيف أن العقل يأخذ في المرح، ولعب لعبة «الكيكا» أو «نغز ذيل الحمار»، حينما يكون عليه أن يستخدم كل ملاحظة، لكي يجد طريقًا خلال حقل الألغام الذي يتكون من خطط سرية وعقبات. كنت أفهم منزل بيكر ومنزل هولي، الجدران المعتمة والستائر، ونباتات الجناز المطاطية التي لا علاقة بينها وبين الشمس، الصور النصفية والمطبوعة، وذكريات أزمنة أخرى مصنوعة من فخار ومحار، ومن أقمشة وخشب تربطها بالواقع وبالديمومة. المقاعد تتغير مع مقتضيات الموضة والراحة، ولكن الصناديق والمناضد وأرفف الكتب ومناضد الكتابة تنتهي إلى ماض جامد. لقد كان اسم هولي يعني أكثر من عائلة، كان بيتًا، وكان ذلك هو السبب في تعلق داني المسكين بمرجة تيلور؛ فبدونها، سيكون بلا عائلة، وسرعان ما سيكون بلا اسم أيضًا. فمن نغمة الحديث وإيقاعه وعن رغبة، لغى الثلاثة الجالسون هناك اسم تيلور. وربما كان الأمر أن بعض الرجال يتطلبون بيتًا وتاريخًا ليطمئنوا أنفسهم أنهم موجودون- إنها صلة واهية، في أغلب الحالات.

ففي المحل كنت أمثل الفشل والموظف، وفي بيتي كنت اسمي هولي، وهكذا لابد أن أكون أنا الآخر غير واثق من وجود اسمي. كان بيكر يستطيع أن يمد يد المعونة لهولي. ولولا بيتي، لكنت قد أُلغيت أنا الآخر. لم يكن الأمر أمر رجل لرجل، بل بيت لبيت. لقد قاومت إزاحة داني تيلور من الواقع، ولكني لم أكن أستطيع أن أوقف الأمر. وقد شحذت هذه الفكرة ذهني وقومته. كان بيكر سيحاول إعادة صقل علاقته بآل هولي، لكي يشارك في ميراث ماري الموهوم. كنت الآن على حافة حقل الألغام. وقسى قلبي على محسني الكريم. وأحسست به يقسو ويتزايد ضرره وخطورته. وبتوجيه من عقلي جاءني الاحساس بالمعركة، وبقوانين الوحشية المتحكمة فيها، والقانون الأول هو: دع خط دفاعك يأخذ مظهر الهجوم.

قلت: «مستر بيكر، نحن لا نحتاج إلى استعراض الماضي. فأنت تعرف خيرًا مني الوسيلة البطيئة المتقنة التي فقد بها أبي ثروة آل هولي. لقد كنت متغيبًا في الحرب.

فكيف حدث الأمر؟».

- «لم يكن هذا مقصده، ولكن حكمه...».

- «أعرف أنه لم يكن رجل دنيا، ولكن كيف حدث الأمر؟».

- «حسنًا. كانت الفترة هي فترة الاستثمارات المتهورة. وقد استثمر ماله بتهور».

- «هل قدمت إليه أي نصيحة؟».

- «لقد وضع ثروته في أسلحة كان استعمالها قد بطل فعلًا. وبعدئذ حينما ألغيت العقود، خسر».

- «أنت كنت في واشنطن. فهل كنت تعلم بأمر العقود؟».

- «بشكل عام فحسب».

- «ولكنه كان كافيًا لكيلا تستثمر اموالك».

- «كلا، لم أستثمرها».

- «هل نصحت والدي بشان الاستثمارات؟».

- «كنت في واشنطون».

- «ولكنك كنت تعلم أنه استدان النقود بضمان ممتلكات آل هولي، النقود التي سيستثمرها؟».

- «أجل، كنت أعلم ذلك».

- «هل نصحته بعكس ذلك؟».

- «كنت في واشنطن».

- «ولكن مصرفك قام بالحجز».

- «ليس للمصرف أي خيار، يا إيثان. أنت تعرف ذلك».

- «أجل، أعرف. إن المخجل فقط هو إنك لم تستطع نصحه».

- «ينبغي ألا تلومه، يا إيثان».

- «الآن بما أنني أفهم الأمر، فإنني لا ألومه، وأنا لم أقصد لومه، ولكني لم أكن أعرف أبدًا ما حدث بالضبط».

أظن أن مستر بيكر كان قد أعد افتتاحية. وبما أنه فقد فرصته، فقد كان عليه أن يتلمس حواليه للحركة التالية. سعل، وتمخط ثم مسح أنفه بمنديل من الورق من رزمة جيب مبططة، ومسح عينيه بورقة ثانية، ولمع نظارته بثالثة، ولكل شخص طريقته الخاصة لكسب الوقت، وأعرف رجلًا يستغرق خمس دقائق ليعبئ غليونه ويشعله.

حين استعد ثانية، قلت: «أعلم أنه ليس لي أي حق بيني وبين نفسي في أن أسألك المساعدة. ولكنك أنت نفسك استرجعت شركة عائلتينا الطويلة».

قال: «أناس طيبون. وغالبًا ما كانوا رجالًا ذوي تقدير ممتاز ومحافظين».

- «ولكنهم لم يكونوا عشوائين أيضًا، أعتقد أنهم كانوا إذا استقر رأيهم على طريق ما، فإنهم كانوا يسيرون فيه».

- «هذا ما كانوا يفعلون».

- «حتى ولو أدى إلى إغراق عدو، أو إحراق سفينة؟».

- «كانوا مفوضين لفعل ذلك طبعًا».

- «أعتقد يا سيدي، أنه في عام 1801، كانوا يسألون عما يشكل عدوًّا بالنسبة لهم».

- «دائمًا ما يعاد تعديل بعض الاصطلاحات عقب حرب».

- «بالتأكيد. ولكني لن أتعرض في حديثي للموضوعات القديمة. بصراحة يا مستر بيكر، إنني أريد أن أسترد مركزي المالي».

- «تلك هي الروح المعنوية يا إيثان. لقد اعتقدت لبعض الوقت أنك فقدت لمسة هولي العجوز».

- «لقد فقدتها أو ربما لم أنمها. لقد عرضت المساعدة، فمن أين أبدأ؟».

- «المشكلة هي أنك تحتاج رأس مال تبدأ به».

- «أعرف ذلك. ولكن لو كان لديَّ بعض رأس المال، فمن أين سأبدأ؟».

وقال: «لابد أن يكون هذا الحديث مملًّا بالنسبة للسيدات، ربما كان علينا أن نذهب إلى المكتبة. فالعمل شيء كئيب بالنسبة للسيدات».

نهضت مسز بيكر: «لقد كنت على وشك أن أسأل ماري مساعدتي في انتقاء بعض ورق الحائط للمخدع الكبير. العينات في الطابق العلوي، يا ماري».

- «أود أن تسمع ماري...».

ولكنها وافقتهما، مثلما عرفت أنها ستفعل.

قالت: «أنا لا أعرف شيئًا في الأعمال، ولكني أعرف في ورق الحائط».

- «ولكن الأمر يخصك، يا عزيزتي».

- «إن الأمر يختلط عليَّ يا إيثان. أنت تعلم أني كذلك».

- «ربما يختلط الأمر عليّ أكثر من دونك، يا عزيزتي».

يحتمل أن يكون مستر بيكر هو الذي اقترح حكاية ورق الحائط. وأعتقد أن زوجته لا تختار الورق. فمن المؤكد أنه ما من امرأة اختارت الورق المعتم ذا الأشكال الهندسية، للحجرة التي كنا نجلس فيها.

وبعد أن انصرفتا، قال: «إذن مشكلتك هي رأس المال يا إيثان، إن منزلك خال من الرهونات. تستطيع أن ترهنه».

- «لن أفعل ذلك».

- «حسنًا، أستطيع أن أحترم ذلك، ولكن هذا هو الرهن الوحيد الذي تملكه. هناك أيضًا نقود ماري. إنها ليست كثيرة، ولكنك ببعض النقود تستطيع أن تحصل على مزيد من النقود».

- «لا أريد أن ألمس نقودها. فتلك هي ضمانها».

- «إنها مودعة في الحساب الجامد وهي لا تربح شيئًا».

- «فلتقل إنني تغلبت على حيرتي، فما الذي يدور في ذهنك؟».

- «هل لديك أي فكرة عن قيمة ميراث أمها؟».

- «كلا، ولكنه يبدو وافرًا».

نظف نظارته بعناية فائقة: «ما سأقوله مرتبط بأن يظل سرًّا».

- «طبعًا».

- «من حسن الحظ أنني أعلم أنك لست ثرثارًا. وكذلك لم يكن أي فرد من آل هولي، ربما باستثناء والدك. والآن، إنني أعرف كرجل أعمال أن نيوبايتون توشك أن تنمو. ففيها كل مقومات النمو: ميناء، شواطئ استحمام، مياه جوفية. وإذا حدث أن بدأت نموها، فلن يستطيع شيء أن يوقفها. وإن رجل أعمال طيب ليكون مدينًا لهذه البلدة بمساعدتها على التطور».

- «والحصول على مكسب».

- «طبعًا».

- «ولماذا؟ لم تنم حتى الآن؟».

- «أعتقد أنك تعرف سبب ذلك! الرجعيون الذين في المجلس، إنهم يعيشون في الماضي، وهم يعوقون التقدم».

دائمًا ما كان يثير شغفي أن أسمع كيف يمكن أن يرتبط الحصول على ربح بحب البشرية. فلو جردنا المستر بيكر من نظرة التطلع إلى الأمام وثوب العمل لخير المجموع، فإنه كان بالضبط ما اعتاد أن يكون. فهو، وأقلية أخرى، أقلية صغيرة جدًّا، سوف يساندون إدارات البلدية الحالية حتى يشتروا ويسيطروا على كل التسهيلات في المستقبل. وبعدئذ سوف يقلبون المجلس والعمدة ويتركون التقدم يسيطر، وآنذاك فحسب سيكتشف أنهم كانوا يمتلكون كل منفذ يمكن للتقدم أن يأتي عن طريقه. ومن باب العاطفة المحضة، رغب في اشتراكي معهم نظير نصيب ضئيل. ولا أدري ما إذا كان قد قصد أن يدعني أعرف جدول الأعمال، أو أن حماسه تغلب عليه، ولكن الأمر جاء عن طريق التعميمات. فانتخابات البلدة تجري في السابع من يوليو، وعندما يحين ذلك الوقت، ينبغي على الجماعة المتطلعة إلى المستقبل أن تكون قد أمسكت بعجلة التقدم تحت سيطرتها.

أعتقد أنه لا يوجد ثمة رجل في العالم لا يحب أن يقدم النصيحة. وكلما أصررت على إبداء بعض

الملل. زادت حمية أستاذي وتحديده للأمور.

قلت: «سيكون عليَّ أن أفكر في الموضوع يا سيدي. إن ما يبدو سهلًا بالنسبة لك هو شيء غامض بالنسبة لي. وسيكون عليَّ طبعًا أن أناقش الأمر مع ماري».

فقال: «وذلك مكمن خطئك، فلقد تزايد تدخل النساء كثيرًا جدًّا في الأعمال هذه الأيام».

- «ولكنه ميراثها».

- «أفضل ما تستطيع أن تفعله من أجلها هو أن تجمع لها بعض النقود كمفاجأة. فهن يفضلنه هكذا».

- «أتعشم ألا أبدو في نظرك ناكرًا للجميل، يا مستر بيكر. فإنني أفكر ببطء، وسأمعن التفكير في الموضوع فحسب. هل سمعت أن مارولو ذاهب إلى إيطاليا؟».

وصارت نظراته حادة: «خيرًا؟».

- «كلا، مجرد زيارة».

- «حسنًا، أتمنى أن يهيئ تدبيرًا ما لحمايتك في حالة إذا ما حدث له شيء ما، إنه لم يعد شابًّا. هل كتب وصيته؟».

- «لا أدري».

- «لو جاءت شرذمة من أقاربه المهاجرين، فربما تجد نفسك بدون وظيفة».

وسكنت إلى غموض وقائي، وقلت: «لقد قدمت لي أشياء كثيرة لأفكر فيها. ولكني أتساءل إذا ما كان في استطاعتك أن تقدم لي فكرة مبسطة عن موعد بدء العملية».

- «أستطيع أن أقول لك هذا. النمو يعتمد إلى حد كبير جدًّا على المواصلات».

- «حسنًا، ولكن طرق المواصلات الكبيرة أخذت تمتد إلى خارج البلدة».

- «ولكن طريق المجيء إلى هنا لا يزال طويلًا. ونوع الرجال الذين معهم نمط النقود التي نريد أن نجتذبها سيودون المجيء بطريق الجو».

- «ونحن لا نملك مطارًا؟».

- «هذا صحيح».

- «والأكثر من ذلك، أنه ليس لدينا مكان لإنشاء مطار دون إزاحة التلال المحيطة».

- «عملية باهظة التكاليف. وستكون تكاليف العمل عائقًا».

- «إذن ما هي خطتك؟».

- «إيثان، عليك أن تثق بي وتسامحني. لا أستطيع أن أخبرك بذلك في الوقت الحاضر. ولكنني أعدك أنك لو استطعت أن تجمع بعضًا من رأس المال، فسأعمل على أن أجعلك تصل إلى أدق الأسرار. وأستطيع أن أخبرك أنه يوجد موقف محرج جدًّا، ولكن ينبغي أن يحل».

- «حسنًا، أظن هذه المعلومات أفضل مما أستحق».

- «ينبغي على العائلات القديمة أن تتساند معًا».

- «وهل مارولو جزء من المجموعة؟».

- «كلا بالتأكيد. إنه يتخذ طريقه الخاص مع جماعته الخاصة به».

- «إنهم يسيرون في توفيق كبير، أليس كذلك؟».

- «توفيق أكبر مما أعتقد إنه في صالحهم. أنا لا أحب أن أرى أولئك الأغراب يزحفون وسطنا».

- «والسابع من يوليو هو موعد الانطلاقة».

- «هل قلت ذلك؟».

- «كلا، أظنني خمنته فحسب».

- «لا بد».

ومع تلك الجملة عادت ماري من مهمة ورق الحائط، وقدمنا واجبات الاحتفاء، وسرنا في بطء تجاه المنزل.

- «ما كان في مقدورهما أن يكونا ألطف من ذلك. ماذا قال لك؟».

- «نفس الشيء القديم. إنه ينبغي أن أستخدم نقودك لتكون لدي البداية، وأنا لن أفعل ذلك».

- «أعلم أنك تفكر فيَّ يا عزيزي. ولكني أرى أنك إذا لم تعمل بنصيحته فإنك تكون غبيًّا».

- «أنا لا أميل إلى ذلك يا ماري. افترضي أنه مخطئ. ستكونين بلا حماية».

- «إنني أقول لك يا إيثان، إنك إذا لم تفعل، فسآخذ النقود وأرسلها إليه. أعدك أنني سأفعل».

- «دعيني أفكر في الأمر. إنني لا أريد توريطك في العمل».

- «ليس عليك أن تفعل. تلك النقود مودعة في الحساب الجامد، وأنت تعرف ما تنبأ به الطالع».

- «أوه يا إلهي!! الطالع مرة أخرى».

- «حسنًا، إنني أعتقد فيه».

- «لو فقدت نقودك. فستكرهينني».

- «لن أفعل. فأنت نصيبي، ذلك ما قالته مارجي».

- «ما قالته مارجي محفور في دماغي، بأحرف حمراء حتى يأخذني الموت».

- «لا تجعل الأمر نكتة».

- «لعلني لا أفعل. ولكن لا تدعي الطالع يفسد حلاوة فشلنا».

- «لا أفهم كيف يمكن لقليل من المال أن يفسد أي شيء. ليس الكثير من المال، بل ما يكفي فحسب». ولم أرد، فسألت: «حسنًا.. هل تفهم أنت؟».

وقلت: «يا ابنة الأمير، لا يوجد ثمة شيء يسمى، ما يكفي من النقود فحسب. هناك معياران فحسب: لا نقود، أو نقود دون الكفاية».

- «ذلك ليس صحيحًا».

- «بل صحيح. أتذكرين مليونير تكساس الذي مات حديثًا؟ كان يعيش في غرفة بفندق ولا يمتلك سوى حقيبة ملابسه. لم يترك وصية، ولا ورثة، ولكنه لم يملك القدر الكافي من النقود. وكلما زاد ما تملكيه؛ قلت كفايته».

قالت ساخرة: «أعتقد أنك تجدها خطيئة بالنسبة لي أن أرغب في ستائر جديدة لحجرة الجلوس، وسخان من الكبر بحيث يكفي لكي يستطيع أربعة أشخاص أن يستحموا في نفس اليوم، ولكي أستطيع غسل الصحاف أيضًا».

- «إنني لم أتعرض للخطيئة، أيتها السجانة، بل كنت أقرر حقيقة، قانونًا من قوانين الطبيعة».

- «يبدو أنك لا تكنّ أي احترام للطبيعة البشرية».

- «إنها ليست الطبيعة البشرية يا عزيزتي ماري، بل الطبيعة المطلقة. السناجب تختزن عشرة أضعاف ما يمكنها أن تستعمله من حبات الجوز. والسنجاب ذو الفم الواسع، بمعدته الممتلئة إلى حد الانفجار، يظل يحشو شدقيه ليصيرا كالحقائب. وكم من العسل الذي تجمعه النحلة الذكية، تأكله النحلة الذكية؟».

حينما يختلط الأمر على ماري أو ترتبك، فإنها تنفث غضبها بنفس الطريقة التي ينفث بها الأخطبوط الحبر، ثم تختفي في سحابته المظلمة.

قالت: «إنك تضايقني. أنت لا تستطيع أن تدع أي إنسان يتمتع بقليل من السعادة».

- «يا عزيزتي، الأمر ليس كذلك. إن ما أخشاه هو التعاسة اليائسة، الرعب الذي تجلبه النقود، والانزعاج والحسد».

ولابد أنها كانت تخشى نفس الشيء دون أن تدري. وسددت إلي ضربتها، تحسست مكانًا مؤلمًا، ووجدته وأدارت فيه كلماتها المسنونة: «ها هو ذا موظف في محل بقالة لا يملك شروى نقير، أصابه الانزعاج مما سيكون عليه حاله حين يصير غنيًّا. أنت تتصرف كما لو كنت تستطيع أن تلتقط ثروة في أي وقت تشاء».

- «أحسبني أستطيع ذلك».

- «كيف؟».

- «ذلك هو مثار القلق».

- «إنك لا تعرف كيف، وإلا لفعلت من قبل. إنك تخادع فحسب وأنت دائمًا تخادع».

تعمُّد التجريح يثير الغضب. وكنت أستطيع الإحساس بالحمى تنمو بداخلي. كانت الكلمات القبيحة، الحانقة تتحرك إلى أعلى كالسم، وأحسست بكراهية مريرة.

قالت ماري: «انظر. ها هي ذي تذهب إلى هناك. هل رأيتها؟».

- «أين؟ ماذا؟».

- «ذهبت هناك خلف الشجرة مباشرة ثم دخلت فنائنا».

- «ماذا كانت، يا ماري، أخبريني. ماذا رأيت؟».

ورأيت ابتسامتها في الغسق، تلك الابتسامة النسائية التي لا تصدق. إنهم يسمونها حكمة، ولكنها ليست كذلك، بل هي أقرب إلى إدراك يجعل الحكمة بلا ضرورة.

- «إنك لم تر أي شيء، يا ماري».

- «رأيت مشاجرة، ولكنها ذهبت بعيدًا».

وضعت ذراعي حولها وأدرتها ناحيتي: «فلنذهب حول البناية قبل أن ندخل».

أخذنا نسير الهوينا في جوف الليل، ولم نتكلم ثانية، فلم تكن بنا حاجة للكلام.

# الفصل الثامن

عندما كنت طفلًا كنت أصطاد المخلوقات الصغيرة وأقتلها في نشاط ومرح. كانت الأرانب والسناجب، والطيور الصغيرة، ثم مؤخرًا البط والإوز البري تهوي مصطدمة بالأرض، وهي حطام متغضن، وربما كنت مثل طفل زاد انغماسه في هذا. كان يحيط الأمر ثمة إبداع وحشي ليس فيه كراهية أو حقد أو شعور بالذنب.

وحدَّت الحرب من شهيتي للتدمير، وربما كنت مثل طفل بالغ في الانكباب على الحلوى. ولم يعد صوت انطلاق بندقيته سريعة الطلقات صرخة سعادة وحشية.

ومع بداية هذا الربيع، أخذ زوج من الأرانب السمينة يقوم بزيارات يومية لحديقتنا. وكان يحب -أكثر ما يحب- زهور القرنفل التي لماري العزيزة، وكان يأكلها حتى تويجاتها الغضة.

وقالت ماري: «عليك أن تتخلص منها».

وأحضرت بندقيتي من عيار (12)، وكانت لزجة من الشحم، ثم وجدت بعض الرصاصات القديمة السميكة مركبة على طلقات نمرة (5). وعند المساء جلست على الدرجات الخلفية، وحين صار الأرنبان في خط واحد نسفتهما كليهما بطلقة واحدة. وبعدئذٍ دفنت الحطام ذا الفراء تحت شجرة الليلق الضخمة، وأنا أشعر بالتعاسة في معدتي.

كان الأمر ببساطة أنني صرت غير معتاد على قتل الأشياء. ويمكن للمرء أن يعتاد أي شيء. الذبح أو الدفن أو حتى الإعدام، ولا ريب أن عملية التعذيب بجذب الأطراف، تصير مجرد وظيفة حين يعتادها المرء.

وحين ذهب الأطفال إلى فراشهم قلت: «إنني خارج بعض الوقت».

لم تسأل ماري أين أو لماذا، مثلما كانت تفعل منذ بضعة أيام مضت.

- هل ستتأخر؟

- كلا، لن أتأخر.

قالت: «لن أبقى مستيقظة، فإني نعسانة». قالتها، وبدا أنها حين قبلت اتجاهًا ما، كانت قد قطعت فيه شوطًا أبعد مني. كنت لا أزال أشعر بالأسى من أجل الأرانب. وربما يكون الوضع الطبيعي بالنسبة للرجل الذي يكون قد دمر شيئًا ما، أن يحاول استعادة اتزانه بخلق شيء ما. ولكن هل كان ذلك هو دافعي؟

تلمست طريقي إلى داخل الكوخ ذي الرائحة النتنة الذي يعيش فيه داني تيلور. كانت هناك شمعة تحترق في طبق إلى جوار فراشه العسكري.

كان داني في حالة سيئة، أزرق اللون، هزيلًا ومريضًا، وكان لبشرته لمعان الزنك. كان من الصعب ألا يتقزز المرء من الرائحة التي تنبعث من المكان القذر والرجل القذر، وهو تحت غطائه القذر. كانت عيناه مفتوحتان وتتوهجان وتوقعت منه أن يهذي في غيبوبة، ولكني صدمت حين تكلم بوضوح وبنغمة وطريقة داني تيلور.

- ما الذي تريده هنا، يا إيث؟

- أريد أن أساعدك.

- أنت تعلم أن هناك خيرًا من ذلك.

- إنك مريض.

- «أتظنني لا أعرف؟ إني أعرفه خيرًا من أي شخص آخر». وتحسس خلف فراشه وأتي بزجاجة «أولد فورستر» مملوءة إلى ثلثها: «أتريد جرعة؟».

- «كلا، يا داني. ذلك ويسكي غالي الثمن».

- «لي أصدقاء».

- «من أعطاها لك؟».

- «ليس ذاك من شأنك، يا إيث». أخذ جرعة ووضعها إلى أسفل، ولكنها ظلت غير مستقرة لحظة. وبعدئذ ارتد لونه إليه. وضحك: «كان صديقي يريد الكلام في الأعمال ولكنني خدعته. زغت قبل أن يستطيع الكلام في الموضوع. لم يكن يعلم مقدار الوقت القصير الذي يستغرقه الزوغان. أتريد الكلام في الأعمال، يا إيث؟ إنني أستطيع الزوغان بسرعة مرة ثانية».

- «هل تشعر ناحيتي بأي شعور، يا داني؟ أي ثقة؟ أي... حسنًا، شعور؟».

- «بالتأكيد، ولكن حين يصل الأمر إلى ذلك الحد أكون سكيرًا، والسكير يكون أقوى شعوره متجهًا للشراب».

- «لو استطعت أن أهيئ النقود، فهل تبحث لك عن علاج؟».

كان الشيء المخيف هو مدى السرعة التي انقلب بها عاديًّا وبسيطًا و... مثل نفسه: «قد أقول إنني سأفعل يا إيث، ولكنك لا تعرف مدمني الخمر. سآخذ النقود وأشرب بها».

- «حسنًا، افترض أنني دفعتها للمستشفى مباشرة، أو لأي مكان آخر».

- «إنني أحاول أن أقول لك، سأتمشى مع أنبل المقاصد، وفي خلال بضعة أيام سأتهرب منها. إنك لا تستطيع أن تثق بسكير يا إيث، ذلك هو ما لا تستطيع فهمه.

دون ما اهتمام بما فعلت أو قلت. سأظل أتهرب».

- «هل تريد أن تتخلص من هذا الوضع، يا داني؟».

- «أحسبني لا أريد. وأظنك تعرف ما أريد». ورفع الزجاجة ثانية، وعجبت مرة أخرى لسرعة رد الفعل. لم يعد داني القديم الذي عرفته فحسب، ولكن حواسه وإدراكه صارا حادَّين، كان من الشفافية فعلًا بحيث قرأ أفكاري. وقال: «لا تثق بهذه اليقظة، إنها تستغرق القليل من الوقت فحسب، فالكحول ينعش ثم بعد ذلك يصيب بالكآبة. وأتمنى ألا تبقى هنا لترى ذلك. ففي هذه اللحظة بالذات، لا أصدق أنه سيحدث. ولا أصدق أبدًا حين أكون منتبهًا». ثم تطلعت إلى عينيه، نديتين لامعتين في ضوء الشمعة، وقال: «إيثان، لقد عرضت أن تدفع لشفائي، وأنت لا نقود لديك، يا إيثان».

- «أستطيع الحصول عليها، فقد ورثت ماري بعض المال عن أخيها».

- «وأنت ستعطيني تلك النقود؟».

- «أجل».

- «حتى رغم قولي لك ألا تثق أبدًا في سكير؟ حتى حين أؤكد لك أنني سآخذ نقودك ثم أحطم قلبك».

- «أنت الآن تحطم قلبي يا داني. لقد رأيت حلمًا يتعلق بك. كنا هناك في المكان القديم... أتذكره».

رفع الزجاجة ثم وضعها على الأرض وهو يقول: «كلا، ليس بعد –ليس بعد. إيث -أبدًا- أبدًا لا تثق في سكير. فحينما يكون... حينما أكون... فظيع... شيئًا ميتًا... فلا يزال يوجد عقل ذكي خفي يعمل، وهو ليس عقلًا صديقًا. فالآن تمامًا، وفي هذه اللحظة بالذات، أنا رجل كان صديقك. لقد كذبت عليك بشأن أنني زغت. أوه، لقد زغت فعلًا، ولكني أعرف ما وراء الزجاجة».

وقلت: «انتظر، قبل أن تتمادى إلى أبعد من ذلك، وإلا فسيبدو الأمر... حسنًا، ربما تنتابك الظنون بي، لقد كان بيكر هو الذي أحضر الزجاجة، أليس كذلك؟».

- «أجل».

- «وأراد منك أن توقع على شيء ما».

- «أجل، ولكني زغت». وضحك لنفسه ضحكة مبحوحة ثم رفع الزجاجة إلى شفتيه مرة أخرى، ولكني في ضوء الشمعة رأيت أصغر فقاعة. لقد تناول نقطة فحسب.

- «ذلك أحد الأشياء التي أريد أن أخبرك بها يا داني. هل كان ما أراده المكان القديم؟».

- «أجل».

- «وكيف حدث أنك لم تبعه؟».

- «أعتقد أنني أخبرتك. إنه يجعلني سيدًا، وإن كان يفتقد سلوك السيد فحسب».

- «لا تبعه، يا داني. تمسك به».

- «وماذا يعنيك في الأمر؟ ولم لا أبيعه؟».

- «من أجل كبريائك».

- «لم يعد متبقيًا لي أي كبرياء، إنه وضع فحسب».

- «بلى، لديك كبرياء. فحين طلبت مني نقودًا، كنت خجلًا. وذلك يعني الكبرياء».

- «كلا، لقد أخبرتك. تلك كانت خدعة. إني أقول لك إن مدمني الخمر أذكياء. لقد ارتبكت، وأعطيتني دولارًا لأنك حسبتني خجلًا. كنت أريد شرابًا فحسب».

- «لا تبعه، يا داني. إنه مكان قيم. وبيكر يعلم هذا. إنه لا يشتري أي شيء لا تكون له قيمة».

- «وما القيّم فيه؟».

- «إنه المكان الوحيد القريب من هنا، والمسطح بما يكفي لإنشاء مطار».

- «أفهم».

- «لو احتفظت به، فيمكن أن يكون بداية كاملة بالنسبة لك يا داني. تمسك به. باستطاعتك أن تبدأ العلاج وحين تخرج سيكون لديك عش ملئ بالبيض».

- «ولكن لن تتوافر لي الراحة. لعله من الأفضل أن أبيعه وأشرب بثمنه ثم... حين ينكسر الغصن سيسقط المهد، وإلى أسفل سيهوي الطفل والمهد وكل شيء». كان يغني بصوت حاد ويضحك: «أترغب في المكان يا إيث؟ ألهذا السبب جئت إلى هنا؟».

- «ما أرغب فيه هو أن تكون بخير».

- «إنني بخير».

- «أريد أن أشرح لك الأمر يا داني. لو أنك صعلوك، لاستطعت أن تكون حرًّا في فعل ما تشاء. ولكنك تمتلك شيئًا ترغبه وتحتاجه مجموعة من المواطنين المتطلعين إلى المستقبل».

- «مرجة تيلور. وأنا أنوي التمسك بها. إنني الآخر متطلع إلى المستقبل».

وتطلع في وَلَه إلى الزجاجة.

- «داني، لقد أخبرتك. إنها المكان الوحيد الصالح لإقامة مطار. إنها مكان أساسي. عليهم أن يمتلكوها- إما ذلك وإما أن يسووا التلال، وهم لا يستطيعون تحمل تكاليف ذلك».

- «إذن فأنا أمسكهم من خناقهم، وإني أنوي أن ألوي...».

- «لقد نسيت يا داني. إن رجلًا ذا ممتلكات، وعاء ثمين. لقد سمعت لتوي أن أكثر عطفهم عليك، سيكون وضعك في إصلاحية حيث ستلقى العناية التي تحتاجها».

- «إنهم لن يجسروا».

- «أوه، بلى إنهم سيجسرون وسيحسون ببرهم من أجل ذلك. إنك تعرف العملية. فالقاضي، وأنت تعرفه، سيحكم عليك بأنك غير أهل لإدارة ممتلكات. وسيعين وصيًّا، وباستطاعتي أن أخمن من سيكون. وهذا كله سيكون باهظ التكاليف، وهكذا ستباع ممتلكاتك طبعًا لدفع النفقات، وأضمن أيضًا من سيكون موجودًا لشرائها».

كانت عيناه تتألقان، وكان ينصت وقد فغر فاه، كان الآن يتطلع بعيدًا.

- «أنت تحاول أن تخيفني يا إيث. لقد اخترت وقتًا غير مناسب. تصيدني في الصباح حين أكون بردانًا والعالم أمامي قيء أخضر. أما في هذه اللحظة بالذات، فإن قوتي تعادل قوة عشرة لأن الزجاجة هنا».

ولوح بها كالسيف وصارت عيناه ككوتين تتألقان في ضوء الشمعة.

«هل قلت لك يا إيث،؟ أظنني فعلت - إن للسكير نوعًا خاصًّا من الذكاء الشرير».

- «ولكنني أخبرتك بما سوف يحدث».

- «أوافقك، وأعلم أنه صواب. لقد حددت هدفك. ولكنك بدلًا من أن تخيفني، أيقظت فيَّ شيطاني. إن من يظن أن السكير عاجز لهو أحمق. إن السكير عربة خاصة جدًّا ولها قدراتها الخاصة. أستطيع أن أبادل القتال، ويبدو أنني الآن بالذات أريد ذلك».

- «يا للفتى الرائع. ذلك هو ما أود أن أسمع».

صوب إلى عنق زجاجة الويسكي وكانها حبة التصويب التي تكون في بداية البندقية.

- «أنت ستقرضني نقود ماري؟».

- «أجل».

- «دون ما أي ضمان».

- «أجل».

- «مع علمك أن فرصة استردادها واحد في الألف؟».

- «أجل».

- «ثمة شيء قميء يرتبط بالسكير يا إيث، وهو أنني لا أصدقك» ولعق شفتيه الجافتين.

- «هل ستضع النقود بين يدي؟».

- «وقتما تقول».

- «لقد قلت لك ألا تفعل».

- «ولكني سأفعل».

في هذه المرة أمال الزجاجة للخلف، وارتفعت الفقاعة الكبيرة داخل الزجاجة، وحين توقف عن الشرب، كانت عيناه، قد ازدادتا لمعانًا، ولكنهما كانتا باردتين ومبهمتين مثل عيني حية: «أتستطيع الحصول على النقود هذا الأسبوع، يا إيث؟».

- «أجل».

- «هل معك الآن دولاران؟».

كانت ذلك ما معي بالضبط: ورقة من فئة الدولار، ونصف، وربع وقطعتان من فئة سنتات وقطعة من فئة الخمسة سنتات، ثم ثلاث قطع من فئة السنت.

وصببتها في يده الممدودة.

أفرغ الزجاجة وأسقطها على الأرض: «إنني لم أضعك أبدًا في عداد الأذكياء يا إيث. هل تعلم أن مجرد العلاج الأساسي سيتكلف حوالي ألف دولار؟».

- «حسنًا».

- «هذه مهزلة يا إيث. ليس لعب شطرنج، إنه لعب بوكر. وقد اعتدت أن أكون بارعًا جدًّا في البوكر –بارعًا جدًّا- إنك تتعشم أن أجعل من مرجتي رهنًا. كما أنك تتعشم أن ما قيمته ألف دولار من الشراب سوف يقتلني، وهكذا سيكون لك مطار ملك يمينك».

- «ذلك شيء قذر يا داني».

- «لقد حذرتك من أنني قذر».

- «ألا تستطيع أن تظن أنني قصدت نفس ما قلت؟».

- «كلا. ولكن لديَّ وسيلة لكي أبقي الأمر كما قلت. أنت تتذكرني في الأيام الخوالي يا إيث، أتظنني لا أتذكرك؟ كنت الصبي ذا القاضي القابع في داخله، حسنًا بدأت أشعر بالظمأ، والزجاجة فارغة. إنني خارج. ثمني ألف دولار».

- «حسنًا».

- «نقدًا يوم الأربعاء».

- «سأحضرها».

- «دون ملحوظة، ودون توقيع ودون أي شيء. ولا تظن يا إيثان، أنك تتذكرني كما كنت في الأيام

الخوالي. لقد غير صديقي الذي هنا كل ذلك. لا إخلاص عندي، ولا استقامة، ولن تحصل على أي شيء، سوى ضحك من القلب».

- «سأطلب منك فحسب أن تحاول».

- «بالتأكيد، سأعدك بذلك يا إيث. ولكني آمل أن أكون قد أقنعتك بقيمة وعد سكير. عليك فحسب أن تحضر النقود. أبق طالما تشاء، فبيتي بيتك. إنني خارج، وسأراك يوم الأربعاء يا إيث.» رفع نفسه خارجًا من فراش الجندية العتيق، وقذف الغطاء خلفه، وسار إلى الخارج في خطو مترنح لم تكن سوستة سرواله مقفولة.

جلست لحظة أرقب الشمعة وهي تذوب وتتقطر في الدهن الذي بالطبق. كان كل ما قاله صحيحًا، ما عدا شيئًا واحدًا كنت قد راهنت عليه لم يكن قد تغير إلى ذلك الحد الكبير. ففي مكان ما من الحطام، كان يوجد داني تيلور، لم أصدق أنه يستطيع أن يستأصل داني، كنت أحب داني وكنت على استعداد لكي... لكي أفعل ما قاله بالضبط. كنت فعلًا على استعداد. ومن مبعدة سمعته يغني في صوت رائق مرتفع من طبقة الفالستو:

أسرع، أيها المركب الأنيق، كطائر فرد الجناح.

«إلى الأمام» يصيح بها الملاحون.

واحمل الغلام الذي ولد ليكون ملكًا على البحر والسماء.

* * *

بعد لحظة موحشة نفخت الشمعة، ثم سرت إلى البيت عن طريق شارع هاي، لم يكن ويلي قد نام بعد في سيارة البوليس.

قال: «يبدو لي أنك تخرج كثيرًا، يا إيث».

- «أنت أدرى بالسبب».

- «بالتأكيد. إنه الربيع، حلم الشباب».

كانت ماري نائمة، وهي تبتسم، ولكني حينما دلفت إلى جوارها، استيقظت نصف يقظة. كان الأسى في معدتي، الأسى البارد، المؤلم. واستدارت ماري على جنبها وضمتني إليها، وكنت في أشد الحاجة إليها. كنت أعلم أن الأسى سيقل، ولكني الآن بالذات كنت أحتاج إليها. ولا أدري ما إذا كانت قد استيقظت فعلًا، ولكنها -حتى في أثناء نومها- كانت تحس بوجودي.

بعد ذلك استيقظت، وقالت: «أعتقد أنك جوعان».

- «أجل يا هيلين».

- «ماذا تريد؟».

- «سندويتش بالبصل... كلا، أريد سندويتشين بالبصل في خبز الشعير».

- «سيكون عليَّ أن آخذ واحدًا لأجاريك».

- «ألا تريدين واحدًا؟».

- «طبعًا».

نزلت السلم في خفة، وعادت في فترة وجيزة ومعها الشطائر وعلبة لبن من الورق المقوى وكوبان.

كان بصلًا حارًّا جدًّا، وبدأت قولي: «ماري»..

- «انتظر حتى تبلع».

- «هل تعنين بذلك أنك لا تريدين معرفة أمور الأعمال؟».

- «طبعًا، أجل».

- «حسنًا، عندي مشروع، وأريد ألف دولار».

- «أكان ذلك شيئًا مما قاله لك مستر بيكر؟».

- «بشكل ما، ولكنه سري أيضًا».

- «حسنًا، عليك فحسب أن تكتب شيكًا».

- «كلا، يا عزيزتي، أريد منك الحصول عليه نقدًا، ولا بأس من أن تذيعي في المصرف أنك تشترين أثاثًا جديدًا أو سجادًا أو شيئًا ما».

- «ولكني لا أفعل ذلك».

- «ستفعلين».

- «هل هو سر؟».

- «لقد قلت إنك تريدين الأمر على تلك الصورة».

- «أجل – حسنًا إنني أريده فعلًا، إنه أفضل بتلك الصورة. هذه بصلة حارة. وهل سيوافق مستر بيكر على مشروعك؟».

- «سيوافق عليه، لو قام هو بتنفيذه».

- «ومتى تريدها؟».

- «غدًا».

- «لا أستطيع أكل هذه البصلة. أحسب أن رائحتي قد صارت كريهة الآن بما فيه الكفاية».

- «إنك حبيبتي».

- «لا أستطيع فهم مارولو».

- «ماذا تعنين؟».

- «مجيئه إلى المنزل، وإحضاره الحلوى».

- «إن الرب يعمل بطريقة غامضة».

- «والآن لا تسخر من المقدسات. فعيد القيامة لم ينقض بعد».

- «بلى، لقد انقضى، فالساعة الآن الواحدة والربع».

- «يا إلهي الرحيم. يجدر بنا أن ننام».

- «آه. تلك هي المضايقة، نقلًا عن شكسبير».

- «أنت تجعل من أي شيء نكتة».

ولكنها لم تكن نكتة، بقي الأسى، لم أكن أفكر فيه، ولكنه أخذ يغيض، وأحيانًا كنت أسائل نفسي، لِمِ أتألم؟ يستطيع الرجال أن يعتادوا أي شيء، ولكن الأمر يستغرق وقتًا. فذات مرة منذ زمن بعيد، اشتغلت بوظيفة سائق أحمل النيتروجلسرين في مصنع ديناميت. كان الأجر عاليًا لأن المادة خداعة. وفي بداية الأمر كنت أجزع مع كل خطوة أخطوها، ولكن في خلال أسبوع أو حوالي ذلك، صار الامر مجرد وظيفة. أجل، لقد اعتدت حتى العمل كموظف في محل بقالة. يوجد ثمة شيء مرغوب في أي شيء اعتدته حين تقارنه بشيء لم تعتده.

في الظلام والبقع الحمراء تسبح في عيني، سألت نفسي عما اعتادوا أن يسموه أمور الضمير، ولم أستطع أن أجد أي جرح. وتساءلت عما إذا كنت أستطيع، بعد أن خططت طريقي، أن أغير الاتجاه أو حتى أرجع البوصلة تسعين درجة، وفكرت في أنني كنت أستطيع ذلك، ولكني لم أرغب فيه.

كان لديَّ بُعد جديد، وكنت مأخوذًا به. كان الأمر كأنه اكتشاف مجموعة من العضلات غير المستعملة، أو كأن حلم الطفولة بقدرتي على الطيران قد تحقق. وغالبًا ما أستطيع إعادة تمثل الأحداث، والمناظر، والمحادثات، ثم أختار من بين التفصيلات المتقهقرة التي هربت مني في العرض الأول.

كانت ماري تجد غرابة في مجيء مارولو إلى المنزل بحلوى البيض، وأنا أثق في إحساس ماري بالغرابة. وكنت قد فكرت في الأمر على أنه نوع من تقديم الشكر لأنني لم أخدعه. ولكن سؤال ماري

جعلني أعيد الفحص بحثًا عن شيء أعرفه ولكنه فاتني.

إن مارولو لا يكافئ على أشياء مضت، إنه يرشو لأشياء قادمة. وهو لم يكن راغبًا في إلا بقدر ما يمكنني أن أكون ذا نفع بالنسبة له. واسترجعت تعليماته بشأن التجارة والحديث عن صقلية. لقد فقد ثقته في مكان ما. كان يرغب بشكل ما في شيء مني أو كان يحتاج إلى شيء، وكانت هناك وسيلة لاكتشاف ذلك. فلو أنني طلبت منه شيئًا، ثم رفض كالعادة، وبعد ذلك أحصل منه عليه، فإنني كنت أعرف عندئذ أنه فقد اتزانه وأنه منزعج إلى حد كبير. تركت مارولو جانبًا واتجهت إلى مارجي. مارجي، ذلك يعطيك فكرة عن عمرها. «مارجي، إنني دائمًا أحلم بك يا مارجي. إنني أهب العالم نظير...» أعدت تمثل مناظر مارجي فوق البقع السابحة على السقف، محاولًا ألا أضيف أي زيادة عما هو موجود حقًّا. خلال مدة طويلة، ربما عامين، كانت توجد ثمة مسز هنت التي هي صديقة لزوجتي، ولم أكن أصغي لأي جزء من الحديث الدائر بينهما. وفجأة بعد ذلك، برزت مارجي يانج هنت، ثم بعد ذلك مارجي. ولابد أنها جاءت إلى المحل قبل يوم الجمعة الحزينة، ولكني لم أستطع تذكر هذا. ففي ذلك اليوم بدا الأمر وكأنها تعلن عن نفسها. وقبل ذلك يحتمل أنها لم ترني أكثر مما كنت أراها. ولكنها منذ ذلك الوقت فصاعدًا صارت حاضرة –في كل مناسبة– محركة ومسببة للارتجاف. ماذا كانت تريد؟ هل من الممكن أن يكون الأمر معاكسة بريئة خالصة من امرأة ليس أمامها سوى القليل جدًّا لتفعله؟ أم أنها كانت تتحرك تبعًا لخطة؟ كان يبدو لي أنها قد أعلنت عن نفسها إليّ – جعلتني أشعر بوجودها وأبقتني قلقًا من ناحيتها. بدا لي أنها بدأت قراءة الطالع ثانية، بإيمان خير، قاصدةً أن تجعل منه عرضها المعتاد، بما فيه من صقل واحتراف. ثم حدث شيء ما، شيء مزق هذا الإيمان تمامًا. فلم تقل لها ماري ما يسبب لها التوتر، وكذلك لم أفعل أنا، هل رأت حقيقة، رؤيا الحية؟ سيكون هذا أبسط التفسيرات وربما أصدقها. ربما كانت حقًّا ذات بصيرة داخلية على عقول الآخرين. وقد جعلتني حقيقة أنها أمسكت بي في منتصف طريق تحولي ميالًا لتصديق هذا، ولكن يحتمل أنها كانت مصادفة. إذن ما الذي جعلها تهرع إلى مونتك حين لم تكن تقصد الذهاب، ألتلحق بالبائع المتجول، أم لتكشف الأمر لمارللو؟ على أي حال لم أصدق أنها تبوح بأشياء لم تتعمد البوح بها. في مكان ما من صناديق الكتب التي في السندرة كانت هناك قصة حياة من؟ أكان اسمه بيرنج، كلا، بارانوف إسكندر بارانوف، الحاكم الروسي في مكان ما حوالي عام 1800. وربما يوجد ثمة ذكر لألاسكا على أنها كانت سجنًا للساحرات. كانت قصة مارجي بعيدة الاحتمال جدًّا. ينبغي أن أراها. وفكرت في أنني قد أستطيع الزحف إلى أعلى هناك الآن دون أن أوقظ ماري.

حينئذ سمعت صريرًا على درجات السلم البلوطي العتيق، ثم صريرًا ثانيًا وثالثًا، وهكذا عرفت أنه لم يكن استقرارًا للبيت ناجمًا عن تغيير درجة حرارة الجو! بل لابد أنها إيلين تسير في نومها.

إنني طبعًا أحب ابنتي، ولكنها أحيانًا تخيفني؛ لأنها تبدو وكأنها ولدت ذكية، وفي نفس الوقت غيورة ومحبة. كانت دائمًا تغار مني. بدا لي أن انشغالها بأمور الجنس بدأ في سن مبكر جدًّا، ولعل ذلك هو شعور الآباء دائمًا. فحينما كانت فتاة صغيرة جدًّا، كان شغفها الذي لا يحد بشئون الجنس الآخر محيرًا. وبعدئذٍ سرت في سر التحول الجسدي، وهنا لم تكن توجد ثمة فتاة ملائكية طاهرة مثلما يوجد في المجلات. بل كان البيت يغلي من العصبية والجدران تهتز من القلق. لقد قرأت أن الفتيات البالغات في العصور الوسطى كن يعتبرن عرضة لممارسة السحر، وأنا غير متأكد أن الأمر ليس

كذلك. فلفترة ما وجد لدينا ما سميناه على سبيل المزاح الشبح المثير للشغب. كانت الصور تسقط من عُلاقتها، والصحاف تقذف إلى الأرض. وكان يوجد دق في السندرة، وطرق في البدروم، ولا أدري ماذا كان سبب ذلك، ولكن اهتمامي بالموضوع كان كافيًا لكي أبقي عينيَّ على إيلين، وعلى حضورها وانصرافها الخفي. كانت تشبه قطة ليلية، وأقنعت نفسي بأنها ليست مسؤولة عن السقوط والتحطيم والدق والطرق، ولكني وجدت أيضًا أن هذه الأشياء لم تكن تحدث أبدًا حينما تكون خارج المنزل. ربما كانت تجلس وهي تحدق في الفراغ حين يأتي الشبح المثير للشغب، ولكنها كانت دائمًا موجودة عند حضوره.

وأذكر أنني سمعت في طفولتي أن بيت آل هولي العتيق مسكون منذ فترة طويلة بروح أحد أسلافنا من القراصنة الطهوريين، ولكن -تبعًا للحكايات- فإنه كان روحًا مهذبًا يسير ويتجول ويئن كما ينبغي. كانت الدرجات تصر تحت وزنه غير المرئي، وكان يدق على الجدار حين كانت ثمة وفاة وشيكة الوقوع، كانت كل تصرفاته سليمة كلها ذوق. أما الشبح مثير الشغب فكان شيئًا مختلفًا تمامًا: حقودًا، وخبيثًا، ومشاكسًا، ومنتقمًا، فهو لم يكسر أبدًا شيئًا غير ذي قيمة، وبعدئذ غادرنا، وأنا لم أصدق إطلاقًا بحقيقة وجوده. كان نكتة العائلة، فيما عدا أنه كان موجودًا هناك، وهناك كانت توجد الصور المحطمة والخزف المبعثر.

حين غادرنا، بدأت إيلين السير في نومها، كما تفعل الآن. كان باستطاعتي أن أسمع خطواتها البطيئة الواثقة من نفسها وهي تهبط السلم. وفي نفس الوقت تنهدت عزيزتي ماري في عمق وغمغمت وهي إلى جواري، وقفزت نسمة فحركت على السقف ظلال الأغصان المورقة.

انزلقت بهدوء من الفراش وانسللت داخل ثوب حمامي؛ لأنني -مثل أي شخص آخر- كنت أومن أن من يسير في نومه ينبغي عدم إزعاجه وإيقاظه.

قد يبدو من هذا أنني لم أكن أحب ابنتي، ولكني أخافها نوعًا ما؛ لأنني لا أفهمها.

لو أنك استعملت درجاتنا قرب نهايتها من جهة الحائط، فإنها لا تصر. وقد اكتشفت ذلك حين كنت صبيًّا أجيد التسلل وأنا آت إلى البيت من عند الأسوار الخلفية للبلدة. ولا أزال أستخدم معرفتي عندما لا أرغب في إزعاج ماري. واستخدمتها الآن.. تحركت في سكون نازلًا على الدرج وأنا أسحب أصابعي على الحائط كمرشد لي.

كان هناك ضوء سفلي معتم كالدانتيل ينفذ من الجانب الذي فيه مصباح الشارع، ثم يتبدد إلى شبه ظلمة بعيدًا عن النافذة. ولكني استطعت رؤية إيلين. وبدت وكأن لها وميضًا، ربما بسبب رداء نومها الأبيض. كان وجهها يحجبه الظل، ولكن ذراعيها ويديها كانت تلتقط الضياء. كانت تقف عند الدولاب ذي الواجهة الزجاجية حيث تُحفظ كنوز العائلة التي لا قيمة لها، أواني العاج المحفور، ونماذج الحيتان التي تنتج دهن القيطس، والقوارب كاملة بمجاذيفها وحديدها وبحارتها، وحربة صيد الحيتان في مقدمتها– وجميعها منحوتة من أسنان الحيتان التي تشبه العظم ومن أنياب فيل البحر، ونموذج مصغر للسفينة «بيل آدير»، بطلائها اللامع، وقد علا التراب أشرعتها الطويلة وحبالها البنية اللون. وكانت توجد بالدولاب قطع من التحف الصينية التي أتى بها القباطنة القدامى من الشرق بعد أن

جردوا المنطقة الصينية من حيتان القيطس، قطع ونتف صغيرة من العظم والعاج، آلهة ضاحكة وجادة، تماثيل لبوذا مهيبة ومتسخة، زهور محفورة على حجر المرو الوردي وحجر الطلق وبعضها على حجر اليشم الأخضر– أجل، على نوع جيد من حجر اليشم، وفناجين رقيقة شبه شفافة وجميلة. وقد تكون بعض الأشياء قيمة –مثل الأحصنة الصغيرة التي لا شكل لها والتي لا زالت تدب فيها الحياة– ولكنها لو كانت ذات قيمة، فإن هذا يكون محض مصادفة، بل لابد أنها كانت محض مصادفة. فكيف كان يمكن لرجال البحر أولئك، قتلة الحيتان، أن يعرفوا الجيد من الرديء – أم أنهم كانوا يعرفون؟ أم أنهم عرفوا؟

كان الدولاب دائمًا بالنسبة لي هو المكان المقدس لأصل العائلة– الأقنعة الرومانية التي كانت للسلف، أو معبودات وآلهة البيت التي ترد إلى حجر سقط من القمر.

بل كان لدينا أيضًا جذر من نبات تفاح الجن– على شكل رجل صغير كامل، وكان عندنا أيضًا عروس بحر حقيقية، وقد صارت رثَّة جدًّا الآن، ولكنها صنعت بإتقان عن طريق حياكة الجزء الأمامي لقرد مع الجزء الخلفي لسمكة معًا. وقد تقلصت بمضي السنون وظهرت الغرز، ولكن أسنانها الصغيرة كانت لا تزال تبين في ابتسامة وحشة.

أعتقد أن لدى كل عائلة شيئًا سحريًّا، شيئًا يرتبط بها، وهو الذي يشعل حماسها ويبعث فيها الراحة والإلهام من جيل لجيل. وكان ما لدينا هو... ماذا سأقول؟

نوعًا من كتلة صغيرة من حجر شبه شفاف، ربما كان حجر المرو أو حجر اليشم الأخضر أو حتى حجر الطلق. كانت مستديرة، قطرها أربع بوصات وتبلغ بوصة ونصف عند قمتها المستديرة. وعلى سطحها حفر شكل مضفر لا نهاية له، بدا وكأنه يتحرك، ولكنه لا يصل إلى مكان. كانت شكلًا حيًّا، ولكن لا رأس له ولا ذنب، ولا بداية أو نهاية. ولم تكن الصخرة زلقة الملمس، بل كانت تلتصق قليلًا مثل اللحم، وكان ملمسها دائمًا دافئًا. كان باستطاعتك أن تنظر فيها ولكن في الواقع ليس خلالها. أعتقد أن أحد رجال البحر من دمي قد أحضرها من الصين عند عودته. كانت سحرًا... جميل أن تراها، وتلمسها، وتفركها بوجنتك أو تربت عليها بأصابعك. كانت هذه الكتلة الغريبة السحرية تعيش في الدولاب الزجاجي. وكطفل وصبي ورجل، كان مسموحًا لي أن ألمسها، وأمسكها، ولكن لا أحملها بعيدًا أبدًا. كان لونها ولفاتها ومادتها تتغير تبعًا لتغير حاجاتي. فافترضت ذات مرة أنها صدر، وبالنسبة لي كصبي صديقًا حميمًا، يثير الحماس ويؤلم. وربما تطورت فيما بعد إلى مخ أو حتى أحجية، ذلك الشيء الذي لا رأس له، ولا نهاية، ذلك الشيء المتحرك – السؤال الكامن جميعه بداخله، والذي لا يحتاج إلى إجابة لتدميره، أو لبداية أو نهاية لتحديده.

كان للخزانة الزجاجية قفل نحاسي منذ عهد المستعمرات ومفتاح نحاسي مربع، موجود دائمًا في القفل.

كانت ابنتي النائمة تمسك بالكتلة السحرية في يديها، وهي تربت عليها بأصابعها، وتدللها كما لو كانت شيئًا حيًّا. كانت تضغطها إلى صدرها الذي لم يتشكل بعد، وتضعها على وجنتها أسفل أذنها، وتحكها بأنفها مثل الجرو الرضيع، وكانت تترنم بأغنية خافتة مثل أنة فرح واشتياق. كان حب

التدمير من خصالها.

وتملكني الخوف في بادئ الأمر من أنها قد ترغب في تحطيمها إلى فتات أو إخفائها بعيدًا، ولكني أدركت الآن أنها كانت أمًّا، وحبيبًا، وطفلًا، بين يديها.

عجبت كيف يمكنني إيقاظها دون إزعاجها. ولكن لماذا يوقظ السائرون في نومهم؟ أخوفًا من أنهم قد يؤذون أنفسهم؟ إنني لم أسمع قط عن أذى وقع في هذه الحالة، اللهم في أثناء إيقاظهم. ولم ينبغي علي التدخل؟ لم يكن هذا كابوسًا مليئًا بالألم والخوف، بل كان أقرب إلى السرور والمشاركة التي تتعدى مفهوم اليقظة. فأي حق لي في إفساده؟ وتحركت في سكون عائدًا، ثم جلست في مقعدي الضخم، أنتظر.

بدت الغرفة المعتمة وكانها تموج بذرات الضوء الناصع وهي تتحرك وتدور مثل سحابات من فراش الليل، وأظن أن هذه الذرات لم تكن موجودة هناك حقًّا، وإنما كانت فحسب وخزات الإنهاك وهي تسبح في سائل عيني، ولكنها كانت مقنعة جدًّا. وقد بدا حقيقيًّا فعلًا، أن تألقًا كان ينبعث من ابنتي إيلين، ليس من بياض منامتها فحسب، بل ومن بشرتها كذلك. كنت أستطيع أن أرى وجهها، وكان المفروض ألا أتمكن من ذلك في الغرفة المظلمة. وبدا لي أنه لم يكن وجه فتاة صغيرة على الإطلاق، وكذلك لم يكن وجهًا ناضجًا ومكتملًا ومحدد الملامح. كانت شفتاها مضمومتين بحزم، وهذا ما لم تكونا عادة تفعلانه.

بعد فترة أعادت إيلين الطلسم بثبات ودقة إلى مكانه، وأغلقت الخزانة ذات الواجهة الزجاجية، وأدارت المفتاح النحاسي الذي يبقيها مغلقة. وبعدئذ استدارت وسارت متجاوزة مقعدي ثم صعدت الدرج. هناك شيئان لعلني تخيلتهما: الأول، أنها لم تكن تسير كطفلة بل كامرأة مكتملة، والثاني، أنها في أثناء انصرافها أخذ ضياؤها يستنزف بعيدًا. قد تكون هذه انطباعات، وليدة ذهني، ولكن شيئًا ثالثًا لا يكون كذلك. ففي أثناء صعودها الدرج، لم يكن هناك ثمة صرير للخشب. ولابد أنها تسير قريبًا من الجدار، حيث لا يجأر وقع الخطوات بالشكوى.

بعد بضعة لحظات تبعتها، ووجدتها في فراشها، نائمة ومغطاة بعناية، كانت تتنفس من فمها، وكان وجهها وجه طفل نائم.

ومرغمًا، نزلت الدرج ثانية وفتحت الدولاب الزجاجي. تناولت كتلة الحجر بين يدي، كانت دافئة من جسم إيلين. وكما كنت أفعل في طفولتي، تعقبت بطرف سبابتي الشكل المنساب الذي لا ينتهي، واسترحت إلى ذلك. وأحسست بأنني وثيق الصلة بإيلين بسبب هذا.

إني أعجب، هل جعلتها الصخرة بشكل ما وثيقة الصلة بي، وبآل هولي؟

# الفصل التاسع

في يوم الإثنين راغ الربيع المخاتل متجهًا إلى الشتاء بمطر بارد وريح عاصف قارس، قطع الأوراق الرقيقة في أشجار كانت واثقة به تمام الوثوق. أما العصافير الضخمة الجريئة الشبقة في المروج، والتي كانت تقصد ممارسة الحب، فقد تمزق شملها مثل خرق، مبتعدة عن طريقها وعن هدفها، وأخذت تزقزق في غضب ضد الجو المنقلب.

حييت السيد «رد بيكر» في جولته، وذيله يدفع للجانبين مثل راية معركة حربية. كان أحد المعارف القدامى، وقد أخذ ينظر بعينه شذرًا إلى المطر. وقلت: «من الآن فصاعدًا يمكن أن نكون أنا وأنت صديقين في الظاهر، ولكني أشعر أن الصواب هو أن أخبرك أن ابتسامتينا تخفيان تنافسًا وحشيًّا، صراعًا لإنهاء العمل ثم الاختفاء تحت الغطاء».

كان مورفي موجودًا في موعده. وربما كان ينتظرني - ربما، وقال: «يا له من يوم فظيع». بينما كان معطفه الواقي من المطر والمصنوع من الحرير العازل للمطر يخفق وينتفخ حول ساقيه. «سمعت أنك قمت بزيارة اجتماعية لرئيسي».

- «كنت في حاجة إلى بعض النصح. وقد قدم إليَّ الشاي أيضًا».

- «إنه خير من يفعل ذلك».

- «أنت تعرف كيف تكون النصيحة، أنت ترغب فيها فحسب، إذا اتفقت مع ما أردت أن تفعله بأي حال من الأحوال».

- «يبدو وكأن هناك استثمارًا».

- «عزيزتي ماري تريد بعض الأثاث الجديد. وحين تريد امرأة شيئًا ما، فإنها تغلف الأمر أولًا في ثوب يبدو معه وكأنه استثمار طيب».

وقال مورفي: «ليس النساء فحسب، إنني أفعل ذلك أنا نفسي».

- «حسنًا، إنها نقودها. وهي تريد أن تذهب للتسوق والمساومة».

وعند ناصية شارع «هاي» راقبنا لافتة من الصفيح تنتزع مفكوكة من محل «راب» للعب، ثم تذهب منزلقة وتصر باعثة صوتًا كصوت منبعث من حادثة تصادم.

- «قل لي، سمعت أن رئيسك ينوي القيام برحلة إلى وطنه إيطاليا».

- «لا أدري. وإن كنت أستغرب أنه لم يذهب قبل ذلك مطلقًا، فتلك العائلات وثيقة الصلة ببعضها إلى حد فظيع».

- «ألديك وقت لتناول فنجان من القهوة؟».

- «ينبغي أن أقوم بالكنس. من المؤكد أنه سيكون يومًا حافلًا بالشغل بعد العطلة».

- «أوه، تعال. عش في ترف. إن الصديق الشخصي لمستر بيكر يمكنه أن يدبر الوقت لتناول فنجان من القهوة». لم يقلها بمثل الوضاعة التي تبدو بها وهي مطبوعة.

كان يستطيع أن يجعل أي شيء يبدو بريئًا حسن المقصد.

طيلة كل تلك السنوات لم أذهب إلى مقهى فورماستر لتناول فنجان قهوة في الصباح، وربما كنت الرجل الوحيد في البلدة الذي لم يفعل ذلك. كان عرفًا، وعادة، ومنتدى. صعدنا إلى المقاعد المرتفعة بجوار الطاولة، ثم صبت لنا مس لينش –التي كانت زميلتي في المدرسة– القهوة دون أن تسكب أيًّا منها في الطبق. كانت تستند إلى الفنجان زجاجة صغيرة من القشدة، ولكنها دحرجت مكبين من السكر ملفوفين بالورق مثلما تدحرج زهر النرد، لدرجة أن صاح مورفي «يا عينا الحية».

مس لينش - مس لينش. كانت كلمة «مس» جزءًا من اسمها الآن، بل جزءًا منها هي نفسها. وأعتقد أنها لن تستطيع أبدًا أن تستأصلها. وأنفها يزداد احمرارًا كل عام، ولكن بسبب الجيوب الأنفية، لا الشراب.

قالت: «طاب صباحك يا إيثان. أتحتفل بشيء ما؟».

- «لقد جرني إلى هنا». قلتها، وبعدئذ، كتجربة في الشفقة، قلت: «آني».

استدارت رأسها فجأة كما لو كانت قد سمعت طلقة مسدس، وبعدئذ، عندما نفذت الفكرة إلى ذهنها، ابتسمت ثم -أتدري- بدت تمامًا مثلما كانت في الفصل الخامس، بأنفها الأحمر وكل شيء.

- «إنه لجميل أن نراك، يا إيثان». قالتها ثم نفضت أنفها في منديل من الورق.

قال مورفي: «حين سمعت بالأمر، تملكتني الدهشة». والتقط الورقة التي كانت على مكعب السكر. كانت أظافره مصقولة. «تطرأ عليك فكرة، وبعدئذ تصبح ثابتة ثم تعتقد أنها حقيقية. ثم تصيبك الدهشة حين لا تجدها كذلك».

- «لا أدري عمن تتكلم».

- «وأظنني أنا الآخر لا أدري. ملعونة أوراق اللف هذه. لِمَ لا يمكنهم أن يضعوه سائبًا في طبق فحسب؟».

- «ربما لأن الناس قد يستعملون منه كمية أكبر».

- «أظن الأمر كذلك. أعرف فتى عاش ذات يوم على السكر فترة من الوقت. كان يذهب إلى المقهى، ويدفع عشرة سنتات ثمنًا لفنجان من القهوة، يشرب نصفه، الذي يكون قد ملأه بالسكر. على الأقل لم يمت جوعًا».

وكالمعتاد، كنت أعجب إذا لم يكن ذلك الفتى هو مورفي - شخص غريب، قوي، رجل لا يبدو عليه السن ويضع طلاء أظافر. وأعتقد أنه كان رجلًا متعلمًا بدرجة لا بأس بها، ولكن ذلك كان مبعثه فحسب عملياته وأسلوبه في التفكير. كان علمه مختفيًا في لهجة نصف دنيوية، هي لغة الجاهل اللامعة الصلبة المصقولة.

وسألت:

- «ألهذا السبب تستعمل قطعة سكر واحدة؟».

وابتسم وقال: «لكل شخص نظريته، أنا لا أهتم إلى أي مدى يبلغ الإنهاك بالفتى، فستكون له نظرية عن سبب إنهاكه. إن نظرية تستطيع أن تجعلك تضل الطريق؛ لأنك ستتبعها رغم علامات الطريق. وأظن أن ذلك هو ما خدعني بشأن رئيسك».

لم أكن قد تناولت قهوة خارج البيت منذ مدة طويلة، ولم تكن القهوة طيبة جدًّا. لم يكن لها مذاق القهوة إطلاقًا، ولكنها كانت ساخنة وسكبت بعضها على قميصي، فعرفت أنها بنية اللون أيضًا.

- «أظنني لا أعرف قصدك».

- «كنت أحاول أن أسترجع من أين تولدت لديَّ الفكرة. أظن لأنه قال إنه أربعين عامًا. لعلها خمسة وثلاثون أو سبعة وثلاثون عامًا، حسنًا، ولكنها ليست أربعون عامًا».

- «أحسبني لست ذكيًّا جدًّا».

- «وهذا يجعل قدومه في عام 1920. ألا زلت لم تفهم بعد؟ حسنًا، حين تكون في مصرف يتعين عليك أن تصرف للناس بسرعة، وأن تتحرى عن المتزاحمين، كما تعلم. وسرعان ما تتوافر لديك مجموعة مبنية من الأحكام. إنك حتى لا تفكر فيها. إنها تحدث عند موطن الخطر- ويمكن أن تكون مخطئًا. فلعله جاء في عام 1920، ويحتمل أن أكون مخطئًا».

فرغت من قهوتي، وقلت: «حان الوقت للانصراف».

وقال مورفي: «وأنت أيضًا تستغفلني لو كنت قد سألت أسئلة، لأصبحت صعب المنال عليك. ولكنك لا تفعل، وهكذا أجدني مضطرًّا لإخبارك. ففي عام 1921 صدر أول قانون طارئ للهجرة».

- «ثم؟».

- «في عام 1920 كان باستطاعته الدخول. وفي عام 1921 يحتمل أنه لم يكن يستطيع».

- «وبعد؟».

- «وهكذا - على أي حال إن ذهني الذكي يقول: إنه جاء بعد عام 1921 عن طريق الباب الخلفي. ولهذا فهو لا يستطيع الذهاب إلى بلده لأنه لا يستطيع الحصول على جواز سفر للعودة».

- «يا إلهي. إنني سعيد لأنني لست مصرفيًّا».

- «يحتمل أنك كنت تكون أفضل مني. فإنني أتكلم كثيرًا جدًّا. لو كان سيعود إلى بلده، فإنني أكون مخطئًا حقًّا. انتظر... إنني آت. القهوة على حسابي».

وقلت: «إلى اللقاء، يا آني».

- «تعال مرة أخرى، يا إيثان. إنك لا تأتي أبدًا».

- «سأفعل».

بينما كنا نعبر الشارع قال مورفي: «لا تبح لسيادة المهاجر الإيطالي أنني كشفت ورقه، في كونه طمعًا معرضًا للإبعاد، هل ستفعل؟».

- «ولماذا أبوح بذلك؟».

- «ولم بحت أنا به؟ ماذا يوجد في حقيبة الجواهر تلك؟».

- «قبعة فرسان أورشليم. وقد اصفرت ريشتها. سأرى إذا ما أمكن إعادة لونها الأبيض».

- «هل تنتمي إلى تلك الفئة؟».

- «إنه تقليد في العائلة. لقد كنا ماسونيين قبل أن يصبح جورج واشنطون الأب الأكبر».

- «وهل كان كذلك؟ أينتمي إليهم مستر بيكر؟».

- «إنه تقليد في عائلته أيضًا».

كنا قد صرنا في الحارة الآن. وتحسس مورفي جيبه بحثًا عن مفتاح باب المصرف الخلفي. «ربما كان ذلك هو السبب في أننا نفتح الخزانة وكأننا في اجتماع المحفل، وربما كان يجدر بنا أيضًا أن نمسك بالمشروع. إنه نوع من الأشياء المقدسة».

وقلت: «مورفي، إنك ملآن بالتجديف هذا الصباح. وعيد القيامة لم يطهر نفسك بالمرة».

قال: «سأعرف في بحر ثمانية أيام. كلا، إنني أعني ما أقول، فحين تصير الساعة التاسعة تمامًا نقف مجردين أمام قدس الأقداس، وبعدئذ ينفتح القفل الميقاتي وينحني الأب بيكر ويثني ركبته اليمنى احترامًا ثم يفتح الخزانة، وننحني نحن جميعًا إلى الأرض تحية لإله العملة العظيم».

- «إنك أحمق يا مورفي».

- «ربما يكون الأمر كذلك. اللعنة على هذا القفل العتيق. بإمكانك أن تفتحه بملقط ثلج، ولكن لا تستطيع بالمفتاح».

هز المفتاح ورفس الباب حتى اندفع في النهاية مفتوحًا.

أخرج من جيبه قطعة من ورق الكلينكس وكبسها في مركز زنبرك القفل. وأمسكت نفسي وأنا على وشك السؤال، أليس ذلك خطرًا؟

وأجاب دون ما سؤال، «الشيء اللعين لا ينفتح للمفتاح - طبعًا بيكر يتفحصه بعد فتح الخزانة؛ ليرى ما إذا كان مقفولًا. لا تنقل شكوكي القذرة لمارواللو، هلا فعلت؟ إنه عظيم الاقتدار».

- «حسنًا، يا مورفي.» قلتها واستدرت إلى بابي الخاص على الجانب الذي يخصني من الحارة، وتطلعت حوالي بحثًا عن القط الذي كان يحاول الدخول دائمًا، ولكنه لم يكن هناك.

في الداخل، بدا لي المحل متغيرًا وجديدًا. رأيت أشياء لم أكن قد رأيتها أبدًا من قبل، ولم أر أشياء كانت تقلقني وتزعجني. ولم لا؟ أحضر عينين جديدتين لترى بهما عالمًا ما، أو حتى عدستين جديدتين، وسرعان ما ترى عالمًا جديدًا.

كان الصمام الذي ينز منه الماء في (سيفون) المرحاض العتيق ينبعث منه فحيح ناعم، ولم يكن مارواللو ليأتي بصمام جديد لأن الماء لم يكن على حسابنا، فمن كان يهمه الأمر. ذهبت إلى مقدمة المحل، ورفعت صنجة مشققة تزن رطلين من النوع القديم الطراز الذي كان يستعمل في الميزان ذي الكفتين. وفي المرحاض علقت الصنجة على السلسلة أعلى الدلاية البلوطية المزركشة. اندفع الماء بعنف في المرحاض وواصل الاندفاع. وعدت ثانية إلى مقدمة المحل لأنصت، واستطعت أن أسمع الماء وهو يفور في صحن المرحاض، إنه صوت لا يمكن أن يختلط عليك بأي صوت آخر. بعد ذلك أعدت الصنجة إلى قضيبها على الميزان واتخذت مكاني على منصتي خلف الطاولة. كان شعب كنيستي على الرفوف واقفًا ينتظر. يا للشياطين المسكينة! إنها لم تكن تستطيع الابتعاد عن أماكنها. وقد لاحظت بالذات قناع ميكي ماوس، وهو يبتسم لي من صندوقه بأعلى في مقعده الكنسي من مأكولات الإفطار، وذكرني ذلك بوعدي لآلان. وجدت عصا المناولة التي تستعمل في الإتيان بالأشياء من الأرفف العليا، وأنزلت صندوقًا وأقمته تحت معطفي في المخزن. وحين عدت إلى منصتي، ابتسم لي من أعلى ثاني ميكي ماوس في الصف.

مددت يدي خلف الأطعمة المحفوظة وأخرجت الحقيبة الكتانية الرمادية، التي تحفظ بها قطع النقود الصغيرة لتوضع في آلة عد النقود، وبعدئذٍ، وحين تذكرت شيئًا ما، مددت يدي إلى أبعد، حتى عثرت على المسدس العتيق من عيار 38 ذلك الذي كان هناك منذ أبعد ما أستطيع أن أتذكر. كان مسدسًا من ماركة إيفرجونسون مطليًّا بالفضة، وقد تقشرت عنه معظم الفضة. كسرت المسدس ورأيت الرصاصات خضراء بفعل صدأ النحاس. كانت ساقيته بطيئة الحركة جدًّا بسبب الشحم القديم، لدرجة أنها كانت تدور بصعوبة. وضعت قطعة السلاح المشينة والتي يحتمل أن تكون خطرة في الدرج أسفل آلة عد النقود، وجذبت ميدعة نظيفة، ولففتها حول خاصرتي، وأنا أثني طرفها العلوي إلى أعلى بإتقان لكي أخفي الخياطات.

هل يوجد ثمة شخص لم يفكر في قرارات وأفعال وغزوات ذوي القدرة والبطش في هذه الأرض؟ وهل يولدها العقل وتوجهها الفضيلة؟ أم يمكن أن يكون بعضها نتاج الحوادث، نتاج أحلام اليقظة، نتاج التخيل، ونتاج القصص التي نحكيها لأنفسنا؟ إنني أعرف حتى متى ظللت ألعب لعبة التخيل؛

لأني أعرف كيف بدأت بقواعد مورفي للقيام بسطو ناجح على مصرف. كنت قد تمتعت في كلماته بمرح طفولي، لن يعترف به البالغون عادة. كانت لعبة مضحكة تجري متوازية مع الحياة في المحل، وكان كل شيء يحدث يقع في مكانه من اللعبة. المرحاض الذي ينز الماء، قناع ميكي ماوس الذي أراه الآن، حكاية فتح الخزانة. وسقطت منحنيات جديدة وزوايا في مكانها من اللعبة، ورقة المنديل التي تدس في قفل الباب الذي فى الحارة. وقليلًا قليلًا تمت اللعبة، ولكنها كانت كلها مرسومة في ذهني حتى هذا الصباح. وكان موضع صنجة الميزان فوق سلسلة المرحاض هو أول مشاركة جسمانية قمت بها من أجل الباليه الموجود في الذهن. وكان إخراج المسدس العتيق هو المشاركة الثانية، وكنت قد بدأت الآن أتساءل عن التوقيت. كانت اللعبة تنمو في شكلها السليم.

إنني لا أزال أحمل ساعة والدي الفضية من طراز «هاميلتون السكة الحديدية» بعقربيها السميكين وأرقامها السوداء الضخمة، وهي ساعة مدهشة من حيث الإخبار عن الوقت، إن لم يكن من حيث الجمال. وقد وضعتها في الصباح في جيب قميصي قبل أن أكنس المحل. وكنت أراجع الوقت، بحيث إنني في التاسعة إلا خمس دقائق كنت قد فتحت الأبواب الأمامية وبدأت لتوي أولى ضربات المقشة التي أقوم بها طواعية لرصيف الشارع. وإنه لمن المدهش مدى كثرة القمامة التي تتجمع بعد عطلة نهاية الأسبوع، ثم ماذا حدث مع المطر، صارت القمامة طينًا رقيقًا.

يا لمصرفنا من آلة دقيقة مدهشة –مثل ساعة والدي طراز السكة الحديدية- ففي التاسعة إلا خمس دقائق جاء مستر بيكر مع الريح من شارع «إلم»، ولابد أن هاري روبيت، وأديث آلدن كانا يراقبانه؛ فقد خرجا من الباب الخلفي لمقهى فورماستر، وانضما إليه في منتصف الشارع.

ناديت: «طاب صباحك يا مستر بيكر. طاب صباحك إديث. طاب صباحك يا هاري».

- «طاب صباحك يا إيثان. إنك ستحتاج إلى خرطوم ماء لإزالة ذلك». ودخلوا المصرف.

أسندت مقشتي إلى مدخل المحل، وأخذت الصنجة من الميزان، وذهبت خلف آلة النقود، فتحت الدرج، ثم قمت بتنفيذ تمثيل صامت سريع، ولكنه رزين. سرت إلى المخزن، وعلقت الصنجة على سلسلة المرحاض، وشبكت طرف ميدعتي بأعلى قماطها الذي يكون على البطن، وارتديت معطفي الواقي من المطر، ثم خطوت إلى الباب الخلفي وفتحته مواربًا. وعندما عبر عقرب الدقائق الأسود في ساعتي رقم 12، بدأ جرس ساعة دار الإطفاء صلصلته، عددت ثمان خطوات عبر الحارة، وبعدئذ عشرين خطوة في ذهني. حركت يدي وليس شفتي وتركت عشر ثوان تنقضي، ثم حركت يدي مرة أخرى. رأيت هذا كله في ذهني –كنت أعد بينما تقوم يدي بحركات معينة – عشرين خطوة، سريعة ولكنها رزينة، وبعدئذ ثمان خطوات أخرى. أغلقت باب الحارة، خلعت معطفي، وفردت ميدعتي، وذهبت إلى المرحاض، تناولت الصنجة من فوق السلسلة وأوقفت خرير الماء، وتحركت إلى خلف الطاولة، فتحت الدرج، فتحت صندوق قبعتي ثم أغلقته ولصقته، وعدت إلى الداخل مرة أخرى، وتناولت مقشتي، ثم تطلعت إلى الساعة. كانت قد تجاوزت التاسعة بدقيقتين وعشرين ثانية. رائع جدًّا، ولكن بقليل من المران يمكن اختصار الوقت إلى أقل من دقيقتين.

كنت قد فرغت من كنس نصف الرصيف فقط، حين جاء ستوني، مدير البوليس، عبر الشارع من

مقهى فورماستر.

- «طاب صباحك يا إيثان. ناولني بسرعة رطل من الزبد، ورطلًا من لحم الخنزير، وزجاجة لبن، ودستة من البيض لقد نفد كل ما كان لدى زوجتي».

- «بالتأكيد، يا حضرة المدير. كيف حال كل شيء؟» أحضرت الأشياء معًا، وفردت كيسًا بصوت عال. قال: «بخير. لقد جئت من دقيقة مضت، ولكني سمعتك في المرحاض».

- «سيستغرق الأمر مني أسبوعًا حتى أتخلص من آثار ذلك البيض المسلوق».

وقال ستوني: «ذلك حق. على المرء أن يمضي، عليه أن يمضي».

إذن كان الأمر على ما يرام.

وبينما كان على وشك الرحيل، قال: «ما أمر صديقك، داني تيلور؟».

- «لا أدري... هل هو في إحدى نوباته؟».

- «كلا، كان يبدو بخير تمامًا، ونظيفًا بدرجة لا بأس بها. كنت جالسًا في السيارة، وقد جعل مني شاهدًا على توقيعه».

- «على أي شيء؟».

- «لا أدري. كان معه ورقتان ولكنهما كانتا مطويتين إلى الخلف ولذا لم أستطع أن أرى».

- «ورقتان؟».

- «أجل، اثنتان. وقع مرتين وشهد مرتين».

- «هل كان في وعيه؟».

- «بدا كذلك. وكان شعره مقصوصًا ويرتدي ربطة عنق».

- «ليتني أستطيع تصديق ذلك، يا حضرة المدير».

- «وأنا كذلك. يا للفتى المسكين. أحسبهم لا يكفون أبدًا عن المحاولة. عليَّ أن أذهب للبيت.» وخب مبتعدًا. إن زوجة ستوني تصغره بعشرين عامًا. عدت وأزلت بالفرشاة قطع القمامة الكبيرة عن الرصيف. شعرت بالحقارة. ربما تكون المرة الأولى دائمًا قاسية.

كنت مصيبًا بشأن العادة الملحة. بدا لي أن كل شخص بالبلدة قد نفد من عنده كل شيء. وحيث إن طلبياتنا من الفواكه والخضر لا تأتي إلا قرب الظهر، فقد كانت المبيعات ضئيلة جدًّا. ولكن حتى مع قلة الموجود لدينا، فإن الزبائن أبقوني أقفز هنا وهناك.

دخل مارولو حوالي الساعة العاشرة، ولدهشتي مد لي يد العون، بقيامه بالوزن واللف وضرب

النقود في آلة عد النقود. لم يكن قد عاونني في المحل منذ مدة طويلة. كان غالبًا ما يتجول فيه فحسب ثم يتطلع حواليه وينصرف وكأنه مالك أرض يعيش بعيدًا عن أملاكه، ولكنه في هذا الصباح عاون في فتح علب وصناديق المواد الجديدة حين أتت. وبدا لي أنه قلق، وأنه كان يدرسني حينما كنت لا أتطلع إليه. لم يكن لدينا الوقت للكلام، استطعت أن أحس بعينيه مستقرتين عليَّ.

وخطر لي أنه لابد قد سمع بأنني رفضت رشوة. ربما كان مورفي مصيبًا. فهناك نوع معين من الرجال، حين يسمع أنك كنت أمينًا يتحسس بحثًا عن الخيانة التي دفعت إلى الأمانة. إن فكرة، «ماذا يستفيد من هذا؟» لابد أن تكون قوية بالذات في رجال يلعبون بحياتهم نفسها كما لو كانوا يلعبون البوكر.

بعثت فيَّ الفكرة ضحكة ساخرة صغيرة ولكنها عميقة، بحيث لم تدفع حتى ولو بفقاعة إلى السطح.

حوالي الساعة الحادية عشر، دخلت عزيزتي ماري، متألقة في ثوب جديد من القطن المطبوع. كان تبدو جميلة وسعيدة ولاهثة الأنفاس قليلًا، وكأنها قد فعلت شيئًا مبهجًا ولكنه خطير – وكانت قد فعلت فعلًا. ناولتني مظروفًا بنيًّا من ورق مانيلا المتين.

قالت: «ظننت أنك قد تحتاج إلى هذا». وابتسمت لمارولو ابتسامتها المشرقة التي تشبه ابتسامة طائر، والتي تبتسمها حين لا تكون ميالة فعلًا لشخص ما. وهي لم تكن تميل أو تثق بمارولو -وكان هذا دأبها- ودائمًا ما أرجع هذا إلى حقيقة أن الزوجة لا تميل مطلقًا إلى رئيس زوجها أو سكرتيرته.

قلت: «أشكرك، يا عزيزتي. إنك حصيفة جدًّا، وآسف لأنني لا أستطيع أن آخذك إلى نزهة في زورق في النهر توًّا».

قالت: «أنت مشغول».

- «حسنًا، ألم ينفد كل ما لديك من مؤن؟».

- «بالتأكيد، ومعي قائمة. هل ستأتي بالأشياء إلى المنزل الليلة؟ إنني أعلم أن انهماكك لا يُمكنك من إعدادها الآن».

- «ولكن لا بيض مسلوق...».

- «كلا، يا عزيزى، كلا لسنة بأكملها».

- «من المؤكد أن أرانب عيد القيامة كانت جد مشغولة».

- «مارجي تريد أن تأخذنا لتناول العشاء في مقهى فورماستر الليلة. وهي تقول إنها لا تتمكن أبدًا من تكريمنا».

قلت: «رائع».

- «وتقول إن بيتها صغير جدًّا».

- «أهو كذلك؟».

قالت: «إنني أعطلك عن عملك».

كانت عينا مارولو على المظروف البني الذي في يدي. فوضعته تحت ميدعتي وحشوته في جيبي. كان يعرف أنه مظروف من مصرف. وكنت أستطيع أن أشعر بذهنه يتصيد مثل كلب صيد يتعقب الفيران في مقلب قمامة مدينة.

قالت ماري: «لم تتح لي فرصة لأشكرك من أجل الحلوى، يا مستر مارولو لقد أحبها الأطفال».

قال: «إنها مجرد أمنيات طيبة بمناسبة عيد القيامة. إن ثوبك يشبه الربيع».

- «شكرًا. إنني ابتللت أيضًا، إذ حسبت أن المطر ولى، ولكنه عاد ثانية».

- «خذي معطفي الواقي، يا ماري».

- «لن أفكر في هذا. إنه الآن مجرد رذاذ. فلتعد أنت إلى زبائنك».

زادت الحركة سوءًا. أطل مستر بيكر إلى الداخل ورأى صف الناس المنتظرين ثم انصرف. وصاح: «سأعود فيما بعد».

وظلوا يجيئون، وهم يتزايدون حتى الظهر، وعندئذ، ومثلما يحدث عادة، توقفت الحركة كلها. كان الناس يتناولون غداءهم، وخفت صوت المواصلات في الشارع.

ولأول مرة منذ الصباح لم يكن هناك من يريد شيئًا. شربت مزيدًا من اللبن من علبة الورق المقوى التي فتحتها، وإنني أقيد أي شيء آخذه من المحل، ثم أخصمه فحسب من راتبي، ومارولو يدعني أخذ الأشياء بسعر الجملة، وهذا يكون فرقًا كبيرًا. ولا أعتقد أننا كنا نستطيع أن نعيش براتبي لو لم يفعل مارولو ذلك.

أسند ظهره إلى الطاولة وعقد ذراعيه وآلمه ذلك، ولذا دفع يديه في جيوبه إلى أن آلمه ذلك أيضًا.

قلت: «إنني مسرور جدًّا لأنك مددت لي يد العون. لم أر أبدًا تزاحمًا كهذا من قبل، على كل أحسبهم يستطيعون مواصلة الحياة على ما تبقى من سلطة البطاطس».

- «إنك تؤدي العمل بشكل رائع، يا فتى».

- «إنني أؤدي وظيفتي».

- «كلا، إنهم يعودون، لأنهم يميلون إليك».

- «اعتادوا عليَّ فحسب، إذ إنني هنا منذ الأزل». وعندئذ حاولت محاولة بسيطة دقيقة لسبر غوره: «أراهن أنك تتطلع إلى تلك الشمس الحامية في صقلية، إنها حامية في صقلية، فقد كنت هناك إبان الحرب».

وتطلع مارولو بعيدًا: «إن عزمي لم يستقر بعد».

- «ولِمَ لا؟».

- «حسنًا، لقد ابتعدت عنها فترة طويلة جدًّا، أربعين عامًا. وأنا لا أعرف أحدًا هناك».

- «ولكن لك أقارب».

- «وهم أيضًا لا يعرفونني».

- «إنني أود بالتأكيد لو أستطيع أن أقضي عطلة في إيطاليا –دون بندقية وحزمة ميدان- ورغمًا عن ذلك، فإن أربعين عامًا فترة طويلة. في أي سنة جئت إلى هنا؟».

- «1920، منذ أمد بعيد».

بدا أن مورفي قد أصاب الهدف. ربما يكون لدى رجال المصارف ورجال الشرطة ورجال الجمارك غريزة ما. وحينئذ، تبادرت إلى ذهني محاولة سبر غور أخرى، وربما أعمق قليلًا. فتحت الدرج وأخرجت المسدس العتيق وقذفته فوق الطاولة.

وضع مارولو يديه خلف ظهره: «ماذا لديك هناك، أيها الفتى؟».

- «كنت أفكر فحسب في أنه ينبغي عليك الحصول على ترخيص له، إذا لم يكن لديك ترخيص. فقانون سوليفان قانون قاسي».

- «ومن أين أتى؟».

- «لقد كان موجودًا هنا طيلة ذلك الوقت؟».

- «لم أره مطلقًا. إنه لا يخصني إنه ملكك».

- «ليس ملكي. أنا أيضًا لم أره قبل ذلك أبدًا. وينبغي أن يكون ملكًا لشخص ما. وطالما هو موجود هنا، أن تعتقد أنه يجدر بك أن تقدم طلبًا للحصول على ترخيص!

أمتأكد أنت أنه لا يخصك؟».

- «إنني أقول لك إنني لم أره أبدًا. وأنا لا أحب الأسلحة النارية».

- «ذلك مضحك. كنت أعتقد أن جميع رجال المافيا الكبار يحبونها».

- «ماذا تعني بمافيا؟ أتحاول أن تقول إنني من المافيا؟».

وجعلت من الأمر نكتة كبيرة بريئة: «حسبما سمعت، فإن جميع الصقليين ينتمون للمافيا».

ألقيت بالمسدس في الدرج، وقلت: «عش وتعلم! حسنًا أنا بالتأكيد لا أرغب فيه. ربما يكون من

الأفضل أن أعطيه لستوني، وأقول له إنني عثرت عليه خلف شيء ما؛ لأن ذلك هو ما حدث».

وقال مارواللو: «فلتفعل ذلك فأنا لم أره طيلة حياتي، وأنا لا أريده، إنه ليس ملكي».

قلت: «حسنًا، فلينته ذلك الموضوع».

إن استخراج ترخيص تبعًا لقانون سوليفان يتطلب مجرد بضع مستندات وغالبًا بنفس العدد اللازم لاستخراج جواز سفر.

لعبت الأفكار بعقل رئيسي. ولعل أشياء صغيرة كثيرة قد وقعت بشكل متقارب جدًّا من بعضها إلى بعض.

دخلت مس ألجار العجوز تجرجر نفسها في خطوات متقاربة، وهي ترتدي جونلة جاهزة، وهي الأميرة الملكية في نيوبايتون. وبين مس ألجار والعالم كان يوجد لوحان من الزجاج غير القابل للكسر، وبينهما فراغ. وساومت على دستة من البيض. وحيث إنها كانت تعرفني منذ كنت صبيًّا صغيرًا، فهي لم تعتقد أبدًا أنني يمكن أن أكون شيئًا آخر. واستطعت أن أرى دهشتها وسرورها لأنني تمكنت من حساب باقي النقود.

قالت: «شكرًا لك يا إيثان». وانزلقت نظراتها على طاحون البن وعلى مارواللو وأبدت اهتمامًا متساويًا بكليهما. «كيف حال أبيك يا إيثان؟».

قلت: «بخير، يا مس ألجار».

- «بلغه تحياتي، أيها الولد الشاطر».

- «حاضر يا سيدتي. سأفعل بالتأكيد، يا سيدتي». ولم أكن أنوي أن أعيد تصحيح إحساسها بالزمن.. وهم يقولون إنها لا تزال تملأ ساعة جدها ليلة كل أحد، رغم أنه تمت كهربتها منذ سنوات. لن يكون الأمر سيئًا في تلك الحالة، أن يتوقف بها الزمن –لن يكون سيئًا بالمرة، أن ينتج من هذه اللحظة أصيل لا نهاية له. وأومأت برأسها في جدية محيية طاحون البن قبل أن تنصرف.

- «مخلولة في عقلها». قالها مارواللو وأدار سبابته في صدغه.

- «لا يغير ذلك من شخص، ولا يصيب بالأذى شخصًا».

- «إن أباك متوفي. لماذا لم تخبرها إن أباك متوفي؟».

- «لو أنها صدقتني، فإنها ستنسى. وهي دائمًا ما تسأل عنه. ولم ينقض وقت طويل منذ أبطلت السؤال عن جدي. وهم يقولون، إنها كانت صديقته، تلك العنزة العجوز».

أبدى مارواللو ملاحظته: «مخلولة في عقلها». ولكنه تمالك نفسه لسبب ما، مرتبط بإحساس مس ألجار غير العادي بالزمن. من الصعب أن تعرف إلى أي مدى يكون الرجل بسيطًا أو معقدًا. وحين نكون في غاية التأكد، تكون في العادة مخطئًا. وإنني أعتقد، عن طريق العادة والممارسة، أن مارواللو

قد قصر صلاته بالناس على ثلاث علاقات: الأمر، والتملق، والشراء. ولابد أن العلاقات الثلاث قد نجحت في أغلب الأحوال بما يسمح له بالاعتماد عليها. وعند نقطة ما من تعامله معي فقد العلاقة الأولى.

قال: «إنك فتى طيب، كما أنك صديق طيب أيضًا».

- «إن القبطان العجوز، الذي كان جدي، اعتاد أن يقول: «لو أردت الاحتفاظ بصديق فلا تختبره أبدًا».

- «ذلك ذكاء».

- «لقد كان ذكيًّا».

- «ظللت طيلة يوم الأحد أفكر، يا فتى– وحتى في الكنيسة كنت أفكر».

وعرفت أنه قلق بشأن عملية الرشوة، أو اعتقدت ذلك على الأقل، وهكذا أثرت القضية لكي أوفر عليه الوقت.

- «كنت تفكر في تلك الهدية اللطيفة، هه؟».

- «أجل». وتطلع إليَّ في إعجاب: «إنك ذكي أيضًا».

- «لست ذكيًّا بالدرجة التي تجعلني أعمل لصالحي».

- «لقد بقيت هنا مدة طويلة – اثنتي عشرة سنة؟».

- «إنه كذلك، مدة طويلة جدًّا. وقد حان الوقت للتغيير، ألا تعتقد ذلك؟».

- «ولم تأخذ أبدًا أي شيء من النثريات، ولم تأخذ أبدًا إلى البيت أي شيء دون أن تقيده».

- «إن الأمانة إحدى مآخذي».

- «لا تجعل من الأمر نكتة. إن قولي صحيح، فأنا أراجع عليك، وأعرف».

- «بإمكانك أن تشبك الميدالية على قلبة سترتي اليسرى».

- «كل واحد يسرق –البعض أكثر، والبعض أقل– ولكنك أنت لا تسرق، أنا أعرف».

- «ربما كنت أنتظر لأسرق المحل بأكمله».

- «لا تمزح إن ما أقوله صحيح».

- «ألفيو، أنت تملك جوهرة، فلا تلمعني كثيرًا جدًّا، وإلا أظهر معجون التلميع ما بالداخل».

- «لماذا لا تكون شريكي؟».

- «بأي شيء؟ بمرتبي؟».

- «سنتحايل على ذلك بطريقة ما».

- «وحينئذ لا أستطيع أن أسرقك دون أن أسرق نفسي».

وضحك في إعزاز. «إنك ذكي يا فتى، ولكنك لا تسرق».

- «إنك لم تنصت إليَّ، ربما أدبر أخذ المحل بكامله».

- «إنك أمين، يا فتى».

- «ذلك ما أقوله لك، حينما أكون أكثر الناس أمانة، لا يصدقني أحد. إنني أقول لك يا ألفيو أن تخفي بواعثك، وتقول الحقيقة».

- «ما هذا الكلام الذي تقوله؟».

- «Ars est celare artem. الفن لا يفسره إلا الفن».

وحرك شفتيه بتلك الجملة وبعدئذ انفجر ضاحكًا. وصاح: هو! هو! هو! Hic erat demonstrandum وهذا هو المطلوب».

- «أتريد زجاجة كوكاكولا باردة؟».

- «إنها تسيء إلى هنا!» وطوح ذراعيه متقاطعين على معدته.

- «أنت لم تبلغ من كبر السن ما يجعل معدتك رديئة، فأنت لم تتعد الخمسين».

- «بل في الثانية والخمسين، ومصاب بمعدة رديئة».

وقلت: «حسنًا، إذن فقد جئت إلى هنا وأنت في الثانية عشر، إذا كان قدومك في عام 1920. أعتقد أنهم يبدأون تعليم اللغة اللاتينية في سن مبكر في صقلية».

قال: «كنت صبيًّا في جوقة المرتلين».

فقلت:

- «وأنا نفسي تعودت أن أحمل الصليب في الجوقة. سأشرب زجاجة كوكا كولا. ألفيو. فلتستنبط لي وسيلة لأشتري بها هذا المكان وسأفكر فيها. ولكني أحذرك، بأنني لا أمتلك نقودًا».

- «سنستنبطها».

- «ولكني سأحصل على نقود».

كانت عيناه على وجهي، وبدا أنهما لا تستطيعان أن تحولا نفسيهما. وقال مارولو باللاتينية في رقة: «إنني أثق بك».

جاشت بداخلي قوة لم تكن العظمة مبعثها. فتحت زجاجة كوكاكولا، وحينما قلبتها إلى الخلف تطلعت أسفل محتوياتها البنية إلى عيني مارولو.

- «إنك فتى طيب». قالها وهز يدي، واستدار مبتعدًا، خارج المحل. وبدافع ما، ناديت عليه: «كيف تشعر بذراعك؟» واستدار بنظرة دهشة، وقال: «لم يعد يؤلمني بعد». وتابع سيره وهو يكرر لنفسه الكلمات «لم يعد يؤلمني بعد».

عاد مضطربًا: «كان عليك أن تأخذ تلك العمولة».

- «أي عمولة؟».

- «الخمسة في المائة».

- «لماذا؟».

- «كان عليك أن تأخذها. يمكنك أن تشاركني تدريجيًّا، عليك فحسب أن تتمسك بستة في المائة».

- «كلا».

- «ماذا تقصد بكلا، إذا كنت أنا أقول نعم؟».

- «لن أحتاجها، يا ألفيو. ولو احتجتها لأخذتها، ولكني لا أحتاجها».

تنهد تنهيدة عميقة.

لم يكن الأصيل بنفس ازدحام الصباح؟ ولكنه لم يكن خفيفًا كذلك. ودائمًا توجد فترة كساد بين الثالثة والرابعة –وغالبًا ما تكون من ثلث إلى نصف ساعة- ولا أعلم سببها، وبعدئذ تعود الحركة ثانية، ويكون الزبائن في هذه المرة أناسًا عائدين إلى بيوتهم من العمل، وزوجات يحضّرون طعام العشاء في آخر لحظة.

في فترة الكساد دخل مستر بيكر. وانتظر، وهو يتطلع إلى الجبن والصلصة في الثلاجة، حتى خلا المحل من زبونين، وكلاهما من المشترين المتميعين، من النوع الذي لا تعرف ما يريد، النوع الذي يلتقط الأشياء ثم يضعها، آملًا أن يقفز شيء ما بين أذرعتهم ويطلب منهم أن يشتروه.

وأخيرًا انتهى الزبونان وانصرفا.

قال: «إيثان، هل علمت أن ماري سحبت الف دولار؟».

- «أجل، يا سيدي. لقد أخبرتني أنها تنوي فعل ذلك».

- «أتعلم السبب الذي تريدها من أجله؟».

- «بالتأكيد، يا سيدي. لقد كانت تتكلم عنه طيلة شهور. إنك تعرف حال النساء. يصاب الأثاث بقليل من البلى، ولكنهن في نفس اللحظة التي يقررن فيها الحصول على أثاث جديد، يصبر الأثاث القديم غير صالح».

- «ألا تظنها حماقة أن تصرف تلك النقود الآن على مثل ذلك النوع من الأشياء؟ لقد أخبرتك بالأمس أنه ستكون هناك فرصة ما».

- «إنها نقودها، يا سيدي».

- «إنني لم أكن أتحدث عن مقامرة، يا إيثان. كنت أتحدث عن استثمار مؤكد النتيجة. وإنني واثق أنها كانت تستطيع بتلك الألف، أن تشتري أثاثها في خلال سنة، ثم يظل باقيًا لديها ألف أخرى».

- «مستر بيكر، لا أستطيع بوجه حق أن أمنعها من إنفاق نقودها».

- «ألم تستطع إغراءها، ألم تستطع إقناعها؟».

- «لم يحدث هذا مني أبدًا».

- «أنت في ذلك تبدو وكأنك والدك يا إيثان. ذلك يبدو رخاوة. وإذا كنت أنوي مساعدتك لكي تقف على قدميك، فلا أستطيع التعامل معك وأنت رخو».

- «حسنًا، يا سيدي».

- «ولا يبدو الأمر وكأنها تنوي إنفاقها محليًّا. كلا، إنها تنوي اللف على محلات الجملة ثم تدفع نقدًا. ولا يعرف أحد ما ستنتقيه. قد يطلب البائع المحلي سعرًا أكبر، ولكنه سيكون موجودًا إذا ظهر لها عيب فيما اشترت. ينبغي أن تتدخل، يا إيثان. حاول أن تجعلها تعيد إيداعه! أو قل لها أن تضع المال بين يدي. ولن تأسف على هذا أبدًا».

- «إنها نقود تركها لها أخوها، يا سيدي».

- «أعرف ذلك وقد حاولت إقناعها حين سحبتها. ولكنها أدارت عينيها الزرقاوين بشكل غامض، وقالت إنها تريد أن تلقي نظرة هنا وهناك، ألا تستطيع أن تلقي نظرة هنا وهناك دون أن يكون هنا في جيبها ألف دولار؟ عليك أن تعلم هذا جيدًا، إذا كانت هي لا تعلم».

- «أحسب أنه ليست لديَّ أي خبرة بهذا يا مستر بيكر. فلم نمتلك أي نقود منذ أن تزوجنا».

- «حسنًا، يجدر بك أن تتعلم وتتعلم سريعًا، وإلا فلن يبقى لديكم منها شيء مدة طويلة. إن عادة الإنفاق مثل المخدرات مع بعض النساء».

- «لم تتح لماري الفرصة لتنمية هذه العادة يا سيدي».

- «حسنًا إنها ستنميها، دعها فحسب تتذوق الدماء وستتحول إلى قاتلة».

- «مستر بيكر، لا أظنك تعني ذلك».

- «إنني أعنيه أيضًا».

- «لم توجد زوجة قط أكثر منها حرصًا على النقود، وقد كانت مضطرة لذلك».

ولسبب ما أثار زوبعة، وقال: «إنه أنت الذي خاب فيك أملي يا إيثان. إذا كنت تنوي الحصول على أي مكانة فينبغي عليك أن تكون سيد بيتك. كان باستطاعتك أن تؤجل الأثاث الجديد لفترة قصيرة أخرى».

- «كنت أستطيع، ولكنها لا تستطيع» وخطرت لي الفكرة بأن رجال المصارف ربما استطاعوا أن يدربوا عيونهم لتصبح مثل أشعة إكس وتظهر النقود، وبأن في وسعه أن يرى المظروف خلال ثيابي. «سأحاول إقناعها، يا مستر بيكر».

- «هذا إذا لم تكن قد صرفتها فعلًا. هل هي بالمنزل الآن؟».

- «قالت إنها ستستقل الأوتوبيس إلى ريدج هامبتون».

- «يا إلهي الرحيم! ها هي ألف دولار تضيع!».

- «حسنًا، ولكن ما زال لديها بعض رأس المال».

- «ليست تلك هي النقطة. إن وسيلة دخولك الوحيدة هي النقود».

وقلت في نعومة: «والنقود تجلب النقود».

- «ذلك صواب. ابعد ذلك عن ناظريك وستكون إوزة ضائعة، ستظل موظفًا في بقالة طيلة البقية الباقية من حياتك».

- «إنني آسف لأن هذا حدث».

- «حسنًا، من الأفضل أن تطبق القانون».

- «إن النساء مضحكات، يا سيدي. ربما أعطاها حديثك بالأمس عن كسب النقود الفكرة، بأن الحصول عليها سهل».

- «حسنًا، أوضح لها الحقيقة، لأنه بدون هذا لن تستطيع الحصول على أي شيء».

- «أتتناول زجاجة كوكاكولا باردة يا سيدي؟».

-»أجل».

لم يكن يستطيع شربها من الزجاجة. وكان عليَّ أن أفتح كيسًا من أكواب الرحلات المصنوعة من الورق، وقد هدأت الكوكاكولا من حدته قليلًا؛ فقد غمغم بصوت كالرعد المتراجع.

دخلت سيدتان زنجيتان ممن يسكن عند التقاطع، وكان عليه أن يبتلع كوكاكولاته وغضبه: «عليك أن تكلمها» قالها في وحشية وخطا خارجًا وعبر الشارع ليذهب إلى بيته. وعجبت إذا ما كان الحنق قد تملكه لأنه كان مرتابًا، ولكنني لا أظن الأمر كذلك. كلا، أظنه كان حانقًا لأنه أحس بأنه قد فقد عادته في إصدار الأوامر.

ويمكن أن يتملكك الحنق على شخص ما، عندما لا يأخذ بنصيحتك.

كانت السيدتان الزنجيتان مرحتين. وهناك عند التقاطع، تقطن جماعة من الملونين وهم أناس ظرفاء جدًّا. وهم لا يشترون منا كثيرًا لأن لهم محلهم الخاص، وهم يقومون بشراء أشياء للمقارنة من حين لآخر فحسب، ليروا ما إذا كان ولاءهم العنصري لا يكلفهم الكثير جدًّا. وهن يساومن في الأسعار أكثر مما يشترين، وأنا أفهم السبب، وهن أيضًا نساء جميلات، لهن تلك السيقان الطويلة المستقيمة الرشيقة. إنه لعجيب ما يمكن أن يفعله سوء التغذية في فترة الطفولة بجسم الكائن البشري وروحه فيما يتعلق بالجمال.

قبل الغلق مباشرة اتصلت تليفونيًّا بماري. «يا حمامتي، سأتأخر بعض الوقت».

- «لا تنسى أننا سنتناول العشاء مع مارجي في الفورماستر».

- «إنني أذكر».

- «حتى متى تنوي أن تتأخر؟».

- «عشر أو خمس عشر دقيقة. أريد أن أتمشى وأتطلع إلى الكراكة في الميناء».

- «لماذا؟».

- «أفكر في شرائها».

- «أوه!».

- «أتريدين مني أن أحضر لك بعض السمك؟».

- «حسنًا، إذا وجدت بعض سمك الفلوندر المفلطح الطازج، فذلك تقريبًا هو كل ما يباع».

- «حسنًا، سأهرع إليه».

- «والآن لا تتلكأ. سيكون عليك أن تستحم وتغير ملابسك. فأنت تعرف الفورماستر».

- «لن أتأخر، يا حلوتي، يا حبيبتي. لقد صب عليَّ مستر بيكر جام غضبه لأنني تركتك تنفقين ألف دولار».

- «ذلك العنزة العجوز!».

- «ماري! إن للجدران آذانًا».

- «قل له أن يفعل ما يستطيع».

- «ولكنه لا يستطيع. وبالإضافة، فإنه يعتقد أنك غبية».

- «ماذا؟».

- «وأنني رخو، رخو... وأنت تعرفين كيف أكون».

كانت تضحك ضحكتها المرتعشة الحلوة، تلك التي كانت تبعث في روحي أكبر قدر من السرور.

قالت: «أسرع إلى البيت، يا عزيزي. أسرع إلى البيت» كيف يكون وقع هذا على رجل! حين علقت سماعة التليفون، وقفت إلى جواره وأنا ضعيف ومتهالك وسعيد في وقت واحد، إذا كانت توجد حالة كتلك. حاولت أن أتذكر كيف كان الحال قبل ماري، ولكن لم أستطع التذكر، أو كيف يمكن أن يكون الحال بدونها، ولم أستطع تصوره، إلا بأنه سيكون حياة يحوطها السواد. وأظن أن كل واحد في فترة أو أخرى يكتب شاهد قبره. ويمكن أن يكون شاهدي، «وداعًا، يا شارلي».

كانت الشمس قد انحدرت أسفل التلال الغربية، ولكن سحابة مغبرة ضخمة كانت تغترف ضوءها وتلقيه على الميناء وحاجز الأمواج، وعلى البحر خلفه، لدرجة أن صارت الموجات ذات الزبد حمراء كالورود. كانت الركائز الخشبية التي في الماء بجوار رصيف المدينة، تتكون من ثلاث كتل من الخشب يربطها عند القمة سير من الحديد، وتنحدر كانها أبراج مطار لتمزق ثلج الشتاء. وعلى قمة كل منها وقف طائر نورس بلا حراك، وهو غالبًا ذكر، ذو صدار أبيض لا تشوبه شائبة وجناحين رماديين نظيفين. وإني لأتساءل: هل كل منها يملك مكانه، ويستطيع بيعه وتأجيره حسب مشيئته؟ كانت هناك بضعة قوارب صيد بداخل الميناء. وأنا أعرف كل الصيادين، وقد عرفتهم طيلة حياتي، كانت ماري على صواب. لم يكن لديهم سوى سمك الفلوندر. وابتعت أربع سمكات طازجة من «جولوجان» ووقفت بينما كان يقطعها لي شرائح، وسكينه ينزلق على طول السلسلة الفقرية بنفس السهولة التي تنزلق بها حين تكون في الماء. وفي الربيع يوجد موضوع حديث وحيد أكيد:

متى سيصل سمك الشواطئ الشرقية؟ وكانت عادتنا أن نقول: «عندما تزهر الليالق سيصل سمك الشواطئ الشرقية». ولكنك لا تستطيع أن تعتمد على هذا القول. يبدو لي أن سمك الشواطئ الشرقية لم يصل طيلة حياتي، أو أنه كان قد انصرف لتوه. ويا له من سمك جميل حين تحصل على واحدة منه رشيق كالسلمون المرقط، ونظيف، وفضي مثل الفضة، ورائحته طيبة. حسنًا، لم يكن يجري في مياهنا، فلم يمسك «جولوجان» ولو واحدة منه.

وقال جو: «أما أنا، فإنني أحب السمك النفاخ. والشيء المضحك، حينما تدعوه السمك النفاخ لا يقربه أحد، ولكن سمه فراريج البحر، وسيتقاتل الزبائن من أجله».

- «كيف حال ابنتك، يا جو؟».

- «أوه، يبدو عليها التحسن، ثم تأخذ في الذبول ثانية، إن هذا يقتلني».

- «هذا سيئ جدًّا. إنني آسف من أجلك».

- «لو كان هناك ثمة ما يمكن عمله».

- «أعرف... الطفلة المسكينة! إليك كيسًا، أسقط فيه السمكات.. بلغها حبي يا جو».

نظر طويلًا في عيني كما لو كان يأمل في أن يستخلص مني شيئًا ما، دواء ما، وقال: «سأفعل ذلك يا إيث. سأبلغها».

خلف حاجز الأمواج كانت «كراكة» البلدة تعمل، و«بريمتها» العملاقة تحفر الطين والأصداف البحرية، بينما تدفع المضخات القذارة خلال ماسورة على عوامات، وتقذفها على الشاطئ خلف الحواجز التي اسودت من القار. كانت أنوار تشغيلها مضاءة وكذلك مصابيح سيرها، كما علقت كرتان حمراوان لتبينا أنها تعمل. كان هناك طباخ شاحب يرتدي قبعة بيضاء وميدعة، ويسند ذراعيه العاريتين إلى القضيب ويتطلع إلى أسفل الماء العكر، وأحيانًا ما يبصق في الموجة الهائجة. كانت الريح تهب إلى الشاطئ، وتجلب من عند «الكراكة» رائحة الطين النتنة، والمحارات التي ماتت منذ أمد بعيد، والأعشاب الملوثة مع الرائحة الحلوة المنبعثة من خبز قرفة في فطيرة تفاح. واستدارت «الكراكة» الضخمة في جلال، وهي تحفر في القناة.

وحينئذ وفي ومضة وردية، التقطت أشرعة يخت صغير ضوء الشفق، ثم اقتربت وفقدت الضوء. وتجولت عائدًا، ثم استدرت إلى الخلف مخلفًا دار البحرية الجديدة، ونادي اليخت القديم، وقاعة الفرقة الأمريكية بمدافعها البنية الطلاء والرابطة بجوار درجاتها.

كانوا يعملون إلى ساعة متأخرة في ساحة القوارب، وهم يحاولون طلاء القوارب المخزونة، وإعدادها لمواجهة الصيف القادم. كان البرد غير العادي في الربيع المبكر قد أعادهم ثانية للطلاء والتلميع.

سرت مسرعًا متجاوزًا مصانع القوارب، وبعدئذٍ منحدرًا خلال بقعة الأرض ذات الأعشاب النامية متجهًا إلى حافة الميناء، وبعدئذٍ عدت في بطء متجهًا إلى كوخ داني المتواضع، وصفرت لحنًا قديمًا على عكس رغبته.

وبدا أنه لم يرغب في ذلك، فقد كان كوخه خاويًا، ولكني كنت أعلم علم اليقين كما لو كنت أراه، أن داني كان يرقد مختفيًا بين الأعشاب، وربما بين الجذوع المربعة الضخمة التي تبعثرت حول المكان. وحيث إنني كنت أعلم أنه سيعود حالما أنصرف، فقد تناولت المظروف البني من جيبي وأسندته فوق

فراشه القذر وانصرفت مبتعدًا، وأنا لا أزال أصفر، ما عدا للحظة واحدة، حين ناديت بصوت رقيق: «وداعًا يا داني، وحظًّا سعيدًا». وسرت في طريقي أصفر عائدًا إلى الشارع ثم في اتجاه بورلوك، وتجاوزت البيوت الفخمة إلى الشارع «إلم»، وبنفس الحال إلى منزلي: بيت آل هولي.

وجدت عزيزتي ماري في قلب عاصفة، كانت تدور في هدوء وبطء وسط الأنقاض، ورياح ضخمة تهب من حولها. كانت تدير عملية التدمير وهي تلبس ردائها الداخلي المصنوع من النايلون الأبيض وترتدي خفها، كان شعرها المغسول حديثًا قد التف حول مشابك الشعر فوق رأسها وكأنه قطيع ضخم من الخنازير الرضيعة. لا أستطيع أن أتذكر متى خرجنا لتناول العشاء في مطعم؛ فلم نكن نستطيع دفع تكاليفه ومن ثم فقدنا العادة. وقد أهاج انفعال ماري الوحشي الأطفال، وأوصلهم إلى حافة إعصارها الشخصي. لقد أطعمتهم، وغسلتهم، وأصدرت لهم الأوامر، ثم ألغت الأوامر. وكانت لوحة الكي منتصبة في المطبخ، وملابسي العزيزة القيمة مكوية ومعلقة على ظهور الكراسي. كانت ماري تتوقف في أثناء ركضها لتمر بالمكواة على ثوب كانت تكويه. كان الطفلان قد بلغ بهما السرور حد ألا يأكلا، ولكنهما كانا قد تلقيا الأوامر.

لديَّ أربع حلل تسمى «الحلل الأحسن» –وهذا عدد طيب بالنسبة لموظف في محل بقالة- وتحسستها بأصابعي على ظهور الكراسي. كانت أسماؤها: الزرقاء العتيقة، وجورج بروان الحلوة، ودوريان جراي، وحلة الجناز السوداء أو الحصان الساكن.

- «أي واحدة سأرتدي، يا حاضنتي؟».

- «حاضنتي؟ أوه! حسنًا، إنها ليست رسمية، كما أنها ليلة الإثنين. بودي أن أقول إنها يمكن أن تكون جورج بروان الحلوة، أو دوريان، أجل دوريان، ففيها من الرسمية ما يكفي، دون أن تبدو رسمية».

- «مع ربطتي البابيون الحريرية المنقطة؟».

- «طبعًا».

اندفعت إيلين داخلة. «بابا! أنت لن ترتدي البابيون! فأنت كبير السن جدًّا على ذلك».

- «إنني لست كذلك. إنني شاب ومرح وطائش».

- «ستكون طائر عنز مضحك. إنني سعيدة لأنني لن أذهب معكم».

- «وأنا أيضًا. من أين خطرت لك فكرة أنني عنز عجوز؟».

- «حسنًا، إنك لست عجوزًا، ولكنك كبير السن جدًّا على ارتداء بابيون».

- «أنت رجعية صغيرة رديئة».

- «حسنًا، ما دمت ترغب في أن تكون عنزًا مضحكًا».

- «دعي والدك وشأنه، فعليه أن يستحم. لقد أخرجت لك قميصًا على الفراش».

وقال آلان: «لقد وصلت إلى منتصف مقالتي «أنا أحب أمريكا».

- «هذا حسن، لأنني أنوي إلحاقك بعمل في الصيف القادم».

- «عمل؟».

- «في المحل».

- «أوه! لم يبد متحمسًا جدًّا».

فتحت إيلين فمها، ولكنها استرعت انتباهنا ولم تقل شيئًا. وكررت ماري الأشياء الخمسة والثمانين التي ينبغي على الأطفال أن يفعلوها، أو لا يفعلوها في أثناء خروجنا، وصعدت أنا الدرج لآخذ حمامي.

كنت أعقد ربطتي العزيزة الزرقاء الحريرية المنقطة، ربطتي الحريرية الوحدة الزرقاء المنقطة، حين استندت إيلين إلى الباب من الداخل، وقالت في أنوثة مخيفة:

«لن تكون بمثل هذا الرداءة، لو كنت أصغر في السن».

- «إنك ستمنحين زوجًا سعيدًا وقتًا تعيسًا، يا عزيزتي».

- «بل حتى طلبة الفصول المتقدمة في المدرسة العليا لا يرتدونها».

- «ولكن رئيس الوزراء ماكميلان يرتديها».

- «ذلك مختلف. بابا هل يعتبر غشًّا أن ينقل شيء ما من كتاب؟».

- «أوضحي؟».

- «حسنًا، لو أن شخصًا، لو كنت أكتب مقالي ونقلت مادة من كتاب، فماذا يكون ذلك؟».

- «سيعتمد الأمر على كيفية فعل ذلك».

- «أقول كما قلت. أوضح».

- «ألا تعنين» مثلما قلت أنا «؟».

- «نعم».

- «حسنًا، لو وضعت قوسين صغيرين حولها وتذييلًا تقولين فيه من الذي كتبها، فيمكن أن تضيف للموضوع مهابة ونفوذًا. وأعتقد أن نصف ما يكتب في أمريكا اقتباسات إن لم يكن مختارات. والآن هل تعجبك ربطتي؟».

- «افترض أنك لم تضع تلك العلامات».

- «حينئذ تصير سرقة مثل أي نوع آخر من السرقة. أنت لم تفعلي ذلك، أليس كذلك؟».

- «كلا».

- «إذن فما هي مشكلتك؟».

- «وهل يمكنهم أن يضعوك في السجن؟».

- «ممكن – إذا حصلت على نقود في مقابلها. لا تفعلي هذا، يا ابنتي. والآن ما رأيك في ربطتي؟».

قالت: «أعتقد أنها لا تلائمك إطلاقًا».

- «إذا كنت تنوين اللحاق بالآخرين، فيمكنك أن تخبري أخاك ذا العينين الطارفتين أنني أتيت له بقناع ميكي ماوس الدامي، وليحل العار عليه».

- «إنك لا تصغي إليَّ أبدًا، لا تصغي إصغاء حقيقيًّا».

- «بل إنني أصغي فعلًا».

- «كلا، أنت لا تفعل. وستأسف على ذلك».

- «وداعًا يا ليدا. بلغي سلامي للإوزة».

ابتعدت في تكاسل، إنها طفلة اسمنتها الرغبة. والبنات يقتلنني، حين يستحلن إلى بنات.

كانت زوجتي ماري جميلة فعلًا، جميلة فعلًا ومتألقة. ومن داخلها كان يشع ضياء ينبثق من مسامها. وتناولت ذراعي وهي تسير في شارع «إلم» تحت الأشجار المتعانقة وأنوار الشارع تتراقص فوقنا، وأقسم أن ساقينا كانت تتحرك في خطوات مختالة رقيقة كخطوات الخيل الأصيلة حين تصل إلى حاجز السباق.

- «ينبغي أن تأتي إلى روما! إن العالم العظيم يناديك».

فضحكت. وأقسم أنها ضحكت بشكل يسبغ الشرف على ابنتنا.

- «سنخرج مرات متعددة، يا عزيزتي».

- «متى؟».

- «حين نصير أغنياء».

- «ومتى يتم ذلك؟».

- «حالًا. وسأعلمك كيفية ارتداء الحذاء».

- «وهل ستشعل سيجارتك بورق من فئة العشرة دولارات؟».

- «بل من فئة العشرين».

- «إنني أحبك».

- «إنها قشور، يا سيدتي. ولا ينبغي أن تقولي ذلك، فأنت تحرجينني تمامًا».

منذ فترة ليست بالطويلة ركب أصحاب الفورماستر نوافذ مقوسة تطل على الشارع، وهي نوافذ ألواح مربعة صغيرة من زجاج القنينات، وقد صممت لتجعل المكان يبدو عتيقًا وأصيلًا –وقد بدا كذلك– ولكن الناس الجالسين إلى المناضد بالداخل، كانت أشكال وجوههم تتغير بسبب الزجاج الملتف. فأحد الوجوه يبدو كله وكأنه فك، ووجه آخر وكأنه عين كبيرة فارغة، ولكن هذا كله كان يزيد من عمر وأصالة الفورماستر العتيق. وذلك أيضًا ما كنت تضفيه عليه نباتات منقار الغرنوق وأعشاب اللوبيليا المزروعة في الأحواض التي بأسفل النوافذ.

كانت مارجي في انتظارنا، مضيفة إلى أطراف أناملها. وقدمت لنا رفيقها، شخص يدعى مستر هارتوج من نيويورك، لوحته الشمس وتهيأت له أسنان كأنها أذن سيد من الريف. وقد بدا على مستر هارتوج الانطواء والخجل، ولكنه كان يجيب على كل جملة بضحكة استحسان، كانت هي مشاركته في الحديث، ولم تكن مشاركة رديئة.

قالت ماري: «كيف حالك؟».

وضحك مستر هارتوج.

وقلت: «أتعشم أن تعلم أن رفيقتك ساحرة».

وضحك مستر هارتوج. وكنا جميعًا نشعر بأننا في خير حال.

قالت مارجي: «لقد طلبت منضدة مجاورة للنافذة، تلك التي هناك».

- «وقد جعلتهم أيضًا يضعون زهورًا خاصة، يا مارجي».

- «ماري، كان علي أن أفعل شيئًا ما لأرد كل عطفك».

واستمرتا على هذا المنوال في أثناء وبعد أن أجلستنا مارجي، وكان مستر هارتوج يضحك في كل لحظة، من الواضح أنه رجل ذكي. ورسمت خطة استخلص بها كلمة منه ولكن فيما بعد.

كانت المائدة المعدة تبدو رائعة وبيضاء جدًّا، وكانت الفضيات التي ليست من الفضة تبدو مفضضة بشكل زائد.

قالت مارجي: «إنني المضيفة وذاك يعني أنني الرئيسة، وأنا أقول مارتيني سواء أردتموه أم لا»، وضحك مستر هارتوج.

وجاءت كؤوس المارتيني، لم تكن أكوابًا صغيرة كحمامات الطيور، ومعها شرائح ملتوية من قشر الليمون. كان مذاقه الأول لاذعًا مثل عضة الخفاش مصاص الدماء، وبعث خدره البسيط، وبعد ذلك رق طعم الشراب، وقرب نهاية الكأس استحال شربه إلى شيء طيب.

وقالت مارجي: «سنتناول كأسين. الطعام جيد هنا، ولكنه ليس بمثل جودة الشراب».

وبعدئذ قصصت كيف كنت أخطط دائمًا لفتح بار، يمكنك فيه أن تتناول كأسك الثاني من المارتين فحسب. وحتمًا كنت سأجمع ثروة.

وضحك مستر هارتوج، وظهرت فوق مائدتنا أربعة حمامات طيور أخرى، حين كنت لا أزال أمضغ شريحة الليمون الأولى.

نمت لدى مستر هارتوج القدرة على الكلام مع أول رشفة من شرابه الثاني، كان صوته منخفضًا متذبذبًا، مثل ذلك الذي يكون لممثل أو مغن أو وكيل متجول يدعو لنوع من المنتجات لا يرغبه الناس. وبإمكانك حتى أن تسميه صوتًا يدعو للنعاس.

قال: «مسز يانج هنت تقول إنك من رجال الأعمال هنا. إنها بلدة ساحرة لم تتلف بعد».

وكنت على وشك أن أقول له طبيعة عملي بالضبط، حين تناولت مارجي دفة الحديث، وقالت: «إن مستر هولي هو قوة المستقبل في هذا البلد».

- «هكذا؟ وفي أي حقل تعمل، يا مستر هولي؟».

فقالت مارجي: «كل شيء.. كل شيء على الإطلاق، ولكن ليس بطريقة مكشوفة كما تعلم». كان في عينها ألق الشراب. وتطلعت إلى عيني ماري كان التألق قد بدأ يكسوها، وهكذا حكمت أن الآخرين قد تناولا زوجًا من كؤوس الشراب قبل أن تأتي، أو على الأقل مارجي.

قلت: «حسنًا، ذلك ينقذني من مهمة إنكاره».

وعاد مستر هارتوج إلى ضحكته. «إن لك زوجة بديعة، وذلك نصف المعركة».

- «بل ذلك كل المعركة».

- «إيثان، ستجعله يعتقد أننا نتشاجر».

- «أوه، إننا فعلًا نفعل!» واجترعت نصف الكأس وأحسست بالدفء يقفز إلى أعلى خلف عيني. وكنت أتطلع إلى قاع الزجاجة في إحدى تربيعات النافذة الصغيرة.

كانت تلتقط ضوء الشمعة وبدا أنها تدور في بطء. وربما كان ذلك، تنويمًا مغناطيسيًّا ذاتيًّا؛ لأنني سمعت صوتي يتتابع، وكنت أصغي إلى نفسي من خارج نفسي.

«إن مسز مارجي هي ساحرة الشرق. والمارتيني ليس شرابًا، إنه جرعة دواء». كانت الزجاجة ذات

الوميض لا تزال تجتذبني.

- «أوه، يا إلهي! كنت دائمًا أعتقد أنني مثل أوزما. ألم تكن ساحرة الشرق ساحرة شريرة؟».

- «كانت كذلك فعلًا».

- «ألم تتلاشى؟».

وخلال الزجاج المعقوق رأيت صورة رجل يمشي مارًّا على الرصيف. كان شكله كله قد تشوه بواسطة تحريف الزجاج، ولكنه كان يميل برأسه قليلًا ناحية اليسار، ويسير بطريقة عجيبة على الجزء الخارجي من قدميه. كان داني يفعل ذلك. ورأيت نفسي أقفز إلى أعلى وأهرع خلفه. رأيت نفسي أجري إلى ناصية شارع «إلم»، ولكنه كان قد اختفى فعلًا، ربما في الحديقة الخلفية للمنزل الثاني وصحت، داني! داني! أعد إليَّ النقود. أرجوك، يا داني، أعدها إلي. لا تأخذها إنها نقود مسمومة.

إنني سممتها!».

سمعت ضحكة كانت ضحكة مستر هارتوج. وقالت مارجي: «حسنًا كنت أفضل أن أكون أوزما».

مسحت الدموع من عيني بفوطة، وقلت شارحًا: «كان ينبغي،أن أشرب الشراب، لا أن أحمي عيني فيه. إنه يحرق».

وقالت ماري: «إن عينيك محمرتان تمامًا».

لم أستطع العودة إلى الحفل، ولكني سمعت نفسي أتكلم وأحكي حكايات، وسمعت زوجتي ماري تضحك ضحكة كالمجد المذهب، وهكذا خمنت أنني كنت مرحًا، بل وحتى جذابًا، ولكني لم أستطع أبدًا أن أعود إلى المنضدة. وأظن أن مارجي عرفت الأمر؛ فقد ظلت تنظر إليَّ وفي عينها سؤال مختف، عليها اللعنة. لقد كانت ساحرة.

لا أدري ماذا كان أمامنا للأكل. أذكر نبيذًا أبيض، ولعل ذلك كان سمكًا. كانت الزجاجة المتألقة تدور وكأنها مروحة. وكذلك كان يوجد براندي، ولذا فلابد أن أكون قد تناولت قهوة – وبعدئذٍ انتهى الأمر.

وفي أثناء خروجنا، وحينما تقدمتنا ماري ومستر هارتوج، تساءلت مارجي:

- «إلى أين ذهبت؟».

- «لا أعرف ماذا تقصدين».

- «إنك ذهبت بعيدًا. كنت هنا جزئيًّا فحسب».

- «ألست، ساحرة!».

قالت: «حسنًا، أيها البرعم الصغير».

في طريق عودتنا إلى البيت، كنت أفتش في ظلال الحدائق. كانت ماري متعلقة بذراعي، وخطواتها مهتزة قليلًا. وقالت:

- «يا له من وقت ممتع، لم أمض من قبل أبدًا وقتًا أمتع من هذا».

- «كان وقتًا لطيفًا».

- «إن مارجي مضيفة كاملة، ولا أدري كيف سأرد لها مثل ذلك العشاء؟».

- «إنها كذلك بالتأكيد».

- «وأنت يا إيثان كنت أعلم أنك تستطيع أن تكون مرحًا، ولكنك أضحكتنا طيلة الوقت، لقد قال مستر هارتوج إنه تعب من كثرة الضحك على المستر رد بيكر».

هل تكلمت عن ذلك؟ عن أي حكاية؟ لابد أن أكون قد فعلت. أوه داني أعد النقود! أرجوك!

وقالت زوجتي ماري: «أنت أفضل من عرض مسرحي». وفي مدخل بيتنا جذبتها إليَّ بقوة شديدة، لدرجة أنها شهقت وهي تقول: «إنك منقلب المزاج، يا عزيزي.

إنك تؤلم. أرجوك لا تدعنا نوقظ الأطفال».

كان قصدي أن أنتظر حتى تنام، وبعدئذ أنسل إلى الخارج، لأذهب إلى كوخه لأبحث عنه، بل وحتى لأجعل البوليس يقتفي أثره. ولكني كنت أعلم جيدًا. لقد اختفى داني. كنت أعلم أن داني قد اختفى. ورقدت في الظلام أرقب النقط الحمراء والصفراء وهي تسبح في دموع عيني. كنت أعلم ما فعلت، وكان داني يعلمه أيضًا. فكرت في قتلي للأرنب الصغير. ربما تكون هذه أول مرة فحسب يتملكني فيها البؤس. وينبغي مواجهته. ينبغي على المرء في الأعمال وفي السياسة أن يحفر ويمهد طريقه خلال رجال؛ لكي يتوصل إلى القمة، وحالما يصل إلى هناك، يستطيع أن يكون عظيمًا وعطوفًا – ولكن يتحتم عليه أولًا أن يصل إلى هناك.

# الفصل العاشر

يبعد مطار تمبلتون عن نيوبايتون حوالي أربعين ميلًا فحسب، وذلك يقارب خمس دقائق طيران بالنسبة للنفاثات. وهي تحلق فوقنا بانتظام متزايد، كأسراب من البعوض المميت. وأتمنى لو استطعت الإعجاب بها، أو حتى حبها مثلما يحبها ابني آلان. وربما استطعت حبها لو كان لهذه الطائرات أكثر من غرض واحد، ولكن مهمتها الوحيدة هي القتل وأنا قد امتلأت معدتي منه. إنني لم أتعلم، مثل آلان، أن أحدد مواقعها بالتطلع أمام الصوت الذي ينبعث منها. إنها تخترق الحاجز الصوتي محدثة فرقعة تجعلني أعتقد أن الفرن قد انفجر. وحين تحلّق فوقنا في أثناء الليل، تتداخل في أحلامي فأستيقظ وبي إحساس سيئ بالمرض، وكأن روحي قد أصيبت بقرحة.

في ساعة مبكرة من الصباح أحدث سرب منها فرقعاته ففزت مستيقظًا، وأنا أرتعد قليلًا. ولابد أنها جعلتني أحلم بتلك البنادق الألمانية من عيار 88 ملليمتر التي تستخدم في كافة الأغراض، والتي اعتدنا أن نعجب بها ونخشاها كثيرًا جدًّا.

كان جسدي يخزني من عرق الخوف، وأنا راقد في ضوء الصباح المتجمع، أصغي إلى مغازل الخسة الرقيقة وزئيرها يغيض على البعد. وفكرت كيف كانت تلك الرعدة تحت جلد كل إنسان في العالم، لم تكن في ذهنه، بل عميقة تحت الجلد. إن الأمر ليس أمر النفاثات بقدر ما هو الغرض منها.

حين تتضخم حالة أو مشكلة تضخمًا كبيرًا جدًّا، فإن الناس يتقونها بعدم التفكير فيها. ولكنها تتعمق إلى الداخل وتختلط بعديد من الأشياء الأخرى الموجودة هناك فعلًا، وينتج عن هذا الحزن والقلق، والإحساس بالإثم والاضطرار للحصول على شيء –أي شيء– قبل أن يضيع جميعه. وربما لا يتناول علماء النفس الذين يسيرون على خطوط تجميع، عقدًا بالمرة، بل يتناولون تلك الرؤوس الحربية التي قد يحدث يومًا ما أن تصير سحبًا على شكل نبات عيش الغراب. والحقيقة أن كل من أراه تقريبًا، يبدو لي عصبيًّا وقلقًا ومرتفع الصوت قليلًا، وأحمق في مرح مثل أناس يسكرون في ليلة رأس السنة، وكأنه يطبق المثل القائل: ينبغي تناسي المعارف القدامى وتقبيل زوجة جارك.

أدرت رأسي ناحية زوجتي، لم تكن تبتسم في نومها. كان فمها متدليًا إلى أسفل، وقد أحاطت بعينيها غير المقفلتين تمامًا هالات الإعياء، وإذن فهي مريضة؛ لأنها تبدو هكذا حين تكون مريضة. وهي أحسن الزوجات صحة في العالم إلى أن تمرض – وهذا ليس دائمًا – وحينئذ أشد الزوجات مرضًا في العالم.

أحدث سرب آخر من النفاثات فرقعة وهو يخترق حاجز الصوت. ربما نكون قد أمضينا نصف مليون عام لكي نعتاد استخدم النار، وأقل من خمسة عشر عامًا لكي نوجد التفكير في هذه القوة التي هي أكثر وحشية من النار بكثير. هل أتيحت لنا الفرصة قط لنجعل منها أداة طيعة؟ وإذا كانت قوانين التفكير هي قوانين الأشياء، فهل يمكن أن يحدث انقسام ذاتي في الروح؟ وهل هذا ما يحدث لي الآن، ويحدث لنا؟

أذكر قصة حكتها لي العمة ديبورا منذ أمد بعيد. في فترة مبكرة من القرن الماضي كان بعض أفراد عائلتي ينتمون إلى طائفة «حواريي المسيح»[4]. كانت العمة ديبورا طفلة آنذاك، ولكنها كانت تذكر كيف أن نهاية العالم آتية في وقت محدد. وترك والداها وراءهما كل شيء يمتلكانه ما عدا ملاءات الفراش. وتلك التفا بها.

وفي الوقت المتنبأ به ذهبا إلى التلال ليلاقيا نهاية العالم. كان مئات من الناس، يصلون ويغنون، وهم يرتدون الملاءات، وحل الليل فعلا غناؤهم ورقصوا، وحين اقترب الموعد المحدد، سقط شهاب – حسب قولها– وصرخ كل فرد. كانت لا تزال تستطيع تذكر الصراخ. كانوا كالذئاب –حسب قولها– وكالفهود، رغم أنها لم تر فهدًا قط. وحينئذ حلت اللحظة، وأمسك رجال ونساء وأطفال يتدثرون بالبياض أنفاسهم. واستمرت اللحظة واستمرت، وأصابت الأطفال زرقة في الوجوه، وبعدئذٍ انقضت اللحظة. لقد تم الأمر وغرر بها مما أدى إلى دمارهم. ومع الفجر زحفوا إلى أسفل التل وحاولوا استرداد الملابس التي خلفوها، مع آنيتهم وقدورهم وثيرانهم وحميرهم. وانا أذكر إلى أي درجة من السوء كانت أحاسيسهم.

أعتقد أن ما أعاد تلك القصة إلى ذاكرتي هو النفاثات، كل ذلك الجهد الهائل والوقت والمال لكي نختزن كل ذلك الموت. هل كنا سنحس بالخديعة لو لم نستعملها أبدًا؟ بوسعنا أن نطلق صواريخ في الفضاء، ولكننا لا نستطيع أن نشفي غضبًا أو حزنًا.

فتحت زوجتي ماري عينيها، وقالت: «إيثان، أنت تتكلم مع نفسك. ولا أدري عن أي شيء، ولكن صوتك عال. أبطل التفكير، يا إيثان».

كنت على وشك اقتراح أن تكف عن الشراب، ولكنها بدت بائسة جدًّا. وأنا دائمًا لا أعرف متى ينبغي عليَّ ألا أمزح، ولكني هذه المرة قلت:

- «أهي رأسك؟».

- «أجل».

- «ومعدتك؟».

- «أجل».

- «وكل جسمك؟».

- «كل جسمي».

- «هل أحضر لك شيئًا؟».

- «أحضر لي قبرًا».

- «أبْقِي راقدة».

- «لا أستطيع. عليَّ أن أهيئ الأطفال للمدرسة».

- «سأقوم بهذا».

- «عليك أن تذهب لعملك».

- «سأقوم بهذا، أقول لك».

وبعد لحظة، قالت: «إيثان، أعتقد أنني لا أستطيع النهوض، إنني أشعر أنني مريضة جدًّا».

- «هل آتي بطبيب؟».

- «كلا».

- «لا أستطيع أن أتركك بمفردك. أيمكن أن تبقى إيلين معك؟».

- «كلا، فلديها امتحانات».

- «هل أتصل تليفونيًّا بمارجي يانج هنت لتأتي إلى هنا؟».

- «لقد رفعوا تليفونها. وستحصل على جهاز جديد».

- «يمكنني المرور عليها وسؤالها المجيء».

- «ستقتل أي إنسان يوقظها في هذه الساعة المبكرة».

- «باستطاعتي أن أدس ورقة تحت بابها».

- «كلا، لا أريدك أن تفعل».

- «ليس فيها شيء».

- «كلا، كلا، لا أريدك أن تفعل. لا أريدك أن تفعل».

- «ولكني لا أستطيع أن أتركك بمفردك».

- «إنه لأمر مضحك. إنني أشعر بتحسن. أظن أن الصياح فيك هو الذي فعل ذلك. حسنًا، هذا صحيح».

قالتها، ثم لكي تبرهن على صحة قولها، نهضت وارتدت الروب دي شامبر، كان التحسن باديًا عليها بالفعل.

- «أنت رائعة، يا عزيزتي».

جرحت نفسي في أثناء الحلاقة، ونزلت لتناول الإفطار وقطعة صغيرة حمراء من ورق التواليت

ملتصقة بوجهي.

لم يكن مورفي واقفًا تحت السقيفة يخلل أسنانه حين مررت بها. كنت سعيدًا فلم أكن راغبًا في رؤيته. وأسرعت لمجرد أنه قد يحاول اللحاق بي.

حين فتحت الباب المفضي إلى الحارة رأيت مظروف المصرف البني الذي دفع بأسفله. كان ملصوقًا، ومظاريف المصارف تكون متينة. لذا كان علي أن أخرج مطوتي من جيبي لأشقه وأفتحه.

ثلاث ورقات من ورقة كراسة مدرسية مسطرة من التي ثمنها خمسة سنتات وقد كتبت بقلم رصاص ناعم. وصية: «أنا، وأنا بكامل قواي العقلية»، «وفي مقابل أنني...» وملحوظة بخط اليد: «أوافق على أن أرد وأرهن ما». وكانت كلا الورقتين موقعتين، والكتابة أنيقة متقنة، ثم «عزيزي إيث: هذا هو ما تريده».

شعرت ببشرة وجهي تتصلب وكأنها ظهر سرطان البحر. وأغلقت باب الحارة ببطء كما لو أنك تغلق باب مدفن. فردت الورقتين الأوليين بعناية ووضعتهما في حافظتي، أما الأخرى فقد كورتها ووضعتها في المرحاض وجذبت السلسلة. وهو مرحاض ذو (سيفون) مرتفع، و(سلطانية) ذات حافة ما. وقاومت الورقة المكورة عبور الحافة، ولكنها في النهاية عبرتها.

كان باب الحارة مفتوحًا قليلًا حين خرجت من المرحاض. وأظن أنني كنت قد أغلقته. وفي أثناء ذهابي متجهًا إليه، سمعت صوتًا خافتًا، وحين تطلعت إلى أعلى، رأيت تلك القطة اللعينة على أحد رفوف المخزن العليا، تحاول غرس مخلبها في الجانب المعلق من فخذ خنزير. وقد استهلكت في طردها إلى الحارة مقشة ذات يد طويلة، ومطاردة كاملة، فبينما كانت تجري متجاوزة إياي، خبطتها خبطة عنيفة، ولكني أخطأتها وكسرت يد المقشة على قائمة الباب.

لم يكن ثمة احتفال من أجل الأطعمة المحفوظة في العلب ذلك الصباح. فلم استطع استرجاع نص. ولكني أخرجت خرطومًا لأغسل الرصيف الأمامي وبالوعة الماء أيضًا. وبعد ذلك نظفت المخزن كله حتى الأركان التي طال إهمالها واختنقت من التراب. وكنت أيضًا أغني:

«الآن أحالت شمس يورك الساطعة».

«شتاء سخطنا إلى صيف رائع».

أعرف أن هذه ليست أغنية، ولكني غنيتها.

# القسم الثاني

## الفصل الحادي عشر

نيوبايتون مكان جميل وميناؤها، الذي كان عظيمًا ذات يوم، تحميه من رياح الشمال الشرقي المعولة جزيرة بعيدة. وأبنية القرية مبعثرة حول مجموعة متشابكة من المياه المتوغلة في الأرض والتي يغذيها المد، وهي في حالة المد والجذر، تبعث تيارات عنيفة خلال قنوات تنساب من الميناء ومن البحر. إنها ليست بلدة مزدحمة أو حضرية. وفيما عدا المنازل العظيمة التي كانت لصيادي الحيتان الذين انقرضوا منذ أمد بعيد، فالمساكن صغيرة أنيقة، موزعة بين أشجار عتيقة بديعة: بلوط من أنواع متعددة، وأسفندان ودردار، وشجر جوز، وبعض من أشجار السرو، ولكن الشجر المحلي هو البلوط في معظم الأحوال، فيما عدا أشجار الدردار المغروسة منذ القدم في الشوارع الرئيسية، وذات يوم كانت أشجار البلوط البكر من الكثرة والضخامة بحيث إن عديدًا من مصانع السفن كانت تأخذ من المنطقة المجاورة حاجتها من ألواح السفن وزواياها، وقواعدها وهياكلها.

المجتمعات، مثل الناس، لها فترات صحة وفترات مرض، بل حتى فترات شباب وكهولة، وأمل ويأس. فقد مضى عهد كانت فيه نيو بايتون تنتج زيت الحوت الذي أضاء العالم الغربي. فقد كانت مصابيح الطلاب في أكسفورد وكمبردج تأخذ وقودها من هذا المركز الأمريكي. وبعدئذ تفجر البترول، أو الزيت الصخري، في بنسلفانيا، وحل الكيروسين الرخيص، المسمى بزيت الفحم، محل زيت الحيتان؛ فجعل غالبية صيادي البحر يعتزلون عملهم. وحل المرض أو اليأس بنيو بايتون، وهي حالة ربما لم تشف منها. وهناك بلدان أخرى ليست بعيدة جدًّا، وازدهرت عن طريق منتجات وأوجه نشاط أخرى، ولكن نيوبايتون، التي كانت كل دفعة حياتها تتركز في السفن ذوات القلاع المربعة، والحيتان، غرقت في الكسل. وتجاوزت حية تزايد السكان الزاحفة من نيويورك، نيوبايتون، تاركة إياها لذكرياتها. وكما يحدث في الغالب، أقنع أناس نيوبايتون أنفسهم بأنهم يحبونها هكذا. فقد وفرت عليهم ضوضاء وفوضى المصطافين، ووهج لافتات النيون الزاهي، وإنفاق نقود السياح وجلبتهم. وحول المياه الداخلية البديعة بنيت بضعة منازل جديدة فحسب. ولكن حية تزيد السكان واصلت تلويها الزاحف، وكان كل فرد يعلم أنه إن آجلًا أو عاجلًا ستبتلع قريته نيوبايتون. واشتاق أهل البلدة لذلك، ومقتوا فكرته في آن واحد. كانت البلاد المجاورة غنية، أغرقتها غنائم السياح، وانتفخت من المفاسد، وتألقت بالمنازل العظيمة لمحدثي الغنى. كانت بايتون القديمة تحتضن الفن وصناعة الفخار والمخنثين من الرجال، وكانت النساء الملعونات ذوات الأقدام المفرطة من سلالة لزبوس ينسجن أقمشة مصنوعة باليد كما ينسجن الدسائس المنزلية الصغيرة.

أما نيوبايتون فكانت تتكلم عن الأيام الغابرة وعن سمك الفلاوندر المفلطح ومتى سيبدأ سمك الشواطئ الشرقية في السريان.

على أطراف المياه الداخلية المليئة بالبوص، أقام البط البري أعشاشه، وخرج يسبح مع أسطول

صغير من صغاره، وحفرت فيران المسك جحورها وأخذت تسبح رشيقة في الصباح المبكر. كانت النسور السماكة تتحلق، وتصوب، ثم تنقض على السمك، وطيور النورس تحمل اللزيق الصدفي والمحار المروحي الشكل عاليًا في الهواء، ثم تسقطها لكي تنكسر فتنفتح لتأكلها. وكانت بعض كلاب البحر لا تزال تشق الماء وكأنها همسات خفية مغطاة بالفراء، كانت الأرانب تنسل لسرقة الحدائق، والسناجب الرمادية تتحرك مثل أمواج صغيرة في شوارع القرية. كانت الديوك البرية تصفق أجنحتها وتصيح في سعال. وفي الماء الضحل وازنت طيور البلشون الزرقاء نفسها، وكأنها سيوف طويلة ذات أرجل، وعندما حل الليل صرخت طيور العجّاج، وكأنها أشباح تشعر بالوحشة.

الربيع يحل متأخرًا في نيوبايتون وكذلك الصيف، ولكن عندما يحل يكون له صوت خاص ناعم، ووحشي، وكذلك رائحة وإحساس. ففي فترة مبكرة من يونيو يتفجر عالم أوراق الشجر ونصاله وأزهاره، ويصير كل غروب مختلفًا عن الآخر. وبعدئذٍ في المساء تعلن طيور الدراج عن أسمائها القصيرة، وبعد حلول الظلام يتكون جدار صوتي مصدره صقر الليل الأمريكي. وتغدو أشجار البلوط محملة بالأوراق، وتقذف بأزهارها ذات «الشرابات» الطويلة بين العشب. وبعدئذٍ تلتقي كلاب من بيوت مختلفة وتذهب في رحلات، وهي تتجول ذاهلة سعيدة في الغابات، وأحيانًا لا تعود إلى البلدة طيلة أيام.

وفي شهر يونيو، ومدفوعًا بالغريزة، يجز الرجل العشب ويبذر البذور، ويتفرغ لمعركة مع الخلد والأرنب، والنملة والخنفساء، والطير، وكل الحيوانات الأخرى التي تتجمع لتسلب منه حديقته. وتتطلع المرأة إلى نهاية البتلات الملتوية لوردة ما وتنتشي قليلًا، ثم تتنهد، وتصبح بشرتها بتلة وعيناها سداتين.

يونيو شهر بهيج، بارد ودافئ، رطب وصيَّاح بالنمو بإعادة إنتاج الحلو والمؤذي، والباني والمخرب. فيه تتجول الفتيات في شارع «هاي» في سراويل واسعة تبرز شكل أجسادهن، وأيديهن متشابكة، بينما تتربع على أكتافهن أجهزة راديو ترانزستور صغيرة تشدو في آذانهن بأغنيات الحب. أما الصبية اليافعون، الذين يتفجرون سذاجة، فيجلسون على المقاعد العالية في محل تانجر، وهم يحتسون فقاقيع المستقبل خلال مصاصات من القش، ويرقبون الفتيات بأعين معيزية جامدة، ويتناقلون عبارات تحقير من واحد للآخر، بينما تنشج أعماقهم من اللوعة.

وفي شهر يونيو يهبط رجال الأعمال على محل «آل وسو» أو «الفورماستر» ليتناولوا كوبًا من الجعة، أو يبقوا لتناول الويسكي. وفي الأصيل تزحف السيارات المتربة إلى بوابة المنزل القصي المنعزلة، الذي بلا طلاء وقد جذبت كل ستائره، هناك عند نهاية شارع «ميل»، حيث تتلقى أليس، مشاكل الأصيل لرجال قرضهم شهر يونيو بنابه. وطيلة اليوم كله تقلع قوارب التجديف من عند حاجز الأمواج وبها رجال ونساء سعداء يتملقون البحر من أجل عشائهم.

ويونيو شهر طلاء وتشذيب، شهر خطط ومشاريع. وإنه لرجل نادر ذلك الذي لا يحضر إلى بيته بلاط الأسمنت وقطع الخشب الصغيرة، ورسومًا تخطيطية لتاج محل مرسومة على ظهر مظاريف. وعلى الشاطئ ترقد مائة قارب صغيرة بطنها إلى أسفل وقاعها إلى أعلى، وقيعانها تتألق بالطلاء النحاسي، وأصحابها يشدون قاماتهم ويبتسمون لصف الموج البطيء الذي لا يتحرك. ولا تزال

المدرسة تتمسك بالأطفال العنيدين حتى قرب نهاية الشهر، وعندما يحين وقت الامتحان، يعلو زبد الثورة ويتحول الزكام العادي إلى وباء، طاعون، يختفي يوم إغلاق المدرسة.

وفي شهر يونيو تنبت بذرة الصيف السعيدة. «إلى أين سنذهب في يوم الرابع من يوليو الرائع؟ لقد حان الوقت الذي ينبغي علينا فيه أن نخطط لإجازتنا».

ويونيو هو أم القادرين، ففيه يسبح البط الصغير في شجاعة ربما إلى فك السلاحف الخطافة المختفي تحت الماء، ويندفع الخس تجاه أرض التحاريق، وجذوع الطماطم الخلفية العنيدة ناحية الديدان القارضة، وتقاوم العائلات مباهج الرمل وحرق الشمس بليال نكدة فوق جبال يعلو فيها صوت سيمفونيات بعوض «سأحصل هذا العام على راحتي. ولن أجهد نفسي كثيرًا. وهذا العام لن أسمح للأطفال أن يجعلوا من أسبوعي حريتي جحيمًا لا يطاق. إنني أعمل طول العام» وينتصر التخطيط للإجازة على الذاكرة، ويصير كل ما في العالم على ما يرام.

لقد ظلت نيوبايتون في سبات وقتًا طويلًا. والرجال الذين يحكمونها، سياسيًّا وأخلاقيًّا، واقتصاديًّا، استمروا طويلًا في حكمهم حتى صارت وسائلهم مقررة، فالعمدة، والمجلس، والقضاة، والشرطة كانوا أبديين. كان العمدة يبيع الأجهزة للمجلس البلدي، والقضاة قد حددوا ثمن تذاكر المواصلات مثلما كانوا يفعلون منذ أمد بعيد، لدرجة أنهم أصبحوا لا يذكرون هذا على أنه ممارسة عمل قانوني –على الأقل هذا ما قالته كتب القانون- وحيث إنهم كانوا رجالًا عاديين، فهم بالتأكيد لم يعتبروا هذا منافيًا للأخلاق. إن الرجال جميعًا أخلاقيون، وجيرانهم فحسب هم الذين ليسوا كذلك.

دهم الأصيل الأصفر نسمة الصيف الدافئة. ويتحرك في الشوارع بعض الناس الذين يحتفون مبكرين بالفصول، أولئك ليس لديهم أطفال يربطوهم في بيوتهم حتى تبطل المدرسة، كانوا غرباء. وجاءت بعض السيارات، وهي تقطر قوارب صغيرة وقوارب كبيرة بموتور خارجي فوق مقطورات. وكان إيثان يعرف وعيناه مغمضتان أنهم مصطافون، بسبب ما اشتروا من أشياء: لحوم باردة وجبن مطبوخ، وبسكويت هش وسردين العلب.

ودخل جوي مورفي ليتناول شرابه المرطب في ساعة الأصيل، مثلما اعتاد أن يفعل يوميًّا الآن حين أخذ الطقس يصير دافئًا. لوح بالزجاجة مشيرًا إلى الثلاجة، وقال:

«ينبغي أن تضعوا هنا نافورة للصودا».

- «ثم تنبت لي أربعة أذرع جديدة، أو أنشق إلى موظفين مثل حبة البيوندو؟ لعلك نسيت، أيها الجار جوي، أنني لا أمتلك هذا المحل».

- «ينبغي أن تمتلكه».

- «هل يتحتم عليَّ أن أقص عليك قصتي المحزنة عن وفاة الملوك؟».

«أعرف قصتك. فأنت لم تكن تعرف الفرق بين ما تبيع من اسبارجوس، وبين خطأ في مسك الدفاتر بالطريقة المزدوجة، وكان عليك أن تتعلم بكل مشقة. والآن اسمع... لكنك تعلمت».

- «تعلمت ما عاد عليَّ بقليل من الخير».

- «لو أنه الآن محلك، لكنت قد جمعت ثروة».

- «ولكنه ليس كذلك».

- «لو أنك فتحت محلًا مجاورًا، لأخذت معك كل الزبائن».

- «ما الذي جعلك تعتقد هذا؟».

- «لأن الناس يشترون ممن يعرفون. وهذا ما يُدعى بذيوع الصيت وهو أمر ذو مفعول».

- «ولكنه لم يجد من قبل، فكل من في البلدة كان يعرفني، ومع ذلك أفلست».

- «ذلك كان شيئًا فنيًّا، فلم تكن تعرف كيف تشتري».

- «لعلي ما زلت كذلك».

- «بل إنك تعرف، ولكنك لا تعرف حتى إنك قد تعلمت. وأنت لا تزال في حالة ذهنية منهارة. انبذها يا مستر هولي، انبذها يا إيثان».

- «شكرًا».

- «إنني أميل إليك. متى سيذهب مارولو إلى إيطاليا؟».

- «لم يقل. قل لي، يا جوي، ما مقدار غناه؟ كلا لا تفعل. أعرف أن المفروض فيك ألا تتكلم عن العملاء».

- «أستطيع أن أكسر قاعدة من أجل صديق، يا إيثان. إنني لا أعرف كل عملياته، ولكن لو كان لحسابه لدينا أي معنى، فأستطيع القول إنه غني. فهو يدس أصابعه في جميع أنواع الأعمال: قطعة عقار هنا، وقطعة أرض خالية هناك، وبعض البيوت على الشاطئ، وحزمة من الرهونات الممتازة من الضخامة بحيث تلف خصرك».

-»وكيف عرفت؟».

- «من صندوق الودائع، فهو يستأجر أحد صناديقنا الضخمة. وحين يفتحه، فلديه مفتاح ولدي الآخر. وإنني أعترف أنني اختلست النظر. وأحسب أن في أعماقي ميلًا لاختلاس النظر».

- «ولكن أعماله كلها سليمة المظهر أليس كذلك؟ أعني.. حسنًا، إنك طوال الوقت تقرأ عن... حسنًا، المخدرات وعمليات الاحتيال وما إلى ذلك».

- «لست أعرف عنه شيئًا مثل ذلك، فهو لا يتكلم عن عملياته. إنه يسحب بعض النقود، ثم يعيد إيداع البعض الآخر، ولا أعلم في أي مكان آخر يودع أمواله.

لاحظ أنني لم أخبرك عن رصيده».

- «إنني لم أسأل».

- «أيمكنك السماح لي بتناول علبة جعة؟».

- «بشرط أن تشربها في الخارج، وأستطيع أن أصبها في كوب من الورق».

- «لم أطلب منك خرق القانون».

- «هراء.» وثقب إيثان ثقوبًا في العلبة «عليك فحسب أن تخفيها بجانبك إذا دخل أي شخص».

- «شكرًا. لقد فكرت فيك طويلًا، يا إيثان».

- «لماذا؟».

- «ربما لأنني فضولي. إن الفشل حالة ذهنية. إنه مثل واحد من تلك الفخاخ الرملية التي يحفرها صائد النمل. أنت تواصل الانزلاق إلى الخلف. قم بقفزة واحدة ملعونة لتخرج منه. يتحتم عليك أن تقوم بتلك القفزة يا إيثان. وإذا حدث مرة أن خرجت من الفخ، فستجد أن النجاح أيضًا حالة ذهنية».

- «هل هو فخ أيضًا».

- «لو أنه كذلك، فإنه فخ من نوع أفضل».

- «افترض أن رجلًا قام بالقفزة، وأن شخصًا آخر تردى في الفخ».

- «إن الله وحده يرى العصفور وهو يسقط، ولكنه يتركه لمصيره».

- «أتمنى لو عرفت ما تحاول أن تطلب مني عمله».

- «وأنا أيضًا أتمنى ذلك. ولو عرفته، فربما فعلته بنفسي. إن صرافي المصارف لا يصلون إلى منصب الرئاسة. ولكن رجلًا لديه حفنة من المال يصل. أحسبني أحاول أن أقول، تصيد أي شيء يمر بك. فربما لا يقترب منك مرة أخرى».

- «إنك فيلسوف، يا جوي، فيلسوف مالي».

- «لا تجعل من الأمر مزاحًا. وإذا لم يكن هذا الشيء لديك، ففكر فيه، فحين يكون المرء بمفرده يفكر في أشياء. وأنت تعرف أن معظم الناس يعيشون 90٪ من حياتهم في الماضي، و7٪ في الحاضر، وهذا يترك للمستقبل 3٪ فحسب، ولقد قال ساتشيل بيج العجوز أحكم ما سمعته في حياتي بهذا الشأن. قال «لا تنظر إلى الوراء، فربما يكون هناك شيء ما سيسبقك». ينبغي أن أعود. إن مستر بيكر ذاهب غدًا إلى نيويورك لبضعة أيام. إنه مشغول كحشرة».

- «بأي شيء؟».

- «وأنَّى لي أن أعرف؟ ولكني أفرز البريد. لقد ظل يتلقى خطابات كثيرة من ألباني».

- «أشياء سياسية؟».

- «إنني أفرزها فقط، ولا أقرؤها. هل العمل راكد دائمًا هكذا؟».

- «أجل، فيما حول الساعة الرابعة. سيبدأ النشاط خلال عشر دقائق أو ما يقرب».

- «أترى؟ لقد تعلمت. أراهن أنك لم تكن تعرف هذا قبل إفلاسك. سأراك. تصيد الحلقة الذهبية من أجل وصول سريع».

جاءت الدفعة الشرائية الصغيرة فيما بين الخامسة والسادسة في موعدها المحدد. أما الشمس، التي أبقاها تقديم الوقت لتوفير ضوء النهار، فكانت لا تزال عالية والشوارع مضاءة كما لو كان الوقت منتصف الأصيل، حين أدخل إيثان صناديق الفاكهة وأغلق الأبواب الأمامية ثم جذب الستائر الخضراء، وبعدئذ، جمع التموين الذي سيحمله إلى البيوت، وهو يقرأ أصنافه من قائمة، ثم وضع جميعه في كيس واحد كبير. وخلع مئزره وارتدى معطفه وقبعته ثم صعد إلى الثلاجة وجلس فوقها وأنعم النظر في أرفف جماعة المصلين، وقال: «لا رسائل لكم، تذكروا فحسب كلمات ساتشيل بيج. أظن أنه ينبغي عليَّ ألا أنظر إلى الوراء».

أخرج من حافظته الصفحات المسطرة المطوية، وصنع لها ظرفًا صغيرًا من الورق المشمع. وبعدئذ، فتح الباب المطلي المؤدي إلى عدة الثلاجة، ودس المظروف المشمع في ركن خلف آلة الضغط، ثم أغلق عليها الباب المعدني.

وتحت آلة عد النقود وجد على رف، دليل تليفون مانهاتن المترب ذو الزوايا المنثنية، والذي بقي هناك لتبليغ الطلبات العاجلة لمخزن الإمدادات. وتحت حرف الواو، تحت الولايات المتحدة، تحت عدل، وقسم ال...، وتحرك إصبعه هابطًا مع عمود الأسماء ومتجاوزًا قسم عدم الموثوق بهم بمبنى محكمة الولايات المتحدة قسم الجمارك، المركز الإداري للاعتقالات المكتب الاتحادي للتحريات «وأسفله» مكتب الهجرة والتجنس، 20 وبرودواي، ب 03001 -، في ليالي السبت والأحد والعطلات ول 5888 – 6».

وقال بصوت مرتفع: «إذن ول 5888 – 6، ول 5888 – 6 لأن الوقت متأخر». وبعدئذ تحدث إلى بضائعه المعلبة دون أن يتطلع إليها: «إذا كان كل شيء سليم وفوق مستوى الشبهات، فلن يضار إنسان».

خرج إيثان من باب الحارة وأغلقه بالمفتاح. وحمل كيسه المليء بالبقالة عبر الشارع إلى فندق ومقهى الفورماستر. كان المقهى يشيع ضوضاء ممن يتناولون الكوكتيل، ولكن الدهليز الصغير حيث تنتصب كابينة التليفون العمومي، كان مهجورًا حتى من الكاتب المسئول. أغلق الباب الزجاجي، ووضع أشياء البقالة على الأرض ونثر ما معه من (فكة) على الرف، وأدخل في الآلة قطعة من ذات العشرة سنتات ثم ضرب الصفر.

- «ترنك».

- «أوه. ترنك – أريد أن أكلم نيويورك».

- «هل تسمح أن تضرب الرقم من فضلك؟».

وفعل ذلك.

* * *

وعاد إيثان من عمله، وهو يحمل كيسه الذي به أشياء البقالة. كم هي طيبة ساعات الأصيل الطويلة. كان العشب في الحديقة طويلًا وريانًا لدرجة أنه كان يطبع مواطئ قدميه. وقبل ماري في فتور.

قال: «يا فرخ الضفدع، لقد طال العشب وصار بريًّا. فهل تعتقدين أنني أستطيع أن أحمل آلان على قصه؟».

- «حسنًا، إنها فترة الامتحانات. وأنت تعلم كيف تكون، كما أنها فترة إنهاء الدراسة وما إلى ذلك».

- «حسنًا، أحسبني سأضطر إلى قص العشب بنفسي».

- «إنني آسفة يا عزيزي. ولكنك تعلم في أي حالة هم».

- «أجل، بدأت أتعلم في أي حالة هم».

- «هل أنت غير معتدل المزاج؟ هل لاقيت يومًا...؟».

- «فلنر. كلا، لا أعتقد ذلك. لقد ظللت واقفًا على قدمي طيلة اليوم. وإن فكرة دفع آلة قص العشب لا تجعلني أقفز فرحًا».

- «ينبغي أن يكون لدينا آلة قص عشب ميكانيكية. ولدى آل جونسون واحدة تستطيع أن تركبها في أثناء العمل».

- «ينبغي أن يكون لدينا بستاني. كان ذلك لدى جدي. أركبها في أثناء العمل؟ وحينئذ يستطيع آلان أن يقص العشب ما دام سيكون راكبًا».

- «لا تكن قاسيًا عليه. إنه في الرابعة عشرة فحسب. جميعًا هكذا».

- «من –في اعتقادك– نشر خرافة أن الأطفال نشطاء؟».

- «أنت فعلًا مقلوب المزاج».

- «فلنر. أجل، أحسبني كذلك. وذلك الصراخ يقودني إلى الجنون».

- «إنه يتمرن».

- «هذا ما قلته».

- «والآن لا تسقط مزاجك المقلوب عليه».

- «حسنًا، ولكنه كان يساعدني لو استطعت أن أفعل». واندفع إيثان خلال حجرة الجلوس، حيث كان آلان يصرخ بكلمات غير واضحة المعالم من قصبة تتذبذب يعلقها على لسانه وقال: «ما ذاك بحق الجحيم؟».

وبصق آلان القصبة في راحة يده. «لقد كانت في صندوق البيكس. إنها آلة للكلام من البطن».

- «هل أكلت محتويات الصندوق؟».

- «كلا، فإنني لا أحبها. عليَّ أن أتدرب، يا بابا».

- «توقف لحظة». وجلس إيثان، وقال «ما المخطط الذي ترسمه لحياتك؟».

- «هه».

- «المستقبل. ألم يخبروك بهذا في المدرسة؟ إن المستقبل بين يديك».

انزلقت إيلين إلى داخل الحجرة، وثنت جسدها على الأريكة كقطة مقعية. وترقرقت من فمها ضحكة تقطع الصلب.

قالت: «إنه يريد أن يظهر في التليفزيون».

- «هناك صبي عمره ثلاث عشرة سنة فحسب كسب مائة وثلاثين ألف دولار في برنامج ألغاز».

فقالت إيلين: «ثم اتضح أن الأمر كان مرتبًا».

- «حسنًا، ولكنه لا يزال يمتلك مائة وثلاثين ألفًا».

وقال إيثان في رقة: «ألا تشغلك النواحي الأخلاقية؟».

- «حسنًا، ولكنه مبلغ كبير من المال».

- «ألا تجده عملًا لا أمانة فيه؟».

- «هراء، كل واحد يفعله».

- «ورأيك فيمن يقدمون أنفسهم في طبق من الفضة، ومع ذلك لا يوجد من يأخذهم؟ وهم لا يمتلكون الأمانة ولا المال».

- «تلك هي الفرصة التي تغتنمها، وقد تؤدي إلى تحطيم المرء بنفس الطريقة التي تحطم بها الكعكة».

- «أجل، إنها تتحطم، أليس كذلك؟» واستطرد إيثان: «وهكذا شأن أخلاقك، اجلس معتدلًا هل أسقطت كلمة «سيدي» من مفردات لغتك؟».

بدا الصبي مأخوذًا، ونظر متحققًا ليرى ما إذا كان هذا القول مقصودًا، وبعدئذ انتصب في جلسته في تكاسل، وهو ممتلئ امتعاضًا. وقال: «كلا، يا سيدي».

- «كيف تسير في المدرسة؟».

- «حسنًا، فيما أعتقد».

- «كنت تكتب مقالًا عن كيف تحب أمريكا. هل أوقف تصميمك على تدميرها ذلك المشروع؟».

- «ماذا تقصد بكلمة، تدمير يا سيدي؟».

- «هل تستطيع أن تحب بأمانة شيئًا غير أمين؟».

- «يا للجحيم، يا بابا، إن كل شخص يفعل ذلك».

- «وهل يعود ذلك عليها بالخير؟».

- «حسنًا، لا ينتقدها أحد سوى بضعة من ذوي الرؤوس الفارغة. لقد فرغت من المقالة».

- «طيب، أود أن أراها».

- «لقد أرسلتها».

- «لابد أن لديك نسخة منها».

- «كلا، يا سيدي».

- «افترض أنها فقدت؟».

- «لم أفكر في ذلك. بابا، أود لو استطعت الذهاب إلى المعسكر مثلما يفعل كل الفتيان الآخرين».

- «لا نستطيع تحمل نفقاته. وليس كل الفتية الآخرين يذهبون، قلة منهم فحسب».

- «أتمنى لو كان عندنا بعض المال». وحملق في يديه ثم لعق شفتيه.

ضاقت عينا إيلين وتركزت نظراتها.

كان إيثان يدرس ابنه، وقال: «سأجعل هذا ممكنًا».

- «سيدي؟».

- «يمكنني أن أحصل لك على وظيفة تؤديها في المحل هذا الصيف».

- «ماذا تقصد بكلمة، تؤديها؟».

- «أليس سؤالك، ماذا تقصد بكلمة، تؤديها؟ ستحمل البضائع إلى الأرفف وتشذب الخضراوات وتكنس، وربما يمكنك -إذا أثبت جدارة- أن تخدم الزبائن».

- «أريد أن أذهب إلى المعسكر».

- «وتريد كذلك أن تربح مائة ألف دولار».

- «ربما أكسب مسابقة المقال. إنها على الأقل رحلة إلى واشنطون. نوع ما من العطلة بعد سنة بكاملها في المدرسة».

- «آلان. هناك قواعد لا تتغير فيما يختص بالسلوك، والمداعبة والأمانة أجل، بل وحتى فيما يختص بالنشاط. لقد حان الوقت الذي أعلمك فيه أن تمارس هذه القواعد فعليًّا. على الأقل ستعمل».

رفع الصبي باصريه إلى أعلى. «أنت لا تستطيع».

- «عفوًا؟».

- «قوانين العمل الخاصة بالأطفال. إنني لا أستطيع حتى أن أحصل على ترخيص قبل أن أبلغ السادسة عشر. أتريد مني أن أخرق القانون؟».

- «أتعتقد أن جميع الصبية والفتيات الذين يساعدون والديهم هم أنصاف عبيد وأنصاف مجرمين؟» كان غضب إيثان من النوع الذي يبين تمامًا مثل حبه. ونظر آلان بعيدًا.

- «إنني لم أعن ذلك، يا سيدي».

- «أنا واثق أنك لم تعنه. ولن تفعل ذلك ثانية. لقد جدعت أنفك على عشرين جيلًا من آل هولي وآل آلان. كانوا رجالًا شرفاء. وربما تستحق يومًا ما أن تكون واحدًا منهم».

- «أجل، يا سيدي. هل أستطيع الذهاب إلى حجرتي، يا سيدي؟».

- «تستطيع».

صعد آلان الدرج في بطء.

وحين اختفى، جعلت إيلين تلف ساقيها وكأنهما محركين. انتصبت في جلستها وجذبت (جونلتها) إلى أسفل وكأنها سيدة شابة.

- «كنت أطالع خطب هنري كلاي. من المؤكد أنه كان مجيدًا».

- «أجل، كان كذلك».

- «هل تذكرها؟».

- «في الحقيقة لا، على ما أعتقد. فقد انقضى زمن طويل منذ قرأتها».

- «إنه عظيم».

- «إن قراءته لا تبدو لي قراءات تلميذة في مدرسة».

- «إنه عظيم فعلًا».

نهض إيثان من مقعده، يدفعه يوم طويل مرهق للجلوس. ووجد ماري في المطبخ محمرة العينين غاضبة.

قالت: «لقد سمعتك. لست أدري ماذا تظن أنك كنت تفعل. إنه ليس إلا صبيًّا صغيرًا».

- «ذلك هو وقت البدء، يا عزيزتي».

- «لا تنادني بعزيزتي. إنني لا أطيق طاغية».

- «طاغية؟ أوه يا إلهي!».

- «إنه ليس إلا صبيًّا صغيرًا، وقد قسوت عليه».

- «أعتقد أنه يشعر الآن بأنه أحسن حالًا».

- «لا أعرف ماذا تقصد. لقد سحقته وكأنه حشرة».

- «كلا، يا عزيزتي. لقد أعطيته نظرة خاطفة عن العالم. لقد كان يبني نظرة زائفة».

- «ومن أنت لتعلم ماذا يكون العالم؟».

وسار إيثان متجاوزًا إياها وخارجًا من الباب الخلفي.

- «إلى أين أنت ذاهب؟».

- «لأقص العشب».

- «كنت أعتقد أنك متعب».

- «إنني كذلك – كنت كذلك» وتطلع من فوق كتفه رافعًا بصره إليها، وهي واقفة داخل إطار الباب الزجاجي، وقال: «إن الرجل مخلوق وحيد» وابتسم إليها لحظة، قبل أن يخرج آلة قص العشب.

سمعت ماري أزيز السكاكين وهي تقطع في العشب الناعم الرخص. وتوقف الصوت بجوار عتبة الباب، وصاح إيثان: «ماري، ماري، يا عزيزتي أنا أحبك». وصبت السكاكين الدوارة جام غضبها على العشب الزائد النمو.

# الفصل الثاني عشر

كانت مارجي يانج هنت امرأة جذابة، مطلعة، وذكية، من الذكاء بحيث إنها كانت تعرف متى وكيف تخفي ذكائها وراء قناع. وقد فشلت زيجاتها، أي فشل الرجال الذين تزوجوا منها، الأول لأنه كان ضعيفًا، والثاني كان أضعف – فقد مات. والمواعيد لا تسعى إليها، فهي تخلقها، كانت تصلح أسوار قلعتها عن طريق مكالمات تليفونية مختلفة، وعن طريق خطابات، وبطاقات تمن بالشفاء، وترتب لقاءات عارضة. كانت تحمل إلى المرضى حساء صنعته بيديها، وتتذكر أعياد الميلاد.

وبهذه الوسائل أبقت الناس شاعرين بوجودها.

ولقد حافظت، أكثر من أي امرأة في البلدة، على أن تبقي بطنها غير منبعجة، وبشرتها نظيفة متألقة، وأسنانها ناصعة، والخطوط التي بأسفل ذقنها غير مرتخية.

كان جزء طيب من دخلها ينفق على الشعر، والأظافر، والتدليك، والكريم، والدهون وقالت نساء أخريات: «لابد أن تكون أكبر سنًّا مما تبدو».

وحين لم تعد عضلات صدرها، تستجيب إلى الكريم، أو التدليك أو التمرينات، استخدمت حمالتين أنيقتين جعلت صدرها نافرًا مرحًا، وكان وضع مساحيق وجهها يستغرق وقتًا متزايدًا. وكان لشعرها كل البهاء، والتألق، والموج الذي تعد به المنتجات التي يعلن عنها التليفزيون. وحينما تكون في موعد غرامي، أو تتناول العشاء، أو ترقص، أو تضحك، أو تمرح، أو تجتذب مغازلتها بشبكة من قطع المغناطيس الصغيرة، فمن ذا الذي يعلم بإحساسها البارد بالتكرار؟ فبعد قضاء فترة لطيفة، وإنفاق بعض المال، تذهب معه غالبًا إلى مسكنها، إذا استطاعت أن تفعل ذلك بحصافة. ثم تعود بعد ذلك إلى ترميم أسوار قلاعها. فينبغي إن آجلًا أو عاجلًا، أن يصير الفراش المشترط فخًّا لاصطياد أمنها وراحتها في المستقبل. ولكن اللعبة المرجوة تسللت خارجة من الفكين المصنوعين من حشايا. وصارت مواعيدها الغرامية تتزايد شيئًا فشيئًا مع المتزوجين، والمترددين، أو الحريصين. وكانت مارجي تعرف أفضل من أي شخص، أن زمنها كان يدبر عنها. ولم تستجب لها أوراق الطالع حينما بحثت فيها عن العون لنفسها.

لقد عرفت مارجي العديد من الرجال، وغالبيتهم مذنبين، ومجروحي الكبرياء، أو بائسين، لدرجة أن بما لديها من احتقار تجاه صيدها -مثل ذلك الذي ينمو لدى صياد الهوام المحترف- كان من السهل أن تثير أمثال هؤلاء الرجال خلال مخاوفهم وكبريائهم. كانوا يتألمون طلبًا للخديعة لدرجة أنها لم تعد تشعر بانتصارها، بل بنوع من الشفقة المزدرية فحسب. كان أولئك هم أصدقاؤها وعشيرتها، كانت تحميهم حتى من مجرد اكتشاف أنهم أصدقاؤها، وتقدم لهم أفضل ما تمتلك؛ لأنهم لم يطلبوا منها شيئًا. لقد كتمت أمرهم لأنها في قرار نفسها لم تكن معجبة بنفسها، كان داني تيلور واحدًا من هؤلاء، وألفيو مارولو واحدًا آخر، ومدير البوليس ستون وول جاكسون سميث شخصًا ثالثًا، وكان هناك آخرون. كانوا يثقون بها مثلما تثق هي بهم، وكان وجودهم الخفي هو الشيء الأمين الوحيد الدافئ

الذي استطاعت أن تلجأ إليه لتسترد نفسها، كان أولئك الأصدقاء يتحدثون إليها بحرية ودون ما خوف؛ لأنها كانت بالنسبة إليهم نوعًا من بئر أندرسون، تتقبل ولا تصدر أحكامًا، وصموتة، وكما أن لكل الناس رذائل خفية، كانت مارجي هنت تخفي فضيلة خفية، ويحتمل أن هذه الفضيلة الصامتة كانت السبب في أنها تعرف عن نيوبايتون، بل وحتى عن مقاطعة ويسكس، أكثر من أي شخص، وكانت معرفتها بعيدة عن الغرض؛ لأنها لم تكن –أو لم تستطع– أن تستغلها لمصلحتها الخاصة، ولكن في نواح أخرى، كان كل ما يقع بين يديها له فوائده.

ولقد بدأ مشروعها بشأن إيثان آلان هولي عرضًا ونتيجة لفراغ وقتها. وقد كان مصيبًا بشكل ما، حين اعتقد بخبث غرضها، وأنه اختبار لسطوتها. فكثيرون من الرجال الحزينين الذين كانوا يأتون إليها بحثًا عن الراحة والاطمئنان، كانت وتوثقهم وتوهنهم ألوان من العجز الجسدي، نقلت عدواها إلى جميع النواحي الأخرى في حياتهم. ووجدت مارجي من السهل عليها عن طريق إطراءات بسيطة وتطمينات، أن تطلق سراحهم منها ليخوضا المعارك مرة أخرى ضد زوجاتهم المسلحات بالسياط. وكانت تعجب إعجابًا رائعًا بماري هولي، وعن طريق ماري بدا اهتمامها التدريجي بإيثان، الرجل الموثق بنوع آخر من الندوب، بوثاق اجتماعي اقتصادي استلب منه قوته، وثقته. وحيث لم يكن لديها عمل، أو حب، أو أطفال، فقد تساءلت عما إذا كانت تستطيع أن تفك إسار هذا الرجل المقعد، وتوجهه ناحية غاية جديدة ما. كان الأمر بالنسبة لها لعبة، نوعًا من الألغاز، اختبارًا، ولم يكن هذا نتاجًا للشفقة، بل كان ببساطة نتاجًا للفضول والفراغ. كان هذا رجلًا ممتازًا.

وسيبرهن توجيهها له على تفوقها، ولقد كانت في حاجة متزايدة لهذا البرهان.

من المحتمل أنها كانت الشخص الوحيد الذي عرف عمق التحول في إيثان وقد أخافها هذا؛ لأنها حسبته من صنعها. كان الفأر ينمي لبدة أسد رأت العضلات تحت ملابسه، وأحست بقسوة القلب تنمو خلف عينيه. ولابد أن هذا ما أحسه أينشتين الرقيق، حينما ومض مدركه الذي كان يحلم به عن طبيعة المادة فوق هيروشيما.

كانت مارجي تحب ماري هولي كثيرًا جدًّا، وكانت تكنّ لها القليل من الشفقة، ولا رحمة على الإطلاق. إن سوء الطالع حقيقة من حقائق الطبيعة تتقبلهما النساء، وخاصة حين يحل بغيرهن من النساء.

في بيتها الصغير الناصع المقام وسط حديقة واسعة بالغة النمو، قريبًا جدًّا من الميناء القديم، مالت ناحية مرآة الزينة لتختبر أدواتها، ومن خلال الكريم، والبودرة، وظلال العيون، والرموش المشرعة في سواد، رأت عيناها التجعيدات المختفية، وجفاف بشرتها، وأحست بالسنون تزحف عليها مثل المد الصاعد حول صخرة في بحر هادئ. هناك أسلحة لسن النضوج، ولمنتصف العمر، ولكن هذه الأسلحة تتطلب مرانًا وحرفية لتكتسبهما بعد. ينبغي أن تتعلمهما قبل أن ينهار كيان شبابها وإثارتها ويتركها عارية، عفنة، ومثار سخرية. لقد كان نجاحها في أنها لم تتهاو أبدًا، حتى ولا وهي وحيدة. والآن، وكنوع من التجربة، تركت فمها يتدلى حسبما يشاء وجفنيها يرتخيان نصف ارتخاءة. وخفضت من ذقنها المرفوعة عاليًا، وحينئذ ظهر إلى الوجود حبل متهدل، ورأت في المرآة أمامها عشرين عامًا تتسلق زاحفة عليها، وارتعدت حين أخبرها الهمس المثلوج بما يرقد في انتظارها. لقد

تأخر كثيرًا جدًّا. ينبغي أن يكون لدى المرأة صندوق عرض زجاجي، يكبر فيه السن، مجهز بالأضواء، والدعامات، والقطيفة السوداء، والأطفال، والشيب والسمنة، بالضحك المكتوم والاختلاس، بالحب، والحماية، وقطع النقود الصغيرة، وزوج هادئ قنوع، أو بالأحرى بوصيته الأكثر هدوءًا وأقل قناعة، ومبلغ من المال موقوف عليها. إن المرأة وحيدة حين يتقدم بها السن، تصبح نفاية ملقاة بلا جدوى، بذاءة صابتها التجاعيد، بلا أتباع يحجلون لينقوا ويغمغموا حول أوجاعها ويدلكوا آلامها.

وتشكلت في معدتها نقطة خوف حارة. لقد كانت سعيدة الحظ مع زوجها الأول. كان ضعيفًا وسرعان ما عثرت على صمام ضعفه. كان يحبها بلا رجاء، حبًّا بالغًا لدرجة أنها حين احتاجت الطلاق لم يطلب النص على عدم الزواج في قرار النفقة.

وكان زوجها الثاني يعتقد أن لها ثروتها الخاصة، قد كانت كذلك. عندما مات لم يترك لها الكثير، ولكنها عن طريق النفقة التي كانت تأخذها من زوجها الأول، استطاعت العيش بشكل لائق، وارتداء الثياب الجيدة، والتفكير في قضاء وقت فراغها. فلنفرض أن زوجها الأول مات. هنا كانت تكمن نقطة الخوف، هنا كان يوجد كابوس الليل أو النهار، كابوس إذن الصرف الشهري.

لقد رأته في شهر يناير، عند ذلك التقاطع الضخم الواسع بين شارع ماديسون والشارع السابع والخمسين. كان يبدو عجوزًا شاحبًا. كان فناؤه يلح عليها. فلو توفى الوغد، لتوقف إرسال النقود. وفكرت في أنها ربما تكون الشخص الوحيد في العالم الذي يصلي بجماع قلبه من أجل دوام صحته.

والآن جاءت إلى شاشة ذاكرتها صورة وجهه النحيل الصامت، وعينيه الميتتين، وفجرت تلك الصورة النقطة الحارة في معدتها. لو أنه مات...

توقفت مارجي عن التفكير، وهي تميل تجاه المرآة، ثم جذبت إرادتها مثلما يجذب المرء نبلة. وارتفعت ذقنها، واختفت الخطوط، وتألقت عيناها، واستكانت بشرتها لصيقة بجمجمتها، وتربع كتفاها. وقفت منتصبة، ثم رقصت في دورة حاذقة على السجادة الحمراء الوثيرة. كانت قدماها عاريتين، وأظافرهما تلمع بطلاء أحمر وردي. حتم عليها أن تندفع، حتم عليها أن تسرع قبل فوات الأوان.

دفعت باب الدولاب ففتحته، ووضعت يديها على الثوب الحلو المغري الذي كانت تدخره لعطلة الرابع من يوليو، والحذاء ذي الكعب المدبب كالقلم الرصاص، والجوارب التي هي أكثر بهجة من أي جوارب على الإطلاق. لم يعد بها الآن ثمة استرخاء. وارتدت ثيابها بمثل السرعة والإتقان اللذين يشحذ بهما جزار سكينه، واختبرت شكلها أمام مرآة بطولها بالطريقة التي يختبر بها نفس الجزار حد سكينه على إبهامه، السرعة ولكن دون اندفاع، السرعة من أجل الرجل الذي لن ينتظر. ثم بعدئذ، التمهل العرضي، تمهل العليمة، الذكية، الأنيقة الواثقة من نفسها، السيدة ذات الساقين الرائعتين والقفاز الأبيض الناصع. ولم يتوان رجل مرت به عن النظر خلفها، وصفر سائق اللوري الذي يعمل عند الإخوة ميللر وهو يمر محملًا بشحنة من الأخشاب، ورفع صبيان من فتية المدرسة أعينًا مشقوقة كعيني فالنتينو ناحيتها، وابتلعا في ألم اللعاب الذي غمر فميهما نصف المفتوحين.

وقال أحدهما: «ما رأيك في تلك؟».

وأجاب الآخر: «أجل».

- «ما رأيك لو...».

- «أجل».

إن سيدة لا تتسكع -وخاصة في بايتون- فينبغي أن تكون ذاهبة إلى مكان ما، أو لديها عمل ما، مهما كان ضئيلًا وبلا معنى. وفي أثناء سيرها في شارع «هاي» بخطوات منقوطة، كانت تحيي وتحدّث المارة وتستعرضهم بطريقة آلية.

مستر هول– كان يعيش على الاستدانة، دأب على ذلك بعض الوقت.

ستوني– رجل خشن، وفحل، ولكن أي امرأة تلك التي تستطيع العيش بمرتب أو معاش شرطي؟ وبالإضافة إلى ذلك، كان صديقها.

هارولد بيك، ذو ضيعة حقيقية وكبيرة، ولكن هارولد كان غريب الأطوار كالبطة. وربما كان هو نفسه الشخص الوحيد في العالم الذي لم يعلم بذلك.

ماك دويل– لطيف جدًّا أن أراك، يا سيدي؟ كيف حال ميللي؟ إنه لا يحتمل – أسكتلندي، بخيل، ومرتبط بزوجته – مقعد، من النوع الذي يعيش إلى الأبد. كان لغزًا، ولم يعرف أحد ماذا كان يمتلك.

دونالد راندولف ذو العينين النديتين– رائع حين يجلس على المقعد المجاور في البار، سيد مهذب في البار تتغلغل تقاليده عميقة خلال سكره، ولكن لا فائدة ترجى منه، إلا إذا أردت أن تقيم بيتًا على مقعد بار.

هارولد لوس- قيل إنه كان على صلة قرابة بناشر مجلة (تايم)، ولكن من الذي قال، هو نفسه؟ رجل قد من صخر، كان يتمتع بشهرة أنه حكيم، وكان هذا مبنيًّا على نقص قوته في التعبير.

إد وانتونر – كذاب، مخاتل ولص. المفروض أنه كان يحتسي الخمر في أثناء احتضار زوجته، ولكن إد لم يكن يثق بأحد. لم يكن يثق حتى في أن كلبه لن يهرب منه، وأبقاه مربوطًا يعوي.

بول سترايت– قوة في الحزب الجمهوري كانت زوجته تسمى بترفلاي– ليس اسم دعابة. بترفلاي سترايت، وعمدت باسم بترفلاي، تلك هي الحقيقة. كان بول يستفيد إذا صار حاكم ولاية نيويورك جمهوريًّا. كان يمتلك مقلب قمامة المدينة، حيث يتكلف إلقاء حمل من القمامة هناك ربع دولار. ويُحكى أنه عندما صارت الفيران من السوء والضخامة بحيث أصبحت تشكل خطرًا، أن بول كان يبيع تذاكر تبيح الحق في صيدها بالرصاص، ويؤجر الأضواء الكاشفة والبنادق – ويمدهم برصاصات من عيار 22 ليطلقوها عليها. كان يبدو قريب الشبه جدًّا برئيس للجمهورية لدرجة أن كثيرين من الناس كانوا يدعونه (آيك). ولكن داني تيلور وهو في ساعة شرب هادئة ذكره على أنه «بول أنبل الكل» والتصقت به تلك التسمية. وصار اسمه حين لا يكون موجودًا، النبيل بول.

مارواللو – إنه ازداد مرضًا عما كان. إنه مريض مكتئب. كانت عينا مارواللو عيني رجل أصيب في معدته برصاص من عيار 45. لقد سار متجاوزًا مدخل محله دون أن يدخله. ودخلت مارجي المحل، وهي تهز ردفيها البديعين.

كان إيثان يكلم شخصًا غريبًا، رجلًا أسود الشعر أقرب إلى الشباب، يرتدي سروالًا من طراز إيفي ليج وقبعة ذات حافة ضيقة. كان في حوالي الأربعين، صلبًا، خشنًا، مستغرقًا فيما كان يفعل.

كان منحنيًا فوق الثلاجة وبدا وكأنه سيفحص لوزتي إيتان قالت مارجي: «هاي، أنت مشغول، سأعود فيما بعد».

هناك أشياء لا نهاية لها، تافهة ولكنها مشروعة، يمكن لامرأة متسكعة أن تؤديها في مصرف. عبرت مارجي مدخل الحارة ودخلت إلى المعبد الرخامي ذي الفولاذ المصقول.

حين رآها جوي مورفي أضاء البِشر وجهه في المربع ذي القضبان، الذي تتكون منه نافذة الصراف. يا لها من ابتسامة، ويا لها من شخصية، ويا له من رفيق دعابة طيب، ولكن يا لمنظره الزري كزوج. لقد قدرته مارجي حق قدره كشخص ولد ليظل أعزبًا، شخص قد يقاتل حتى الموت في سبيل بقائه وحيدًا. لن يكن لجوي قبر مزدوج.

وقالت: «أرجوك يا سيدي، هل لديك أي نقود جديدة غير مملحة؟».

- «عفوك، يا سيدتي، سأرى. إنني أكاد أكون واثقًا أنني رأيت بعضًا منها في مكان ما. كم تريدين؟».

- «حوالي ست أوقيات، يا مسيو». وتناولت دفترًا مطويًّا من حقيبتها الجلدية البيضاء، ثم كتبت شيكًا بعشرين دولارًا».

وضحك جوي. فقد كان ميالًا إلى مارجي. فمرة في كل فترة، ولكن ليس كثيرًا جدًّا، كان يخرج معها لتناول العشاء ثم، يصطحبها إلى منزلها ولكنه كان أيضًا يحب صحبتها وروحها المرحة.

وقال جوي: «مسز يانج هنت، ذلك يذكرني بصديق لي كان يعيش في مكسيكو مع بانكوفيللا. أتذكرينه؟».

- «لم أعرفه إطلاقًا!».

- «ليست هذه فكاهة. إنها قصة رواها لي الفتى. قال إنه عندما كان بانكو في الشمال، كان يعمل على آلة الطباعة التي تطبع البنكنوت من فئة العشرين بيسو، وطبع منه الكثير لدرجة أن رجاله أقلعوا عن العد – لم يبرعوا في العد على أي حال– وكان عليهم أن يزنوا النقود في ميزان ذي كفتين».

قالت مارجي: «جوي، أنت لا تستطيع أن تقاوم إغراء سرد تاريخ حياتك».

- «يا للجحيم، كلا، يا مسز يانج هنت. لقد كنت في حوالي الخامسة من عمري حينذاك، إنها مجرد

قصة. ثم دخلت سيدة حلوة سمينة، هندية لكن سمينة.

دخلت ثم قالت: «سيدي الجنرال، لقد أعدمت زوجي وتركتني أرملة فقيرة ومعها خمسة أطفال، فهل تلك هي الوسيلة لإدارة ثورة شعبية؟».

وأخذ بانكو يراجع ما تستحقه من مال مثلما أفعل أنا الآن.

- «لا رهونات عليك، يا جوي».

- «أعلم إنها مجرد قصة». وقال بانكو إلى أحد مساعديه العسكريين: «زن لها خمسة كيلو جرامات من النقود». حسنًا، كانت تلك حزمة ضخمة، وربطوها بقطعة سلك وخرجت المرأة، وهي تجرجر الحزمة الخضراء. وبعدئذ خطا ملازم إلى الأمام وحيا ثم قال: «سيدي الجنرال (وهم ينطقونها مي جرال)، نحن لم نطلق الرصاص على زوجها. كان مخمورًا، فوضعناه في السجن الذي عند «الناصية». لم يكن بانكو قد رفع عينيه إطلاقًا عن السيدة التي تسير مبتعدة ومعها حزمة النقود. وقال: «اخرج وأطلق عليه الرصاص. نحن لا نستطيع أن نخيب أمل تلك الأرملة المسكينة».

- «جوي، إنك لا تطاق».

- «إنها قصة واقعية. وأنا أصدقها». وأدار شيكها جانبًا، وقال: «أتريدين أن تصرفي هذا الشيك عشرينات، أم خمسينات، أم مئات؟».

- «أعطني إياه ورقًا من فئة الخمسة والعشرين سنتًا».

كان كل منهما يستمتع بالآخر.

وتطلع مستر بيكر من زجاج مكتبه الأغبش.

والآن كان هناك رهان. لقد حدث مرة أن زارها بيكر زيارة صحيحة من الناحية اللغوية ولكنها غامضة. كان المستر بيكر هو السيد مال. من المؤكد أن له زوجة، ولكن مارجي كانت تعرف آل بيكر في هذه الدنيا. فقد استطاعوا دائمًا أن يوجدوا أسبابًا أخلاقية لعمل ما يريدون. وكانت سعيدة لأنها خذلته. فقد أبقاه هذا جامدًا في سجلها.

جمعت الأوراق الأربعة من فئة الخمسة دولارات التي أعطاها لها جوي، وتحركت متجهة إلى مدير المصرف الأشيب. ولكن في تلك اللحظة دخل الرجل الذي كانت قد رأته يحادث إيثان في هدوء، ومر من أمامها، وقدم بطاقة، فأُدخل إلى مكتب مستر بيكر وأُغلق الباب.

قالت لجوي: «حسنًا، قبل قدمي».

فقال جوي: «أبدع قدم في مقاطعة ويسكس. أتريدين الخروج الليلة؟ نرقص، ونأكل، وكل شيء من هذا القبيل؟».

قالت: «لا أستطيع. من ذاك؟».

- «لم أره من قبل أبدًا. تبدو عليه سمات مفتشي المصارف. إنني في لحظة كهذه أكون سعيدًا بأمانتي، بل وأكثر سعادة لاستطاعتي الجمع والطرح».

- «أتعلم. يا جو، يومًا ما ستجعل من زوجة مخلصة، امرأة لعينة هاربة».

- «ذلك هو أملي الذي من أجله أصلي، يا سيدتي».

- «أراك فيما بعد».

خرجت، عبر الحارة، ودخلت محل بقالة مارولو مرة أخرى.

- «هاي، إيث».

- «هاللو، مارجي».

- «من كان ذلك الغريب الأنيق؟».

- «ألا تحملين معك كرتك البللورية؟».

- «مخبر سري؟».

- «أسوأ من ذلك. مارجي، هل يخاف كل الناس من الشرطة؟ إنني أخشى الشرطة، حتى ولو لم أفعل شيئًا».

- «أكان ذلك الفتى المتدين ذو الشعر الأجعد شرطيًّا؟».

- «ليس تمامًا. قال إنه من حكومة الاتحاد».

- «ماذا كنت تدبر، يا إيثان؟».

- «أدبر؟ أنا؟ ولماذا كلمة «أدبر»؟».

- «ماذا كان يريد؟».

- «إنني أعرف فحسب ماذا كان يسأل ولكنني لا أعرف ماذا كان يريد».

- «وماذا كان يسأل؟».

- «منذ متى وأنا أعرف رئيسي؟ من غيري يعرفه؟ متى جاء إلى نيوبايتون؟».

- «وماذا قلت له؟».

- «حين انضممت للجيش لقتال الأعداء، لم أكن أعرفه. وحين عدت كان موجودًا هنا. وحين أفلست اشترى المحل ومنحني وظيفة».

- «وحول أي شيء –في اعتقادك– تدور هذه الأسئلة؟».

- «يعلم الله».

كانت مارجي تحاول أن تنظر فيما وراء عينيه. وفكرت، إنه يتظاهر بالسذاجة. إني لأعجب ماذا أراد الفتى حقًّا.

وقال في هدوء بالغ أثار مخاوفها: «أنت لا تصدقينني. وأنت تعرفين، يا مارجي، إن أحدًا لا يصدق الحقيقة أبدًا».

- «الحقيقة المطلقة؟ حين تقطع دجاجًا يا إيث، تجده كله دجاجًا، ولكن البعض لحمه غامق والبعض لحمه أبيض».

- «أعتقد ذلك. بصراحة، يا مارجي، إنني قلق. إنني أحتاج إلى هذه الوظيفة. وإذا حدث لألفيو أي شيء فسأعود إلى ذرع الشوارع».

- «أتراك نسيت أنك ستصبح غنيًّا؟».

- «إن التذكر أمر صعب، وأنا لست غنيًّا».

- «إيثان، إنني أعجب إذا ما كنت تذكر. كان ذلك الربيع قرب عيد القيامة مباشرة. دخلت، فناديتني يا ابنة أورشليم».

- «كان ذلك في يوم الجمعة الحزينة».

- «ها أنت ذا تذكر فعلًا. حسنًا، لقد وجدت هذا الاسم. إنه في إنجيل (متى)، وهو رائع جدًّا ومخيف».

- «أجل».

- «ما الذي أتى به إلى ذهنك».

- «عمتي العظيمة ديبورا. كانت تصلبني مرة في كل عام. ولا يزال ذلك الصلب مستمرًا».

- «إنك تهزل. ولكنك لم تكن تهزل حينذاك».

- «كلا، لم أكن أهزل. وأنا لا أهزل الآن».

فقالت في فرح: «أتعلم، إن الطالع الذي قرأته لك أخذ يتحقق».

-»أعلم ذلك».

- «ألا تعتقد أنك مدين لي بشيء ما؟».

- «بالتأكيد».

- «ومتى تنوي الدفع».

- «هل يضيرك أن تدخلي إلى الغرفة الخلفية؟».

- «لا أعتقد أنك تستطيع أن تفعل هذا».

- «لا تعتقدين؟».

- «كلا، يا إيثان، ولا أنت تعتقد ذلك. أنت لم ترتكب في حياتك أبدًا أي حماقة مفاجئة».

- «أستطيع أن أتعلم، ربما».

- «أنت لا تستطيع ارتكاب الحماقة حتى لو أردت».

- «ربما أحاول».

- «ستتطلب إثارتك حبًّا أو كراهية، وكلاهما يتطلب إجراءات بطيئة وعظيمة».

- «ربما تكونين على صواب. وكيف عرفت؟».

- «لم أدر مطلقًا كيف عرفت».

زلق باب الثلاجة ففتحه، وأخرج زجاجة كوكاكولا، نمت عليها في الحال طبقة من الثلج وفتحها، وناولها الزجاجة بينما أخذ يفتح زجاجة ثانية.

«ماذا تريدين مني؟».

-»أنا لم أعرف في حياتي قط رجلًا مثلك. لعلي أريد أن أرى كيف يكون الإنسان مع حب أو كراهية شديدة إلى هذا الحد».

- «إنك ساحرة. لماذا لا تصفرين لتثيري ريحًا؟».

- «لا أستطيع أن أصفر. إنني أستطيع أن أثير زوبعة صغيرة تافهة في معظم الرجال بحركة من حاجبي. فكيف أستطيع التصرف لأضرم فيك النار؟».

- «ربما تكون قد أُضرمت فعلًا».

كان يدرسها بدقة دون أن يحاول إخفاء تفحصه، وقال: «مبنية مثل ملحق دار من الطوب الأحمر، لدنة وقوية وطيبة».

-»وكيف تعرف؟ إنك لم تمسني قط».

- «لو أنني فعلت، لكان حريًّا بك أن تهربي مني هربك من الجحيم».

- «يا حبيبي».

- «دعك من ذلك. هناك خطأ ما. إنني من الغرور بما يكفي لأعرف مثار جاذبيتي. ما الذي تريدينه إنك امرأة حلوة شهية ولكنك أيضًا ذكية. فماذا تريدين؟».

- «لقد أخبرتك بطالعك وها هو يتحقق».

- «وتريدين أخذ نصيبك».

- «أجل».

- «الآن أستطيع أن أصدقك». ورفع عينيه، وقال: «ماري يا من تحتلين قلبي، ارعي زوجك حبيبك، صديقك الغالي. احرسيني من الشر الذي ينبع من داخلي، ومن الأذى الذي يأتي من خارجي، إنني أرجو عونك، يا زوجتي ماري. فللرجل حاجة غريبة دوارة، وألم الأجيال يضغط عليه كي ينثر بذاره في كل مكان. فصلي من أجلي».

- «أنت زائف، يا إيثان».

- «أعلم ذلك. ولكن ألا أستطيع أن أكون زائفًا متواضعًا؟».

- «إنني أخشاك الآن، ولم أكن كذلك من قبل».

- «لا أستطيع أن أدرك السبب».

كانت في عينيها نظرة ممارسة السحر تلك، ورآها هو.

- «ماروللو».

- «ماذا جرى له».

- «إنني أسأل».

- «سأكون معك بعد لحظة. نصف دستة من البيض، قالب زبد، حسنًا وكيف حال القهوة معك؟».

- «أجل، أعطني علبة قهوة. أحب الاحتفاظ بها على الرف. ما رأيك في ذلك اللحم المفروم المحفوظ في العلب؟».

- «لم أجربه. يقولون إنه طيب جدًّا. سأكون معك بعد لحظة، يا مستر بيكر، ألم تأخذ المسز بيكر شيئًا من ذلك اللحم المفروم المحفوظ في العلب؟».

- «لا أعلم، يا إيثان. إنني لآكل ما يوضع أمامي. مسز يانج هنت أنت تزدادين جمالًا يومًا بعد يوم».

- «هذا عطف منك، يا سيدي».

- «تلك هي الحقيقة. و– ترتدين ثيابًا بديعة جدًّا».

- «كنت أفكر في نفس الأمر بالنسبة لك. أنت لم تعد الآن جميلًا، ولكن لك خياط مدهش».

- «أحسبه كذلك. إنه يتقاضى أجرًا كافيًا».

- «أتذكر الفتى العجوز الذي قال: «الأخلاق تصنع الرجال؟» حسنًا قد تغير ذلك الآن. فالخياطون يصنعون الرجال في أي صورة يشاءون».

- «إن المشكلة فيما يتعلق بحلة متقنة الصنع، هي أنها تعمر طويلًا جدًّا، فهذه عمرها عشر سنوات».

- «لا أستطيع أن أصدق هذا، يا مستر بيكر. كيف حال مسز بيكر».

- «بخير حال، لا يدع مجالًا للشكوى. لماذا لا تزورينها، يا مسز يانج هنت؟ إنها تشعر بالوحشة. ولا يوجد كثيرون في هذا الجيل يستطيعون متابعة مناقشة متعلمين. ويكهام قال ذلك. وهذا القول هو شعار كلية وينشتر».

واستدارت إلى إيثان: «أرني مدير مصرف أمريكي آخر يعرف ذلك».

وسرت الحمرة في وجه مستر بيكر، «إن زوجتي مشتركة في سلسلة كتب عظيمة، وإنها لقارئة عظيمة. أرجو أن تزوريها».

- «سيسعدني ذلك. ضع حاجياتي في كيس؟ يا مستر هولي. سآخذها وأنا في طريقي إلى البيت».

- «حسنًا، يا سيدتي».

قال مستر بيكر: «إنها شابة رائعة حقًّا».

- «هي وماري تتفقان في هذا».

- «إيثان، هل جاء رجل الحكومة ذاك إلى هنا؟».

- «أجل».

- «وماذا يريد؟».

- «لا أدري. فقد سأل بضع أسئلة بشأن مستر مارواللو. ولم أعرف الإجابة عنها».

وحللني مستر بيكر من صورة مارجي، بنفس البطء الذي تنفتح به شقائق البحر، وتقذف إلى الخارج محارة سرطان بحري امتص كل ما به من لحم.

- «إيثان، هل رأيت داني تيلور؟».

- «كلا، لم أره».

- «هل تعلم أين يوجد؟».

- «كلا، لا أعلم».

- «ينبغي أن أتصل به. ألا تستطيع أن تفكر أين يمكن أن يكون؟».

- «إنني لم أره منذ... حسنًا، منذ شهر مايو. كان ينتوي محاولة العلاج مرة أخرى».

- «ألا تعلم أين؟».

- «لم يقل. ولكنه كان راغبًا في المحاولة».

- «أكانت مصحة عامة؟».

- «لا أظن ذلك، يا سيدي. فقد اقترض مني بعض النقود».

- «ماذا!».

- «أقرضته قليلًا من المال».

- «كم؟».

- «أستمحيك عذرًا؟».

- «آسف، يا إيثان. أنتما صديقتان قديمان. آسف. هل كانت لديه نقود أخرى؟».

- «أعتقد ذلك».

- «ولا تعلم مقدارها؟».

- «كلا، يا سيدي. كان لديَّ إحساس فحسب أن لديه منها المزيد».

- «إذا كنت تعلم أين هو، فأرجوك أن تخبرني».

- «لو كنت أعرف لأخبرتك، يا مستر بيكر. ربما استطعت كتابة قائمة بأسماء أماكن العلاج، ثم تتصل بها تليفونيًّا».

- «هل اقترض المبلغ نقدًا؟».

- «نعم».

- «إذن، فلا فائدة. لأنه سيغير اسمه».

- «لماذا؟».

- «إنهم دائمًا يتصرفون كأبناء العائلات الطيبة. إيثان، هل أخذت النقود من ماري؟».

- «أجل».

- «ولم تهتم لذلك؟».

- «لم تكن تعلم».

- «ها قد بدأت تصير ذكيًّا».

- «لقد تعلمت منك، يا سيدي».

- «حسنًا، لا تنسى هذا».

- «ربما كنت أتعلم تدريجيًّا، ولكن أغلب ما أتعلمه هو كثرة الأشياء التي كنت أجهلها».

- «حسنًا، هل ماري بخير؟».

- أوه، إنها بخير وعافية. كم أتمنى لو أستطيع اصطحابها في إجازة قصيرة، فنحن لم نخرج عن نطاق البلدة طيلة سنوات».

- «سيحين ذلك في موعده يا إيثان. أظنني سأذهب إلى مين في الرابع من يوليو؛ فلم أعد أحتمل الضوضاء أكثر من ذلك».

- «أعتقد أنكم محظوظون، يا رجال المصارف. ألم تكن في ألباني مؤخرًا؟».

- «ما الذي أوحى إليك بتلك الفكرة؟».

- «لا أدري... سمعتها في مكان ما، ربما تكون المسز بيكر قد أخبرت ماري».

- «لا يمكن فلم تكن تعرف. حاول أن تتذكر أين سمعتها».

- «ربما أكون قد تخيلت هذا فحسب».

- «هذا يقلقني، يا إيثان. تذكر جاهدًا أين سمعتها».

- «لا أستطيع يا سيدي. وماذا يهم ما دامت ليست صحيحة؟».

- «سأطلعك على سبب قلقي، على أن يبقى الأمر بيننا. السبب هو أن هذا القول صحيح. لقد دعاني الحاكم. إنه أمر خطير، أنني لأعجب من أين تسرب الخبر».

- «إذن فلا أريد أن أسمع».

- «لا خيار لك الآن في الأمر ما دمت تعرف موضوع ألباني، إن الدولة تتفحص شئون المقاطعة والبلدة».

- «لماذا؟».

- «لأن الرائحة قد وصلت حتى ألباني».

- «ليست أمورًا سياسية؟».

- «أظن أن أي شيء يتولاه الحاكم، يمكن أن يسمى شؤونًا سياسية».

- «مستر بيكر، لماذا لا يمكن أن يكون الموضوع على المكشوف؟».

- «سأقول لك لماذا. لقد شاع الخبر في المنطقة العليا من الولاية، وحينما بدأ المحققون يمارسون عملهم، اختفت معظم السجلات».

- «أفهم. كم أتمنى لو أنك لم تخبرني. إنني لست ثرثارًا، ولكني أتمنى لو أنني لم أعرف».

- «فيما يتعلق بذلك الموضوع، أتمنى نفس الشيء، يا إيثان».

- «إن الانتخابات في السابع من يوليو. فهل سيثار الموضوع قبل ذلك؟».

- «لا أدري، إن الأمر متروك لحكومة الولاية».

- «هل تعتقد أن مارولو مشترك في هذا الموضوع؟ إنني لا أستطيع احتمال فقدان وظيفتي».

- «لا أظن ذلك. أما ذلك الرجل فكان من حكومة الاتحاد. من وزارة العدل. ألم تسأله عن أوراق تحقيق شخصيته؟».

- «لم أفكر في هذا، لقد أظهرها بسرعة خاطفة ولكني لم أنظر فيها».

- «حسنًا، كان ينبغي أن تفعل. ينبغي دائمًا أن تفعل».

- «لا أظن أنك راغب في الابتعاد عن البلدة».

- «أوه، ذلك لا يهم. إن شيئًا لا يحدث قبل عطلة الرابع من يوليو. فقد هاجم اليابانيون بيرل هاربور في عطلة نهاية أسبوع، كانوا يعلمون أن كل شخص سيكون متغيبًا».

- «كم أتمنى لو استطعت أن آخذ ماري إلى مكان ما».

- «ربما تستطيع ذلك فيما بعد. إني أطلب منك أن تقدح ذهنك وتحاول أن تعرف أين يوجد تيلور».

- «لماذا؟ هل الأمر بهذه الأهمية؟».

- «إنه كذلك. ولا أستطيع أن أقول لك السبب في هذه الحظة بالذات».

- «إذن، فإنني أود فعلًا لو استطعت أن أجده».

- «حسنًا، لو استطعت العثور عليه، فقد لا تحتاج إلى هذه الوظيفة».

- «إذا كان الأمر كذلك. فمن المؤكد أنني سأحاول، يا سيدي».

- «هكذا يكون الرجال، يا إيثان. إنني متأكد أنك ستحاول. وإذا حددت مكانه فعلًا، فعليك أن تطلبني – في أي وقت، نهارًا أو ليلًا».

# الفصل الثالث عشر

إنني لأعجب لأناس يقولون لا وقت لديهم للتفكير. ففيما يتعلق بنفسي، أستطيع أن أضاعف التفكير. إنني أجد أن وزن الخضر، وقضاء فترة النهار مع الزبائن، وشجار أو مغازلة ماري، والكفاح مع الأطفال... لا شيء من هذه الأشياء يمنع وجود قطاع ثان مستمر من التفكير، والتأمل، والتخمين. وبالتأكيد يتحتم أن يكون هذا صحيحًا بالنسبة لكل واحد. وربما كان عدم وجود الوقت للتفكير، هو عدم وجود الرغبة في التفكير.

لعله لم يكن لي أي خيار في دخول تلك البلاد الغريبة التي دخلتها، دون أن تكون مرسومة لي. كانت الأسئلة تغلي، طالبة الانتباه إليها. ولقد كان عالمًا جديدًا بالنسبة لي حتى إنني احترت في أمور لعل المستوطنين القدامى قد حلوها وألقوها جانبًا حين كانوا أطفالًا.

لقد ظننت أنني أستطيع أن أبعث الحركة في عملية ثم أسيطر عليها في كل دورة من دوراتها. بل حتى أن أوقفها إذا أردت. والآن نما بداخلي الاعتقاد المخيف بأن مثل هذه العملية قد تصير شيئًا في حد ذاتها، أو شخصًا في الغالب، له غاياته الخاصة ووسائله ومستقل تمامًا عن خالقه. ووردت إلى ذهني فكرة أخرى مزعجة.

هل بدأتها أنا حقًّا، أم كل ما في الأمر أنني لم أقاومها؟ ربما أكون أنا المحرك، ألم أكن أنا أيضًا محركًا؟ وذات مرة بدا لي أنه لا توجد في الشارع الطويل تقاطعات، أو ممرات متشعبة، أو اختيار.

كان الاختيار في التقييم الأول. ما هي الأخلاقيات؟ هل هي مجرد كلمات؟ هل كان مما يشرفهم أن يقدروا ضعف والدي، الذي سببه ذهن كريم وحلم خاطئ الأصل بأن الرجال الآخرين يساونه في الكرم؟ كلا، فلقد كان العمل هو أن يحفروا له الهوة. لقد سقط فيه من تلقاء نفسه. لم يدفعه أحد. أكان لا أخلاقيًّا أن نجرده مما عليه حين كان في القاع؟ من الواضح أنه لم يكن. والآن كان هناك حصار اختياري بطيء يزحف على نيوبايتون، ولقد بدأ تحريكه أناس شرفاء. فإذا نجح، فلن يظن أحد أنهم غير أمناء بل أذكياء. وإذا تدخل عنصر أغفلوه، فهل يكون ذلك الحصار لا أخلاقيًّا ومشينًا؟ أعتقد أن ذلك سيعتمد على ما إذا كان العنصر ناجحًا أم لا. فالنجاح، بالنسبة لمعظم العالم، لم يكن أبدًا شيئًا سيئًا. وإنني أذكر كيف يكون ذلك، زحف هتلر منتصرًا دون مقاومة، بحث كثيرون من رجال الشرفاء، وجدوا فيه فضائل. وكذلك موسوليني: لقد جعل القطارات تسير في مواعيدها، وفيشي أتحدث من أجل صالح فرنسا، ومهما يكن من أمر ستالين، فقد كان قويًّا. القوة والنجاح – إنهما فوق الأخلاقيات، وفوق النقد. يبدو إذن، أن الأمر ليس ما تفعله، بل كيف تفعله وماذا تطلق عليه. هل يوجد ثمة رادع في الرجال، رادع في أعماقهم، يوقف أو يعاقب، يبدو أنه غير موجود. إن العقاب الوحيد هو جزاء الفشل. والجريمة لا تتم فعلًا إذا قبض على المجرم. كان من المحتم –خلال الحركة المرسومة من أجل نيوبايتون- أن يؤذى بعض الناس رغمًا عنهم، بل ويدمر بعضهم، ولكن هذا لم يعق الحركة بأي حال من الأحوال.

لم أستطع أن أسمي هذه صراعًا مع ضميري. فما دمت قد أدركت النمط وقبلته، فقد كان الطريق واضح المعالم والمخاطر ظاهرة. إن ما أذهلني أكثر من أي شيء آخر، هو أن الأمر بدا وكأنه يخطط لنفسه، كل شيء ينمو من الآخر وكل شيء بعضه يتفق مع بعض. وراقبته ينمو وأرشدته بأدق اللمسات فحسب.

لقد تحملت عبء ما فعلته وخططت لفعله بمعرفة كاملة كانت غريبة عليَّ، ولكنها ضرورية ضرورة الركاب لاعتلاء ظهر حصان عال. ولكن ما دمت قد اعتليته، فلن تكون ثمة حاجة للركاب. وربما لم أستطع إيقاف هذه العملية، ولكني لا أحتاج أبدًا إلى أن أبدأ واحدة أخرى. فلم تكن بي حاجة أو رغبة في أن أكون مواطنًا في هذه البلاد الكئيبة الخطرة. لم يكن لي شأن بالمأساة المقبلة في السابع من يوليو. فلم تكن عمليتي، ولكني كنت أستطيع أن أشارك فيها وأن أستخدمها.

إن واحدة من أقدم أساطيرنا وفي الغالب أكثرها افتقارًا إلى البرهان، هي القائلة بأن أفكار المرء تبين في وجهه، وأن العينين هما نافذتا الروح. إن الأمر ليس كذلك.

إن الذي يبين هو المرض وحده، أو الهزيمة أو اليأس، وهما نوعان مختلفان من أنواع المرض. والنادر من الناس من يستطيع أن يشعر بالمستور، أن يحس تغيرًا ويسمع إشارة خفية. أعتقد أن زوجتي ماري أحست بتغير ما، ولكنها أساءت تأويله، وأعتقد أن مارجي يانج هنت كانت تعلم - ولكنها ساحرة وذلك شيء مزعج، وقد بدت لي ذكية بقدر ما هي ساحرة– وكان ذلك أكثر إزعاجًا.

كنت أشعر شعور اليقين أن مستر بيكر سوف يذهب في إجازة، ربما في أصيل يوم الجمعة في عطلة الرابع من يوليو. وسيكون على العاصفة أن تثور يوم الجمعة أو السبت ليكون لديها الوقت الكافي لإعطاء أثرها قبل الانتخاب، وكان منطقيًّا افتراض أن مستر بيكر سيرغب في أن يكون بعيدًا حين تحل الصدمة. وطبعًا، لم يكن ذلك يعنيني كثيرًا. كانت العملية أقرب إلى تمرين في المشاركة، ولكنها حتمت قيامي بعدة تحركات يوم الخميس، لمجرد احتمال أنه قد يسافر في تلك الليلة. كان موضوع يوم السبت عمليًّا لدرجة بديعة حتى إنني كنت أستطيع مزاولته في أثناء نومي. ولو كان لديَّ أي خوف من ذلك، فقد كان خوفي أقرب شبهًا بالخوف البسيط الذي يصاحب الظهور على المسرح.

في يوم الإثنين، 27 يونيو، دخل مارللو حالما فتحت، تجول في أرجاء المكان، وهو ينظر بشكل غريب إلى الأرفف، وإلى آلة عد النقود، والثلاجة، وسار إلى المؤخرة حيث المخزن وتفحصه. وإنك لتعتقد من الانطباع الذي على وجهه، أنه كان يرى المكان لأول مرة.

وقلت: «أتنوي القيام برحلة في الرابع من يوليو؟».

- «لم تقول ذلك؟».

- «حسنًا، كل من يستطيع تحمل النفقات يفعل ذلك».

- «أوه! وأين سأذهب؟».

- «وأين يذهب سائر الناس؟ إلى كاتسكيل، وحتى إلى مونتوك لصيد السمك. إن سمك التونة يجري

هناك».

ولعل مجرد التفكير في الصراع مع سمكة وزنها ثلاثون رطلًا وهي تتواثب، قد جلب إلى ذراعيه آلام النقرس لدرجة أنه ثناهما، وفزع.

كنت على وشك أن أسأله متى ينتوي السفر إلى إيطاليا، ولكن ذلك بدا كثيرًا جدًّا عليه. وبدلًا من ذلك، تحركت ناحيته وأمسكته برقة من كوعه الأيمن، وقلت:

-»ألفيو، إنني لأحسبك أحمقًا. لماذا لا تذهب إلى أحسن إخصائي في نيويورك؟ لابد أن يكون هناك شيء ما لإيقاف ذلك الألم».

- «لا أصدق ذلك».

- «وما الذي ستخسره؟ هيا اذهب، وحاول».

- «وماذا يهمك من ذلك؟».

- «أنا أهتم، ولكني اشتغلت هنا فترة طويلة من أجل مهاجر غبي، ولو أن كلبًا جبانًا كان يتألم إلى ذلك الحد، لأحسست ألمه بنفسي. إنك تأتي إلى هنا وتحرك ذراعيك، وينقضي نصف ساعة قبل أن أستطيع تمالك نفسي».

- «هل تحبني؟».

- «يا للجحيم، كلا! إنني أمالئك لكي ترفع مرتبي».

وتطلع إليَّ بعينين كعينيّ الكلب، أطرافهما حمراء، وقد كونت قزحيتاهما البنيتان الغامقتان وبؤبؤهما قطعة واحدة. وبدا عليه أنه يوشك أن يقول شيئًا ما، ولكنه غير رأيه فيما يختص بالأمر وقال:

«إنك فتى طيب».

- «لا تعتمد على هذا».

- «بل إنك فتى طيب!» قالها منفجرًا، ثم وكأنه صدم من إظهاره لعاطفته، خرج من المحل وسار مبتعدًا.

كنت أزن رطلين من اللوبياء للمسز دافيدسون عندما عاد مارووللو مندفعًا.

ووقف في المدخل وصاح بي:

- «خذ سيارتي البونتياك».

- «ماذا؟».

- «اذهب إلى مكان ما يومي الأحد والإثنين».

- «لا أستطيع تحمل النفقات».

- «خذ الأولاد معك. لقد أبلغت الجراج أنك ستأخذ السيارة البونتياك وسيكون خزان الوقود ملآنًا».

- «انتظر دقيقة».

- «فلتذهب إلى الجحيم. خذ الأولاد معك». وقذف ناحيتي شيئًا ما يشبه كرة من الورق وسقط الشيء بين اللوبياء. وراقبته مسز دافيدسون وهو يندفع خارجًا مرة أخرى إلى الشارع. والتقطت اللفة الخضراء من بين حبات اللوبياء، كانت ثلاث ورقات من فئة العشرين دولارًا مطوية على شكل مربع محكم الطي.

- «ماذا جرى له؟».

- «إنه إيطالي مثير».

- «لابد أن يكون كذلك، ما دام يلقي بالنقود!».

لم يظهر بقية الأسبوع، وهكذا كان الأمر يسير على ما يرام. إنه لم يسافر من قبل قط قبل أن يخبرني. كان الأمر بالنسبة لي يشبه مراقبة استعراض يمر، مجرد الوقوف ومراقبته وهو يمر أمامك وأنت تعرف ماذا ستكون الدفعة التالية، ولكنك تراقبه بنفس الاهتمام.

لم أكن قد توقعت الحصول على السيارة البونتياك. فهو لم يعر سيارته إطلاقًا لأحد. كانت فترة غريبة، وبدا وكأن قوة خارجية ما أو تصميمًا قد تولى زمام الأحداث، لدرجة أنها تزاحمت متلاصقة وكأنها قطيع من الأبقار في عربة شحن. كنت أعلم أن العكس يمكن أن يكون صحيحًا. فأحيانًا ما تحيد القوة أو التصميم عن الطريق ويدمر. ولا يهم مدى الحرص في التخطيط وعمقه. وأظن ذلك هو السبب في إيماننا بحسن الحظ وسوء الحظ.

في يوم الخميس، الموافق ثلاثين من يونيو، استيقظت كالمعتاد في ضوء الفجر اللؤلؤي المعتم، وكان ذلك الآن بكورًا بالنسبة لفترة منتصف الصيف. كان الكرسي والمكتب عبارة عن نقطتين معتمتين، والصور مجرد إيحاءات أكثر وضوحًا. وبدت ستائر النافذة البيضاء وهي تتنهد داخلة وخارجة وكأنما تأخذ أنفاسها، لأنه فجر نادر ذلك الذي لا يحرك نسمة خفيفة فوق سطح الأرض.

حين أخرج من مرحلة النوم، أكون متمتعًا بعالمين، سماء الأحلام ذات الطبقات، والمثبتات الوقتية التي يتمتع بها العقل المستيقظ. وتمددت في تنعم، إحساس طيب ومخدر. إن الأمر يبدو وكأن الجلد قد انكمش في أثناء الليل، وعلى المرء أن يفرده ليناسب حجم النهار عن طريق نفخ العضلات، وتحتوي هذه العملية متعة مخدرة.

في بداية الأمر، استرجعت ما زلت أذكره من أحلام، كما لو كنت ألقي نظرة سريعة على جريدة لأرى ما إذا كان بها ثمة شيء مفيد أو مهم. ثم نقبت في اليوم المقبل بحثًا عن أحداث لم تكن قد وقعت. وتلا ذلك أني اتبعت تمرينًا تعلمته من أحسن ضابط عملت معه. كان يدعى تشارلي إدواردز،

وهو برتبة ميجور وفي منتصف العمر، ويحتمل أنه كان كبيرًا بعض الشيء على أن يكون مشتركًا في معارك حربية، ولكنه كان ضابطًا جيدًا. كانت له عائلة ضخمة، زوجة جميلة وأربعة أطفال على التوالي، وكان قلبه يستطيع التألم من الحب والشوق لهم، إذا سمح له بذلك. لقد أخبرني بهذا التمرين. ففي عمله المميت، لم يستطع تحمل أن يضلل الحب اهتمامه ويمزقه. وهكذا توصل إلى منهج. ففي الصباح، هذا إذا لم يقفز من نومه إثر صيحة الانتباه، كان يفتح ذهنه وقلبه لعائلته. كان يستعرض كل واحد بدوره، كيف يبدو منظرهم، وماذا يشبهون، ويربت عليهم ويطمئنهم على حبه. وبدا الأمر وكأنه كان يلتقط أشياء ثمينة من خزانة شيئًا بعد الآخر، ثم يتطلع إلى كل منها، ويتحسسه، ويقبله، ثم يعيده ثانية، وفي النهاية يلقي عليهم تحية وداع قصيرة ثم يغلق باب الخزانة. كان الأمر كله يستغرق نصف ساعة إذا استطاع الحصول عليه، وبعدئذ لم يكن عليه أن يفكر فيهم مرة أخرى طوال النهار. وقد استطاع أن يهب طاقته الكاملة -دون أن تنحرف بها الأفكار المتصارعة والأحاسيس- للوظيفة التي كان عليه أن يؤديها، قتل الرجال. كان أفضل ضابط عرفته على الإطلاق. واستأذنته في استعمال منهجه، فمنحه لي. وحين قتل، كان كل ما استطعت التفكير فيه هو أنه قضى حياة طيبة وذات أثر. لقد استوفى مسراته، واستمتع بحبه، وسدد ديونه، وكم من الرجال يستطيعون مجرد الوصول إلى ذلك؟

لم أكن أستعمل منهج الميجور تشارلي دائمًا، ولكن في يوم مثل يوم الخميس هذا، وحين عرفت أن انتباهي ينبغي أن يظل دون تشويش بقدر الإمكان، استيقظت حين انفرج باب النهار مسافة صغيرة، وزرت عائلتي مثلما كان الميجور تشارلي يفعل.

زرتهم حسب الترتيب الزمني، وانحنيت إلى العمة ديبورا. كان اسمها على اسم ديبورا القاضي، ولقد قرأت أن القاضي كان قائدًا حربيًّا. لقد كانت جدتي العظيمة تستطيع أن تقود الجيوش؛ فقد كانت تنظم فيالق الفكر. وقد انحدرت إليَّ منها فرحتي بالتعلم دون أن أرجو كسبًا ملموسًا. ورغم كونها حازمة إلا أنها كانت مشحونة بالفضول، ولم تكن تهتم إلا قليلًا بمن ليس كذلك. وقدمت لها فروض الولاء، ثم قدمت للقبطان العجوز نخبًا خياليًّا، وحنيت رأسي لأبي. بل إنني أديت واجبي حتى تجاه الحفرة غير المأهولة في ماضيَّ، والتي كنت أعرفها على أنها أمي. إنني لم أعرفها أبدًا؛ فقد ماتت قبل أن أتمكن من ذلك وتركت فيَّ الماضي الذي كان ينبغي أن توجد فيه، حفرة فحسب.

شيء واحد أقلقني. أن العمة ديبورا والقبطان العجوز ووالدي لم يبدوا واضحين، كانت تحديدات أشكالهم غير واضحة ومتموجة، حيث كان ينبغي أن تكون واضحة تمامًا مثل الصورة الفوتوغرافية. حسنًا، ربما تغيض الذكريات من الذهن كما تغيض الصور القديمة المطبوعة على ألواح الزنك، حيث تمتد خلفية الصورة لتغمر موضوعاتها. لم أكن أستطيع الاحتفاظ بهم إلى الأبد.

كان ينبغي أن تكون ماري التالية، ولكني نحيتها جانبًا إلى ما بعد.

واسترجعت صورة آلان، لم أستطع العثور على وجهه الفتي، الوجه الذي يبين الفرحة والانفعال، اللذين جعلاني أثق من كماله كرجل. لقد بدا بالصورة التي صار إليها– مكتئبًا، مغرورًا، حانقًا، نائيًا ومغلفًا بأسرار الألم والحيرة التي يبعثها بلوغه، إنها فترة مرعبة مدمرة تلك التي ينبغي عليه فيها أن يعقر كل شخص قريب منه، بل حتى أن يعقر نفسه، مثل كلب وقع في فخ وحتى في الصورة التي

رسمها له ذهني، لم يستطع الخروج من ضجره البأس، ونحيته جانبًا، وأنا أقول له فحسب: «إنني أعلم. وأذكر مدى سوء تلك الفترة، وكيف أنني لا أستطيع المساعدة، كما لا يستطيعها أحد. أستطيع فقط أن أقول لك إنها ستنتهي، ولكنك لا تستطيع أن تصدق ذلك، فاذهب في سلام، اذهب يصحبك حبي، رغم أن أحدًا منا لا يستطيع تحمل الآخر في أثناء تلك الفترة».

أتت إيلين تصحبها موجة من السرور. ستكون جميلة، بل حتى أجمل من أمها، فحين يأخذ وجهها الصغير شكله النهائي ستكون لها السطوة الغريبة التي كانت للعمة ديبورا. إن حالاتها المزاجية، وقساوتها، وعصبيتها هي العناصر الأساسية لتكوين مخلوق غاية في الجمال والمعزَّة. إنني أعرف هذا؛ لأنني رأيتها تقف في أثناء نومها ممسكة بالطلسم تضمه إلى صدرها وتبدو كامرأة مكتملة. وبقدر ما كان الطلسم مهمًّا بالنسبة لي، ولا يزال، فهو كذلك بالنسبة لإيلين. ربما تكون إيلين هي التي ستحمل وتنقل إلى جيل آت ما هو خالد فيّ. وفي أثناء تحيتي لها وضعت ذراعي حواليها، بينما قامت هي -في صورة مطابقة لبنات جنسها- بدغدغة أذني ثم ضحكت. يا عزيزتي إيلين، يا ابنتي.

أدرت رأسي ناحية ماري، التي كانت نائمة تبتسم إلى يميني، وذاك هو مكانها، فحينما تكون مبتهجة منشرحة الصدر، تستطيع أن تدفن رأسها في ذراعي اليمنى، تاركة يدي اليسرى طليقة لمداعبتها.

منذ بضعة أيام مضت، جرحت إصبعي السبابة بسكين منحن مما يستعمل في قطع الموز في المحل، ويبست قشرة صلبة على طرف إصبعي. وهكذا كنت أمسح على أذنها بإصبعي الثاني، ولكن في رقة كافية لكيلا تزعجها، وفي ثبات كاف لكيلا أدغدغها. وكما تفعل دائمًا، تنهدت تنهيدة عميقة مختزنة، وانطلقت منها أنّة خافتة.

بعض الناس يقاومون الاستيقاظ، ولكن ماري ليست منهم، فهي تقبل على اليوم متوقعة أنه سيكون يومًا طيبًا. وحيث إنني أعلم هذا، فإنني أحاول أن أقدم لها هدية صغيرة لأحقق اعتقادها، وأحاول أن أبقي على الهدايا للمناسبات، مثل تلك التي أخرجتها الآن من حافظة ذهني.

فتحت عينيها، وما زالتا ضبابيتين من أثر النوم، وسألت: «هل طلع النهار؟»، ثم تطلعت إلى النافذة لترى إلى أي مدى أصبح النهار قريبًا. وفوق المكتب تتدلى صورة فيها أشجار وبحيرة وبقرة صغيرة تقف في ماء البحيرة.

وحين ميزت ذيل البقرة وأنا في فراشي، علمت أن النهار قد طلع.

- «لقد أحضرت لك معي فيضانات من الفرح الغامر، يا سنجابي الطائر».

- «أنت مجنون».

- «هل كذبت عليك مطلقًا؟».

- «ربما».

- «هل أنت مستيقظة بما فيه الكفاية، لكي تستمعي إلى فيضانات الفرح الغامر؟».

- «كلا».

- «إذن سأحتجزها».

استدارت على كتفها الأيسر، فتكونت ثنية عميقة في لحمها الطري. «أنت كثير المزاح. فإذا كنت تنوي أن تقول إنك ستغطي العشب بالأسمنت...».

- «كلا».

- «أو أنك ستبدأ في تشييد ملعب للكريكيت».

- «كلا، ولكنك تذكرين فعلًا الخطط القديمة الملغية».

- «هل الأمر نكتة؟».

- «حسنًا، إنه شيء بالغ الغرابة والسحر، لدرجة تقتضي منك أن تدعمي إيمانك».

وصارت عيناها الآن صافيتين متيقظتين، واستطعت أن أرى الارتعاشات البسيطة حول شفتيها وهي تستعد للضحك: «أخبرني».

- «هل تعرفين رجلًا من أصل إيطالي يدعى مارولللو؟».

- «يا لحماقتك!! لقد بدأت تصير سخيفًا».

- «ستجدين الأمر كذلك. لقد رحل «السيد مارولللو» من هنا لبعض الوقت».

- «إلى أين؟».

- «لم يقل».

- «ومتى سيعود؟».

- «أبطلي التشويش عليَّ، فلم يقل ذلك أيضًا. أما ما قاله فعلًا، وما أمر به –عندما عارضت– إن علينا أن نأخذ سيارته ونذهب في رحلة سعيدة نقضي بها العطلة».

- «إنك تسخر بي».

- «هل أكذب كذبة تثير حزنك؟».

- «ولكن لماذا؟».

- «ذلك ما لا أستطيع قوله. أما ما أستطيع أن أقسم عليه ابتداء من قسم فتية الكشافة حتى القسم البابوي، فهو أن السيارة البونتياك المخططة كالقندس المسكي، بخزانها ممتلئًا بالوقود العذري تنتظر إمتاع سعادتك».

- «ولكن أين سنذهب؟».

- «ذلك، يا زوجتي الحلوة، هو ما ستقرري أمره، وتستغلي اليوم كله، وغدًا، ويوم السبت لتضعي خطته».

- «ولكن الإثنين عطلة ومعنى ذلك أننا سنقضي يومين كاملين».

- «ذلك صحيح».

- «أتستطيع تحمل النفقات؟ فقد يتطلب الأمر النزول بفندق على الطريق أو شيئًا من هذا القبيل».

- «سواء استطعنا أم لا، فلديَّ حافظة سرية».

- «سخف، فأنا أدرى بحافظتك. إنني لأستطيع تصور أنه يعير سيارته».

- «وكذلك لا أستطيع أنا، ولكنه فعل».

- «لا تنسى إنه أحضر حلوى في عيد القيامة».

- «ربما كان خرف الشيخوخة».

- «إني لأعجب ماذا يريد؟».

- «ليس ذلك القول جديرًا بزوجتي. ربما يريد منا أن نحبه».

- «سيكون علي أن أؤدي ألف شيء».

- «أعلم أنك ستفعلين». واستطعت أن أرى ذهنها يقلب الاحتمالات -مثلما يفعل الحفار الآلي- وعرفت أنني فقدت انتباهها، وقد لا أستطيع استرداده ثانية، وكان ذلك طيبًا.

في أثناء الإفطار وقبل أن أتناول فنجاني الثاني من القهوة، كانت قد اختارت، ثم أسقطت من الاحتمال نصف أماكن اللهو في شرقي أمريكا. لم يكن قد توفر لعزيزتي المسكينة كثير من المرح خلال تلك السنوات الأخيرة القليلة.

قلت: «يا كلوي([5])، أعلم أنني سألقى عناء في اجتذاب انتباهك. ولكن لقد عرض عليَّ استثمار مهم جدًّا، وأريد مزيدًا من نقودك. أما النقود الأولى فأمرها يسير على ما يرام».

- «وهل يعلم مستر بيكر بالأمر؟».

- «إنها فكرته».

- «إذن خذها، وقع أنت الشيك».

- «ألا تريدين معرفة مقدارها؟».

- «أحسب ذلك».

- «ألا تريدين معرفة الاستثمار؟ الأرقام، والتمويل، والتخطيطات، والعائد المتوقع، والمال الأميري، وكل ذلك؟».

- «لن أفهمه».

- «أوه، بل ستفهمينه».

- «حسنًا، لن أرغب في فهمه».

- «لا عجب في أنهم يدعونك ثعلبة وول ستريت. ذلك الذهن العملي البارد كالثلج. الذي تقطع حدته الماس، إنه مخيف».

قالت: «إننا سنقوم برحلة. سنقوم برحلة مدة يومين».

وكيف لا يستطيع المرء بحق الجحيم ألا يحبها، وألا يعبدها؟ وأخذت أغني «من هي ماري، وماذا تكون؟» ثم جمعت زجاجات اللبن الفارغة وذهبت لعملي.

أحسست بحاجتي للحاق بجوي، مجرد التوصل إلى الإحساس بوجوده، ولكن لابد أنني تأخرت لحظة أو أنه بكر لحظة؛ فقد كان يدخل المقهى حين استدرت في شارع «هاي»، وتبعته إلى الداخل وأخذت المقعد المجاور له «لقد غرست فيَّ هذه العادة، يا جوي».

- «هاي، مستر هولي. إنها قهوة طيبة جدًّا».

وحييت صديقة دراستي العجوز: «طاب صباحك، يا آني».

- «هل ستصبح زبونًا منتظمًا، يا إيث؟».

- «يبدو كذلك. أعطني فنجانًا من القهوة السوداء».

- «هاك قهوة سوداء».

- «سوداء في لون عين اليأس».

- «ماذا؟».

- «سوداء».

- «إذا رأيت أي بياض في ذلك الفنجان، يا إيث. سأعطيك فنجانًا آخر».

- «كيف الأحوال، يا مورفي؟».

- «كما هي، بل أسوأ فحسب».

- «أتريد أن نتبادل الوظائف».

- «أقبل، على أن يكون ذلك قبل عطلة نهاية الأسبوع الطويلة».

- «لست الشخص الوحيد الذي لديه مشاكل. فالناس عندي يختزنون الطعام أيضًا».

- «أحسبهم يفعلون. لم أكن قد فكرت في ذلك».

- «معدات الرحلات، مخللات، وسجق –وليساعدنا الله– فهم يأخذون كذلك نبات الخطمية. أليس هذا عملًا شاقًّا بالنسبة لك».

- «بحلول الرابع من يوليو في يوم إثنين وبمثل هذا الطقس البديع، أتسخر؟ وما يجعل الأمر أسوأ أن الرب العظيم يحس بحاجته إلى الراحة والاستجمام في الجبال».

- «تعني المستر بيكر؟».

- «وأعني جيمس ج. بلين».

- «إنني أريد رؤيته، بل في حاجة إلى رؤيته».

- «حسنًا، حاول اللحاق به إن استطعت، فإنه يقفز هنا وهناك كقطعة نقود في دف».

-»بوسعي أن أحضر لك الشطائر إلى (الجبهة)، يا جوي».

- «ربما طلبت هذا منك».

وقلت: «سأدفع هذه المرة».

- «أوكي».

عبرنا الشارع معًا ودخلنا الحارة.

- «وإنني لكذلك. لقد سئمت إلى حد كبير نقود الآخرين. لديَّ موعد حافل لقضاء نهاية الأسبوع، ولكني قد أكون محطمًا جدًّا بحيث لا أكون مهيئًا له». ودفع غلاف لادن في القفل، ودخل وهو يقول «إلى اللقاء» ثم أغلق الباب. ودفعت الباب الخلفي ففتحته:

- «جوي! أتريد شطيرة اليوم؟».

- «كلا، شكرًا». صاح بهذا القول من الداخل المعتم ذي الرائحة التي كرائحة ورنيش الأرضية. «ربما أحتاج إليها يوم الجمعة، أما يوم السبت فمؤكد أنني سأحتاج إليها».

- «ألا تغلق ساعة الظهيرة؟».

- «لقد قلت لك، إن المصرف يغلق أما جوي فلا».

- «عليك فقط أن تنادي عليّ».

- «شكرًا، شكرًا، يا مستر هولي».

لم يكن لديَّ ما أقوله لقواتي على الأرفف ذلك الصباح سوى: «صباح الخير، يا سادة، خذوا راحتكم».

قبل التاسعة ببضع لحظات، كنت أمام الواجهة الخارجية، أكنس الرصيف مرتديًا ميدعتي وممسكًا بمقشتي.

إن مستر بيكر من الانتظام بحيث يمكنك أن تسمعه يدق كالساعة، وإني واثق أنه يوجد داخل صدره زمبرك ساعة شعرى. الثامنة وست وخمسون، وسبع وخمسون، ها هو هناك قادم من شارع «إلم»، الثامنة وثمان وخمسون، عبر الشارع، الثامنة وتسع وخمسون، صار أمام الأبواب الزجاجية، حيث اعترضت طريقه وأنا أحمل مقشتي كأنها سلاح: «مستر بيكر، أود التحدث إليك».

- «صباح الخير، يا إيثان. هل يمكنك الانتظار دقيقة؟ تعال ادخل».

تبعته، وكان الحال كما قال جوي تمامًا، مثل احتفال ديني. حين اجتاز عقرب الساعة التاسعة واقفًا في حالة انتباه فعلًا. وحينئذ انبعثت تكة وأزيز من باب الخزانة الفولاذي الضخم. وبعدئذ أدار جوي الأرقام السرية وأدار العجلة التي تسحب المزاليج. واستدار باب قدس الأقداس مفتوحًا في جلال، ورفع مستر بيكر يده بالتحية إلى النقود المتجمعة. ووقفت أنا خارج الحاجز الحديدي كمشترك متواضع في العشاء الرباني، ينتظر تناول العشاء.

واستدار مستر بيكر: «والآن، يا إيثان. ما الذي أستطيع أن أفعله من أجلك؟».

قلت في صوت خافت: «أريد التحدث معك على انفراد، ولا أستطيع ترك المحل».

- «ألا يمكن الانتظار؟».

- «أخشى ألا يكون ممكنًا».

- «ينبغي أن يكون عندك من يساعد في المحل».

- «أعلم ذلك».

- «لو أتيحت لي لحظة زمن فسآتي إليك. هل ثمة خبر عن تيلور؟».

- «ليس بعد. ولكني استعرضت بعض الخطوط».

- «سأحاول تدبر الأمر».

- «شكرًا، يا سيدي». ولكني كنت أعلم أنه سيأتي.

وقد أتى، في أقل من ساعة، ووقف جانبًا حتى انصرف الزبائن الموجودون.

– «والآن! ماذا هناك، يا إيثان؟».

- «مستر بيكر، بالنسبة للطبيب أو المحامي أو الكاهن توجد قاعدة من السرية، فهل يوجد مثل هذا الشيء بالنسبة لمدير مصرف؟».

ابتسم: «هل سمعت قط عن مدير مصرف يناقش مصالح عميل، يا إيثان؟».

- «كلا».

- «حسنًا، سل مرة لترى مقدار ما ستحصل عليه. وبالإضافة إلى ذلك التقليد، فإنني صديقك، يا إيثان».

- «أعرف هذا. أحسبني قلقًا قليلًا. لقد انقضى وقت طويل منذ أتيحت لي فرصة».

- «فرصة؟».

- «سأكشف أوراقي، يا مستر بيكر. إن مارولو في مأزق».

وتحرك مقتربًا مني: «أي نوع من المآزق؟».

- «لا أعرف بالضبط، يا سيدي. أظن أن الأمر قد يكون دخولًا غير مشروع إلى البلاد».

- «وكيف عرفت؟».

- «لقد أخبرني، ليس بالتفصيل فأنت تعرف أحواله».

كدت أرى ذهنه يقفز هنا وهناك، يلتقط قطعًا ويرتبها معًا، وقال: «استمر فذلك معناه الإبعاد من البلاد».

- «أخشى أن يكون الأمر كذلك. لقد كان طيبًا معي، يا مستر بيكر. ولن أفعل أي شيء يؤذيه».

- «أنت مدين لنفسك بشيء ما، يا إيثان. وماذا اقترح عليك؟».

- «ليس الأمر مجرد اقتراح. لقد كان عليَّ أن أجمع هذا الرأي من كمية كبيرة من الكلام الملتوي المثير. ولكني استنتجت أنه لو كان لدي خمسة آلاف دولار نقدًا، فإنني أستطيع امتلاك المحل».

- «ذلك يبدو وكأنه ينوي الهرب، ولكنك لا تعلم شيئًا عن ذلك».

- «لا أعلم أي شيء على وجه الحقيقة».

- «وبهذا لن تكون هناك فرصة لاتهامك بالتواطؤ، فهو لم يخبرك بأي شيء محدد».

- «كلا، يا سيدي».

- «إذن كيف توصلت إلى ذلك الرقم؟».

- «الأمر سهل، يا سيدي. فذاك المبلغ هو كل ما لدينا».

-»ولكن هل كان يحتمل أن نحصل عليه بمبلغ أقل؟».

- «ربما».

وتفحصت نظرته السريعة المحل وقدرت قيمته وقال: «لو أنك مصيب في افتراضك، فإنك تكون في مركز مساومة طيب».

- «إنني لست بارعًا جدًّا في ذلك».

- «إنك تعرف أنني لا أحبذ الصفقات التي تعقد في الخفاء. ربما استطعت التحدث معه».

- «انه خارج البلدة».

- «متى سيعود؟».

- «لا أعلم يا سيدي. وتذكر، أنه مجرد إحساس عندي بأنه قد يقبل، وإذا كان لديَّ المبلغ نقدًا، فقد يعقد الصفقة. إنه يحبني كما تعلم».

- «أعلم أنه يحبك».

- «إنني أكره التفكير في أنني انتهزت الفرصة».

- «إنه يستطيع دائمًا أن يحصل على المبلغ من شخص آخر. كان يستطيع الحصول بسهولة على عشرة آلاف دولار من أي شخص».

- «إذن فربما أكون مبالغًا في الأمل».

- «والآن، لا تفكر بأفق محدود. عليك أولًا أن تبحث عن رقم واحد، المال».

- «رقم اثنين. إنها نقود ماري».

- «فليكن. حسنًا، ما الذي دار بخلدك؟».

- «حسنًا، حسبت أنك قد تستطيع تحضير بعض الأوراق على أن تترك التاريخ والمبلغ على بياض. وبعد ذلك فكرت في أن أسحب النقود يوم الجمعة».

- «ولماذا يوم الجمعة؟».

- «حسنًا، إن الأمر أيضًا مجرد تخمين، ولكنه قال شيئًا بخصوص كيف أن الناس جميعًا يتغيبون عن البلدة في العطلة. وتصورت بشكل ما أنه قد يأتي حينئذ.

أليس رصيده لديك؟».

- «كلا، والله! لقد سحبه حديثًا. لشراء مؤن، كما قال. ولم أفكر في أي شيء من هذا؛ لأنه قد فعل ذلك قبلًا، وكان دائمًا يعيد أكثر مما سحب». ونظر مباشرة في عيني فتاة غارقة في الأصباغ تُدعى مس اينجولد كانت تقف إلى جوار الثلاجة، ولكنه لم يستجب لدعوتها الضاحكة «أتعلم أنك قد تتلقى ضربة مرعبة في هذه الصفقة؟».

- «ماذا تعني؟».

- «لأنه، أولًا، يستطيع أن يبيع المحل لنصف دستة من الناس المختلفين. وثانيًا، أن المحل قد يكون غارقًا إلى أذنيه في الرهن. ولا توجد له حجة تمليك للبحث عنها».

- «ربما استطعت أن أتبين الأمر في مكتب موثق المقاطعة، وإنني أعلم كم أنت مشغول، يا مستر بيكر، ولكني أستغل صداقتك لعائلتي. وبالإضافة إلى هذا، فأنت الصديق الذي يعرف مثل تلك الأشياء».

- «سأزور توم واطسون بشأن عقد التمليك. اللعنة، يا إيثان، إنها فترة سيئة، فإنني أريد القيام برحلة صغيرة غدًا. وإذا كان الأمر صحيحًا وكان محتالًا، فمن الممكن أن تستدعى للتحقيق الدقيق».

- «ربما يجدر بي إذن أن أترك الموضوع. ولكن، يا إلهي، يا مستر بيكر، إنني سئمت بقائي موظفًا في محل بقالة».

- «لم أقل أن تترك الموضوع، بل قلت إنك تغتنم فرصة».

- «ستكون ماري في غاية السعادة إذا امتلكت المحل. ولكني أظنك على صواب، ينبغي عدم المقامرة بنقودها. أعتقد أن ما ينبغي عليَّ فعله، هو أن أستدعي رجال حكومة الاتحاد».

- «وسيفقدك ذلك أي امتياز يكون لك».

- «كيف؟».

- «إذا أبعدوه، فيمكنه أن يبيع ممتلكاته بواسطة وكيل، وسيجلب هذا المحل مبلغًا من المال أكثر مما تستطيع أن تدفع. وأنت لا تعلم فعلًا أنه ينوي الهرب، فكيف تستطيع إخبارهم بأنه سيفعل، إذا كنت لا تعلم؟ أنت لا تدري حتى أنه قبض عليه».

- «ذلك صواب».

- «والواقع، أنك لا تعرف أي شيء عنه –معرفة يقينية- وكل ما أخبرتني به هو شكوك غير واضحة، أليس الأمر كذلك؟».

- «أجل».

- «من الأفضل أن تنسى تلك الشكوك».

- «ألن يبدو الأمر مريبًا، في حالة الدفع نقدًا دون أي تسجيل؟».

- «يمكنك أن تكتب على الشيك... أوه شيئًا مثل: «للاستغلال في أعمال البقالة مع أ. مارواللو» وسيكون ذلك تسجيلًا يفي بقصدك».

- «افترض أن شيئًا من هذا لم يفلح».

- «حينئذ تعيد إيداع النقود».

- «أتعتقد أن الأمر يساوي المخاطرة؟».

- «حسنًا – إن كل شيء مخاطرة يا إيثان. وإنها لمخاطرة أن تحمل كل تلك النقود الكثيرة هنا وهناك».

- «سأكون حريصًا فيما يختص بذلك».

- «أتمنى لو لم أكن مضطرًّا للبعد عن البلدة».

كان ما قلته عن التوقيت لا يزال ساري المفعول. فطوال تلك الفترة لم يدخل المحل احد، أما الآن فدخل نصف دستة: ثلاث نساء، ورجل عجوز، وصبيان. وتحرك مستر بيكر مقتربًا مني وتكلم في صوت خافت: «سأعدها لك في ورق من فئة المائة دولار وسآخذ أرقامها، حتى إذا قبضوا عليه تستطيع استرداد النقود». وأحني رأسه في تجهم إلى النسوة الثلاث، وقال للرجل العجوز «طاب صباحك، يا جورج». وأدخل أصابعه في خشونة في شعر الصبية الخشن. إن مستر بيكر رجل ذكي جدًّا.

# الفصل الرابع عشر

إن أول يوم من يوليو، يوم يقسم العام مثلما يقسم الفرق شعر الرأس. لقد سبق أن رأيته كحد مميز بالنسبة لي. فبالأمس كان يوجد نمط مني، وغدًا سيوجد نمط مختلف. لقد قمت بتدبيري بحيث لا يمكن استعادته. كان الزمن والأحداث قد لعبت دورها على طول الخط، وبدا أنها تزاملني في عملي. ولم أسدل ستارًا أبدًا أخفي به عن نفسي ما كنت أفعل. فلم يدفعني أي شخص لأختط الطريق الذي اخترته. واستبدلت -إلى حين- عادة في السلوك والتصرف من أجل الراحة والكبرياء، ومن أجل الحصول على متكأ للاطمئنان. ولعله سيكون من اليسير جدًّا، أن أتفق على أنني فعلت هذا من أجل أسرتي؛ لأني كنت أعلم أنه عن طريق راحتهم وطمأنينتهم سأجد كبريائي. ولكن غرضي كان محددًا، وحالما يتحقق، فإنني أستطيع أن أسترد عادتي في السلوك ثانية. كنت أعرف أنني أستطيع. فلم تجعل الحرب مني قاتلًا، رغم أنني ظللت فترة أقتل الرجال. ولم يكن إرسال الفيالق –مع علمي أن بعض الرجال سيموتون- يثير في نفسي أي فرحة بالتضحية مثلما كان يحدث للبعض، ولم أستطع أبدًا أن أشعر بالبهجة تجاه ما فعلت، أو ألتمس العذر أو الصفح عنه. كان الشيء الرئيسي هو أن تعرف الغرض المحدد لما هو كائن، وحالما يتحقق، توقف العملية خط سيرها. ولكن ذلك يكون ممكنًا فحسب، إذا عرفت ما أفعل ولم أخدع نفسي بالطمأنينة والكبرياء، ثم بعدئذ أوقف العملية في خط سيرها. لقد عرفت من المعارك أن القتلى والجرحى هم ضحايا عملية ما، وليسوا ضحايا الغضب أو الكراهية أو القسوة. وإنني أومن بوجود الحب، وفي أثناء لحظة تقبل المصير، بين الفائز والخاسر، وبين القاتل والمقتول.

ولكن أوراق داني المجعدة كانت تؤلمني كالأسى، وكذلك عيني مارولو الممتنتين. لم أكن قد رقدت مستيقظًا، مثلما يقال إن الرجال يفعلون ليلة المعركة. بل جاء النوم سريعًا، عميقًا، تامًّا، وأطلق سراحي قبل الفجر، بنفس الحرية التي أتى بها وكنت منتعشًا. لم أرقد في الظلام كالمعتاد، وكان دافعي إلى ذلك أن أستعرض حياتي كما عشتها. وانزلقت من الفراش في هدوء، وارتديت ملابسي في الحمام، ونزلت الدرج، وأنا أمشي قريبًا من الحائط. ولم يثر دهشتي أنني ذهبت إلى الدولاب، وفتحته. وعرفت الحجر الوردي باللمس. ووضعته في جيبي وأغلقت الدولاب ثم قفلته بالمفتاح. لم أكن قد حملته بعيدًا أبدًا طيلة حياتي كلها، ولم أكن أعرف هذا الصباح أني سأفعل ذلك. وأرشدتني الذاكرة خلال المطبخ المظلم وخارج الباب الخلفي إلى الفناء المعتم. كانت شجرات الدردار المتعانقة متخمة بأوراقها، كهف حقيقي مظلم. لو كانت لديَّ حينئذ سيارة مارولو البونتياك لسقتها خارج نيوبايتون إلى عالم ذاكرتي الأولى الذي أخذ يستيقظ. وتعقب إصبعي الرسم المتعرج الذي لا ينتهي على الطلسم الدافئ دفء البشرة في جيبي – طلسم؟

إن تلك الديبورا التي أرسلتني طفلًا إلى الجلجثة، كانت آلة دقيقة فيما يتعلق بالكلمات. فهي لم تكن تنظر إلى الكلمات على أنها هراء، ولم تكن تسمح لي بأي تهاون في ذلك. أي سلطة تمتعت بها، تلك المرأة العجوز! ولو كانت ترغب في الخلود، فقد كان لها في ذهني الخلود. وحين رأتني أتتبع الأحجبة بإصبعي، قالت:

«إيثان، قد يكون ذلك الشيء الغريب طلسمك».

- «وما هو الطلسم؟».

- «لو أنني أخبرتك، فلن يعيها انتباهك المشتت إلا بشكل جزئي فحسب. ابحث عن معناها».

لقد عرفت معنى الكثير جدًّا من الكلمات بنفسي؛ لأن العمة ديبورا أثارت فضولي بشأنها أول الأمر، ثم أرغمتني بعدئذ على أن أشبع هذا الفضول بمجهودي الخاص. وكان من الطبيعي أن أجيبها: «ومن الذي يعنيه الأمر؟». ولكنها كانت تعلم انني سأتسلل وحدي بحثًا عنها، فتهجت الكلمة لتمكنني من تتبعها في القاموس. ط – ل – س – م. كان اهتمامها بالكلمات عميقًا، وكانت تكره إساءة استعمالها مثلما تكره تناول أي شيء بديع بإهمال. والآن، وبعد عدة أجيال، أستطيع أن أرى الصفحة، أستطيع أن أرى نفسي أخطئ في تهجي كلمة «طلسم». كانت كتابتها باللغة العربية مجرد خط متعرج به بروز عند نهايته، أما بالغة اليونانية فكان باستطاعتي أن أنطق الاسم بسبب حدة لسان تلك المرأة العجوز: «هي حجر أو شيء آخر حفرت عليه أشكال أو شخوص تنسب إليها قوى خفية ناتجة من تأثير الكواكب السيارة، والتكوينات الفلكية التي يصنع الشيء تبعًا لها، وهو يلبس غالبًا كتعويذة تدرأ الشر عن حاملها أو تجلب له الخير». وكان عليَّ حينئذ أن أبحث عن معنى كلمات: «خفية»، «الكواكب السيارة»، «التكوينات الفلكية»، ثم «تعويذة»، كان الحال دائمًا هكذا، كلمة واحدة تقذف بكلمات أخرى مثل وتر النبلة. وحين سألتها فيما بعد: «هل تعتقدين في الطلاسم؟». أجابت: «وما دخل اعتقادي في الموضوع؟».

وضعت الحجر في يديها: «ماذا يعني هذا الشكل أو الشخص؟».

- «إنه طلسمك وليس طلسمي. إنه يعني ما تريد له أن يعني. أعده ثانية إلى الدولاب، وسيبقى في انتظارك».

الآن، وبينما كنت أسير في الكهف الذي تكونه شجرات الدردار، كانت العمة تبدو لي حية مثلما كانت دائمًا، وذلك هو الخلود الحق. وأعلى الحجر وأسفله كان التعريج يسير، وحوله وأعلاه وأسفله، ثعبان لا رأس له ولا ذنب ولا ابتداء أو انتهاء. وكنت قد حملته معي بعيدًا لأول مرة، هل لكي أدرأ الشر؟ أم لأجلب الخير؟

إنني لا أعتقد كذلك في قراءة الطالع.

إن حد الضوء المتعرج المنبعث من الشرق كان هو شهر يوليو، لأن يونيو كان قد رحل برحيل الليل. وإذا كان يونيو من ذهب فإن يوليو من نحاس، وإذا كان من فضة فإن يوليو من رصاص. إن أوراق الشجر في يوليو تكون ثقيلة وسمينة ومتزاحمة. وشدو الطيور في يوليو يكون ترجيعًا فارغًا لا عاطفة فيه؛ لأن الأعشاش خاوية الآن، والأفرخ الصغيرة السمينة تطير مترنحة في غير إتقان. كلا، إن يوليو ليس شهر وعد أو وفاء. فالفاكهة تنمو ولكنها ليست حلوة الطعم ولا لون لها، والقمح حزمة خضراء رخوة سنابلها صفراء غير مكتملة النمو. وثمار القرع لازالت ترتدي تيجانًا سرية الشكل من النوار اليابس.

سرت إلى شارع «بورلوك» المزدحم المشبع. وأظهر ضوء الفجر النحاسي المتجمع شجيرات الورد مثقلة بأزهار في منتصف العمر، وكأنها نسوة لم تعد مشداتهن تخفي بطونهن المتزايدة السمنة، مهما بقيت سيقانهن محتفظة بجمالها.

وفي أثناء سيري البطيء وجدت نفسي لا أقول، بل أحس بكلمة إلى اللقاء، لم تكن كلمة وداعًا. ولكلمة «وداعًا» وقع حلو من التردد. أما كلمة «إلى اللقاء» فهي كلمة قصيرة حاسمة، كلمة تصير معها الأسنان حادة لتقضم الخيط الذي يربط الماضي بالمستقبل.

وصلت إلى الميناء القديم. إلى اللقاء بالنسبة لماذا؟ لا أدري. ولم أستطع أن أتذكر، أعتقد أنني كنت أريد الذهاب إلى المكان، ولكن امرأً زامل البحر كان يعلم أن المد غامر، وأن المكان يرقد تحت ماء معتم. وليلة البارحة رأيت القمر الذي عمره أربعة أيام فحسب، يشبه إبرة جراح منحنية سميكة، ولكنه كان قويًّا بما يكفي لجذب المد إلى فتحة كهف المكان.

لم تكن هناك حاجة لزيارة كوخ داني على أمل أن أراه، فقد صار الضوء كافيًا لأرى الحشائش تقف منتصبة في الممر، حيث كانت أقدام داني قد داستها فسوتها بالأرض.

كان الميناء القديم مرصوصًا بمراكب الصيف، قوارب رشيقة صواريها مكسوة بدثار من قماش القلوع به عرى نحاسية، وهنا وهناك رجل بكَّر ليعد قاربه، يزيح الصاري المستعرض ويطوي شراعًا جانبيًّا وأشرعة رئيسية، أو ينشر شراعه الضخم وكأنه عش ضخم أبيض مجعد.

وكان الميناء الجديد أكثر زحامًا، فقوارب الإيجار مربوطة لصق الرصيف، في انتظار من يعتليها من الركاب، وصيادو الصيف المهووسون الذين يدفعون ثمنًا، ويكدسون الأحواض بالسمك، ويتساءلون ساعة الأصيل –وقد التبس الأمر عليهم- عما يفعلونه به، أكياس وسلال وجبال من سمك البورجي الأحمر، والسمك الأسود، وسمك أبو الجن، وكلب الماء الرقيق، كل هذا يصاد في شراهة، ليموت، ثم يلقى ثانية إلى طيور النورس المنتظرة. إن طيور النورس تتجمع ثم تنتظر، وهي تعلم أن صيادي الصيف سيسأمون من الكمية الوفيرة التي لديهم. فمن ذا الذي يريد أن ينظف ويقشر ملء كيس من السمك؟ إن الاستغناء عن السمك أشق على النفس من صيده.

كان ماء الخليج الآن ناعمًا نعومة الزيت، والضوء النحاسي ينسكب فوقه. ووقف البط البحري والحمام متمايلًا على حافة القناة ومع كل منه مرآته التوأم مقلوبة تحته من أعلى إلى أسفل في الماء.

استدرت ناحية صاري العلم ونصب الحرب التذكاري ووجدت اسمي بين الأبطال الذين على قيد الحياة، وبأحرف بارزة من فضة – كابتن إ.أ. هولي- وأسفله في حروف من ذهب أسماء رجال نيوبايتون الثماني عشرة الذين لم يعودوا إلى أرض الوطن. كنت أعرف أسماء معظمهم، وذات يوم كنت أعرف الرجال أنفسهم، لم يكونوا مختلفين حينئذ عن الباقين، ولكنهم الآن مختلفون؛ فأسماؤهم مكتوبة بالذهب. ولبرهة قصيرة تمنيت لو استطعت أن أكون معهم في الصفوف السفلى، كابتن إ.أ. هولي مكتوبًا بالذهب، لقد اجتمع الأغبياء ومدَّعو المرض، والجبناء والأبطال كلهم معًا، وكتبت أسماؤهم بأحرف من ذهب. ليس الشجعان فحسب هم من يقتلون، ولكن فرصة الشجعان في القتل تكون أكبر.

ظهر ويلي السمين، وهو يقود سيارته مقتربًا، ثم توقف بجوار النصب وتناول راية من على المقعد المجاور له. قال: «هاي، إيثان» وربط العرى النحاسية، ثم رفع الراية ببطء إلى قمة السارية، حيث تدلت متهدلة مثل رجل مشنوق: «إنها بالكاد تتحمل». قالها ويلي وهو يلهث قليلًا: «انظر إليها، بقي لها يومان آخران، وبعدئذ ترتفع الراية الجديدة».

- «ذات الخمسين نجمة؟».

- «أتراهن. لدينا واحدة من النايلون تشبه شيطانًا ضخمًا، في ضعف ضخامة هذه، ولا تزن أكثر من نصف وزنها».

- «كيف حال الأولاد، يا ويلي؟».

- «ليس لديَّ ما أشكو منه، لا بل لديَّ شكوى. إن يوم الرابع من يوليو الرائع هذا يكون دائمًا فوضى. وحيث إنه يوافق يوم إثنين، فسيكون هناك المزيد من الحوادث والشجارات والسكارى، سكارى ليسوا من أهل البلدة. أتريد أن أوصلك إلى المحل؟».

- «شكرًا. عليَّ أن أتوقف عند مكتب البريد، وأعتقد أنني سأتناول فنجانًا من القهوة».

- «حسنًا. سأوصلك. وكان بودي أن أدعوك إلى القهوة، ولكن ستوني متحير حيرة شديدة».

- «ما هي مشكلته؟».

- «يعلم الله. لقد سافر مدة يومين، ثم عاد متحيرًا ومرتبكًا».

- «إلى أين ذهب؟».

- «لم يقل، ولكنه عاد متحيرًا. سأنتظرك حتى تحصل على بريدك».

- «لا تزعج نفسك يا ويلي. إذ عليَّ أن أكتب بعض العناوين» - «على راحتك». وانسحب بسيارته، ثم انزلق مبتعدًا مصعدًا مع شارع «هاي». كان مكتب البريد لا يزال معتمًا، والأرضية مدهونة بالورنيش حديثًا، ولافتة منصوبة كُتِب عليها: خطر. أرضية زلقة.

كان صندوقنا هو رقم 7 منذ أن بُنِيَ مكتب البريد العتيق. وأدرت رقم ج ر، وأخذت حزمة من الرسوم ونشرات الدعاية معنونة باسم صاحب الصندوق.

كان ذلك كل ما هنالك، حشو لسلة المهملات. تمشيت في شارع «هاي»، وفي نيتي أن أتناول فنجانًا من القهوة، ولكني عزفت عن ذلك في آخر لحظة، أو لعلني لم أرغب في الحديث، أو... لا أدري لماذا، لم أرد فحسب أن أذهب إلى مقهى الفورماستر. يا إلهي! أي خليط من الدوافع ذات الذيول المتشابكة هو الرجل! وكذلك المرأة أيضًا، فيما أعتقد.

كنت أقوم بكنس الرصيف، حين ظهر مستر بيكر يدق الأرض بقدميه خارجًا من شارع «إلم»، ثم دخل لحضور احتفال فتح القفل الميقاتي. وكنت أرتب بنصف حماس ثمار البطيخ الأصفر في

الحوامل التي عند مدخل المحل، حين توقفت العربة الخضراء القديمة الطراز المسلحة أمام المصرف. ومن مؤخرتها خرج حارسان كرجال الكوماندوز، وحملا إلى داخل المصرف أكياس النقود الرمادية. وفي حوالي عشر دقائق خرجا وركبا القلعة ذات المسامير المبرشمة ثم ساقاها مبتعدين.

وأحسب أنه كان عليهما أن ينتظرا حتى يعد مورفي النقود، ويراجع عليه المستر بيكر ثم يعطيهما إيصالًا. إن العناية بأمر النقود مشكلة ضخمة مرعبة، وكما يقول مورفي، فإنك قد تجد في أعماقك اشمئزاز من نقود الآخرين. ومن حجم ووزن الأكياس، لابد أن يكون المصرف قد توقع عمليات سحب ضخمة بمناسبة العطلة. لو كنت لص مصارف عادي، فها هو ذا الوقت المناسب للسطو عليه. ولكني لست لص مصارف عادي. إنني مدين بكل ما أعرف لبال جوي، فقد كان باستطاعته أن يكون لصًّا عظيمًا لو شاء. وإنني أعجب فعلًا، لماذا لم يشأ ذلك، ولو حتى ليطبق نظريته.

تكدس العمل ذاك الصباح. وكان المر أسوأ مما قدرت أن يكون. واستحالت الشمس حامية قاسية وتحركت نسمة بسيطة جدًّا، إنه نمط الطقس الذي يدفع الناس إلى القيام بإجازاتهم سواء شاءوا أم أبوا. كان أمامي صف من الزبائن ينتظرون قضاء حاجتهم. وعرفت شيئًا واحدًا، فحتى لو قامت القيامة أو فاض الطوفان، ينبغي أن أحصل على بعض المعاونة. وإذا لم يفلح آلان، فسأطرده من العمل وآتي بشخص آخر.

حين دخل مستر بيكر في حوالي الحادية عشرة، كان في عجلة من أمره. كان عليَّ أن أترك بعض الزبائن وحدهم، ثم أدخل معه إلى المخزن.

وضع في يدي مظروفًا كبيرًا وآخر صغيرًا، وكان في غاية العجلة، لدرجة أنه تكلم بصوت كالنباح وبنوع من الاختزال: «توم واطسون يقول إن العملية على ما يرام.

لا يعلم إذا ما كان المحل مسجلًا، ولا يعتقد ذلك. إليك أوراق نقل الملكية. ضع التوقيعات حيث جعلت علامة. النقود عليها علامات وأرقامها مدونة. هاك شيكًا جاهزًا تمامًا. عليك فحسب أن توقعه. آسف، يا إيثان، عليَّ أن أسرع. إنني أكره القيام بعمل مثل هذا».

- «هل تعتقد أنه ينبغي عليَّ أن أسير قدمًا؟».

- «اللعنة، يا إيثان، أبعد كل تلك المشاق التي تكبدتها!».

- «آسف، يا سيدي. أعلم أنك مصيب». ووضعت الشيك فوق صندوق لبن محفوظ من الورق المقوى، ووقعته بقلمي الذي لا تُمحى كتابته.

لم يكن مستر بيكر في عجلة من أمره عند فحص الشيك: «اعرض ألفين في البداية. وزد عرضك مائتي دولار في كل مرة. وعليك أن تتأكد، طبعًا، أن حسابك في المصرف قد صار خمسمائة دولار فحسب. وليساعدك الرب إذا نفدت نقودك».

- «إذا كان المحل خال من الرهن، ألا أستطيع الاستدانة عليه؟».

- «تستطيع بالتأكيد إذا أردت أن تلتهمك الفوائد».

- «لا أعرف كيف أشكرك».

- «لا تكن لين العريكة، يا إيثان. ولا تجعله يخدعك بذلاقة لسانه. فهو يستطيع أن يسكرك بكلامه، كل الصقليين هكذا. تذكر فحسب القاعدة الأولى».

- «إنني ممتن جدًّا».

قال: «ينبغي أن أذهب. أريد أن أصل الطريق الرئيسي قبل زحام مواصلات الظهيرة». وخرج، وكاد تقريبًا يوقع مسز ويللو أرضًا عند مدخل المحل، حيث كانت تتفحص كل ثمرة بطيخ أصفر مرتين.

لم تخف حدة هوس اليوم بأي حال. وأعتقد أن الحرارة التي غمرت الشوارع وجعلت الناس متحفزين وفي أعماقهم ميل للشجار. وكنت تحسب أنهم يخزنون أشياء استعدادًا لكارثة، وليس استعدادًا لعطلة. ولم يكن في مقدوري أن أوصل سندويتشات إلى مقر مورفي لو أردت.

لم يكن عليَّ فحسب أن أخدم الناس، بل أن أبقي عيني أيضًا مفتوحتين. كان جزء كبير من الزبائن من المصطافين، غرباء عن البلدة، وهم يسرقونك إذا لم تراقبهم. ويبدو أن الامتناع عن هذا ليس في وسعهم. وهم أيضًا لا يسرقون دائمًا ما يبدو أنهم في حاجة إليه. والذي يتعرض لأسوأ عمليات السرقة هي (البرطمانات) الصغيرة التي تحتوي الأشياء الغالية، مثل: والكافيار، وعيش الغراب، ولهذا جعلني مارولو أحتفظ بمثل تلك الأشياء خلف الثلاجة، حيث ليس من المفروض أن يذهب الزبائن. وقد علمني الإمساك بأحد سارقي المحلات ليس عملًا صائبًا، فهو يبعث القلق في الزبائن جميعًا، وقد يكون السبب أن كلًّا منهم -ولو في محيط أفكاره- يكون مذنبًا بشكل ما. والوسيلة الوحيدة هي أن تقيد الخسارة ضمن حساب شخص آخر. ولكن إذا رأيت أحدًا ما يقترب إلى حد كبير من أرفف معينة، فأستطيع أن أوقف دفعته بقولي: «إن بصل الكوكتيل هذا صفقة رابحة». وكنت أرى الزبون يقفز وكأنني قد قرأت ما يجول بخاطره. أما أكثر شيء أمقته في هذه العملية فهو الريبة؛ إذ إن الشعور بالريبة شيء مقبض، وهذا يثير حنقي، إذ يكون الأمر كأن شخصًا واحدًا يسيء إلى كثيرين.

انقضى النهار في نوع من الكآبة، ومر الوقت بطيئًا. وبعد الخامسة دخل مدير البوليس ستوني، هزيلًا عابسًا وكأنه مصاب بقرحة. واشترى عشاء مما يؤكل أمام التليفزيون، شرائح لحم بالطريقة الريفية وجزر، وبطاطس مهموكة مطبوخة ومتجمدة في نوع من صواني الألومنيوم.

وقلت: «تبدو وكأنك أُصبت بضربة شمس، أيها المدير».

- «حسنًا، إنني لست كذلك. إنني أشعر بأني في خير حال».

وبدت عليه التعاسة.

- «أتريد عشائين من هذا؟».

- «واحدًا فقط. فزوجتي في زيارة. إن رجل البوليس لا يحصل على عطلات».

- «أمر سيئ جدًّا».

- «وقد يكون جيدًا كذلك. فأنا لا أتردد على البيت كثيرًا، وهؤلاء الغوغاء يزحمون كل مكان».

- «سمعت أنك كنت مسافرًا».

- «من قال لك؟».

- «ويلي».

- «أفضل له أن يتعلم أن يُبقي فمه الواسع مغلقًا».

- «لم يكن يقصد الإيذاء».

- «ليس لديه العقل الكافي ليقصد الإيذاء، وربما ولا العقل الكافي ليبقى خارج السجن».

- «ومن لديه العقل الكافي؟».

قلت السؤال متعمدًا، وحصلت على إجابة أكثر مما توقعت.

- «ماذا تعني بذلك يا إيثان؟».

- «أعني أن لدينا الكثير جدًّا من القوانين حتى إنك لا تستطيع أن تتنفس دون أن تخرج على قانون ما».

- «تلك هي الحقيقة. فهكذا تسير الأمور بحيث إنك لا تعود تعرف الحقيقة».

- «كنت أنوي أن أسألك أيها المدير، في أثناء قيامي بالتنظيف، عثرت على مسدس عتيق، كله قذارة وصدأ. ويقول مارولو إنه ليس له، ومن المؤكد أنه ليس لي.

فماذا أفعل به؟».

- «أعطني إياه، إذا كنت لا ترغب في تقديم طلب لرخصة».

- «سآتي به غدًا من المنزل، فقد وضعته في علبة بها زيت. ما الذي تفعلونه بمثل تلك الأشياء، يا ستوني؟».

- «أوه، نختبرها لنرى ما إذا كانت قد أطلقت وبعدئذ نلقي بها في المحيط». وبدا أنه أخذ يشعر بتحسن، ولكنه كان يومًا طويلًا قائظًا. ولم أستطع أن أدعه يستمتع بشعوره.

- «أتذكر منذ سنتين مضيتا، أنه كانت هناك قضية في مكان بشمال الولاية؟ كان رجال البوليس يبيعون الأسلحة المصادرة».

وابتسم ستوني الابتسامة الحلوة التي لتمساح صغير، وبنفس البراءة المرحة قال:

- «لقد أمضيت أسبوعًا كالجحيم يا إيث. أسبوعًا كالجحيم، فإذا كنت تنوي أن تستفزني، فلا تفعل؛ لأنني أمضيت أسبوعًا كالجحيم».

- «آسف، أيها المدير. هل يوجد ثمة شيء يستطيع مواطن رشيد أن يفعله ليساعدك، كأن يسكر معك؟».

- «بحق المسيح أستطيع. إنني أفضل السكر عن أي شيء أستطيع أن أفكر فيه».

- «ولماذا لا تفعل؟».

- «هل تعلم؟ كلا، فكيف يمكنك أن تعلم؟ لو أني عرفت فحسب لأي غرض ومن أين أتت».

- «عم تتحدث؟».

- «انس الأمر، يا إيث. كلا... لا تنساه. إنك صديق للمستر بيكر. هل يقوم الآن بأي صفقات».

- «إن صداقتي به ليست بذلك القدر الجيد، أيها المدير».

- «وماذا بشأن مارووللو؟ أين يوجد مارووللو؟».

- «ذهب إلى نيويورك. إنه يريد أن يفحص مرض النقرس المصاب به».

- «يا إلهي العظيم! لا أدري. إنني فحسب لا أدري. لو كان يوجد مجرد خيط، لعرفت أين أنقض».

- «أنت تتكلم كلامًا لا معنى له، يا ستوني».

- «كلا، إنني لا أفعل. لقد تكلمت كثيرًا جدًّا حتى الآن».

- «إنني لست غاية في الذكاء، ولكن إذا كنت تريد أن تفرغ همومك».

- «لا أريد. كلا، لا أريد. إنهم لن يجعلوني أفشي أي سر بسيط حتى ولو عرفت من هم. تناسى الأمر، يا إيث. فإنني لست إلا رجلًا قلقًا».

- «إنك لم تستطع أن تفشي لي أي سر، يا ستوني. ماذا كان الأمر، هيئة المحلفين العليا».

- «إذن فأنت تعلم؟».

- «قليلًا».

- «وماذا وراء ذلك؟».

- «التقدم».

اقترب ستوني مني، وقبضت يده الحديدية على الجزء الأعلى من ذراعي بشدة آلمتني، وقال في وحشية: «إيثان، هل تعتقد أنني شرطي جيد؟».

- «بل أحسنهم».

- «إنني أرنو أن أكون كذلك. أريد أن أكون كذلك. إيث – هل تعتقد أنه يحق أن تجعل رجلًا ينم عن أصدقائه لينقذ نفسه؟».

- «كلا، لا أعتقد».

- «ولا أنا. إنني لا أستطيع الإعجاب بحكومة كهذه، وما يخيفني، يا إيثان، هو: إنني لن أكون الشرطي الجيد بعد؛ لأنني لن أعجب بما أفعل».

- «هل اصطادوك للشهادة، أيها المدير؟».

- «إن الأمر كما قلت، فلدينا الكثير جدًّا من القوانين حتى إنك لا تستطيع أن تأخذ نفسًا عميقًا دون أن تخرج على واحد منها. ولكن يا إلهي لقد كان الفتية أصدقائي! إنك لم تكن لتفشي سرهم، يا إيثان».

- «كلا، لم أكن لأفعل. لقد نسيت عشاءك التليفزيوني، أيها المدير».

قال: «أجل، إنني سأذهب إلى بيتي ثم أخلع حذائي، وأرى كيف يفعلها رجال الشرطة الذين يظهرون في التليفزيون. أتدري، أحيانًا يكون منزل خالٍ مكانًا لطيفًا للراحة. إلى اللقاء يا إيث».

كنت أحب ستوني، وأعتقد أنه ضابط جيد. إنني أعجب أين سيقع الشص. كنت أغلق المحل وأجذب إلى الداخل صناديق الفاكهة من المدخل، حين دخل جوي مورفي متلكئًا.

- «أسرع!». قلتها وأنا أغلق الأبواب الأمامية المزدوجة، ثم أجذب الستائر الخضراء. تكلم في همس.

- «ماذا جرى لك؟».

- «قد يرغب شخص ما في شراء شيء».

- «أجل! أعرف ما تعني. يا إلهي! إنني أكره العطلات الطويلة. إنها تظهر أسوأ ما في كل شخص. إنهم يبدأونها بحماقة، ثم يعودون منهوكين مفلسين».

- «أترغب في شراب بارد ريثما أجذب الأغطية على بضاعتي العزيزة؟».

- «لا يهم. ألديك شيء من الجعة الباردة؟».

- «لكي تأخذها معك فحسب؟».

- «سأتناولها في الخارج، عليك أن تفتح العلبة فحسب».

وثقبت ثقبين مثلثي الشكل في العلبة، وجعل قاعها إلى أعلاه، وفتح حنجرته، ثم أفرغها داخل جوفه، وقال: «آه». ثم وضع العلبة فوق الثلاجة.

- «إننا سنذهب في رحلة».

- «أنت أيها الشيطان المسكين. إلى أين؟».

- «لا أعلم، فلم نتعارك بعد على هذا».

- «هناك شيء ما يحدث. هل تعرف ما هو؟».

- «أعطني بصيص نور».

- «لا أستطيع. إنني أحس به فحسب. إن الشعر الذي في قفاي به نوع من الحكة، وتلك علامة مؤكدة. لقد خرج كل واحد قليلًا عن نظام حياته».

- «ربما تتخيل هذا فحسب».

- «ربما. ولكن المستر بيكر لا يقوم عادة بإجازات. ومع ذلك كان في عجلة لعينة لكي يغادر البلدة».

وضحكت: «هل راجعت الدفاتر؟».

- «أتعرف؟ لقد فعلت».

- «إنك تمزح».

- «عرفت ذات مرة مدير مكتب بريد، في بلدة صغيرة، وكان يعمل لديه فتى أبله، يدعى رالف، بشعر أشقر، ونظارة، وذقن صغيرة دقيقة، وزوائد أنفية كبيرة في مثل حجم الغدد الدرقية. وقبض على رالف بتهمة سرقة طوابع بريد –كميات كبيرة من الطوابع- ربما قيمته ألف وثمانمائة دولار. لم يكن يستطيع أن يفعل شيئًا كهذا، فقد كان أبلهًا».

- «أتعني أنه لم يأخذ الطوابع؟».

- «إذا لم يكن أخذها فالأمر سواء وكأنه أخذها. إنني قلق، ولن أسمح مطلقًا أن يقبض عليَّ، ما دمت أستطيع تلافي ذلك».

- «ألهذا السبب لم تتزوج مطلقًا؟».

- «والله، إنني إذ أفكر في الأمر، أرى أن ذلك أحد الأسباب».

طبقت مئزري ووضعته في الدرج بأسفل آلة عد النقود: «إن الأمر يستغرق الكثير جدًّا من الوقت والجهد لكي تكون شكاكًا يا جوي. أنا لم أستطع تحمل ذلك الوقت الطويل».

- «لابد أن تكون كذلك ما دمت تعمل في مصرف. إنك تخسر مرة واحدة فحسب. وكل ما يحتاجه الأمر هو همسة».

- «لا تقل لي إنك شكاك».

- «إنها غريزة. إذا خرج شيء ما قليلًا عن عادته، فإن التنبيه ينطلق».

- «يا لها من طريقة حياة! أنت لا تعني ذلك حقًّا».

- «أظنني لا أعنيه. ولكني ظننت فحسب أنك لو سمعت شيئًا ما، فإنك ستخبرني؛ هذا إذ كان الأمر يعنيني بأي حال من الأحوال».

- «أعتقد أنني لا أخبر أي إنسان بأي شيء أعرفه. وربما كان ذلك هو السبب في أن أحدًا لا يخبرني بشيء. هل أنت ذاهب إلى البيت؟».

- «كلا، أعتقد أنني سأذهب لتناول الطعام عبر الشارع».

وأطفأت أضواء الواجهة: «أيضايقك الخروج من باب الحارة؟ اسمع، سأعد لك الشطائر في الصباح، قبل الزحام. واحدة لحم خنزير، وواحدة جبن في خبز الشوفان، مع الخس والمايونيز، موافق؟ مع زجاجة من اللبن».

قال: «كان ينبغي أن تعمل في مصرف».

أعتقد أنه لم يكن أكثر وحدة من أي شخص آخر لمجرد أنه كان يعيش وحيدًا. تركني عند باب الفورماستر، وللحظة تمنيت لو استطعت الذهاب معه. وفكرت في أن البيت قد يكون في حال من الفوضى.

وقد كان كذلك. كانت ماري قد خططت للرحلة. فهناك بالقرب من رأس مونتوك توجد سلسلة من مراعي البقر، بها كل الترتيبات الخيالية التي تراها فيما يسمونه بمغامرات مراعي الغرب. والنكتة في أنها أقدم مراعي للأبقار قبل اكتشاف تكساس. وأول مرسوم بشأنها صدر كان من الملك تشارلز الثاني. وفي الأصل كانت القطعان التي تمد نيويورك باللحوم ترعى هناك، كما كان الرعاة يختارون بطريق الاقتراع، مثل المحلفين، لمدة خدمة محددة. ومن الطبيعي أنها الآن جميعها مهمازات فضية وأدوات رعاة البقر، ولكن البقر الأحمر لا يزال يرعى في المستنقعات. وقد فكرت ماري أنه سيكون لطيفًا أن نقضي ليلة الأحد في واحد من بيوت الضيافة، التي هناك.

كانت إيلين ترغب في الذهاب إلى نيويورك، والإقامة في فندق، ثم قضاء يومين في ميدان تايمز. أما آلان فلم يكن راغبًا في الذهاب إلى أي مكان على الإطلاق، وتلك إحدى وسائله ليسترعى الاهتمام ويثبت وجوده.

كان المنزل يغلي بالانفعال، إيلين بدموعها المعتصرة المتساقطة في بطء، وماري منهكة وقد احمر وجهها من الإحباط، وآلان يجلس مكتئبًا وقد انسحب بعيدًا ومذياعه الصغير يصرخ في أذنه، بأغنية صارخة معولة عن الحب والفقدان، في صوت أدنى إلى الهستيريا: «لقد وعدت أن تكون مخلصًا. وبعدئذ أخذت قلبي المحب الوحيد، وقذفته على الأرض مباشرة».

وقالت ماري: «إنني على وشك التسليم».

- «إنهما يحاولان مساعدتك فحسب».

- «يبدو وكأنهما قد خرجا على عادتهما لكي يصيرا صعبي المراس».

وقالت إيلين وهي ترشف: «لم يحدث أن أتيحت لي الفرصة قط لعمل أي شيء».

وفي حجرة الجلوس رفع آلان صوت الراديو: «... قلبي المحب الوحيد، وقذفته على الأرض مباشرة».

- «ألا نستطيع أن نحبسهم في البدروم ثم نذهب وحدنا، يا جزرتي الصغيرة العزيزة».

- «أنت تعلم، أنني أتمنى في هذه اللحظة لو استطعنا أن نفعل». كان عليها أن ترفع صوتها لكي يصير مسموعًا فوق الزئير المتدفق من أغنية قلبي المحب الوحيد.

ودون تحذير، تملكتني غضبة. واستدرت وخطوت متجهًا ناحية غرفة الجلوس لأمزق ابني إلى مزق ثم ألقي جثته الوحيدة المحبة فوق الأرض وأطأها بقدمي.

وبينما كنت أتهادى خلال الباب توقفت الموسيقى: «نقطع هذا البرنامج لنقدم لكم نشرة خاصة. استدعى أصيل اليوم الموظفون الرسميون في نيوبايتون ومقاطعة ويسكس للمثول أمام هيئة عليا للمحلفين؛ لكي يردوا على التهم التي تتراوح بين تحديد ثمن تذاكر المواصلات وأخذ رشاوى وعمولات غير مشروعة على عقود البلدة والمقاطعة..».

لقد وقعت الواقعة، العمدة، المجلس، القضاة، وأصحاب المصانع. كنت أصغي دون أن أسمع، وأنا حزين مهموم. ربما كانوا يفعلون ما اتهموا به، ولكنهم ظلوا يفعلونه مدة طويلة جدًّا لدرجة أنهم لم يعودوا يظنونه خطأ. وحتى إذا لو كانوا أبرياء، فهم لا يستطيعون أن يطهروا سمعتهم قبل الانتخابات المحلية، بل حتى إذا طهرت سمعة رجل فإن التهمة تظل في الذاكرة. كانوا محاصرين. لابد أنهم يعرفون هذا. وأنصت انتظار لذكر اسم ستوني، ولكنه لم يرد، وهكذا فإنني أظنه باعهم من أجل سلامته. فلا عجب إذن في أن يشعر بالكآبة والوحدة.

كانت ماري تنصت عند الباب، وقالت: «حسنًا! لم يتوافر لدينا الكثير من الإثارة منذ وقت طويل. هل تظن الأمر صحيحًا، يا إيثان؟».

- «إني لأعجب ماذا يظن مستر بيكر».

- «لقد ذهب في إجازة. أجل، إني لأعجب ماذا يكون شعوره».

تملك آلان الجموح موسيقاه.

أجلت الأنباء والعشاء والصحاف مشاكل رحلتنا، حتى صار الوقت متأخرًا جدًّا لاتخاذ قرار أو لمزيد من الدموع والشجار.

في الفراش انتابت الرعدة جسدي كله. كانت وحشية الهجوم الباردة المفتقرة إلى العاطفة، تبعث فيَّ رعدة باردة خلال ليل الصيف الدافئ.

وقالت ماري: «إن جسدك كله مصاب بالرعدة يا عزيزي. أتعتقد أنك مصاب بمرض؟».

- «كلا، يا خيالي، أحسبني كنت أشعر فحسب بما يتحتم أن يشعر به أولئك الرجال. لابد أن شعورهم مرعب».

- «كف عن هذا يا إيثان، فإنك لا تستطيع أن تحمل مشاكل الناس الآخرين على عاتقيك».

- «بل إنني أستطيع؛ لأن هذا ما أفعله».

- «عجبي إذا ما كنت ستصير مطلقًا رجل أعمال. إنك في غاية الحساسية يا إيثان وتلك ليست جريمتك».

- «كنت أفكر في أنها قد تكون جريمتي، وجريمة كل فرد».

- «لا أفهم».

- «لست أكثر منك فهمًا، يا حبيبتي».

- «لو كان يوجد ثمة شخص فحسب ليبقى معهما».

- «أعيدي، أرجوك، أيتها الحبيبة!».

- «كم أحب أن أقضي عطلة معك أنت فحسب، فلم يحدث ذلك منذ دهر».

- «إننا فقراء في القريبات المسنات الخاليات من المسؤولية. فكري في الأمر. لو كان باستطاعتنا فحسب، أن نحفظهم في علب، أو نخللهم لفترة قصيرة. ماري، يا سيدتي، فكري في الأمر. إنني أتوق لكي أكون بمفردي معك في مكان غريب. وسنستطيع أن نعبر الرُبى، ونستحم عاريين عند حلول الليل، وسأشعث شعرك على فراش من نبات السرخس».

- «يا عزيزي، أعرف، يا عزيزي. أعرف أن الأمر كان عسيرًا عليك لا تظنني لا أعرف».

- «حسنًا، ضميني إليك، ودعينا نفكر في وسيلة ما».

- «إنك لا زلت ترتعد. أتشعر ببرد؟».

- «أشعر ببرد وقيظ، بامتلاء وفراغ، وبأني متعب».

- «سأحاول التفكير في شيء ما. سأحاول حقًّا. إنني أحبهما طبعًا، ولكن».

- «أعلم، وسأستطيع لبس البابيون».

- «هل سيضعونهم في السجن؟».

- «ليت بإمكاننا أن.....».

- «أولئك الرجال؟».

- «كلا. لن يكون ذلك ضروريًّا. إنهم لا يستطيعون مجرد الظهور قبل يوم الثلاثاء التالي، والانتخابات يوم الخميس، وذلك هو سبب ما حدث».

- «إيثان، ذلك تهكم، وأنت لست ممن يتهكمون بهذا الشكل. وسيكون علينا أن نرحل من هنا إذا كنت ستصير متهكمًا لأنه – تلك لم تكن نكتة، بالطريقة التي قلتها بها. فإنني أعرف نكاتك. إنك كنت تعني ما تقول».

وصدمني خوف ما. كان في أعماقي قد أخذ يبين. ولم أستطع ترك نفسي تكشف عما في أعماقها.

فقلت: «أوه قولي لي، يا مس موسى، هل تتزوجيني؟».

وقالت ماري: «أوه! أوه!».

كان خوفي المفاجئ من أنني ربما كنت أبين عما بداخلي عظيمًا جدًّا. كنت قد أقنعت نفسي أن العينين ليستا مرآة الروح. إن بعض ما رأيت من أشد الحيل الأنثوية الصغيرة فتكًا، كانت لها وجوه وعيون ملائكة. وهناك سلالة تستطيع أن تقرأ خلال البشرة وخلال العظم لتصل مباشرة إلى المركز، ولكنهم ندرة. أما غالبية الناس، فلا ينصب اهتمامهم إلا على أنفسهم. وقد قصت عليَّ ذات مرة فتاة كندية من أصل أسكتلندي قصة كانت قد آلمتها كما آلمني قصها. قالت إنها في أثناء مرحلة بلوغها وعندما أحست بأن أنظار الجميع مركزة عليها في استهجان، بحيث كانت تنتقل من حمرة الخجل إلى الدموع ثم إلى حمرة الخجل ثانية، قال لها جدها الريفي في حدة بعد أن لاحظ ألمها: «إنك لن تنزعجي كل هذا الانزعاج لما يعتقده الناس فيك إذا عرفت أنهم نادرًا ما يفعلون». وقد شفاها ذلك، وطمأنني قص الحكاية في سري؛ لأنها قصة حقيقية. ولكن ماري -التي تعيش عادة في منزل من أزهار أنبتتها هي بنفسها- قد سمعت مني نغمة ما أو أحست بريح لاذعة.

كان هذا خطرًا، حتى ينتهي الغد.

لو أن خطتي زحفت إلى ذهني مكتملة النمو ومهلكة، لكنت قد نبذتها على أنها هراء. والناس لا يفعلون مثل تلك الأشياء، ولكنهم يلعبون ألعابًا خفية. وقد بدأت لعبتي بقواعد جوي عن السطو على مصرف، ولعبتها كنقيض للسأم الذي تبعثه وظيفتي، وكان كل شيء تلقاه في طريقها ينتهي إليها –

آلان وقناع ميكي ماوس، المرحاض الذي ينز، المسدس الذي علاه الصدأ، حلول موعد العطلة، الورقة التي يحشوها جوي في قفل باب الحارة. ومثلما يحدث في لعبة فقد حددت وقت العملية، وصدقت عليها، واختبرتها. ولكن أليس رجال العصابات -الذين يتبادلون إطلاق النار مع الشرطة- هم الصبية الصغار الذين تمرنوا على سرعة سحب مسدسات الصوت حتى أتقنوا العملية جيدًا، ولذا صار عليهم أن يستغلوا مهارتهم؟

لا أدري متى توقفت لعبتي عن أن تكون لعبة. ربما كان ذلك حين عرفت أنني قد أشتري المحل وأنني سأحتاج إلى نقود لإدارته. ثم عامل آخر، وهو أنه يصعب على المرء أن يدع تخطيطًا محكمًا دون أن يختبره. أما بالنسبة للخيانة، والجريمة، فلم يكن الأمر جريمة ضد رجال، بل كانت فحسب ضد المال ولن يؤذى أحد، فالنقود مؤمن عليها. أما الجرائم الحقيقية فكانت ضد رجال، ضد داني وضد مارولو. وإذا كنت قد استطعت أن أفعل ما فعلت، فليست السرقة إذن شيئًا ذا بال، وكل ما يتعلق بها وقتي، ولن يحتاج أي شيء فيها إلى التكرار. والحقيقة، أنني قبل أن أعرف أن الأمر ليس لعبة، كانت إجراءاتي وعدتي وتوقيتي أقرب ما يمكن إلى الكمال. إن الصبي ذا المسدس الصوتي قد وجد في يده مسدسًا من عيار 45مم.

كان من المحتمل طبعًا أن يقع حادث ما، ولكن ذلك الاحتمال يوجد في أثناء عبور شارع أو السير تحت شجرة. لا أعتقد أن أي خوف تملكني؛ فقد تمرست على التخلص منه، ولكن كان بي شيء من انبهار النفس، يشبه رهبة المسرح التي تعتري ممثلًا يقف بين الكواليس في ليلة الافتتاح. وكان الأمر يشبه مسرحية في أن أي عدم توفيق ملموس قد فُحص وأُبعد.

ومن خلال قلقي بأنني لن أنام، نمت، نومًا عميقًا وفي حدود معرفتي لا تشوبه أحلام، بل نمت أكثر من اللازم. كنت قد خططت أن أستغل الظلمة التي تسبق النهار لاستعمال دواء التأمل المهدئ. وبدلًا من ذلك، حين فتحت عيني، كان ذيل البقرة التي في البحيرة واضحًا منذ ما لا يقل عن نصف ساعة. واستيقظت في هزة تشبه هبة الهواء المندفع من متفجر شديد. أحيانًا يمزق مثل هذا الاستيقاظ العضلات. أما استيقاظي فقد رج السرير لدرجة أن ماري استيقظت، وهي تقول: «ما الخبر؟».

- «لقد نمت أكثر مما يجب».

- «هراء، إن الوقت مبكر».

- «كلا، يا مفعولي المطلق. إن هذا يوم ممسوخ بالنسبة لي. فسيكون الناس اليوم سعداء بمواد البقالة. لا تنهضي أنت».

- «ستحتاج إلى إفطار جيد».

- «أتعرفين ماذا سأفعل؟ سآخذ علبة قهوة في الفورماستر ثم أنقض على رفوف مارولو كالذئب».

- «هل ستفعل ذلك؟».

- «استريحي، يا فأرة الفيران الصغيرة، وحاولي أن تجدي لنا وسيلة نهرب بها من أطفالنا الأعزاء،

فنحن محتاجان إلى ذلك. إنني أعني هذا».

- «أعرف أننا نحتاج إليه. وسأحاول التفكير».

كنت قد ارتديت ملابسي وانصرفت، قبل أن تتمكن من اقتراح أي من الأشياء الموسمية التي تقترحها من أجل حمايتي وراحتي.

كان جوي في المقهى، وربت على المقعد المجاور له.

- «لا أستطيع، يا مورفي فقد تأخرت. آني.. هل يمكنك إعطائي «كورات» من القهوة في علبة من الورق المقوى؟».

- «ستكون في علبتين، يا إيثان».

- «طيب، بل حتى هذا أفضل».

وملأت وعائي الورق الصغيرين وغطتهما ثم وضعتهما في كيس.

وفرغ جوي من قهوته، وسار معي عبر الحارة.

- «سيكون عليك أن تتلو صلاة القداس هذا الصباح دون الأسقف».

- «أظن ذلك. قل لي، ما حال تلك الأنباء؟».

- «لا أستطيع هضمها».

- «أتذكر أنني قلت إني أشم رائحة شيء ما».

- «لقد فكرت في ذلك حينما سمعت بالأمر. إن لك أنفًا مدهشًا».

- «ذلك جزء من مهنة التجارة. باستطاعة بيكر أن يعود الآن، وإني لأعجب إذا ما كان سيفعل».

- «يعود؟».

- «ألم تشم أي رائحة من هناك؟».

وتطلعت إليه في عجز: «إنني أفتقد شيئًا ما، ولا أدري حتى ما هو هذا الشيء».

- «يا إلهي!».

- «أتعني أنه كان ينبغي أن أرى شيئًا ما».

- «ذلك ما أعنيه. إن قانون الظفر والناب ولا ينقض».

- «أوه، يا إلهي! لابد أن هناك عالمًا بأكمله أجهله. كنت أحاول أن أتذكر إذا ما كنت تحب كليهما

بالخس والمايونيز».

وقلت: «يجب أن أذهب. عندنا تخفيض خاص في الشاي أرسل إلينا غطاء صندوق، وستحصل على هدية علبة صغيرة من الشاي! ألك معرفة بأي سيدة؟».

- «بالتأكيد أعرف، وتلك هي آخر ما يريدونه من الجوائز. لا تتعب نفسك بإحضار الشطيرتين، فسآتي لآخذهما». ودخل من بابه ولم تكن هناك أي تكة من القفل.

كنت آمل ألا يكتشف جوي أبدًا أنه كان أفضل مدرس على الإطلاق. فهو لم يقدم لي المعلومات فحسب، بل وضح العملية لي، ودون أن يدري، أعد لي طريقًا.

إن كل من يعرفون هذه الأشياء، أي الخبراء، أجمعوا على أن النقود فحسب هي التي تجلب النقود. وأفضل السبل هي دائمًا أبسطها. لقد كانت بساطة الأمر المذهلة هي أعظم قواه. ولكني أومن فعلًا بأن الأمر لم يكن يعدو حلمًا مفصلًا، حتى سار مارواللو –دون أن تكون غلطته- خلال ظلمته فوق صخرة شاهقة. ولقد بدا لي ذات مرة أنه من المؤكد تقريبًا أنني كنت أستطيع الحصول على المحل لنفسي، وحينذاك فحسب سقطت أحلامي التي طارت عاليًا إلى الأرض. وربما كان هناك سؤال جيد ولكنه غير سديد: «لماذا أحتاج المال، طالما أني أستطيع الحصول على المحل؟» وذلك ما أدركه مستر بيكر، وكذلك جوي ثم مارواللو أيضًا. إن المحل دون رأس مال جار أسوأ من لا محل على الإطلاق. فعلى جانبي الطريق الآيل للإفلاس تصطف قبور المخاطرات غير المأمونة. وقد صار لي الآن قبر على هذا الطريق. إن أكثر الجنود غباء لن يرمي قوته كلها في فتح ثغرة داخل خطوط الأعداء، دون أن تكون معه مدافع مورتار أو احتياطي أو بديلين له، ولكن عديدًا من الأعمال الوليدة يفعل ذلك. كانت نقود ماري تنتفخ في جيبي الخلفي على شكل أوراق مالية معلمة إلا أن مارواللو سيأخذ منها أقصى ما يستطيع الحصول عليه. وبعدئذ يحل أول الشهر. ومتاجر الجملة لا تفرط يدها في بيع الأجل بالنسبة للمؤسسات التي لم تبرهن على حسن معاملتها معها بعد. ومن ثم فسأظل في حاجة إلى نقود، وتلك النقود تنتظرني خلف الأبواب الفولاذية ذات التكات. وحين اختبرت عملية الحصول عليها، التي رسمت وكأنها أحلام اليقظة، وقفت صامدة تسترعي الانتباه. ولم يزعجني كون السطو عملية غير قانونية إلا قليلًا جدًّا. وبالنسبة لمارواللو لم تكن هناك أي مشكلة. فلو لم يكن هو الضحية، فربما كان قد رسم هذه الخطة هو نفسه. أما الذي أقلقني فهو داني، رغم أنني كنت أستطيع أن أفترض افتراضًا صادقًا أنه قد انتهى على أي حال. وكانت محاولة المستر بيكر الفاشلة في أن يفعل نفس الشيء مع داني، قد أعطتني مبررًا أكثر مما يحتاج إليه كثير من الرجال. ولكن داني ظل نارًا يحرق أحشائي، وكان عليَّ أن أتقبل ذلك مثلما يتقبل المرء جرحًا في معركة ناجحة. كان عليَّ أن أحيا بذلك الجرح، فربما التأم بمرور الزمن، أو ربما أحاطه سياج من النسيان مثلما يحدث أن تحيط الغضاريف بشظية من قذيفة.

كان الأمر العاجل هو النقود، وقد أعدت تلك الحركة وتم توقيتها بمثل العناية التي تعد بها دائرة كهربية.

كانت قوانين مورفي صامدة جيدة وكنت أتذكرها، بل إنني حتى أضفت إليها واحدًا. القانون الأول:

ألا يكون لك سابقة في سجل السوابق. حسنًا، لم يكن لي أي سابقة. رقم أثنين: لا شركاء أو أمناء على السر. من المؤكد أنه ليس لي. رقم ثلاثة: لا سيدات. حسنًا، كانت مارجي يانج هنت هي الشخص الوحيد الذي أعرفه ويمكن أن يسمى سيدة، ولم أكن أنوي أن أحتسي الشمبانيا من كأسها. رقم أربعة: لا تجعل مظاهر الثراء تبدو عليك. حسنًا، لن أفعل. لأنني سأستعمل المال تدريجيًّا في دفع فواتير تجار الجملة. وكان عندي مكان لإخفائه، ففي صندوق قبعة فرسان أورشليم، كانت توجد دعامة من الورق المقوى المغطى بالقطيفة، بحجم وشكل رأسي. وقد رفعت هذه الدعامة فعلًا، وغطيت أطرافها بمادة لاصقة حتى يمكن أن تعاد إلى مكانها في لحظة.

التعرف– قناع ميكي ماوس. ولن يرى أي شخص شيئًا سواه. ومعطف قطني قديم واق من المطر من محل مارواللو –وجميع المعاطف القطنية الواقية من المطر ذات اللون الأحمر القاتم تبدو متشابهة- وزوج من تلك القفازات المصنوعة من ورق السولفان الممزق مما يأتي مع اللفات. كان القناع قد تم قصه منذ عدة أيام، وتم إلقاء الصندوق والمسحوق في المرحاض ودفعهما الماء فيه، مثلما سيحدث بالنسبة للقناع والقفاز. وكان المسدس الفضي العتيق من ماركة إيفور جونسون قد غُطي بسناج مصباح، وفي المرحاض كانت توجد صفيحة بها زيت سيارات، سألقيه فيها تمهيدًا لتسليمه للمدير ستوني في أول فرصة.

ولقد أضفت إلى تلك القوانين قانوني الخاص النهائي: لا تكن طماعًا. لا تأخذ كثيرًا جدًّا وتجنب أوراق العملة ذات الفئات الكبيرة. فإذا عثرت في مكان ما على حوالي ستة أو عشرة آلاف دولار في أوراق من فئة العشرة والعشرين دولارًا، فسيكون ذلك كافيًا، وسيسهل التعامل بها وإخفاؤها. أما الحقيبة التي سأحمل فيها النقود، فهي صندوق كعكة من الورق المقوى موضوع فوق الثلاجة، وعندما يراه أحد في المرة التالية ستكون بداخله كعكة. ولقد حاولت تغيير صوتي بتلك القصبة المرعبة التي تجعل الصوت يشبه الكلام من البطن، ولكني نحيتها لأستخدم بدلًا منها الصمت والإشارة. كان كل شيء في مكانه وجاهزًا.

كنت في الغالب آسفًا لأن المستر بيكر لم يكن هناك. فسيكون هناك مورفي، وهاري روبيت، وإديث آلدن فحسب. كان الأمر مرتبًا لأدق جزء من الثانية. في التاسعة إلا خمس دقائق سأضع المكنسة في المدخل. وقد تمرنت على ذلك مرات ومرات. وسأطوي المئزر إلى أعلى، وأضع صنجة الميزان على سلسلة المرحاض لأجعله يستمر في التدفق، وسيسمع أي شخص يدخل صوت الماء، ثم يتوصل بنفسه إلى النتيجة. المعطف، القناع، صندوق الكعكة، المسدس والقفازات. ثم أعبر الحارة مع دقات الساعة التاسعة وأدفع الباب الخلفي فأفتحه، ثم أرتدي القناع، وأدخل عقب أن يئز القفل الميقاتي مباشرة ويجذب جوي الباب ليفتحه. ثم أشير بالمسدس إلى الثلاثة كي ينبطحوا أرضًا. وهم لن يسببوا أي مضايقة، فالنقود مؤمن عليها –كما قال جوي- أما هو فلا. وبعدئذ ألتقط النقود، وأضعها في صندوق الكعكة، وأعبر الحارة وأضع القفازات والقناع في المرحاض وأجذب عليها الماء، وأضع المسدس في صفيحة الزيت، وأخلع المعطف. ثم أجذب مئزري إلى أسفل، واضع النقود في صندوق القبعة، ثم ألتقط المكنسة، وأستمر في كنس الرصيف، بحيث أكون متواجدًا وظاهرًا حين يدق جرس الإنذار. وسيستغرق الأمر كله دقيقة واحدة وأربعون ثانية، فقد تم توقيته، ومراجعته، ثم أعيدت مراجعته. ورغم العناية التي وضعت بها الخطة والتوقيت، فما زلت أشعر بقليل من تلاحق الأنفاس

وأنا أكنس المحل قبل أن أفتح البابين الأماميين. وارتديت مئزر الأمس لكيلا تبدو فيه حدة التجعيدات.

ولكن هل تصدق، لقد توقف سير الزمن، وكأن يوشع بطوقه المجنح قد أصابه سبر الشمس في مدارها. كأن عقرب الدقائق في ساعة أبي الضخمة قد ثبّت عقبيه وقاوم الصباح.

لم أكن قد خاطبت رعيتي بصوت عال منذ وقت طويل، ولكني خاطبتها هذا الصباح، ربما بسبب حالتي العصبية.

قلت: «أصدقائي، إن ما ستشاهدونه سر. وأعلم أنني أستطيع الاعتماد عليكم في البقاء صامتين. وإذا كان يمتلك أيًّا منكم أي شعور تجاه المسألة الأخلاقية التي اشتركتم فيها، فإنني أتحداكم وسأطلب منكم مغادرة المكان». وتوقفت برهة: «اعتراضات؟ حسنًا جدًّا، إذا سمعت إطلاقًا محارة أو كرنبة تناقش هذا الموضوع مع الغرباء، فسيكون الحكم عليها هو الموت بشوكة العشاء».

- «وإنني لأرغب في شكركم جميعًا. لقد كنا معًا، عمالًا متواضعين في الكرمة، وكنت خادمًا مثلكم، ولكن الآن هناك تحول سيحدث. فسأكون السيد هنا من الآن فصاعدًا، ولكني أعد بأنني سأكون سيدًا طيبًا شفوقًا متفاهمًا. إن الوقت يقترب، يا أصدقائي، والستار يرتفع وداعًا»، وعندما تحركت ناحية الأبواب الأمامية ومعي المكنسة، سمعت صوتي وهو يصيح: «داني، داني؟ اخرج من تفكيري». وهزتني رعدة هائلة لدرجة أنه كان عليَّ أن أستند إلى المكنسة برهة قبل أن أفتح الأبواب.

كان عقرب الساعات الأسود القصير الضخم في ساعة أبي يشير إلى التاسعة أما عقرب دقائقها الطويل الرفيع فكان يشير إلى نقصان ست دقائق عن التاسعة كان بوسعي أن أحس بدقات قلبها فوق راحتي وأنا أتطلع إليها.

# الفصل الخامس عشر

كان يومًا مختلفًا عن الأيام الأخرى مثلما تختلف الكلاب عن القطط، ومثلما يختلف كلاهما عن زهور الكريزانتيم أو أمواج المد أو الحمى القرمزية. والقاعدة في ولايات عديدة، وبالتأكيد في ولايتنا، أنه ينبغي على الدنيا أن تمطر في عطلات نهاية الأسبوع الطويلة، وإلا فكيف يمكن للجماهير الغفيرة أن تغرق بماء المطر وتصيبها التعاسة؟ كانت شمس يوليو تحارب جمعًا كبيرًا من السحب الصغيرة المتناثرة كالريش وتدفعها هاربة، ولكن منابع الرعود كانت تطل من فوق الحافة الغربية، إنها حاملات المطر قوية الساعد الآتية من وادي نهر الهدسن مسلحة بالبرق، وقد بدأت فعلًا تغمغم لنفسها. ولو تم تنفيذ القاعدة كما يجب، لاحتفظت بأمطارها حتى يصل أكبر عدد من المخلوقات البشرية السعيدة إلى الطرق الرئيسية والشواطئ، وهم يرتدون ملابس الصيف ويتمتعون بخضرته.

إن معظم المحلات الأخرى لا تفتح قبل التاسعة والنصف. وكانت فكرة ماروللو هي اختطاف حفنة من العمليات التجارية، بجعلي أفتح المحل مبكرًا نصف ساعة عن المحلات الأخرى. وقد فكرت في أن أغير تلك العادة. فقد تسببت في خلق شعور عدائي بيننا وبين المحلات الأخرى. أكثر مما يبرره ربحنا. ولكن ماروللو لم يكن يأبه كذلك لو حدث مطلقًا أن عرف به. كان أجنبيًّا، مهاجرًا قذرًا، مجرمًا، وطاغية، معتصرًا لدم الفقراء، وغدًا. وحيث إنني دمرته، فقد كان من الطبيعي أن تظهر أخطاؤه وجرائمه أمامي في غباء.

أحسست بيد طويلة عجوز تدور بحافة ساعة والدي، ووجدتني أكنس كنسًا رديئًا وعضلاتي متوترة، منتظرًا لحظة الحركة السريعة الناعمة للقيام بمهمتي. كنت أتنفس خلال فمي، وكانت معدتي تندفع ناحية رئتي مثلما أذكر أنها فعلت بي وأنا في انتظار هجوم.

كان عدد الناس بالخارج قليلًا، بالنسبة لعطلة نهاية الأسبوع التي توافق السبت الرابع من يوليو. فقد مر رجل غريب -عجوز- وهو يحمل قصبة لصيد السمك وصندوق أدوات من البلاستيك الأخضر. كان في طريقه إلى رصيف ميناء البلدة ليجلس طيلة النهار مدليًا في الماء شريحة هزيلة من سمك الصبير. وهو حتى لم يرفع رأسه، ولكني أرغمته على الانتباه.

- «أتعشم أن تصيد سمكات كبيرة».

قال: «إنني لا أصطاد شيئًا أبدًا».

- «أحيانًا تأتي بعض السمكات الصغيرة».

- «أنا لا أصدق هذا».

إنه متفائل متحمس، ولكني على الأقل أثرت شيئًا من اهتمامه.

ثم سارت جيني سينجل متدحرجة على الرصيف. كانت تتحرك كما لو كان لها عجل بدلًا من

القدمين، وربما كانت أقل من يعتمد عليهم من الشهود في نيوبايتون، فقد فتحت ذات مرة مفتاح فرن الغاز ونسيت إشعاله. وكانت ستطيح بنفسها خلال السقف لو استطاعت أن تتذكر أين وضعت الثقاب.

- «صباح الخير، يا مس جيني».

- «طاب صباحك، يا داني».

- «إنني إيثان».

- «أنه أنت طبعًا. إنني ذاهبة لأخبز فطيرة».

وحاولت أن أحفر ندبًا في ذاكرتها: «فطيرة من أي نوع؟».

- «حسنًا، إنها من نوع فاني فارمر ولكن العلامة التجارية سقطت من العلبة، ولهذا فإنني في الواقع لا أعرف نوعها».

أي شاهدة ستكون تلك، لو أنني احتجت إلى شاهد. ثم لماذا قالت «داني؟».

وقاومت قطعة من ورق القصدير على الرصيف المكنسة، وكان عليَّ أن أنحني وأرفعها بظُفْرِي. إن مساعدي المصرف أولئك الذين يشبهون الفيران، يتصرفون كالفيران فعلًا ساعة أن يغيب القط بيكر، وكانوا هم من أريد. كانت الساعة أقل من التاسعة إلا دقيقة، حين اندفعوا من المقهى وتسابقوا عبر الشارع.

وصحت بهم: «اجروا، اجروا، اجروا!». فابتسموا في خجل، بينما كانوا يعالجون فتح أبواب المصرف.

والآن حل الوقت. ينبغي عليَّ ألا أفكر في الأمر بأكمله، مجرد خطوة واحدة في وقتها، وكل خطوة في مكانها، مثلما تدربت. وكورت معدتي القلقة إلى أسفل حيث مكانها. فلأسند المكنسة أولًا إلى قائمة الباب، بحيث يمكن رؤيتها وتحركت بسرعة بطيئة مقصودة.

وبركن عيني رأيت سيارة آتية في الشارع وتوقفت لأدعها تمر: «مستر هولي!».

واستدرت بنفس الطريقة التي يفعلها رجال العصابات المحاصرون في السينما. كانت سيارة شفروليه خضراء مغبرة تنزلق إلى جوار الرصيف و.. يا إلهي العظيم!، كان رجل الحكومة ذو السروال «الايفي ليج» يخرج منها. وارتجفت الأرض الحجرية الصلدة أمامي وكأنها انعكاس على صفحة ماء. ورأيته وأنا مشلول، يعبر الرصيف. وبدا كأن الأمر استغرق دهورًا، ولكن الأمر كان بمثل تلك البساطة. لقد استحال ترتيبي المكتمل الذي خططت له منذ أمد بعيد إلى تراب أمام عيني، مثلما تتفتت قطعة فنية حين يصفعها الهواء بعد طول دفن. وفكرت في الاندفاع إلى المرحاض والاستمرار في تنفيذ الخطة. ولكنها لن تفلح. لم يكن باستطاعتي أن أنقض قانون مورفي. لابد أن الفكر والضوء يسافران تقريبًا بنفس السرعة. إنها لصدمة أن يلقى المرء جانبًا خطة درست طويلًا، ومُثِّلت مرات عدة حتى صار إنجازها لا يتعدى مجرد تكرارها مرة واحدة، ولكني ألقيت بها جانبًا، وأنهيتها. لم

يكن لي خيار. وبسرعة البرق قالت لي فكرة: «حمدًا لله أنه لم يأت متأخرًا دقيقة واحدة، وإلا كانت تلك هي المصادفة المهلكة التي يكتبون عنها في القصص البوليسية».

تم هذا كله حين تحرك الشاب في تصلب أربع خطوات عبر الرصيف. ولابد أن شيئًا ما قد بدا له مني.

- «ماذا بك، يا مستر هولي؟ أنت تبدو مريضًا».

قلت: «الإسهال».

- «ذلك أمر لا ينتظر أي رجل. اجر إلى المرحاض، وسأنتظرك».

واندفعت إلى المرحاض، وأغلقت الباب، وجذبت السلسلة لأجعل الماء يندفع من السيفون. لم أكن قد أضأت النور وجلست هناك في الظلام. وجعلني ارتعاد معدتي أُصاب بإسهال حقيقي. وكان عليَّ فعلًا أن أذهب خلال لحظة، وقد فعلت، وغاضت دقات نبضي في بطء. وأضفت قانونًا إضافيًّا إلى مجموعة قوانين مورفي.

في حالة وقوع حادثة، غير خططك في الحال.

ولقد حدث معي من قبل في حالة الأزمة أو الخطر العظيم، أنني أخرج نفسي من الموضوع وبعيدًا عنه، ثم أرقب نفسي مثل أي غريب مهتم بالأمر، أرقب حركاتي وذهني، وأنا محصن ضد الانفعال بما ألاحظ. وقد رأيت، في أثناء جلوسي في الظلمة، الشخص الآخر يطوي خطته المحكمة ويضعها في صندوق ثم يغلق الغطاء، ويلقي به ليس بعيدًا عن البصر فحسب، بل وبعيدًا عن الفكر. أعني أنه في الوقت الذي وقفت فيه في الظلام، وجذبت (سوستة) سروالي وأصلحت ثيابي ووضعت يدي على الباب الخشبي الرقيق، كنت قد عدت إلى شخصية موظف في محل بقالة مستعد لاستقبال يوم عمل شاق. لم يكن ذلك تكتمًا للأمر، بل كان حقيقة.

وعجبت لما يريده الشاب، ولكن ما صاحب ذلك التعجب، كان فقط هو شحوب الإدراك الذي ينجم عن خوف حقير من رجال الشرطة.

وقلت: «آسف لأنني تركتك تنتظر، لا أستطيع أن أتذكر ماذا أكلت ليسبب ذلك».

قال: «هناك نوع من الفيروس منتشر، وقد أصيبت به زوجتي في الأسبوع الماضي».

- «حسنًا، هذا الفيروس كان يحمل مسدسًا، وكدت لا أملك أمر نفسي. ماذا أستطيع أن أفعل من أجلك؟».

وبدا مرتبكًا، ومعتذرًا، ويكاد يكون خجلًا. وقال: «إن المرء يفعل أشياء غريبة». وقهرت حافزًا كان يدفعني لأن أقول، إن هذا يشمل جميع أنواع الناس، وإنني سعيد لأنني قهرته فقد كانت كلماته التالية: «في عملي تلتقي بجميع الأصناف».

وسرت خلف الطاولة، ورفست صندوق قبعة فرسان أورشليم الجلدي فأغلقته، ثم استندت بمرفقي على الطاولة.

يا له من أمر غريب جدًّا. قبل خمس دقائق كنت أرى نفسي من خلال أعين أناس آخرين. وكان عليَّ أن أفعل ذلك. فقد كان ما يرونه مهمًّا. وحينما جاء هذا الرجل عابرًا الرصيف، كان قد صار قدرًا ضخمًا، مظلمًا، لا أمل فيه، عدوًّا، وغولًا. ولكن حين قذفت بمشروعي بعيدًا وطرحته عني، صرت أراه الآن شخصًا منفصلًا عني، شخصًا لم يعد مرتبطًا بي في خير أو شر. كان – فيما أظن- يقارب سني، ولكنه تربى في المدارس، أو تربى تربية أخلاقية، وربما تربية دينية. ذا وجه نحيل وشعر قُص قصيرًا بعناية ويقف منتصبًا، وقميص أبيض من صوف خشن النسيج ذي ياقة ثبتت من أسفل بزرين، وربطة عنق انتقتها له زوجته، ولا شك أنها ربتت عليها وقومتها حينما كان يغادر المنزل. كانت حلته رمادية غامقة، وأظافره اعتنى بها في البيت، ولكنها عناية جيدة، وفي يده اليسرى خاتم زواج ذهبي عريض، وفي عروة سترته قضيب دقيق، رمز للنشان الذي لم يرتده. كان فمه وعيناه الزرقاوان الداكنتان قد دربت على الحزم، مما جعل الأمر كله أكثر غرابة الآن، لأنها لم تكن حازمة. لقد فتحت في نفسه ثمة ثغرة بطريقة ما. فهو ليس نفس الرجل ذا الأسئلة المقتضبة، التي تشبه قضبانًا فولاذية متناسبة حددت المسافة بينها بدقة، وكل واحد منها أسفل زميله.

وقلت: «لقد كنت هنا قبلًا، فما هو عملك؟».

- «من وزارة العدل».

- «هل عملك هو العدل؟».

وابتسم: «أجل، أو على الأقل ذلك ما أصبو إليه. ولكني لست في مهمة رسمية، بل إنني لست متأكدًا حتى من موافقة الوزارة على ما أعمل، ولكن اليوم هو يوم عطلتي».

- «وما الذي أستطيع أن أفعله من أجلك؟».

- «إنه أمر معقد بعض الشيء. ولا أدري تمامًا من أين أبدأ. إنه ليس واردًا في كتب القانون. هولي، لقد ظللت في الخدمة اثنى عشر عامًا، ولم يصادفني من قبل أبدًا أي شيء كهذا».

- «ربما أستطيع مساعدتك لو أخبرتني ما هو هذا الشيء».

وابتسم لي: «من الصعب أن أحاول تجميع أجزائه. لقد ظللت أقود سيارتي ثلاث ساعات من نيويورك، ثم علي أن أقودها ثلاث ساعات للعودة خلال مواصلات العطلة المزدحمة».

- «يبدو أن الأمر خطير».

- «إنه لكذلك».

- «أظن أنك ذكرت أن اسمك هو والدر».

- «ريتشارد والدر».

- «بعد قليل سيتدفق الزبائن، يا مستر والدر. ولا أدري لماذا لم يبدأوا بعد. فهل أنا في مشكل؟».

- «في عملي يلتقي المرء بجميع الأصناف. القساة الكذابين، والمخاتلين، والمندفعين، والأغبياء، والأذكياء. وفي أغلب الحالات يصيبك الحنق منهم، فتتخذ لك مسلكًا ما تتصرف به معهم. هل تفهمني؟».

- «كلا، أحسبني لا أفهم. أسمع، يا ولدر، بحق الجحيم ما الذي يزعجك؟ إنني لست غبيًّا تمامًا. لقد تحدثت مع المستر بيكر في المصرف. وأنت تسعى في أثر مستر مارولو، رئيسي».

فقال في صوت ناعم: «ولقد أمسكت به».

- «لأي سبب؟».

- «دخول البلاد بطريقة غير مشروعة. وليس ذلك من صنعي. فقد قذفوا لي بملف وتتبعت الأمر فيه. وأنا لا أحكم عليه ولا أحاكمه».

- «هل سيبعد؟».

- «أجل».

- «ألا يستطيع الدفاع عن نفسه؟ ألا أستطيع مساعدته؟».

- «كلا. إنه لا يرغب في ذلك. لقد اعترف بأنه مذنب، وهو يريد مغادرة البلاد».

- «يا للعنة التي حللت عليَّ!».

ودخل المحل ستة أو ثمانية زبائن. وصحت به: «لقد حذرتك»، ثم عاونتهم في اختيار ما يحتاجون إليه. أو ظنوا أنهم يحتاجون إليه. وحمدت الله لأنني كنت قد طلبت جبلًا من السجق ولفات لحم الهامبورجر.

وناداني والدر: «بكم تبيع المخلل؟».

- «السعر مكتوب على البطاقة».

فقال: «تسعة وثلاثون سنتًا، يا سيدتي». وانصرف إلى الشغل، يكيل، ويضع في أكياس، ويجمع. ومر من أمامي ليضرب النقود في آلة عد النقود.

وحين تحرك مبتعدًا أخذت كيسًا من الرصة، وفتحت الدرج، ثم مستعملًا الكيس على أنه لنقل وعاء، التقطت المسدس العتيق، وعدت به إلى المرحاض، ثم أسقطته في صفيحة الزيت التي كانت في انتظاره.

وقلت له حين عدت: «إنك بارع في هذا العمل».

- «لقد اعتدت أن أعمل في جراند يونيون بعد المدرسة».

- «هذا واضح».

- «ألا يوجد معك أحد ليساعدك؟».

- «إنني أنوي الإتيان بولدي إلى هنا».

الزبائن يأتون دائمًا في قوافل، ولا يحدث أبدًا أن يأتوا فرادى على فترات متساوية. وموظف البقالة يهيئ نفسه في الفترة بين مجموعة وأخرى، ليلقى الفوج التالي.

هناك شيء آخر، حين يقوم رجلان بعمل شيء ما معًا فإنهما يتشابهان، وتصبح الفوارق الذهنية بينهما أقل تعقدًا. وقد اكتشف الجيش أن الأبيض والأسود لا يقاتل كل منهما الآخر حين يكون أمامهما شيء آخر ليقاتلاه معًا. وقد تبدد الخوف الذي كان يسري تحت جلدي من رجل البوليس، عندما كان والدر يزن رطلًا من الطماطم وبجمع قائمة من الأرقام على كيس. ورحلت أول مجموعة من زبائننا.

وقلت: «يحسن بك أن تخبرني بسرعة عما تريد».

- «لقد وعدت مارولو أنني سآتي إلى هنا. إنه يريد أن يعطيك المحل».

- «أنت مجنون. أرجو المعذرة، يا سيدتي، فقد كنت أخاطب صديقي».

- «أوه، أجل. طبعًا. حسنًا، كم قطعة سجق تكفينا، ونحن خمسة أشخاص – ثلاثة منهم أطفال؟».

- «خمسة لكل من الأطفال، وثلاثة لزوجك، واثنتين لك. وبذلك تصبح عشرين قطعة».

- «هل تعتقد أنهم سيأكلون الخمسة؟».

- «إنهم يعتقدون أنهم سيفعلون. هل لنزهة؟».

- «أوه. نعم».

- «إذن خذي خمس قطع إضافية لما سيسقط في النار».

- «أين تحتفظ بسدادات الأحواض مقاس صفر؟».

- «هناك إلى الخلف حيث توجد المنظفات والنشادر».

كان الحديث بيننا يتقطع على هذا النحو، وكان ذلك متوقعًا. ولو استخلصناه من مقاطعات الزبائن، فإنه كان كالتالي:

- «أحسبني أصبت بصدمة. فأنا أؤدي مهام وظيفتي فحسب، وهي مع المجرمين معظم الوقت. فإذا

ما تكيفت مع معاملة المنحرفين والكذابين والمخادعين، فإن لقاءك برجل أمين كفيل بأن يحدث لديك صدمة تلقي بك في الجحيم».

- «ماذا تقصد بكلمة أمين؟ إن رئيسي لم يفلت من يديه فرصة إطلاقًا. إنه قرد فظ».

- «أعرف أنه كذلك. نحن جعلناه هكذا. لقد قص عليَّ الحكاية وأنا أصدقه. قبل أن يأتي إلى هنا، كان يعرف الكلمات التي على قاعدة تمثال الحرية. كان قد حفظ وثيقة إعلان الاستقلال بلهجتها. كانت وثيقة حقوق الإنسان كلمات من نار بالنسبة له. وبعدئذ لم يستطع دخول البلاد. وهكذا جاء بأي شكل. لقد عاونه رجل لطيف –أخذ منه كل ما كان يمتلك- ثم ألقاه في الموج ليخوض الماء حتى يصل إلى الشاطئ. واستغرق وقتًا قبل أن يتفهم الأسلوب الأمريكي، ولكنه كان قد تعلم:

«ينبغي على الفتى أن يكسب دولارًا! ابحثوا عن رقم واحد»، عن المال!: «وتعلم، فهو ليس غبيًّا، واهتم برقم واحد».

وكان دخول الزبائن يجعل هذا الحديث متناثرًا، ولذا لم يوصل إلى قمة درامية، كان مجرد سلسلة من الجمل القصيرة.

- «ولذلك لم يتأذ حين وشى به شخص ما».

- «وشى به؟».

- «بالتأكيد. فكل ما يتطلبه الأمر مكالمة تليفونية».

- «ومن فعل ذلك؟».

- «من يدري؟ إن الوزارة كالآلة. تطلب الرقم ثم يسير الأمر في خطواته كلها، مثلما يحدث في الغسالة الأتوماتيكية».

- «ولماذا لم يبحث له عن مخرج؟».

- «إنه متعب، إن التعب تسرب إلى عظامه. كما أنه مشمئز. إن لديه بعض نقود، وهو يريد العودة إلى صقلية».

- «إنني لازالت لا أفهم الأمر فيما يتعلق بالمحل».

- «إنه يشبهني. إنني أستطيع معالجة أمر الغشاشين، فتلك وظيفتي، أما الرجل الأمين فإنه يربكني في عملي، ويقذف بي إلى أعلى السماء، وذلك ما حدث معه.

فهناك فتى واحد لم يحاول خداعه، ولم يسرقه، ولم يتباك شاكيًا، ولم يغشه. وقد حاول أن يعلم الغبي أن يرعى مصالحه في أرض الأحرار، ولكن الأبله لم يستطع أن يتعلم. لقد أخفته فترة طويلة. وحاول أن يتصور هدفك، فاكتشف أن هدفك كان الأمانة».

- «افترض أنه كان مخطئًا؟».

- «إنه لا يعتقد أنه كان مخطئًا. وهو يريد أن يجعل منك نوعًا من التذكار لشيء آمن به يومًا ما. إن وثائق نقل الملكية معي في السيارة بالخارج، وكل ما عليك أن تفعله هو أن تسجلها».

- «إنني لا أفهم الموضوع».

- «وأنا لا أدري إن كنت أفهمه أم لا. أنت تعرف كيف يتكلم، بصوت يشبه الصوت الناجم عن تحمير الفشار. إنني أحاول ترجمة ما حاول أن يشرحه لي. يبدو أن الرجل منا يختط طريقًا معينًا، ويتخذ اتجاهًا معينًا، فإذا ما غير ذلك، فإن شيئًا ما ينفجر، إنه يكون كآلة انتزع أحد تروسها، ويصيبه المرض. إن الوضع يشبه...

حسنًا، يشبه محكمة بوليس تقيمها أنت بنفسك، ويكون عليك أن تدفع قيمة المخالفة. وأنت قيمة مخالفته، نوع منها، لكيلا ينطفئ نوره».

- «ولماذا قدت أنت سيارتك إلى هنا؟».

- «لا أدري بالضبط. كان عليَّ أن أفعل -ربما- لكيلا ينطفئ نوره».

- «أوه يا إلهي!».

وعج المحل بسحابة من صبية يصخبون، ونساء يللهن المطر. لن تحل بعد ذلك أي لحظة ليس فيها انهماك في الشغل إلى أن يحل الظهر على الأقل.

ذهب والدر إلى سيارته، ثم عاد وفرق موجه من زوجات المصيفين المهووسات ليصل إلى الطاولة، ووضع عليها ظرفًا من تلك الظروف المصنوعة من الورق المقوى الأصفر وقد لف بشريط لاصق.

- «عليَّ أن أذهب. أمامي أربع ساعات من القيادة في مثل هذه المواصلات. وزوجتي حانقة، لقد قالت بإمكان هذا الأمر أن ينتظر، ولكن الانتظار لم يكن ممكنًا».

- «أيها السيد، إنني انتظر منذ عشر دقائق لكي تقضي لي مطالبي».

- «سأكون معك حالًا، يا سيدتي».

- «وقد سألته إذا ما كانت لديه أي رسالة، فقال: «قل له وداعًا». فهل لديك أنت أي رسالة له؟».

- «قل له وداعًا».

ومرة أخرى أطبقت على موجة المعدات التي ساء تنكرها، وكان هذا أفضل بالنسبة لي. وأسقطت المظروف في الدرج الموجود أسفل آلة عد النقود وأسقطت معه كآبتي.

# الفصل السادس عشر

انقضى اليوم سريعًا ومع ذلك كان لا نهائيًّا. ولم تكن هناك أي صلة بين موعد غلق المحل وموعد فتحه، فقد كان سحيقًا جدًّا أنني استطعت تذكره بصعوبة.

وحينما كنت على وشك إغلاق الأبواب الأمامية، دخل جوي، ودون أن أسأله ثقبت علبة جعة وناولتها إياه، وبعدئذ فتحت لنفسي واحدة، وذلك ما لم أفعله من قبل قط. وحاولت أن أحدثه عن مارولو وعن المحل، ووجدتني لا أستطيع، ولا حتى أن أقص عليه القصة التي كنت قد قبلتها كبديل للحقيقة.

وقال: «إنك تبدو متعبًا».

- «أحسبني كذلك». تطلع إلى تلك الأرفف، إنها عارية. إنهم يشترون أشياء لا يريدونها ولا يحتاجون إليها. وأفرغت ما تحتويه آلة عد النقود في كيس القماش الرمادي، وأضفت إليه النقود التي أتى بها المستر بيكر، ووضعت على السطح المظروف الأصفر ثم ربطت الكيس بقطعة من الخيط.

- «ينبغي ألا تترك ذلك هنا».

- «قد يكون الأمر كذلك. ولكنني أخفيها. أترغب في علبة أخرى من الجعة؟».

- «بالتأكيد».

- «وأنا أيضًا».

فقال: «إنك مستمع رائع. لقد بدأت أصدق حكاياتي».

- «مثل ماذا؟».

- «مثل غرائزي ذات الثلاث أسطح. لقد انتابتني واحدة هذا الصباح وقد استيقظت بها من النوم، وأظنني حلمت بالأمر. ولكنه كان شعورًا قويًّا جدًّا، فقد شعرت به في شعر قفاي وفي كل شيء. كنت أعتقد أن المصرف سيسرق اليوم -عرفت هذا- عرفته وأنا راقد في فراشي. إننا نبقي أوتادًا صغيرة تحت أجراس الإنذار التي تحت أقدامنا لكيلا نطأها خطأ. وكان أول شيء فعلته هذا الصباح هو أنني نزعت تلك الأوتاد. كنت متأكدًا جدًّا من ذلك الشعور، ومشدودًا إليه. والآن كيف تفسر ذلك؟».

- «ربما يكون شخص ما قد دبر السرقة وقرأت أنت أفكاره، ثم عدل عن رأيه».

- «أنك تجعل الأمر سهلًا للمرء أن يخمن خطأ، دون أن ينال ذلك من كرامته».

- «كيف تتصور الأمر إذن؟».

- «يعلم الله. أظننى كنت بالنسبة إليك السيد الذي يعرف كل شيء لدرجة أنه صار عليَّ أن أصدق ذلك. ولكن المؤكد أن هذا الأمر هزني».

- «أتعرف يا مورفي أنني متعب بحيث لا أقدر حتى على الكنس».

- «لا تترك تلك النقود هنا الليلة. خذها إلى البيت».

- «حسنًا، ما دمت تقول ذلك».

- «لا زلت أحس أن هناك شيئًا مريبًا».

فتحت الصندوق الجلدي ووضعت كيس النقود بداخله مع قبعتي ذات الريشة، ثم أغلقته بالحزام. وقال لي جوي وهو يراقبني: «إنني ذاهب إلى نيويورك لأستأجر غرفة في فندق، ثم أشاهد مسقط المياه عبر ميدان التايمز طيلة يومين جامدين وأنا خالع حذائي».

- «وماذا ستفعل بموعدك؟».

- «لقد ألغيته».

- «لقد أخبرتك، ربما نقوم نحن برحلة قصيرة».

- «أتمنى ذلك. فإنك في حاجة إليها. هل أنت مستعد للانصراف؟».

- «أمامي شيئان أقوم بهما. فلتذهب أنت يا جوي. واخلع حذائك».

كان أول ما عليَّ القيام به الاتصال بماري واخبارها أنني مضطر للتأخر قليلًا.

- «أجل، ولكن أسرع، أسرع، أسرع. لديَّ أخبار، وأخبار، وأخبار».

- «ألا تستطيعين أن تخبريني بها الآن يا حبيبتي؟».

- «كلا، فأنني أريد رؤية تعبير وجهك».

علقت قناع الميكي ماوس على آلة عد النقود من علاقته المطاط، بحيث غطى النافذة الصغيرة التي تبين منها الأرقام. وبعدئذ ارتديت معطفي وقبعتي وأطفأت الأضواء، وجلست على الطاولة وساقاي تتأرجحان. كان جذع شجرة موز أسود عاري يخزني في أحد جنبي، بينما تلاءمت آلة عدة النقود مع كتفي الأيسر وكأنني مستند إلى حافة كتاب. كانت الستائر مرفوعة وضوء نهاية الصيف يجاهد للنفاذ خلال الأسلاك المتشابكة على النافذة، وكان الجو هادئًا جدًّا، هدوءًا يشبه حفيف الماء، وذلك ما كنت أحتاج إليه وتحسست الجيب الذي على جنبي الأيسر، لأرى ما هو ذلك الجسم الذي تدفعه آلة عد النقود في جنبي. إنه الطلسم! وأمسكت به بين يديَّ وحدقت فيه. كنت أظن بالأمس أنني بحاجة إليه، فهل نسيت أن أعيده إلى مكانه، أم أن احتفاظي به لم يكن من قبيل الصدفة؟ لا أدري.

وحين تتبعت الرسم الذي عليه بأصابعي، بثَّ فيَّ قوته كالمعتاد. كان في الظهيرة قرمزيًّا بلون وردة،

أما في المساء فقد اكتسب لونًا أكثر عتمة، فأصبح أرجوانيًّا وكأن قليلًا من الدماء قد دبت فيه.

لم أكن بحاجة إلى التفكير بل إلى إعادة الترتيب، تغيير المخطط، وكأنني كنت موجودًا في حديقة أنتقل بينها أثناء الليل. كان ينبغي إجراء نوع ما من التغيير لكي يقوم بحمايتي، إلى أن أتمكن من إعادة البناء من جديد. وقد اعتكفت داخل المحل، حتى يمكنني أن أدع الأشياء الجديدة تدخل رويدًا، ثم أحصيها وأتعرف إليها في أثناء قدومها. كانت الأرفف، وقد هوجمت طوال اليوم، تبدو فيها فجوات عديدة حيث هاجمت الحشود الجائعة مواقع دفاعها، وكان منظرها يوحي بفم خلعت منه أسنانه، أو بلدة مسورة بعد أن أعملت فيها المدفعية نيرانها.

وقلت: «فلنصل من أجل أصدقائنا الراحلين.. من أجل الصف الأحمر الرفيع من علب صلصة الطماطم، من أجل المخللات المجيدة والمتبلات وعلب الخل الصلعاء الصغيرة. إننا لا يسعنا أن نكرس، لا يسعنا أن نقدس – كلا. من الأفضل لنا نحن الأحياء، كلا. ألفيو... أرجو لك الحظ وانتهاء الألم. إنك بالطبع مخطئ، ولكن قد يكون الخطأ بالنسبة لك مثل (لبخة). لقد قدمت تضحية، لأنك كنت ضحية».

كان الناس الذين يمرون في الشارع يذبذبون الضوء داخل المحل. ونقبت في حطام اليوم بحثًا عن كلمات والدر وتعبير وجهه حين كان يقولها: «إنها محكمة بوليس تقيمها أنت بنفسك. ويكون عليك أن تدفع قيمة المخالفة، نوع منها، لكيلا ينطفئ نوره» ذلك ما قاله الرجل. كان والدر الذي يعيش في عالم المنحرفين المطمئن، قد بهره بصيص نور متألق من الأمانة.

لكيلا ينطفئ نوري. هل قالها ألفيو بتلك الطريقة؟ إن والدر لا يدري، ولكن ما يعرفه فعلًا، هو أن ذلك ما قصده مارولو.

وتتبعت الحية التي كانت على الطلسم ثم عدت إلى البداية، التي كانت هي النهاية. لقد كان ذاك ضوءًا قديمًا، لقد وجد آل مارولو طريقهم منذ ثلاثة آلاف سنة خلال مسالك الذئاب إلى احتفال الخصب والنماء على قمة أحد تلال روما السبعة وهو تل البلاتين، ليقدموا قربانهم إلى الإله بان الذئبي، الذي يحمي القطعان من الذئاب. ولم ينطفئ ذلك الضوء حتى الآن. إن مارولو القبرصي، المهاجر القذر، الملون، قدم قربانه لنفس الإله من أجل نفس السبب. ورأيته مرة أخرى يرفع رأسه خارج رقبته السمينة المترجرجة وكتفيه المتألمين، رأيت الرأس النبيل، والعينين البارقتين، ثم رأيت الضوء. وتساءلت ماذا سيكون أجري، ومتى أستحقه. لو أنني أخذت طلسمي إلى الميناء القديم وألقيت به في البحر، فهل يكون ذلك اعتذارًا مقبولًا؟

لم أجذب الستائر. فنحن نتركها مرفوعة في أثناء العطلات الطويلة، لكي يستطيع رجال الشرطة أن ينظروا داخل المحل. كان المخزن مظلمًا. وأغلقت قفل باب الحارة، وحين كنت في منتصف الطريق عبر الشارع تذكرت صندوق القبعة الموجود خلف الطاولة.

ولم أعد لأخذه، فيثير ذلك نوعًا من التساؤل. أخذت الريح تشتد مساء يوم السبت ذاك، وهي تهب صارخة في شغف من الجنوب الشرقي كما ينبغي أن تفعل؛ لكي تجلب المطر ليغرق الذين يقضون عطلتهم. وفكرت في أن أضع لبنًا يوم الثلاثاء للقط الرمادي، ثم أدعوه ليكون ضيفًا عليَّ في محلي.

# الفصل السابع عشر

لا أدري على وجه اليقين كيف تكون دخيلة الناس الآخرين، فهم جميعًا يختلفون وهم جميعًا يتشابهون في نفس الوقت. إنني أستطيع التخمين فحسب. ولكني أعرف كيف أتملص وأتلوى لأتجنب حقيقة مؤلمة، وفي النهاية، حين لا يكون أمامي مجال للاختيار، سأتهرب منها مؤملًا أنها سوف تذهب بعيدًا. هل يقول الناس الآخرون بجد متكلف: «سأفكر في ذلك غدًا حينما أكون مستريحًا»، ثم يجذبون على أنفسهم غطاء من المستقبل الآمل أو الماضي النظيف، مثل طفل يقاوم بعنف حتمية ذهابه للفراش؟

وقادتني خطواتي المتلكئة تجاه البيت، خلال منجم للحقيقة. كان المستقبل مبذورًا ببذور خصبة من أسنان تنين. وكان الوضع الطبيعي أن أهرع إلى مرفأ آمن في الماضي. ولكن في ذلك الدرب، كانت تنتصب العمة ديبورا متربعة، كجناح ضخم يضرب في سرب من الأكاذيب، وعيناها تتألقان بعلامات الاستفهام...

لقد تطلعت خلال نافذة محل المجوهرات إلى سوارات الساعات المفرودة وإطارات النظارات أطول مدة يسمح بها الذوق. وكأن المساء الرطب الحافل بالرياح يحتضن عاصفة رعدية.

كانت توجد الكثيرات من أمثال عمتي العظيمة ديبورا في فترة مبكرة من القرن الماضي، كن جزائر للفضول والمعرفة. ربما كان انقطاعهن عن عالم قريناتهن هو ما دفع بضع منهن إلى الكتب، أو ربما دفعهن ذلك الانتظار الذي يطول أحيانًا ثلاث سنوات، وأحيانًا إلى الأبد، انتظار عودة السفن إلى الديار، كان ذلك هو ما دفعهن إلى نوع الكتب الذي يملأ سندرتنا. لقد كانت أعظم العمات العظيمات. كانت عرافة وساحرة في نفس الوقت، كانت تقول لي كلمات سحرية لا معنى لها، كلمات حين أستعيدها، أجدها قد احتفظت بسحرها ولكن ليس بهرائها.

كانت تقول ولهجتها تحمل القدر: «من بيسواك فاه ويرم ثورث فايجرورد». ثم تقول: «سيوليو جيف هيو بليذز أون بيريجث ابيت آيريست هايرلادتو».

ولابد أنها كانت كلمات عجيبة، لأنني لا زلت أذكرها.

مر إلى جواري رئيس بلدية نيوبايتون مندفعًا كسرطان البحر، ورأسه إلى أسفل، ولم يلق إليَّ بتحية المساء إلا ردًّا على تحيتي التي قدمتها إليه قبلًا.

استطعت الإحساس ببيتي، بيت آل هولي العتيق، من على مبعدة نصف عمارة. كان في الليلة الماضية يتأرجح في نسيج من الكآبة، ولكنه كان يشع بهجة في هذا المساء الذي يحفه الرعد. إن البيت، مثل حجر عين الهر، يتلون بألوان اليوم. وسمعت ماري المهرجة وقع خطواتي على الممشى، وخرجت ترفرف من الباب الزجاجي وكأنها شعلة.

- «لن تحرز أبدًا!» قالتها، ويداها ممدودتان، وراحتاها إلى الداخل وكأنها تحمل طردًا.

وكان هذا في ذهني، وهكذا أجبت قائلًا: «سيوليوجيف هيو بلاندز أون بيرجيث آبيت آيرست هاير لا ديتوي».

- «حسنًا، ذلك تخمين طيب جدًّا، ولكنه ليس صحيحًا».

- «لقد قدم لنا معجب خفي ديناصورًا».

- «خطأ، ولكنه في مثل تلك الروعة. ولن أخبرك قبل أن تغتسل؛ لأنه ينبغي عليك أن تكون نظيفًا لكي تسمعه».

- «إن الذي أسمعه هو موسيقى أغنية حب يعزفها قرد. وكان هذا ما أسمعه فعلًا. كانت الموسيقى تصرخ منبعثة من حجرة الجلوس، حيث غمر آلان روحه مع صوت ثائر ملتهب يقول: «في نفس اللحظة التي تأهبت فيها، لكي أطلب منك أن تتمالكي نفسك قالوا إنني لا أعرف ما يدور بذهني، إن نظرتك تدغدغني حينما نمارس الحب، ثم يقولون إنني لم أستطع معرفة ما يدور بذهني».

- «أظنني سأحرقه حرقًا، يا زوجتي السماوية».

- «كلا، لن تفعل. لن تفعل قبل أن تسمعني».

- «ألا يمكنك أن تخبريني وأنا بقذارتي؟».

- «كلا».

وذهبت خلال غرفة الجلوس. وأجاب ابني على تحيتي بتعبير حاد من قطعة من اللادن.

- «آمل أن يكون قلبك الولهان الوحيد قد طار».

- «هه؟».

- «فلتقل هه، يا سيدي! آخر مرة سمعت فيها هذه الأغنية، تناول شخص ما الأسطوانة وقذفها إلى الأرض».

فقال: «إنها أغنية الموسم! أغنية الموسم في البلاد كلها. لقد بيع منها مليون نسخة خلال أسبوعين».

- «رائع! إنني سعيد لأنك تمسك بالمستقبل بين يديك!» واشتركت مع الكورس التالي في أثناء صعود الدرج: «إن نظرتك تدغدغني حينما نمارس الحب، ثم يقولون إنني لم أستطع معرفة ما يدور بذهني».

كانت إيلين تطاردني وفي يدها كتاب، وضعت أحد أصابعها بين صفحاته، إنني أعرف طريقتها. ستسألني ما تعتقد إني أظنه سؤالًا ممتعًا، وبعدئذ تدع لسانها ينزلق بما أرادت ماري إخباري به. إنه نوع من الانتصار بالنسبة لإيلين أن تخبرني هي أولًا. ولن أقول إنها نمّامة، ولكنها كذلك. ولوحت

بإصبعين متقاطعين.

- «الملك لن يسمع».

- «ولكن يا أبي».

- «لقد قلت الملك لن يسمع، يا آنسة روتهاوس روبارب، وإنني أعني أن الملك لن يسمع». وأغلقت الباب بعنف وأنا أصيح: «إن حمام الرجل هو قلعته». وسمعت ضحكتها. وأنا لا أثق بالأولاد حين يضحكون من نكاتي. ودعكت وجهي حتى أحمر، وأسناني بالفرشاة حتى أدميت لثتي. وحلقت ذقني، ثم لبست قميصًا نظيفًا ورباط البابيون الذي تكرهه ابنتي، كإعلان للثورة.

كان قلب ماري يخفق من نفاد الصبر حين واجهتها.

- «لن تصدق الأمر!».

- «مسيو ليوجيف أون بيرجيث. تكلمي».

- «إن مارجي هي ألطف صديقاتي على الإطلاق».

- «إنني سأستشهد بالتالي: «إن الرجل الذي اخترع الكوكو مات». هذا خبر قديم ولكنه طيب!».

- «إنك لن تحزر أبدًا، إنها سترعى الأولاد لكي نتمكن من القيام برحلتنا».

- «هل هذه خدعة؟».

- «لم أطلب إليها ذلك، بل هي التي عرضت».

- «إنهما سيأكلانها حية».

- «قل إنهما مجنونان بها. إنها تنوي أخذهما إلى نيويورك بالقطار يوم الأحد، ثم يبقون طيلة الليل في شقة صديقة لها، وفي يوم الإثنين يشاهدون الراية الجديدة ذات الخمسين نجمة وهي ترتفع فوق (روكفلر سنتر)، ثم يشاهدون الاستعراض و... كل شيء».

- «لا أستطيع تصديق هذا».

- «أليس ذلك هو أفضل شيء؟».

- «إنه الأفضل جدًّا. وسنهرع نحن إلي أحراش مونتوك، يا فأرتي؟».

- «لقد اتصلت تليفونيًّا وحجزت غرفة بالفعل».

- «هذا هذيان. إنني سأنفجر. أشعر بأنني أمتلئ بالفرحة».

كنت قد فكرت في إبلاغها موضوع المحل، ولكن الكثير جدًّا من الأخبار يحدث تجمدًا. الأحرى أن

أنتظر وأخبرها ونحن في الأحراش.

وجاءت إيلين منزلقة إلى داخل المطبخ: «بابا، لقد اختفى ذلك الشيء القرمزي من الخزانة».

- «إنه معي. معي هنا في جيبي. هاك، بإمكانك أن تعيديه».

- «ولكنك قلت لنا ألا نأخذه بعيدًا أبدًا».

- «ولا أزال أقول ذلك، وعقوبة أخذه هي الموت».

واختطفته بشيء من شراهة، ثم حملته في كلتا يديها إلى غرفة الجلوس. كانت عينا ماري مثبتتين عليَّ في غموض وكآبة، وقالت: «لماذا أخذته، يا إيثان؟».

- «ليجلب الحظ، يا حبيبتي. وقد أفلح».

# الفصل الثامن عشر

أمطرت السماء في يوم الأحد، الثالث من يوليه، مثلما ينبغي لها أن تفعل. قطرات سمينة أكثر إبلالًا من المعتاد. وشققنا طريقنا وسط ديدان حركة المرور المبللة المنقسمة على نفسها، ونحن نحس بقليل من العظمة وبأننا عاجزون ضائعون، مثلما يحدث لطيور تربت في أقفاص ثم أطلق سراحها، وعندما أبرزت الحرية أنيابها أصابنا الخوف. كانت ماري تجلس منتصبة، تفوح منها رائحة القطن الحديث الكي.

- «هل أنت سعيدة – هل تشعرين بالمرح؟».

- «إنني لا أزال أنصت إلي صوت الأولاد وهو يرن في أذني».

- «أعلم ذلك. كانت العمة ديبورا تسمي ذلك، الوحدة السعيدة. اشرعي في الطير، يا طائري! فما تلك القلابات الطويلة التي على كتفيك سوى أجنحة، أيتها السجينة».

وابتسمت ثم استكانت ملتصقة بي: «هذا طيب، ولكني لا أزال أسمع صوت الأولاد. وإني لأفكر ماذا يفعلان الآن؟».

- «كل ما يمكنك أن تخمنيه تقريبًا ما عدا التفكير فيما نفعله نحن».

- «أظن ذلك صحيحًا. فهما لا يهتمان حقًّا بهذا».

- «فلنقتد بهما إذن. (حينما رأيت سفينتك تنزلق قريبًا مني، أنت يا ثعبان النيل، عرفت أن اليوم يومنا. وسيستجدي أوكتافيوس الليلة لقمة عيشه من واحد من رعاة الإغريق)».

- «إنك لأحمق. إن آلان لا ينظر قط إلى مواطئ قدميه، وقد يخطو مندفعًا وسط المواصلات مخالفًا إشارة مرور».

- «أعرف ذلك. وكذلك المسكينة الصغيرة إيلين بقدمها الشوهاء. حسنًا، إن لها قلبًا طيبًا ووجهًا... وقد يحبها شخص ما فيبتر قدميها».

- «أوه! دعني أشعر بالقلق قليلًا، فإنني حين أفعل أحس أنني أفضل حالًا».

- «لم أسمع هذا المعنى يصاغ بكلام أفضل من ذلك. ولكن هل سنقلب معًا جميع الاحتمالات المرعبة؟».

- «أنت تعرف ما أقصد؟».

- «أجل. ولكنك أنت، يا صاحبة السمو، التي أتيت بهذا الإحساس إلى الأسرة. إنه يسري في خطها

النسائي فحسب، في علقاتها الصغيرة».

- «لا أحد يحب أطفاله أكثر منك».

- «ذنبي يعادل ذنب عشرة أشخاص، لأنني خبيث كظربان».

- «وأنا أحبك».

- «والآن هذا هو نوع الانزعاج الذي أستحسنه. أترين ذلك الكئيب؟ انظري كيف يصمد نبات الرتم الشوكي ونبات الخلنج، وكيف يشق الرمل طريقه تحته وكأنه أمواج صغيرة صلبة. إن المطر يضرب الأرض ثم يقفز إلى أعلى مباشرة على شكل ضبابة رقيقة. كنت أعتقد دائمًا أن هذا المكان يشبه دارتمور أو إكسمور، ولم أكن قد رأيتهما أبدًا إلا على صفحات الكتب. أتدرين أنه لابد أن يكون المهاجرون الأول من ديفون إلى هنا قد أحسوا أنهم في وطنهم. أتعتقدين أن هذه البقعة مسكونة؟».

- «إذا لم تكن، فستسكنها أنت».

- «يجب ألا تقولي تقريظًا إلا إذا قصدته».

- «لا مجال لهذا الحديث الآن. تطلع إلى الطريق الجانبي. إن لوحته تحمل اسم «موركروفت». كانت اللوحة تحمل ذلك الاسم فعلًا، وكان الشيء اللطيف فيما يتعلق بذلك الطرف الرفيع المغزلي الشكل من جزيرة لونج إيلاند، هو أن المطر يغوص في تربتها ولا يكون هناك ثمة وحل. واخترنا لأنفسنا غرفة كبيت الدمية، جديدة ومخططة، وبها فراشان طريان كفطيرة، ومن النوع الذي يمكن جعله فراشًا واحدًا.

- «إنني لا أحب تلك الأسرة».

وفي عظمة لزجة، تناولنا عشاء من (جمبري) مين المشوي المغمور في نبيذ أبيض -كميات هائلة من النبيذ الأبيض- مما جعل عيني ماري تتألقان، وأخذت أملأ لها كؤوس الكونياك في إغراء حتى طنت رأسي أنا. وتذكرت هي رقم غرفتنا، واستطاعت هي أن تجد ثقب المفتاح. لم أكن مخمورًا للدرجة التي تمنعني من أخذ طريقي معها، ولكني أعتقد أنه كان باستطاعتها الهرب مني لو أرادت.

وبعدئذ، وفي شوق إلى الراحة، وضعت رأسها في نعاس على ذراعي الأيمن وابتسمت وهي تصدر أصواتًا متثائبة خافتة.

- «هل هناك ما يقلقك؟».

- «يا لها من فكرة! أنت تحلمين قبل أن تنامي».

- «إنك تعمل جاهدًا لكي تسعدني، ولكني لا أستطيع التوصل إلى ما يدور في أعماقك. هل أنت قلق؟».

يا لها من فترة غريبة تتوافر فيها القدرة على الرؤيا، تلك الفترة التي يكون فيها المرء على أولى

عتبات النوم.

- «أجل، إنني قلق. هل يطمئنك ذلك؟ لا أريد منك أن تكرري ذلك، ولكن السماء تتهاوى وقد سقطت قطعة منها على ذيلي».

كانت قد استغرقت في سبات عذب، وعلى شفتيها بسمة الإله بان. وسحبت ذراعي من تحتها فخلصته، ثم وقفت بين الفراشتين. كان المطر قد انقضى فيما عدا سحات تتساقط من السقف، وتلألأ القمر في تربيعه عاكسًا صورته في بليون من القطرات الصغيرة: «أحلامًا سعيدة، يا حبيبتي الغالية. لا تدعي السماء تتهاوى فوقنا».

كان فراشًا باردًا بالغ النعومة، ولكني استطعت رؤية القمر الحاد يشق طريقه خلال السحب الهاربة تجاه البحر. ثم سمعت صرخة طائر الواق التي تشبه صيحة شبح. وشبكت أصابع يدي الاثنتين، فلأكن الملك إكس لبرهة، أو بديل الملك إكس. لم يكن ما سقط على ذيلي يعدو حبة فاصولياء فحسب.

لو أن الفجر جاء يصحبه أي رعد لما سمعته. فحين استيقظت كانت الدنيا كلها خضراء ذهبية، فيها سواد يبعثه نبات الخلنج، وشحوب من السرخس وحمرة تشوبها صفرة من كثيب الرمل الرطب، وعلى بعد غير شاسع تألق المحيط الأطلسي مثل الفضة المطروقة. وبجوار منزلنا قامت شجرة سنديان عجوز ملتوية، أرست بجوار جذرها حشيشة بحر ضخمة كأنها وسادة تتماوج في خط رمادي يشوبه بياض لؤلؤي. وبين بيوت الدمى التي تكون المستعمرة الصغيرة، كان يوجد ثمة ممر منحن من الحصى يؤدي إلى المبنى الكبير المغطى بالقرميد الأحمر الذي يمد تلك البيوت جميعًا بالغذاء. وهنا كان يوجد مكتب الإدارة، وبطاقات البريد، والهدايا، وطوابع البريد، وتوجد كذلك قاعة الطعام بأغطية مناضدها المحلاة بالأزرق، حيث كنا نحن الدمى نستطيع تناول طعامنا.

كان المدير في مكتب حساباته، يراجع قائمة ما. وكنت قد لاحظته حين قيدنا اسمينا، رجل ذو شعر كالقش، وذقن قلما تحتاج إلى حلاقة. وكان يبدو من الوهلة الأولى متلصصًا متهتكًا، وهكذا بعث فيه مرحنا الأمل بأن نزهتنا خفية حتى كدت أوقع في دفتره باسم «جون سميث وزوجته» لأمنحه السرور. كان يتشمم بحثًا عن الخطيئة. وقد بدا في الحقيقة، وكأنه يرى بأنفه الطويل الحساس مثلما يفعل الخلد.

وقلت له: «طاب صباحك».

ورفع أنفه إلى مستواي: «هل نمتما جيدًا؟».

- «على ما يرام. إني لأتساءل إذا ما كنت أستطيع أن أحمل صينية عليها طعام الإفطار إلى زوجتي».

- «إننا نقدمه في قاعة الطعام فحسب من السابعة والنصف إلى التاسعة والنصف».

- «ولكن لو حملته أنا بنفسي...».

- «إن هذا مخالف للقواعد».

- «ألا نستطيع أن نخالفها هذه المرة؟ أنت تعلم وضعنا». وقد قذفته بهذه الجملة لأن ذلك ما كان يأمل فيه.

وكان سروره مكافأة كافية لي. فقد تندت عيناه وارتعد أنفه: «إنها تشعر بشيء من الخجل، أليس كذلك؟».

- «حسنًا، أنت تعلم كيف يكون الوضع».

- «لا أدري ماذا سيقول الطاهي».

- «اطلب منه، وأخبره أن هناك دولارًا يقف على أطراف قدميه منتظرًا إياه على قمة الجبل الذي يحيط به الضباب».

كان الطاهي يونانيًّا، ووجد أن فكرة الدولار جذابة. وفي موعد الإفطار كنت أحمل صينية ضخمة مغطاة بمنشفة، وأسير بها في الممر المغطى بالحصى، ثم وضعتها فوق مقعد ريفي، بينما أخذت أقتطف صحبة من الأزهار البرية الصغيرة، لكي تضفي جمالًا على إفطار حبيبتي الملكي.

لعلها كانت مستيقظة، ولكنها فتحت عينيها على أي حال وقالت: «إنني أشم رائحة قهوة أوه! أوه! يا له من زوج لطيف، و... وأزهار، كل تلك الأزهار الصغيرة التي لا تفقد عبيرها أبدًا».

تناولنا إفطارنا، ثم شربنا قهوة ثانية واستندت ماري في فراشها، وهي تبدو أكثر شبابًا وبراءة من ابنتها. وتكلم كل منا في احترام عن كيف نمنا جيدًا.

لقد حانت لحظتي المناسبة: «أريحي نفسك، فلدي أنباء محزنة ومفرحة معًا».

- «طيب! هل اشتريت المحيط؟».

- «إن مارولو في مشكل».

- «ماذا؟».

- «لقد جاء إلى أمريكا منذ أمد بعيد دون أن يطلب تصريحًا بالدخول».

- «حسنًا – ثم ماذا؟».

- «وهم يطلبون منه الآن مغادرة البلاد».

- «مطرودًا؟».

- «أجل».

- «ولكن ذلك فظيع».

- «إنه ليس أمرًا لطيفًا».

- «وماذا ستفعل؟ ماذا ستفعل؟».

- «لقد انتهى وقت اللعب. فقد باعني المحل، أو بالأحرى باعك إياه؛ لأنها نقودك. يجب أن يحيل ممتلكاته إلى مال وهو يحبني، ولذا فقد منحني إياه مقابل ثلاثة آلف دولار».

- «ولكن ذلك فظيع. أتعني... أتعني أنك تمتلك المحل؟».

- «أجل».

- «إنك لم تعد موظفًا. لم تعد موظفًا!».

وتدحرجت ووجهها إلى أسفل بين الوسائد، ثم بكت، في زفرات ضخمة كانت تملأ صدرها كله، مثلما يحتمل أن يفعل العبد حين يتحطم القيد عن عنقه.

خرجت إلى واجهة الكوخ المنحدرة، وجلست تحت الشمس حتى استعدت. وحين فرغت وغسلت وجهها ومشطت شعرها وارتدت منامتها، فتحت الباب ونادت عليَّ. كانت مختلفة عن ذي قبل، وستبقى دائمًا مختلفة، وما كان عليها أن تقول ذلك، فقد قالته ارتفاعة عنقها، واستطاعت أن ترفع رأسها عاليًا. لقد عدنا مرة أخرى إلى طبقة السادة.

- «ألا نستطيع أن نفعل أي شيء لمساعدة المستر مارولو؟».

- «أخشى ألا نستطيع».

- «كيف حدث هذا؟ من الذي اكتشف الأمر؟».

- «لا أدري».

- «إنه رجل طيب. ما كان ينبغي عليهم أن يفعلوا ذلك به. كيف يتقبل الوضع؟».

- «بكبرياء وعزة نفس».

تمشينا على الشاطئ مثلما اعتدنا أن نفعل، وجلسنا فوق الرمال، والتقطنا صدفات صغيرة متألقة، وأراها كل منا للآخر، كما ينبغي لنا أن نفعل، وتحدثنا في تعجب تقليدي عن الأشياء الطبيعية، عن البحر، والهواء، والضوء، والشمس التي ترطب الريح من حرارتها، وكأن الخالق كان يتسمع علينا ليتلقى تهانينا.

وفقدت ماري اهتمامها. وأعتقد أنها أرادت العودة إلى بيتها بوضعها الجديد، لترى النظرة المختلفة في عيون النسوة، وغير نغمة التحايا في شارع «هاي». وأظن أنها لم تعد بعد «ماري هولي المسكينة، التي تعمل كثيرًا جدًّا». لقد أصبحت مسز إيثان آلان هولي وستظل كذلك أبدًا. وكان عليَّ أن أحفظ لها تلك المكانة. وقضت اليوم لأنه كان مخططًا ومدفوعًا أجره، ولكن الصدفات الحقيقية

التي كانت تقلبها وتتفحصها إنما كانت أيامها القادمة المتألقة.

تناولنا غذائنا في قاعة الطعام ذات المربعات الزرقاء، حيث خيب سلوك ماري وثقتها من مركزها ومكانتها، أمل مستر مول. كانت أنفه الحساسة قد انخلعت من مفصلها الذي كان يرتعد في فرح كبير حين يشم رائحة الخطيئة. واكتمل تحطم وهمه حين اضطر للمجيء إلى منصتنا ليقرر أن هناك مكالمة تليفونية للسيدة هولي.

- «من الذي يعرف أننا هنا؟».

- «مارجي، طبعًا. كان عليَّ أن أخبرها من أجل الأولاد. آه! أتعشم إنه لا ينظر إلى مواطئ قدميه، كما تعلم؟».

وعادت وهي ترتعد كنجمة. «لن تحرز أبدًا. لن تستطيع».

- «أستطيع أن أحرز إنه خبر طيب».

- «لقد قالت: «هل سمعت الأخبار؟ هل استمتعت إلى المذياع؟ واستطعت أن أعرف من صوتها أنها ليست أخبارًا سيئة».

- «ألا يسعك أن تقوليها، ثم تعودي بعد ذلك إلى الكيفية التي قالتها لك بها؟».

- «لا يسعني تصديقها».

- «ألا يمكنك أن تدعيني أحاول تصديقها؟».

- «لقد فاز آلان بمرتبة الشرف».

- «ماذا؟ آلان؟ قُضِيَ عليّ!».

- «لقد فاز بمرتبة الشرف في مسابقة المقال على البلاد كلها».

- «كلا!».

- «بل فاز. خمسة فحسب فازوا بمرتبة الشرف، وساعة جائزة، وسيظهر في التليفزيون. هل تستطيع تصديق هذا؟ أحد المشاهير في الأسرة».

- «لا أستطيع التصديق. أتعنين أن كل ذلك الغباء كان مصطنعًا؟ يا له من ممثل! إن قلبه المحب الوحيد لم يقذف على الأرض إطلاقًا».

- «لا تهزل. بل فكر فحسب في أن ولدنا واحد من خمسة صبية في الولايات المتحدة بأكملها فازوا بمرتبة الشرف، وبالظهور في التليفزيون».

- «وساعة جائزة! إني لأعجب هل يستطيع أن يحدد بوساطتها الوقت».

- «إيثان، إذا كنت ستسخر، فسيعتقد الناس أنك تغار من ابنك».

- «إنني مذهول فحسب. كنت أعتقد أن أسلوبه في النثر يكاد يصل إلى مستوى الجنرال إيزنهاور وليس لآلان شيطان يساعده على الكتابة».

- «إنني أعرفك، يا إيثان. أنت تتسلى بالحط من قدرهم، ولكنك أنت الذي تفسدهم. إنه أسلوبك الخفي فحسب. وإني أريد أن أعرف، هل عاونته في كتابة مقالته؟».

- «عاونته! إنه لم يدعني حتى أراها».

- «حسنًا، إذن فالأمر على ما يرام. لم أكن راغبة في رؤية الغرور يتملكك لأنك كتبتها له».

- «إنني لا أستطيع أن أفهم الأمر. إنه يتجه إلى إظهار أننا لا نعلم الكثير عن أبنائنا الذين من صلبنا. وكيف تتقبل إيلين الأمر؟».

- «مزهوة طبعًا، كالطاووس. لقد كانت مارجي في غاية الانفعال بحيث استطاعت بالكاد أن تتكلم، إن الصحف تريد إجراء محادثات معه، والتليفزيون... إنه سيظهر في التليفزيون، ألا تدرك أنه ليس لدينا حتى جهاز لنشاهده فيه؟ ومارجي تقول إننا نستطيع رؤيته في جهازها. أحد المشاهير في العائلة! إيثان، ينبغي أن يكون لدينا تليفزيون».

- «سنشتري واحد. سيكون أول ما أفعل صباح الغد! هو شراء واحد أو لماذا لا تأمرين بإرسال واحد؟».

- «أنستطيع ذلك حقًّا يا إيثان! كنت قد نسيت أننا نمتلك المحل، نسيت تمامًا. هل تستطيع أن تتصور يا هذا؟ إنه أحد المشاهير!».

- «آمل أن نستطيع الحياة معه».

- «دعه يستمتع بيومه. ينبغي أن نشرع في العودة. إنهم آتون في قطار السابعة والدقيقة الثامنة عشرة. وكما تعلم ينبغي أن نكون هناك، كنوع من استقباله».

- «ونخبز فطيرة».

- «سأفعل ذلك».

- «ونعلق أوراق الزينة».

- «إنك لا تشعر بحسد دنيء، أليس كذلك؟».

- «كلا. إنني مأخوذ. أعتقد أن ورق الزينة يكون شيئًا رائعًا، على أن يشمل البيت كله».

- «ولكن ليس خارجه. فسيبدو ذلك تباهيًا. لقد قالت مارجي لم لا نتظاهر بأننا لا نعرف ثم نتركه يخبرنا؟».

- «أنا لا أوافق. فقد يخجل. وسيبدو له وكأننا لم نحفل للأمر. كلا، بل ينبغي أن يعود إلى البيت ليستقبله التهليل وصيحات النصر ثم كعكة. وإذا كان هناك ثمة محل مفتوح، فسأشتري له ألعابًا نارية».

- «إن الأكشاك التي على جانبي الطريق..».

- «طبعًا. سنفعل ذلك في طريق عودتنا إلى البيت، إذا كان قد بقى بها ثمة شيء».

خفضت ماري رأسها لحظة وكأنها تتلو صلاة. «أنت تمتلك المحل، وآلان أحد المشاهير. من كان يظن أن كل ذلك كان يمكن أن يحدث مرة واحدة؟ إيثان، ينبغي أن نشرع في العودة للبيت. ينبغي أن نكون هناك حين يأتون. لِمَ تبد بتلك الصورة؟».

- «لقد زحف عليَّ الأمر وكأنه موجة، ما أقل ما نعرفه عن أي شخص، وهذا يبعث فيَّ رعدة كالتي تبعثها اليرقات مصاصة الدماء. وأذكر في أثناء احتفال عيد الميلاد، أنني بدلًا من الابتهاج، شعرت بمرارة كمرارة (المش)».

- «وما هو المش؟».

- «إنه الوقع الذي جاء إلى أذني حين سمعت العمة ديبورا العظيمة تنطق كلمة wecshmez».

- «وما تلك الكلمة؟».

- «هناك إوزة تسعى على قبرك».

- «أوه! إذن فالأمر هكذا! حسنًا، لا تتمادى في ذلك. فإنني أعتقد أن هذا أحسن يوم في حياتنا كلها. وسيكون نكرانًا للجميل ألا نعترف بذلك. والآن اطرد بعيدًا مرارتك تلك. إنه اسم مضحك (مش). فلتدفع الحساب. وسأعد حاجياتنا».

ودفعت الفاتورة من النقود التي طويت على شكل مربع صغير محكم الطي. وسألت المستر مول: «هل بقيت لديك أي ألعاب نارية في قسم الهدايا؟».

- «أظن ذلك. سأرى.. ها هي ذي. كم تريد؟».

فقلت: «كل ما لديك، فقد صار ابننا أحد المشاهير».

- «حقًّا؟ وأي نوع المشاهير؟».

- «يوجد نوع واحد من الشهرة فحسب».

- «أتقصد في مثل ديك كلارك أو شيئًا من ذاك القبيل؟».

- «أو شهرة تشيسمان أو ديلينجر».

- «إنك تمزح».

- «وسيظهر في التليفزيون».

- «في أي محطة؟ متى؟».

- «إنني لا أدري بعد».

- «سأترقب ذلك. ما اسمه؟».

- «نفس الاسم الذي أحمله. إيثان آلان هولي – إنه يدعى آلان».

- «حسنًا، لقد شرفنا وجودك أنت والمسز آلان بيننا».

- «المسز هولي».

- «طبعًا. أتعشم أن تأتيا مرة أخرى. لقد أقام هنا كثير من المشاهير. إنهم يأتون إلى هذا المكان طلبًا للهدوء».

جلست ماري منتصبة مزهوة، ونحن نسير على الطريق الذهبي متجهين إلى البيت وسط حية المواصلات البطيئة المتلألئة.

- «لقد أحضرت صندوقًا كاملًا من الألعاب النارية، فيه ما يزيد على المائة».

- «لقد صرت الآن أقرب ما تكون إلى طبيعتك، يا عزيزي. إني لأتساءل هل عاد آل بيكر بعد».

# الفصل التاسع عشر

كان مسلك ابني حسنًا، وقد تملكه هدوء الأعصاب والعطف علينا. فلم ينتقم، ولم يأمر بإعدام أحد. وتقبل ما حظي به من شرف وما أسبغنا عليه من ثناء، على أنه حق له، دون غرور أو تواضع مبالغ فيه. وتقدم إلى مقعده في حجرة الجلوس ثم أدار مذياعه قبل أن ينطلق أزيز الألعاب النارية المائة وتستحيل إلى عصي سوداء. كان من الواضح أنه قد غفر لنا ذنوبنا. ولم أر قط صبيًّا يتقبل العظمة بكياسة أكثر منه.

كانت في الحقيقة ليلة العجائب. فإذا كان ارتقاء آلان السهل إلى عنان السماء أمرًا مدهشًا، فكم كان رد الفعل لدى إيلين أكثر إثارة للدهشة. فقد أنبأتني بضع سنوات من الملاحظة الدقيقة الإجبارية للآنسة إيلين، أن الحسد سيسحقها ويدمرها، وأنها ستبحث بالفعل عن وسيلة ما تقلل بها من عظمة أخيها. ولكنها خيبت ظني، فقد كانت هي المحتفية بأخيها. كانت إيلين هي التي أخبرتنا كيف كانوا يجلسون في شقة أنيقة تقع في الشارع السابع والستين بعد قضاء أمسية ساحرة، وهم يشاهدون - عرضًا– نشرة الأنباء الأخيرة في محطة تليفزيون سي. بي إس، حين أعلن خبر فوز آلان. وكانت إيلين هي التي أعادت سرد ما قالوه ساعتها، وكيف كانت حالتهم، وكيف استولت الدهشة عليهم بحيث كان في وسعك أن تطرحهم أرضًا بدفعة من ريشة. وجلس آلان ساكنًا نائيًا بأفكاره، بينما كانت إيلين تحكي كيف سيظهر مع الأربعة الآخرين، وكيف سيقرأ مقاله ينما يتطلع إليه الملايين وينصتون، وفي فترات توقفها عن الحديث كانت ماري تصدر صوتًا كنقيق الدجاج ينم عن سعادتها. تطلعت إلى مارجي يانج هنت، كانت مستغرقة في أفكارها مثلما تفعل في أثناء قراءتها للطالع. وتسلل إلى الغرفة سكون مظلم.

قلت: «لا مفر لنا. فهذه المناسبة تستدعي تقديم الجعة المثلجة لكل من بالمكان».

- «ستحضرها إيلين. أين إيلين؟ إنها تنسل داخلة وخارجة كالدخان».

وقفت مارجي يانج هنت في عصبية، وقالت: «هذه حفلة أسرته، وينبغي أن أذهب».

- «ولكنك جزء منها، يا مارجي. أين ذهبت إيلين؟».

- «لا تضطريني يا ماري إلى التصريح بأنني أشعر بقليل من التعب في عجزي».

- «إنك متعبة فعلًا، يا عزيزتي. ولكني دائمًا أنسى ذلك. وقد نلنا نحن راحة جيدة، لن تتصوري أبدًا أي قسط من الراحة نلنا، والفضل يرجع إليك».

- «لقد أحببت أن أفعل ذلك، ولم أكن لأتأخر عن فعله».

كانت تريد الانصراف، بل وبسرعة، فتقبلت شكرنا وشكر آلان، ثم هرعت إلى الخارج.

قالت ماري بهدوء: «لم نخبرها بأمر المحل».

- «دعك من ذلك، لأنه سيكون سطوًا على احتفال «صاحب السعادة» وهذا حقه. أين ذهبت إيلين؟».

فقالت ماري: «ذهبت لتنام. ذلك تفكير سديد، يا عزيزي، وأنت على صواب. لقد كان يومًا عظيمًا يا آلان. وقد حان وقت ذهابك للفراش».

وقال آلان في رقة: «أظنني سأجلس هنا قليلًا».

- «ولكنك محتاج للراحة».

- «إنني مستريح».

ونظرت ماري إليّ طالبة المساعدة.

- «هذه هي الفترات التي يختبر فيها جوهر الرجال. بوسعي أن أشبعه ضربًا، كما أننا نستطيع أن ندعه يمارس انتصاره حتى علينا».

- «ولكنه في الحقيقة لا يعدو أن يكون صبيًّا صغيرًا. وهو محتاج للراحة».

- «إنه محتاج لعديد من الأشياء، ولكن الراحة ليست واحدة منها».

- «كل امرئ يعرف أن الأطفال يحتاجون إلى الراحة».

- «إن الأمور التي يعرفها كل امرئ، هي في الغالب أقرب الأمور إلى الخطأ. هل عرفت قط طفلًا مات من العمل الزائد؟ كلا، البالغون فحسب هم الذين يموتون بهذا السبب. أما الأطفال فهم أذكى كثيرًا من أن يفعلوا ذلك. وهم يستريحون عندما يحتاجون للراحة».

- «ولكن الوقت بعد منتصف الليل».

- «إنه كذلك يا عزيزتي، وسينام حتى ظهر الغد. أما أنت وأنا فسنكون مستيقظين في السادسة».

- «أتعني أنك ستأوي إلى فراشك وتتركه جالسًا هنا؟».

- «إنه في حاجة إلى الانتقام منا لأننا أنجبناه».

- «لا أدرى عن أي شيء تتكلم. أي انتقام؟».

- «بودي أن أعقد معك معاهدة، لأن الغضب أخذ يتملكك».

- «وإني لكذلك. فقد أخذ الغباء يتملكك».

- «سأدفع لك سبعة وأربعين مليونًا وثمانمائة وستة وعشرين دولارًا وثمانين سنتًا، إذا لم يتسلل إلى مخدعه خلال نصف ساعة من ذهابنا للفراش».

حسنًا، خسرت الرهان، وينبغي عليَّ أن أدفع لها. فقد انقضت خمس وثلاثون دقيقة بعد أن تمنينا له ليلة سعيدة، حين صر السلم تحت أقدام ابننا الشهير.

وقالت ماري: «إني أكرهك عندما تكون على صواب». كانت قد هيأت نفسها لقضاء الليل في الإصغاء.

- «لم أكن على صواب، يا عزيزتي. فقد خسرت الرهان بخمس دقائق. وهذا بالضبط ما أذكره».

حينئذ استغرقت في النوم. ولم تسمع إيلين وهي تتسلل هابطة الدرج، مثلما سمعتها أنا. كنت أرقب النقط الحمراء وهي تتحرك في الظلام. ولكني لم أتابع هذه المراقبة، لأني سمعت (تكة) المفتاح النحاسي الخافتة وهو يدور في قفل الدولاب، فعرفت أن ابنتي تقوم بشحذ عزيمتها.

نشطت نقطي الحمراء. فاندفعت هنا وهناك ثم ولَّت هاربة حين ركزت عيني عليها. كان القبطان العجوز يتجنبني. فهو لم يظهر لي بصورة واضحة منذ... حسنًا منذ عيد القيامة. فليس حاله كحال العمة هاريت –«الكائنة أعلانا في السماء»– ولكن الذي أعرفه فعلًا أن القبطان العجوز لا يظهر لي بصورة واضحة حين لا أكون على وفاق مع نفسي. وذلك نوع من اختبار علاقاتي الشخصية مع نفسي.

وفي هذه الليلة أجبرته على الظهور. استلقيت ممددًا متصلب الجسد، بعيدًا فوق الجانب الذي يخصني من الفراش، وشددت كل عضلة في جسمي، وخاصة عضلات الرقبة والفك، وضممت قبضتي على معدتي وأجبرته على الظهور، بعينيه الباردتين الضيقتين، وشاربه الأبيض الشائك، وكتفيه المحنيين إلى الأمام مما يدل على أنه كان يومًا ما رجلًا قوي الجسم، وأنه استعمل تلك القوة. بل إنني جعلته يرتدي قبعته الزرقاء ذات الحافة القصيرة اللامعة وحرف «ه» الذهبي الناتج عن هبيلين، تلك القبعة التي كان نادرًا ما يرتديها. وتمنع العجوز، ولكني جعلته يحضر، وأجلسته على سور الميناء القديم المهدم بالقرب من المكان، أجلسته بحزم فوق كومة من حجارة الرصف، وثبت يديه المضمومتين على قبضة عصاه المصنوعة من ناب الحوت. كان من الممكن لهذه العصا أن تصرع فيلًا.

- «إني محتاج لشيء أكرهه. فقد تملكني الأسى والإدراك وذلك مؤلم، إني أبحث عن كراهية حقيقية تنتزع مني حرارة الألم».

الذاكرة سمكة مليئة بالبيض المخصب. أبدأ بأثر واحد واضح مفصل، وهي تقفز للعمل ويكون بوسعها –حالما تبدأ العمل– أن تسير إلى الأمام وإلى الخلف مثل شريط سينمائي.

تحرك القبطان العجوز، وأشار بعصاه قائلًا: «خذ خطًّا من الصخرة الثالثة خلف حاجز الأمواج، ومده مع طرف «بورتي بوينت» ساعة ارتفاع المد، وحينئذ ستجدها، أو ما تبقى منها، مستقرة على مبعدة نصف كابل بحري من ذلك الخط».

- «وما طول نصف كابل بحري يا سيدي؟».

- «ما طوله؟ نصف مائة فرسخ بالطبع. كانت قد ألقت مراسيها وتركت تتأرجح مع المد المنساب.

وظلت على تلك الحال سنتين منحوستين، ونصف براميل الزيت التي بها فارغة. وكنت على الشاطئ حين شبت فيها النار حوالي منتصف الليل. وعندما احترق الزيت، أضاءت البلدة وكأننا ساعة الظهيرة، وكانت ألسنة اللهب تمتد بعيدًا مع الزيت الطافي على سطح البحر حتى «أوسبرى بوينت». ولم يكن بوسعنا سحبها إلى الشاطئ خشية أن تحرق أحواض السفن. وخلال ساعة احترق جزؤها الذي يعلو سطح الماء. وهناك تحت الماء، ترقد الآن قاعدتاها الرئيسية والثانوية سليمتين؛ فقد كانتا مصنوعتين من خشب البلوط البكر المقطوع من جزيرة شلتر، وكذلك كانت زواياها أيضًا».

- «وكيف بدأ الحريق؟».

- «لم أعتقد أبدًا أنه بدأ. وقد كنت على الشاطئ».

- «ومن الذي كان يرغب في حرقها؟».

- «أصحابها طبعًا».

- «ولكنك كنت صاحبها».

- «كنت أملك نصفها. ولم يكن بوسعي حرقها. إني أحب أن أرى تلك الأخشاب، أحب أن أرى كيف صار حالها الآن».

- «تستطيع الانصراف الآن، يا سيدي القبطان».

- «لكن ذلك وازع هزيل ليبعث فيك الكراهية».

- «إنه أفضل من لا شيء. سأرفع تلك القاعدة، حالما أغتني. سأفعل ذلك من أجلك، على خط من الصخرة الثالثة حتى «بورتي بوينت» ساعة ارتفاع المد، ثم خمسون فرسخًا بعد ذلك». لم أكن نائمًا. كانت قبضتاي وساعداي متصلبتين ضاغطتين على معدتي، كي أمنع القبطان العجوز من التلاشي، ولكن حين تركته يمضي طواني النوم.

كان فرعون حين يرى حلمًا، يستدعي مفسري الأحلام فيخبروه كيف كانت وما ستؤول إليه الأمور في المملكة. وكان ذلك صوابًا لأنه هو نفسه كان المملكة. أما عندما يرى بعضنا حلمًا، ويذهب به إلى مفسر أحلام، فإنه يخبرنا عن سير الأمور في حدود وطن أنفسنا. وقد رأيت حلمًا لم يحتج إلى مفسر أحلام. وإنني –مثل غالبية الناس العصريين– لا أومن بالنبوءة ولا بالسحر، وبعدئذٍ أضيع نصف وقتي في ممارسته.

في فصل الربيع انتاب آلان شعور بهبوط معنوياته ووحشته، فأعلن أنه ملحد كي يقتص من الله ووالديه. فقلت له، عليه إذن ألا يصعد جذع شجرة، وإلا فلن يكون أمامه سبيل للنزول، وألا يسير تحت السلالم ويقضي على القطط السوداء بالطعن والقرص، وعليه ألا يدعو لتتحقق رغباته عند طلوع البدر الجديد. أكثر الناس خوفًا من أحلامهم يقنعون أنفسهم بأنهم لا يحلمون على الإطلاق، ويمكنني أن أفسر حلمي بسهولة، ولكن ذلك لا يقلل بأي شكل من رهبته.

جاءني أمر من داني، ولا أدري بأي وسيلة بلغني. (قال فيه) إنه مسافر بالطائرة ويريد مني القيام بأمور معينة، أمور يجب أن أقوم بها بنفسي فهو يريد قبعة لماري، وينبغي أن تكون من الشمواه البني الغامق ومبطنة بالصوف. ينبغي أن تكون من جلد مماثل لجلد خفين قديمين موجودين عندي مبطنين بجلد الحمل، وينبغي أن تشبه قبعة لعبة البيسبول ولها قرن طويل. كما طلب مني أيضًا مقياسًا يبين سرعة الريح، على ألا يكون مما يصنع من أكواب معدنية صغيرة دوارة، بل تصنع باليد من الورق المقوى الرقيق الصلب الذي تصنع منه بطاقات البريد الحكومية، ثم تركب على شرائح من الخيزران. وطلب مني مقابلته قبل أن يقلع بالطائرة. فحملت معي عصا القبطان العجوز المصنوعة من ناب الحوت، وهي تحفظ حمالة المظلات المصنوعة على شكل قدم فيل والموجودة في صالة بيتنا.

حين قُدِّمت إلينا قدم الفيل تلك كهدية، تطلعت إلى الأظافر الضخمة التي بلون العاج. وقلت لولدي: «أول طفل منكما يضع طلاء الأظافر على أظافر تلك القدم سأشبعه ضربًا. مفهوم؟» وقد أطاعاني، فكان عليَّ أن أطليها بنفسي، بطلاء أظافر أحمر زاهٍ أخذته من منضدة زينة ماري.

ذهبت لمقابلة داني في سيارة مارولو البونتياك، وكان المطار هو مكتب بريد نيوبايتون. عندما أوقفت السيارة، وضعت العصا (المبرومة) على المقعد الخلفي، فاقتربت مني سيارة لنقل الجنود فيها شرطيان تبدو عليهما الخسة، وقالا: «لا تضعها على المقعد الخلفي».

- «هل هذا مخالف للقانون!».

- «إذن فأنت تريد أن تتفلسف!».

- «كلا. بل كنت أسأل فحسب».

- «حسنًا، لا تضعها على المقعد».

كان داني في الجزء الخلفي من مكتب البريد يفرز طرودًا. وكان يرتدي القبعة المصنوعة من جلد الحمل، ويدير مقياس سرعة الريح المصنوع من الورق المقوى. كان وجهه هزيلًا وشفتاه مشققتين جدًّا، أما يداه فكانتا منتفختين مثل قربتي ماء ساخن، وكأنهما قد تعرضتا للسع النحل.

ووقف لمصافحتي، فغلفت الكتلة المطاطية الدافئة بيدي اليمنى. ووضع شيئًا في يدي، شيئًا صغيرًا وثقيلًا وباردًا، في مثل حجم مفتاح ولكنه ليس بمفتاح بل شكلًا ما، شيئًا معدنيًّا شعرت من ملمسه أنه حاد الأطراف ومصقول. ولا أدري ماذا كان، فلم أتطلع إليه وإنما تحسسته فقط. وملت مقتربًا منه، ثم قبلته من فمه، فأحسست من شفتي أن شفتيه الجافتين مشققتان تمامًا وخشنتان، وعندئذ صحوت مرتعدًا ومقرورًا. كان الفجر قد بزغ، واستطعت رؤية البحيرة ولكن دون البقرة الواقفة فيها، كنت لا أزال أستطيع الإحساس بالشفتين المشققتين الجافتين. وفي الحال نهضت من فراشي إذ لم أشأ الرقاد فيه لأفكر في هذا الحلم. لم أصنع قهوة، بل ذهبت إلى قدم الفيل ورأيت أن تلك الهراوة اللعينة، المسماة عصا لازالت في مكانها.

كان الوقت وقت اختلاج الفجر، والجو حر ورطب، فلم تكن ريح الصباح بدأت هبوبها بعد. وكان

الشارع ماديًّا فضيًّا والرصيف زلقًا بسبب الفضلات البشرية. لم يكن مقهى الفورماستر قد فتح أبوابه، ولكني على أي حال لم أكن راغبًا في تناول القهوة. اخترقت الحارة وفتحت باب محلي الخلفي، وتطلعت إلى الجزء الأمامي من المحل، فرأيت صندوق القبعة الجلدي خلف الطاولة. وفتحت علبة قهوة، ثم صببت القهوة في صفيحة القمامة. بعدئذ ثقبت علبة لبن مركّز ثقبين، وأفرغت اللبن في علبة القهوة، ووضعت الإسفين تحت الباب الخلفي ليظل مفتوحًا، ثم وضعت علبة اللبن في المدخل. كان القط في الحارة بالفعل، ولكنه لن يقرب اللبن إلا بعد ذهابي إلى مقدمة المحل. ومن هناك استطعت رؤيته، قط رمادي في حارة رمادية، يلعق اللبن، وحين رفع رأسه كان اللبن يغطي شاربه. ثم جلس ومسح فمه ولعق باطن قوائمه.

فتحت صندوق القبعة وأخرجت قسائم يوم السبت، كانت جميعها مدونه في القائمة وقد ضمت إلى بعضها بمشبك ورق. وأخرجت من مظروف المصرف البني ثلاثين ورقة من فئة المائة دولار، وأعدت العشرين ورقة الأخرى إلى مكانها. ستكون هذه الثلاثة آلاف دولار الحد الذي يكفل سلامتي إلى أن تتوازن اقتصاديات المحل. أما الألفان الآخران من نقود ماري فسأردهما إلى حسابها، وحالما أتمكن من تسيير العمل بشكل مطمئن، أرد الثلاثة آلاف أيضًا. وضعت الثلاثين ورقة في حافظتي الجديدة، مما جعلها تنتفخ إلى حد كبير في جيبي الخلفي. بعد ذلك أحضرت الأكياس وصناديق الورق المقوى من المخزن، وأخذت أشقها وأمزقها لأفتحها، ثم بدأت أسد النقص في الأرفف التي استهلكت، وأثناء ذلك كنت أكتب على قصاصة من ورق التغليف قائمة بالبضائع التي ينبغي تجديد طلبياتها.

كومت العلب والصناديق في الحارة حتى تأتي سيارة نقل القمامة لأخذها، وأعدت ملأ علبة القهوة باللبن ولكن القط لم يعد. فهو إما أن يكون قد نال كفايته، وإما أنه لا يستمتع إلا بما يستطيع سرقته فحسب.

لابد أن هناك سنوات تختلف عن سنوات أخرى، تختلف في طقسها وأحوالها، مثلما يمكن أن يختلف يوم عن يوم آخر. فقد كان هذا العام –عام 1960– عام تبدل، عامًا تتكشف مخاوفه المستورة وتبين، عامًا يكف فيه الضجر عن السكون ويتحول تدريجيًّا إلى غضب. لم يكن هذا إحساسي وحدي أو إحساس نيوبايتون، فسرعان ما سيحل موعد الترشيحات لرئاسة الجمهورية، وقد أخذ الضجر الذي يسود الجو في التحول إلى غضب، مع ما يصحب الغضب من تهيج. كما لم يكن هذا إحساس الدولة فحسب، فقد كان العالم بأجمعه يتململ متبرمًا قلقًا، بينما راح الضجر يتحول إلى غضب، والغضب يحاول أن يجد له متنفسًا بإيجاد حدث، أي حدث طالما انطوى على العنف، كانت أفريقيا، وكوبا، وأمريكا الجنوبية، وأوروبا، وآسيا، والشرق الأدنى، كلها قلقة مثل خيول تنتظر عند حاجز السباق.

وعرفت أن يوم الثلاثاء، الخامس من يوليو، سيكون يومًا مليئًا بالأحداث أكثر من الأيام الأخرى. بل إني عرفت الأشياء التي ستقع قبل وقوعها، ولكن حيث إنها وقعت، فلن أتأكد أبدًا مما إذا كنت قد عرفتها فعلًا.

أعتقد أني عرفت أن المستر بيكر –الساعة ذات السبعة عشر حجرًا والمضادة للصدمات، والتي تبعث في الساعات دقاتها– سوف يأتي مجلجلًا إلى بابي الأمامي قبل موعد فتح المصرف بساعة. وقد جاء قبل أن أفتح المحل لممارسة عملي، فأدخلته ثم أغلقت الأبواب خلفه.

قال: «يا له من أمر مريع! كنت بمعزل عن الأخبار، وقد عدت حالما سمعت».

- «أي أمر مريع يا سيدي؟».

- «الفضيحة طبعًا! أولئك الرجال أصدقائي، بل أصدقائي القدامى. ينبغي أن أفعل شيئًا من أجلهم».

- «إنهم لن يستجوبوا قبل إجراء الانتخابات، فهم متهمون فحسب».

- «أعلم ذلك. ألا يمكننا أن نذيع بيانًا عن اعتقادنا ببراءتهم؟ ولو حتى على شكل إعلان ندفع أجره، إن كان ذلك ضروريًّا».

- «في أي جريدة يا سيدي؟ إن صحيفة «باي هاربور ميسنجر» لا تصدر قبل يوم الخميس».

- «حسنًا، ولكن ينبغي عمل شيء ما».

- «أعلم ذلك».

كان ردًّا بالغ الرسمية، فلابد أنه كان يعلم أني أعلم. ولكن الواقع أنه قابل نظراتي وقد بدا عليه الانزعاج الحقيقي.

- «هذه العصبة المجنونة ستدمر انتخابات البلدة ما لم نفعل شيئًا. ينبغي أن نقدم مرشحين جدد، ولا خيار لنا في الأمر. إنه لشيء مرعب أن يفعل المرء ذلك بأصدقائه القدامى، ولكنهم أول من يجب أن يعلم أننا لا نستطيع أن ندع تلك العصبة المتعالمة تتدخل في الأمر».

- «لم لا تتحدث إليهم؟».

- «إنهم متهوسون مجانين. ولم يتح لهم الوقت ليتدبروا الأمر. هل جاء مارواللو؟».

- «أرسل صديقًا. وقد اشتريت المحل مقابل ثلاثة آلاف دولار».

- «هذا طيب. لقد عقدت صفقة جيدة، وهل حصلت على الأوراق!».

- «أجل».

- «حسن، ولو راوغ فأوراق العملة مسجلة».

- «لن يراوغ، فهو يريد أن يرحل. إنه متعب».

- «لم يحز ثقتي مطلقًا. فلم أعرف أبدًا فيم كان يشتغل».

- «أكان محتالًا يا سيدي؟».

- «كان مخادعًا، يلعب على طرفي الحبل، ولو أمكنه التصرف في ممتلكاته لحصل على مبلغ كبير، أما بثلاثة آلاف... فذلك نوع من الهبة».

- «لقد كان يحبني».

- «لا ريب في ذلك. من الذي أرسله إليك، جماعة المافيا؟».

- «موظف حكومي. وكما ترى كان مارولو يثق بي».

قطب المستر بيكر جبينه، وكان ذلك غير مألوف بالنسبة لشخصيته. وقال: «لم لم أفكر في ذلك أنت هو الرجل. من أسرة طيبة، وموثوق به، صاحب عقار، رجل أعمال، ويتمتع بالاحترام. لا عدو لك في البلدة. أنت الرجل ولا شك».

- «الرجل؟».

- «الرجل الذي يشغل منصب مدير البلدية».

- «لم أكن رجل أعمال إلا منذ يوم السبت فحسب».

- «أنت تعلم مقصدي. فبوسعنا أن نحيطك بوجوه جديدة محترمة وهذا هو الطريق السليم».

- «من موظف في محل بقالة إلى مدير للبلدية؟».

- «لم ينظر أحد أبدًا إلى فرد من عائلة هولي على أنه موظف في محل بقالة».

- «ولكني فعلت أنا وماري».

- «إنك لست كذلك. ونستطيع أن نذيع الخبر اليوم قبل أن تستعد تلك العصبة المجنونة».

- «يجب أن أتدبر الأمر من أوله إلى آخره».

- «لا وقت لذلك».

- «فيمن فكرت من قبل؟».

- «قبل ماذا؟».

- «قبل أن يتقوض المجلس. سأحادثك في هذا الموضوع فيما بعد. لقد كان يوم السبت عظيمًا، كان بوسعي أن أبيع الميزان أيضًا».

- «تستطيع أن تجعل من هذا المحل شيئًا بديعًا يا إيثان. ونصيحتي إليك أن تدعمه ثم تبيعه. فستصبح أكبر من أن تقف لخدمة الزبائن. ألا توجد أي أخبار عن داني؟».

- «ليس بعد. فلا أخبار حتى الآن».

- «كان ينبغي ألا تعطيه النقود».

- «ربما كان ينبغي ألا أفعل. ولكني اعتقدت أنني أقوم بعمل طيب».

- «طبعًا. طبعًا».

- «مستر بيكر، سيدي.. ماذا حدث للسفينة بل آدير؟».

- «ماذا حدث لها؟ احترقت بالطبع».

- «في الميناء. كيف بدأ الحريق يا سيدي؟».

- «يا له من وقت مضحك لتسأل هذا السؤال. إني أعرف ما سمعته فحسب. وقد كنت صغيرًا جدًّا حتى إنني لا أتذكر. كانت تلك السفن القديمة تتشبع بالزيت، وأعتقد أن بحارًا ألقى عود ثقاب. كان جدك هو الربان، وأعتقد أنه كان على الشاطئ ساعتها، كان قد وصل لتوه».

- «كانت رحلة سيئة».

- «ذلك ما سمعته».

- «هل كانت هناك أي مشقة في الحصول على التأمين؟».

- «حسنًا، إنهم يوالون إرسال المحققين. كلا لم تكن هناك مشقة، فقد استغرق الأمر بعض الوقت ولكنا حصلنا على التأمين، آل هولي وآل بيكر».

- «كان جدي يعتقد أن النار أُشعلت فيها».

- «ولِمَ، بحق السماء؟».

- «للحصول على نقود التأمين، فصناعة صيد الحيتان كانت قد ولت».

- «لم أسمع أبدًا أنه قال ذلك».

- «لم تسمع أبدًا؟».

- «إيثان – ما الذي ترمي إليه؟ لماذا تنبش شيئًا وقع منذ عهد بعيد؟».

- «إن حرق سفينة أمر مرعب، بل إنه جريمة قتل. وإني أنوي أن أرفع قاعدتها من الأعماق يومًا ما».

- «قاعدتها؟».

- «إني أعرف المكان الذي تستقر فيه بالضبط. على مبعدة خمسين فرسخًا من الشاطئ».

- «ولم ينبغي أن تفعل ذلك؟».

- «أود أن أرى إذا ما كان خشبها البلوطي لا يزال سليمًا. فقد كان من البلوط البكر الموجود في شلتر ايلاند. ولن تكون السفينة تالفة تمامًا ما دامت قاعدتها سليمة.

يجدر بك أن تنصرف إذا كنت ستبارك عملية فتح الخزانة. كما أن عليَّ أن أفتح المحل».

عندئذ بدأ (رقاصه) الحركة، وانتظمت دقاته وهو يسير إلى المصرف. أعتقد الآن أني توقعت حضور بيجرز أيضًا، فقد حتم الصديق المسكين أن يقضي جل وقته في مراقبة الأبواب. ولابد أنه كان ينتظر انصراف مستر بيكر في مكان ما يقع في المجال الذي يسمح له باختلاس النظر.

- «آمل ألا تنقض عليَّ وتمسك بخناقي».

- «ولِمَ أفعل؟».

- «بوسعي أن أدرك سبب غضبك المفاجئ. أظنني لم أكن دبلوماسيًّا جدًّا».

- «ربما كان ذلك هو السبب».

- «هل أمعنت الفكر في عرضي؟».

- «أجل».

- «وما رأيك؟».

- «أعتقد أن ستة في المائة ستكون أفضل».

- «لا أعلم إذا ما كنت شركة بي. بي سترضى بذلك».

- «الأمر متروك لهم».

- «قد يوافقون على خمسة ونصف».

- «وقد توافق أنت على النصف الآخر».

- «ويا إلهي، يا رجل. واعتقدت أنك ستكون فتًى ريفيًّا، فإذا بك بارع الذكاء».

- «فلتقبل العرض أو ترفضه».

- «حسنًا. أي نوع من البضاعة ستكون طلبيتك؟».

- «هناك قائمة جزئية بجانب آلة عد النقود».

فدرس المكتوب على قصاصة ورق اللف، وقال: «يبدو أنك علقتني في خطاف. وها أنذا يا أخي أنزف. هل يمكنني استلام الطلبية الكاملة اليوم؟».

- «ستكون في الغد طلبية أفضل وأكبر».

- «أتعني أنك ستحول حسابك كله إلينا؟».

- «إذا تعاملتم معي معاملة حسنة».

- «أخي، لابد أنك تمسك عنق رئيسك بين يديك. هل تستطيع تنفيذ ذلك».

- «عليَّ فحسب أن أدبر الأمور».

- «حسنًا، ربما استطعت قضاء بعض الوقت مع صديقة الوكيل المتجول. ينبغي أن تكون في برودة سمكة الرنجة يا أخي. أقول لك إن تلك المرأة شهية».

- «إنها صديقة زوجتي».

- «أوه. ياه. أدرك كيف يكون الأمر معك. إنه لخبر سيئ كونها وثيقة الصلة ببيتكم. إنك ذكي. وإن كنت لم أعرف ذلك قبلًا، إلا أنني أعرفه الآن ستة في المائة. يا إلهي!

إلى الغد صباحًا».

- «ويحتمل في ساعة متأخرة من أصيل اليوم إذا أتيح لي الوقت».

- «فلنجعلها غدًا صباحًا».

جاء العمل يوم السبت على دفعات. أما هذا الثلاثاء فقد تغير إيقاع الحركة فيه تغيرًا كليًّا. كان الناس يتباطأون، ويرغبون في الكلام عن الفضيحة وهم يقولون، إن ذلك أمر سيئ، مخيف ومقزز، ولكنهم كانوا يتلذذون بالتحدث عنه. فلم تحدث عندنا فضائح منذ مدة طويلة. ولم يذكر واحد منهم المؤتمر الوطني الديموقراطي الذي سيعقد في لوس أنجلوس –ولو مرة واحدة- ونيوبايتون بلدة جمهورية النزعة طبعًا، ولكني أظن أن معظم اهتمام أهلها كان منصبًّا على ما هو وثيق الاتصال ببلدهم. فنحن نعرف الرجال الذين أخذنا نرقص فوق قبورهم.

دخل مدير البوليس ستونول جاكسون خلال ساعة الظهيرة، وقد بدا عليه التعب والكدر.

وضعت علبة زيت على الطاولة واصطدت المسدس القديم بقطعة سلك.

- «هاك الإثبات، أيها المدير. هلا سمحت بأخذه بعيدًا؟ فهو يثير أعصابي».

- «حسنًا، هلا مسحت الزيت عنه؟ انظر. إنه من ذلك النوع الذي اعتادوا أن يسموه (مسدس بدولارين)، وهو ذو سقاطة علوية ومن ماركة إيفور جونسون. هل جئت بأحد لملاحظة المحل؟».

- «كلا».

- «أين مارللو».

- «إنه خارج البلدة».

- «أظن أنه ربما تحتم عليك أن تغلق المحل فترة قصيرة».

- «ماذا هناك، أيها المدير».

- «حسنًا، لقد هرب ابن تشارلي بريور من منزله هذا الصباح. ألديك أي مشروب بارد هنا؟».

- «بالتأكيد. عصير برتقال، جيلاتي، عصير ليمون، كوكاكولا فماذا تريد؟».

- «أعطني زجاجة سفن آب. إن تشارلي رجل ظريف. وابنه توم في الثامنة من عمره، ويتصور أن العالم يقف ضده وينوي الهرب ليصبح قرصانًا. ولو كان والده أي شخص آخر لصفعه على قفاه، ولكن تشارلي لا يفعل. ألا تنوى فتح هذه الزجاجة؟».

- «آسف. هاك هي. لكن ما علاقتي بتشارلي؟ إني أحبه بالطبع».

- «حسنًا، إن تشارلي لا يدبر الأمور كما يدبرها الآخرون. فهو يتصور أن أحسن طريقة لعلاج توم هي مساعدته. وهكذا بعد أن تناولا إفطارهما أعدا حزمة من فراش وطعامًا كثيرًا. وأراد توم أن يأخذ معه سيفًا يابانيًّا لحماية نفسه، ولكنه جرى وراءه، فاستقر رأيه على أن يأخذ سونكيًّا. وشحنه تشارلي في السيارة وقادها به إلى خارج البلدة ليمنحه بداية طيبة. وأنزله هناك قريبًا من مرجة تيلور، إنك تعرفها، عند بيت آل تيلور القديم. حدث هذا حوالي التاسعة من صباح اليوم.

وراقب تشارلي صبيه فترة قصيرة، فكان أول ما فعل أن جلس على الأرض وأكل ست شطائر وبيضتين مسلوقتين. وبعد ذلك سار في طريقه عبر المرجة يحمل حزمته الصغيرة والسونكي. وقاد تشارلي سيارته عائدًا إلى بيته.

ها قد حلت اللحظة الحاسمة. لقد عرفتها، عرفتها. وغالبًا ما كان انقضاؤها مبعث راحة.

- «وحوالي الساعة الحادية عشرة خرج الصبي إلى الطريق ولعابه يسيل، والتقطته سيارة ذهبت به إلى البيت».

- «أعتقد أن بوسعي أن أخمن. ستوني، هل هو داني؟».

- «أخشى ذلك. فقد وجد هناك بأسفل في مدخل قبو البيت القديم. ومعه صندوق من الويسكي لم تفرغ منه سوى زجاجتين، وزجاجة حبوب منومة يؤسفني أن أسألك هذا السؤال، يا إيثان. ولكنه بقي هناك فترة طويلة وقد هاجمه حيوان ما في وجهه. ولعلها القطط. فهل تتذكر أي ندوب أو علامات في جسده؟».

- «لا أريد رؤيته، أيها المدير».

- «ومن الذي يريد؟ ولكن ماذا بشأن الندوب؟».

- «أذكر جرحًا نجم عن سلك شائك أعلى ركبة ساقه اليسرى، و...و» شمرت كمي، «وقلبًا مثل هذا تمامًا موشوم على ذراعه. لقد رسمنا هذا الوشم حين كنا صبيين. جرحناه بشفرة حلاقة ثم دعكنا حبرًا فوق الجرح. وما يزال واضحًا جدًّا، أترى؟».

- «حسنًا، قد يفي ذلك بالغرض. أهناك شيء آخر؟».

- «أجل، ندبة كبيرة تحت ذراعه اليسرى، من أثر قص جزء من الضلع، فقد أصيب بالتهاب رئوي بللوري قبل اكتشاف الأدوية الحديثة فأدخلوا أنبوبة في الفتحة لتصريف إفرازات الجرح».

- «بالطبع إذا كان هناك ضلع منقوص فسيفي ذلك بالغرض. ولن يكون عليَّ العودة شخصيًّا. فليمتط المحقق دابته إلى هناك، سيكون عليك أن تقسم على صحة تلك العلامات إذا كانت الجثة جثته».

- «حسنًا، ولكن لا تضطرني للنظر إليه يا ستوني، فقد كان –أنت تعلم– كان صديقي».

- «بالتأكيد، يا إيثان. قل لي، هل هناك نصيب من الصحة فيما أسمعه عن ترشيحك لمنصب مدير البلدية؟».

- «هذا خبر جديد عليَّ أيها المدير. هل يمكنك البقاء هنا دقيقتين».

- «يجب أن أذهب».

- «دقيقتين فقط ريثما أهرع عبر الشارع لأتناول شرابًا».

- «أوه بالتأكيد. أفهم حالتك بالتأكيد، هيا اذهب. عليَّ أن أساير مدير البلدية الجديد».

تناولت شرابي واشتريت زجاجة ربع لتر لأعود بها معي إلى المحل. حين انصرف ستوني، كتبت على قطعة من الورق المقوى «عائد في الساعة الثانية» ثم أغلقت الأبواب وأسدلت الستائر.

جلست على صندوق القبعة الجلدي، خلف الطاولة في محلي، جلست في ظلمة محلي المعتمة الخضراء.

# الفصل العشرون

في الساعة الثالثة إلا عشر دقائق خرجت من الباب الخلفي واستدرت حول الناصية متجهًا إلى واجهة المصرف. كان مورفي بداخل قفصه البرونزي، فسحب مني حزمة الأوراق المالية والشيكات، والمظروف البني وأوراق الإيداع ثم فتح دفاتر المصرف الصغيرة وجعل أصابعه على شكل رقم 8 وكتب أرقامًا صغيرة ذات زوايا بقلم فولاذي كان يحدث صريرًا على الورق. وعندما دفع الدفاتر إليَّ، رفع باصريه بعينين غامضتين حذرتين.

- «لن أتكلم عن الحادث يا إيثان، فإني أعرف أنه كان صديقك».

- «شكرًا».

- «إذا خرجت بسرعة فقد تتفادى لقاء المدير».

ولكني لم أتفاد اللقاء. كل ما أعلمه هو أنه يحتمل أن يكون مورفي قد ضغط على جرس متصل به. فقد انفتح باب المكتب المصنوع من الزجاج المغبش وبدا منه مستر بيكر أنيقًا نحيفًا أشيب الشعر، وقال في هدوء: «هل تستطيع أن تفرغ لي لحظة يا إيثان؟».

لا جدوى من التأجيل. سرت ودخلت عرينه الجليدي فأغلق الباب برقة فائقة حتى إني لم أسمع صوت قفل الباب. كان يعلو مكتبه لوح من الزجاج، وضعت تحته قوائم فيها أرقام مكتوبة على الآلة الكاتبة. وقد قام إلى جوار كرسيه العالي كرسيان متوازيان للعملاء، وكأنهما عجلين صغيرين رضيعين. كانا مريحين ولكنهما أكثر انخفاضًا من الكرسي الذي إلى مكتبه. وحين جلست كان عليَّ أن أرفع ناظري لأرى المستر بيكر وقد جعلني هذا الوضع في موقف الابتهال.

- «شيء محزن».

- «نعم».

- «لا أعتقد أن اللوم كله ينبغي أن يلقى عليك. كان من المحتمل أن يقع الحادث على أي حال».

- «محتمل».

- «وإني واثق من اعتقادك بأنك كنت تفعل الشيء الصحيح».

- «ظننت أنه لا زلت لديه فرصة».

- «طبعًا».

كانت الكراهية تصعد إلى حلقي بمذاق مر، أكثر إثارة للغثيان منه للغضب.

- «بغض النظر عن المأساة الإنسانية والفقدان، فإن هذا الحادث يثير صعوبة. هل تعلم ما إذا كان له أقارب؟».

- «لا أظن ذلك».

- «كل من يملك مالًا له أقارب».

- «ولكنه لم يملك مالًا».

- «كان يملك مرجة تيلور. أرض لا ديون عليها ولا رهونات».

- «صحيح؟ حسنًا؟ لقد كان يملك مرجة وفتحة قبو».

- «إيثان، لقد قلت لك إننا وضعنا تصميم مطار لخدمة المنطقة كلها. والمرجة مكان منبسط، فإذا لم نتمكن من الاستفادة بها، فسنتكلف الملايين لنشق مدارج للطائرات وسط التلال. والآن، وحتى لو لم يكن له ورثة، فسيستدعي الأمر عرض الموضوع على المحاكم. وهذا يستغرق شهورًا».

- «أدرك هذا».

وتفجر غضبه: «إني لأتساءل إذا ما كنت تدرك هذا فعلًا. فبمقاصدك النبيلة قذفت بالمشروع إلى عنان السماء. إني أعتقد أحيانًا أن فاعل الخير هو أخطر شيء في العالم».

- «ربما كنت على صواب. يجب أن أعود إلى المحل».

- «لقد صار محلك».

- «إنه كذلك. أليس كذلك؟ لا أستطيع تعود ذلك. فأنا أنسى».

- «أجل إنك تنسى. فالنقود التي أعطيتها له كانت نقود ماري، ولن تراها أبدًا الآن. وأنت الذي أضعتها».

- «كان داني معجبًا بزوجتي ماري، وكان يعلم أن النقود نقودها».

- «يا للخير العظيم الذي سيسببه هذا لها!».

- «لقد ظننت أنه كان يمزح، حين أعطاني تلك». وأخرجت قطعتي الورق المسطرتين من جيبي الداخلي حيث وضعتهما، وأنا أعلم أنه سيكون عليَّ أن أخرجهما بهذه الطريقة. وفردهما المستر بيكر فوق مكتبه المغطى بالزجاج وأثناء قراءتهما اختلجت عضلة بجوار أذنه اليمنى حتى جعلت أذنه تنتفض. ومرت عيناه عليهما ثانية، وكانتا تبحثان في هذه المرة عن ثغرة في النص. عندما نظر إليَّ كان الخوف قد تسرب إليه، فقد رأى فيَّ شخصًا لم يكن يدرك بوجوده. وقد استغرق تلاؤمه مع الشخص الغريب لحظة، ولكنه كان بارعًا فقد تلاءم معه.

- «هل أدركت ما فعلته يا إيثان؟».

- «أجل».

- «وهل تشعر بالراحة لما فعلت؟».

- «أظنني أشعر نفس شعور الرجل الذي حمل إليه زجاجة ويسكي، وحاول أن يجعله يوقع ورقة ما».

- «هل أخبرك بذلك».

- «أجل».

- «كان كذابًا».

- «لقد قال لي إنه كذاب، وأنذرني بأنه كذاب. وربما كانت هناك خدعة ما في هذه الأوراق».

وسحبت من أمامه بلطف قصاصتي الورق المبقعتين المكتوبتين بالرصاص وطويتها.

- «أجل إن في الأمر خدعة يا إيثان. فهاتان الوثيقتان لا غبار عليهما، فهما مؤرختان مشهود بصحتهما، وواضحتان. لعله كان يكرهك، ولعل خدعته كانت تكمن في تحطيم رجل».

- «مستر بيكر، لم يقم أحد من عائلتي قط بحرق سفينة».

- «سوف نتكلم يا إيثان، وسوف نقوم بالأعمال، ونربح الأموال. ستقوم بلد صغيرة على التلال حول المرجة. وأظن أنك يجب أن تصبح الآن مدير البلدية».

- «لا أستطيع يا سيدي. فسينشأ عن ذلك تضارب في المصالح. وذلك ما يتكشف الآن بالذات لنفر من الرجال بلغ بهم الحزن مداه».

فتنهد تنهيدة حذرة، وكأنه خشى أن يوقظ شيئًا ما في حلقه.

وقمت واقفًا وأرحت يدي على انحناءة ظهر كرسي الابتهال المبطن بالجلد، وقلت: «ستشعر بتحسن يا سيدي عندما تعتاد حقيقة أني لست أبلهًا فكهًا».

- «لماذا لم تستطع أن تجعلني محل ثقتك؟».

- «إن المشاركة في جريمة أمر خطير».

- «إذن أنت تشعر أنك اقترفت جريمة».

- «كلا. فالجريمة شيء يرتكبه شخص آخر. يجب أن أفتح المحل، حتى ولو كان محلي الخاص».

كانت يدي على مقبض الباب حين سألني في هدوء: «من الذي وشى بمارولو؟».

- «أعتقد أنك أنت الذي فعلتها يا سيدي». وقفز واقفًا على قدميه، ولكني أغلقت الباب خلفي وعدت

إلى محلي..

# الفصل الحادي والعشرون

لا يستطيع أحد في العالم أن يرتفع إلى مستوى حفل أو احتفال مثل زوجتي ماري. وليس ما تضفيه على الآخرين هو ما يجعلها تتألق كجوهرة، بل ما تتلقاه منهم. فتلتمع عيناها وتبرز ابتسامة فمها، وتبعث ضحكتها السريعة القوة في فكاهة ضعيفة. إن وجود ماري في مدخل أي حفل يجعل كل شخص يشعر بأنه أكثر جاذبية وحذقًا عما كان، فيصبح كذلك بالفعل. وفيما عدا هذا لا تضفي ماري أو تحتاج إلى إضفاء شيء على الآخرين.

حين عدت إلى المنزل كان بيت آل هولي بأكمله يشع بالاحتفال، كانت أعلام البلاستيك ذات الألوان الزاهية منظومة في حبال تشكل سرادقات صغيرة تمتد من الضوء الذي يتوسط المكان حتى إطار الصورة، في حين تدلت من إفريز السلم صفوف من الرايات الملونة.

وصاحت ماري: «لن تصدق ذلك. لقد أحضرت إيلين هذه الرايات من محطة إسو لخدمة السيارات. أعارها إياها جورج ساندو».

- «لأي سبب يجري ذلك؟».

- «لجميع الأسباب. إنه لأمر رائع».

لم أدر ما إذا كانت لم تسمع بخبر داني تيلور أو أنها سمعته وتجاهلته. وأنا لم أدعه بالتأكيد لحضور الوليمة ولكنه كان يتسكع بالخارج. وعليَّ أن أذهب لملاقاته فيما بعد، ولكني لم أدعه للدخول.

وقالت ماري: «إنك لتحسب أن إيلين هي التي فازت بالشرف، بل أكثر فخرًا مما لو كانت هي التي صارت شخصية شهيرة. انظر إلى الكعكة التي خبزتها. كانت كعكة مرتفعة بيضاء، وقد كتبت على سطحها كلمة (بطل) بأحرف حمراء وخضراء وصفراء وزرقاء. «سنتناول دجاجًا محمرًا، وصلصة، وكبدًا بالصلصة، وبطاطس مهروسة، برغم أننا في فصل الصيف».

- «طيب، يا عزيزتي، طيب. أين الصغير المشهور؟».

- «حسنًا، لقد بدله الأمر أيضًا. إنه يأخذ حمامًا ويغير ثيابه للعشاء».

- «إنه يوم يحمل نذير شؤم أيتها الساحرة. فستجدين أن بغلة قد أنجبت فرسًا في مكان ما، وأن مذنبًا جديدًا قد هوى إلى السماء. يأخذ حمامًا قبل العشاء، تخيلي!».

- «ظننت أنك ربما تحب تبديل ثيابك أيضًا. فلديَّ زجاجة نبيذ، وقد فكرت في أن أحدًا قد يلقي كلمة أو نشرب نخبًا أو شيئًا من هذا القبيل، حتى ولو كان الاحتفال مقصورًا على الأسرة» لقد أفاضت على البيت جو الحفلة في اعتدال. ووجدت نفسي مندفعًا أرتقي الدرج لأستحم وأصبح جزءًا من الحفل.

حين مررت بغرفة آلان، قرعت الباب، وسمعت من يزوم فدخلت.

كان يقف أمام مرآته، ممسكًا مرآة بيد ليتمكن من رؤية صورة وجهه الجانبية. وكان قد رسم شاربًا أسود رقيقًا بمادة سوداء لعلها كحل ماري، كما زاد من سواد حاجبيه ورفع طرفاهما الخارجيين إلى أعلى فصارا كحاجبي الشيطان.

وحين دخلت كان يبتسم في المرآة ابتسامة العارف بأمور الدنيا، ابتسامة تهكمية ساحرة. كما كان يلبس رباط عنقي (البابيون) الأزرق المنقط. ولم يبد عليه الارتباك لضبطه بهذا المنظر. وقال بعد أن وضع المرآة ذات اليد: «إني أقوم ببروفة لتأدية دور».

- «ولدي، لا أعتقد أنني أخبرتك خلال كل ذلك الانفعال إلى أي مدى أنا فخور بك».

- «إنها... حسنًا، إنها ليست سوى البداية».

- «وبصراحة، لم أعتقد أنك تجيد الكتابة ولو حتى بمستوى الرئيس. وإني مندهش بقدر ما أنا مسرور. متى تنوي قراءة مقالك على العالم؟».

- «يوم الأحد، في الرابعة والنصف وسيذاع على كافة المحطات المحلية. يجب أن أذهب إلى نيويورك، وستقلني طائرة خاصة».

- «هل راجعت دورك جيدًا؟».

- «أوه، سأؤديه على ما يرام. إنها ليست سوى البداية».

- «حسنًا، إنها أقرب إلى قفزة، أن تكون واحدًا من خمسة في البلاد كلها».

فقال: «وسأظهر في جميع المحطات المحلية». ثم أخذت يزيل الشارب بقطعة قطن، ولدهشتي رأيت أن لديه (علبة تواليت) تشمل مادة تظليل العينين، ومعجون الوجه الدهني، (الكولد كريم).

- «لقد حدث كل شيء لنا جميعًا دفعة واحدة. أتعلم أني اشتريت المحل؟».

- «أجل. سمعت».

- «حسنًا، بعد أن ننزل الأعلام وأوراق الزينة، سأحتاج إلى معونتك».

- «ماذا تعني؟».

- «لقد قلت لك من قبل عن حاجتي لمعونتك في المحل».

- «لا أستطيع القيام بهذا». قالها، ثم تفحص أسنانه في المرآة ذات اليد».

- «لا تستطيع القيام بماذا؟».

- «أمامي برنامجان في التليفزيون سأحضرهما كضيف، وبعدئذ سأشترك في برنامجي «ماذا انتويت

لمستقبلي؟». و«ضيف غامض». وبعدئذ ستبدأ مسابقة جديدة اسمها «عوامل انحراف المراهقين»، بل إنني قد أرأس الاحتفال في تلك المسابقة. بهذا ترى أنه لن يكون لديَّ وقت». ورش على شعره مادة لزجة من علبة صفيح ترش بالضغط.

- «وهكذا تحدد مستقبلك كله، أليس كذلك؟».

- «لقد قلت لك، إن هذا ليس سوى البداية».

- «لن أفك إسار كلاب الحراسة هذه الليلة. وسنناقش هذا الموضوع فيما بعد».

- «هناك رجل من إذاعة إن. بي سي. كان يحاول الاتصال بك تليفونيًّا، ربما كان الأمر متعلقًا بكتابة عقد معك حيث إني لم أبلغ السن القانوني بعد».

- «ألا تفكر في المدرسة، يا بني؟».

- «وما حاجتي للمدرسة إذا وقعت عقدًا؟».

خرجت مسرعًا وأغلقت الباب. وفي الحمام تركت الماء البارد يجري ويثلج بشرتي وأتحت للبرودة أن تنفذ بعمق إلى داخل جسدي كي أسيطر على غضبي المحتدم.

وحين خرجت من الحمام نظيفًا تفوح مني رائحة عطر ماري، كنت قد استعدت سيطرتي على نفسي. وفي اللحظات القليلة التي سبقت تناول العشاء، جلست إيلين على ذراع كرسي ثم تدحرجت جالسة على حجري وأحاطتني بذراعيها.

قالت: «إنني أحبك. أليس الأمر مثيرًا؟ أو ليس الآن رائعًا؟ يبدو كأنه خلق لهذا». وتلك هي الفتاة التي كنت أظنها أنانية وعلى شيء من الوضاعة.

قبل أن نقطع الكعكة شربت نخب البطل الصغير وتمنيت له حظًّا سعيدًا، وأنهيت هذا بقولي: «لقد أحالت شمس (يورك) الساطعة شتاء سخطنا إلى صيف رائع».

قالت إيلين: «هذا من شعر شكسبير».

- «أجل أيتها الثقيلة، ولكن من أي مسرحية، ومن الذي قالها، وفي أي مناسبة؟».

وقال آلان: «لا أدري. فهذا سؤال يلقى على الأذكياء».

ساعدت في حمل الأطباق إلى المطبخ، وكانت ماري ما تزال على تألقها، فقالت: «لا تغضب إنه سيجد طريقه، وسيكون على ما يرام. أرجوك أن تكون حليمًا معه».

- «سأكون كذلك يا سمانتي المقدسة».

- «هناك رجل من نيويورك كان يحاول مقابلتك. وأظنه كان يريدك لأمر يتعلق بآلان. أليس من المثير أن يرسلوا طائرة لتقله؟ إني لأستطيع التعود على فكرة ملكيتك للمحل. كما أني أعلم بالأمر،

فالخبر قد ذاع في البلدة كلها بأنك ستصبح مدير البلدية».

- «لن أصبح كذلك».

- «حسنًا، ولكني سمعت الخبر عشرات المرات».

- «لديَّ صفقة تحول دون ذلك. إني مضطر للخروج بعض الوقت يا عزيزتي، فلديَّ اجتماع».

- «لعلي سأتمنى أن تعود موظفًا مرة أخرى. فحينذاك كنت تقضي لياليك في البيت. ماذا أقول للرجل إذا عاود الاتصال بك؟».

- «بوسعه الانتظار».

- «لم يشأ الانتظار أول مرة. هل ستتأخر؟».

- «لا أدري، فهذا متعلق بكيفية سير الأمور».

- «ألم يكن أمرًا محزنًا ما حدث لداني تيلور؟ خذ معطفًا واقيًا من المطر».

- «إنه بالتأكيد أمر محزن».

حين وصلت القاعة ارتديت قبعتي، وبدافع ما التقطت من قدم الفيل عصا القبطان العجوز المصنوعة من ناب الحوت. وتجسدت إيلين إلى جواري.

- «هل يمكنني الذهاب معك؟».

- «ليس الليلة».

- «إني أحبك».

حدقت عميقًا في ابنتي لحظة، ثم قلت: «وأنا أحبك أيضًا. سآتيك بجواهر، هل تفضلين أي نوع منها؟».

فضحكت وقالت: «أتنوي حمل عصا؟».

- «للدفاع عن النفس». وامتشقت العصا العاجية اللولبية وكأنها حسام.

- «أتنوي البقاء بالخارج مدة طويلة؟».

- «لا».

- «لم تأخذ العصا إذن؟».

- «من باب الزينة الخالصة، والمباهاة، والتهديد، والتخويف، ولإشباع رغبة مندثرة في حمل

السلاح».

- «سأبقى مستيقظة في انتظارك. أيمكنني أن أمسك الشيء الوردي؟» - «كلا، لا تفعلي، يا زهرة الدمن الصغيرة، الشيء الوردي؟ أتقصدين الطلسم؟ طبعًا يمكنك أن تمسكيه».

- «ما هو الطلسم؟».

- «ابحثي عن معناها في القاموس. أتعرفين كيف تتهجينها؟».

- «ط – ل – س - ا – م».

- «كلا، ط – ل – س – م».

- «لماذا لا تخبرني أنت بمعناها؟».

- «ستعرفينه بصورة أفضل لو بحثت عنه في القاموس».

فعقدت ذراعيها حولي واعتصرتني، ثم تركتني بنفس السرعة التي احتوتني بها.

أطبق الليل حوالي كثيفًا رطبًا، وكانت درجة رطوبة الهواء في مثل كثافة مرق الدجاج. أما أضواء الشارع المختفية بين أوراق الشجر السمينة في شارع «إلم»، فقد نثرت حواليها هالات رطبة مشعة من البخار.

إن رجلًا يشغل وظيفة، يرى القليل جدًّا من الحياة العادية التي تجري في أثناء النهار. فلا عجب إذا تحتم عليه أن يستقي أخباره ووجهة نظره من زوجته. فهي تعلم ماذا حدث، ومن الذي قال شيئًا عما حدث، إلا أن هذا يُرى مرشحًا خلال وجهة النظر الأنثوية، وهكذا يرى غالبية العاملين من الرجال الحياة العادية التي تجري في أثناء النهار من خلال عيون النساء. ولكن عندما يحل الليل ويغلق محله أو تنتهي وظيفته، يستيقظ عالم الرجل، لوقت محدود.

كان ملمس العصا اللولبية المصنوعة من عاج ناب الحوت مريحًا في يدي، فقد صقلت ملامستها لراحة القبطان العجوز مقبضها الفضي الثقيل.

منذ عهد بعيد، حين كنت أحيا في دنيا النهار، وحين كانت الدنيا مقبلة عليَّ إقبالًا كبيرًا، كنت أذهب إلى بقعة تغطيها الأعشاب، ثم أستلقي هناك ووجهي إلى الأرض ملاصقًا للجذور الخضراء، وأصير واحدًا من النمل والمن وبق البنات، فلم أعد بعد تمثالًا ضخمًا بالنسبة إليها. وفي غابة العشب الوحشية تلك، وجدت السلوك التي كانت بالنسبة لي تعني السلام.

أما الآن وبعد أن حل الليل، فقد أردت الذهاب إلى الميناء القديم والمكان، حيث يوجد عالم محتوم من دورات الحياة والزمان والمد، يستطيع أن يهدئ من تمزق نفسي.

سرت مسرعًا إلى شارع هاي، وعندما مررت بالفورماستر لم ألق سوى نظرة واحدة عبر الشارع إلى محلي ذي الستائر الخضراء. وأمام محطة إطفاء الحريق جلس ويلي السمين في سيارة البوليس،

وقد احمر وجهه وسال عرقه كالخنزير.

- «أعدت إلى تجوالك الليلي يا إيثان؟».

- «أجل».

- «إنه لأمر محزن جدًّا ما حدث لداني تيلور. كان فتًى لطيفًا».

- «جدًّا». قلتها وأسرعت في طريقي.

مرت بي بضع سيارات فأثارت نسمة هواء، ولكن لم يكن هناك أى مشاة، فلم يخاطر أحد بالتعرض للعرق الناجم عن السير.

وعند النصب التذكاري استدرت في طريقي وسرت متجهًا إلى الميناء القديم، فرأيت الأضواء المنبعثة من مراسي بضعة يخوت، وقوارب صيد بعيدة عن الشاطئ.

وعندئذ رأيت صورة شخص يستدير خارجًا من شارع بورلوك ويأتي في اتجاهي، وعرفت من مشيته ووقفته أنه مارجي يانج هنت.

وقفت في مواجهتي، ولم تدع لي فرصة للمرور. بوسع بعض النسوة أن يظهران باردات في ليلة حارة. وربما كان مبعث ذلك النسمات المنبعثة من حركة (جونلتها) القطنية.

قالت: «أظنك تبحث عني». وأصلحت وضع خصلة شعر لم تكن قد خرجت عن مكانها.

- «لم تقولين ذلك؟».

فاستدارت وأمسكت بذراعي واستحثني على الاستمرار في السير بضغط أصابعها، وقال: «ذلك هو النوع الذي أحصل عليه. كنت في الفوماستر، ورأيتك مارًّا وظننت أنك ربما كنت تبحث عني، فدرت بسرعة حول البناية واعترضت طريقك».

- «وكيف عرفت إلى أي الطرق سأستدير؟».

- «لا أدري، ولكني عرفت. أصغ إلى طنين زيزان[6] الحصاد، إنه يعني مزيدًا من حرارة الطقس وعدم هبوب رياح. لا تقلق يا إيثان، فسنخرج من نطاق الضوء خلال لحظة وتستطيع أن تأتي إلى بيتي لو أردت. سأقدم لك شرابًا، كأسًا طويلة باردة من الشراب.

وتركت أصابعها ترشدني إلى الطريق خلال ظلال حديقة من أشجار التمر حنة الضخمة، وقد أنار الظلام نوع من الأزهار الصفراء التي تنمو قريبًا من الأرض.

- «هذا هو بيتي، جاراج تعلوه قبة للمتعة».

- «ما الذي يجعلك تظنين أنني كنت أبحث عنك؟».

- «لقد كنت تبحث عني أو عن واحدة مثلي. إيثان، هل رأيت قط مصارعة ثيران؟».

- «رأيتها مرة واحدة في آرل بعد الحرب».

- «لقد اعتاد زوجي الثاني أن يأخذني إليها، فقد كان يحبها. أعتقد أن مصارعة الثيران تستهوي رجالًا ليسوا غاية في الشجاعة ويتمنون أن يصبحوا كذلك. وإذا كنت قد حضرت إحداها فستدرك ما أرمي إليه. هل تتذكر الثور حين يحاول –بعد كل تلك المحاورات بالوشاح الأحمر– أن يقتل شيئًا ليس له وجود؟».

- «نعم».

- «هل تتذكر كيف تأخذه الحيرة والقلق، فلا يفعل سوى الوقوف والبحث عن جواب؟ حسنًا، عليهم حينذاك أن يقدموا له حصانًا وإلا انفطر قلبه. إذ يتحتم عليه أن يغرس قرنيه في شيء صلب وإلا ماتت روحه. حسنًا، إنني ذاك الحصان. وذلك هو النوع الذي أحصل عليه من الرجال، رجال مضطربون مرتبكون يبحثون –في شخصي– عن نصر صغير لهم. وبعد ذلك يستطيعون العودة إلى وشاحهم الأحمر وسيوفهم».

- «مارجي!».

- «انتظر لحظة، فإنني أحاول العثور على مفتاحي. أتشم رائحة الياسمين البري!».

- «ولكني قد أحرزت نصري لتوي».

- «صحيح؟ وهل علقت وشاحك، ووطأته بقدميك؟».

- «كيف تعرفين؟».

- «أعرف ذلك عندما يوجد رجل يبحث عني، أو عن مارجي أخرى. راقب درجات السلم، فإنها ضيقة. لا تدع رأسك يصطدم بأعلى. والآن، ها هو ذات مفتاح النور، أترى؟ إنها قبة للمتعة، أضواؤها خافتة، وتفوح منها رائحة المسك، وتجذبك إلى أعماق بحر لا تشرق عليه شمس!».

- «أعتقد أنك فعلًا ساحرة».

- «أنت تعلم جيدًا أنني كذلك. ساحرة فقيرة جديرة بالرثاء في بلدة صغيرة. اجلس هناك بالقرب من النافذة. سأدير المروحة، وسأقوم بما يطلقون عليه «الدخول في ملابس مريحة» وسأحضر لك بعد ذلك كأسًا طويلة باردة من (مدمر الجماجم) «.

- «أين سمعت تلك الكلمة؟».

- «أنت تعرف أين سمعتها».

- «هل عرفته جيدًا؟».

- «عرفت جزءًا منه. الجزء الذي تستطيع المرأة أن تعرفه عن رجل. وأحيانًا يكون ذلك هو أفضل الأجزاء، ولكن ليس دائمًا. وقد كان الأمر كذلك مع داني، وقد وثق بي».

كانت الغرفة أشبه بألبوم ذكريات غرف أخرى، فيه نتف وقطع من حياة أناس آخرين وكأنها تذييلات في كتاب. وأحدثت المروحة القريبة من النافذة هديرًا خافتًا هامسًا.

وسرعان ما عادت مارجي في رداء طويل واسع فضفاض أزرق، حاملة معها سحابة من عطر. وحين تنسمته قالت: «لا تنزعج. إنها (كولونيا) لم تشمها ماري عليَّ أبدًا. هاك شرابك، من الجن ومادة مقوية. لقد دهنت الكأس بمادة مقوية. إنه جن، مجرد جن. وإذا ما خشخشت الثلج الذي فيه، فستظن أنه شراب بارد».

شربته دفعة واحدة وكأنه جعة، وشعرت بحرارة الشراب القوية تمتد إلى كتفي ثم تنحدر إلى ذراعي لدرجة جعلت بشرتي تتألق.

قالت: «أظنك كنت تحتاج إلى ذلك الشراب».

- «أظن ذلك».

- «سأجعل منك ثورًا شجاعًا، سأقاومك مقاومة تكفي لجعلك تعتقد أنك أحرزت نصرًا؛ فذلك ما يحتاج إليه الثور».

حدقت في يدي، كانتا مليئتين بالخدوش المتقاطعة والجروح الصغيرة من جراء فتح الصناديق، ولم تكن أظافري نظيفة تمامًا.

وتناولت العصا العاجية من على الأريكة حيث كنت قد أسقطتها، وقالت: «آمل ألا تحتاج عاطفتك الواهنة إلى هذه العصا».

- «هل أنت عدوتي؟».

- «أنا رفيقة اللعب في نيوبايتون، أكون عدوتك؟».

وصمتت طويلًا حتى استطعت أن أشعر بقلقها المتزايد. وقالت: «أمامك متسع من الوقت. أمامك حياتك كلها لتجيب عن سؤالي. سأحضر لك شرابًا».

تناولت منها الكأس الملآنة، وكان جفاف شفتي وفمي بالغًا حتى اضطرت لارتشاف بعض الشراب قبل أن أستطيع الكلام، وحين فعلت خرج صوتي محشرجًا».

- «ماذا تريدين؟».

- «لعل رأيي قد استقر على الحب».

- «حب رجل يحب زوجته؟».

- «تقصد ماري؟ أنت حتى لا تعرفها».

- «أعرف أنها رقيقة وحلوة وعاجزة نوعًا ما».

- «عاجزة؟ إنها في قوة حذاء برقبة. وستحيا طويلًا بعد أن تكون آلة جسمك قد تحطمت. إنها أشبه بطائر النورس الذي يستغل الريح لتبقيه عاليًا ثم لا يحرك جناحًا على الإطلاق».

- «ليس هذا صحيحًا».

- «وإذا ما وقعت مشكلة كبرى، فإنها تنسل منها، بينما تحرق أنت فيها».

- «ماذا تريدين؟».

- «ألا تنوي اجتياز الحدود؟ ألا تريد تدمير كراهيتك بالحصول على جسد مارجي العجوز الطيبة؟».

وضعت كأسي نصف الممتلئة على منضدة جانبية، فرفعتها بسرعة الحية ووضعت تحتها منفضة سجائر، ثم جففت بيدها الدائرة الرطبة التي على المنضدة.

- «مارجي – أريد أن أعرف شيئًا عنك».

- «كفى خداعًا. أنت تريد معرفة رأيي في العرض الذي أديته».

- «لا أستطيع تصور ما تريدين ما لم أعرف من أنت».

- «أعتقد أن الرجل يعني ما يقول، إليك الجولة السياحية التي تكلف دولارًا. جولة تجوس فيها خلال مارجي يانج هنت وأنت تحمل بندقية وآلة تصوير. كنت فتاة صغيرة طيبة، فتاة صغيرة ذكية وراقصة لعينة متوسطة. وقابلت ما يدعونه رجلًا أكبر مني سنًّا وتزوجته. لم يكن يحبني بل كان مولعًا بحبي. وهكذا جاء ذلك الرجل على طبق فضي إلى الفتاة الذكية الصغيرة. ولم أكن أحب الرقص كثيرًا، بل من المؤكد أنني كنت أكره العمل كراهيتي للجحيم. وعندما تخلصت منه بلغ به الارتباك مداه حتى إنه لم يضع في قرار النفقة شرطًا يلغيها إذا تزوجت ثانية. فتزوجت رجلًا آخر وعشنا حياة دنيوية صاخبة قضت عليه. وطيلة عشرين عامًا لا زال هذا الإذن المصرفي يصلني مع بداية كل شهر. وطيلة عشرين عامًا لم أقم بأي عمل ولو طفيف، فيما عدا التقاط بضعة هدايا من المعجبين. لا تبدو تلك المدة وكأنها عشرون عامًا، ولكنها كذلك فعلًا. وها أنا ذى لم أعد بعد فتاة طيبة صغيرة».

ذهبت إلى مطبخها الصغير وأتت بثلاثة مكعبات ثلج في يدها، ألقتها في كأسها ثم صبت الجن فوقها. واجتذبت المروحة المدمدمة رائحة نباتات البحر الطافية التي كشفها انحسار المد عنها. وقالت بصوت ناعم: «إيثان، ستربح الكثير من المال».

- «هل عرفت نبأ الصفقة؟».

- «إن بعضًا من أنبل نبلاء الرومان ليسوا إلا زواحف».

- «استمري».

فأشارت بيدها إشارة كاسحة طار معها كأسها، وقفزت مكعبات الثلج مرتدة عن الحائط وكأنها زهر نرد.

قالت: «لقد أصيب فتاي العاشق بنوبة في الأسبوع الماضي. وحين ينتهي أجله سيتوقف إرسال الأذون المصرفية. إنني عجوز كسولة وخائفة، وقد اتخذتك سندًا إليَّ، ولكني لا أثق بك. فقد يخرج على القاعدة، وتستحيل أمينًا. إني أقولها لك، أنا خائفة».

قمت واقفًا فوجدت ساقي ثقيلتين، لم تكونا مترنحتين – بل ثقيلتين ونائيتين فحسب.

- «ماذا لديك لتستغليه؟».

- «كان مارولو صديقي أيضًا».

- «أفهم».

- «ألا تريدني....».

- «أنا لا أكرهك».

- «سنحاول وضع ترتيب ما. إني أكره المستر بيكر، وقد تستطيعين نتف ريشه».

- «يا لها من لهجة. أنت لا تفكر بعقلية الشراب».

- «إن الشراب بالنسبة لي يعني فترات سعيدة».

- «هل يعلم بيكر بما فعلت لداني؟».

- «أجل».

- «وكيف تقبل الأمر؟».

- «تقبلًا حسنًا. ولكني لا أميل إلى الوثوق به».

- «كان ينبغي على ألفيو أن يثق بك».

- «ماذا تعنين بذلك».

- «أعني ما أخمنه فقط. ولكني مستعدة للرهان على تخميني. لا تنزعج فلن أخبره، فمارولو صديقي».

- «أعتقد أني أفهمك، أنت تثيرين الحقد لكي تستطيعي استعمال سيفك. ولكن سيفك من مطاط يا مارجي».

- «أتحسبني لا أعرف ذلك يا إيثان؟ ولكني أحصل على مالي بعجزي».

- «هل تريدين الإفضاء لي؟».

- «ربما لا يكون هناك بأس من ذلك. إنني أراهن على أنك حين تستدير حول البناية ستركلك عشرة أجيال من آل هولي، وحين ينصرفون سيكون لديك حبلك الرطب والملح لتدهن جروحك».

- «إذا كان الأمر كذلك – فإلى أين يفضي بك هذا؟».

- «ستحتاج إلى صديق تتحدث إليه، وأنا الشخص الوحيد في العالم الذي يسد هذا الفراغ. فالسر شيء مرعب موحش يا إيثان. ولن يكلفك هذا كثيرًا، ربما نسبة مئوية صغيرة فحسب».

- «أعتقد أني سأنصرف الآن».

- «اشرب كأسك».

- «لا أريدها».

- «لا تدع رأسك تصطدم بأعلى في أثناء نزولك الدرج يا إيثان».

كنت في منتصف السلم حين تبعتني وقالت: «هل قصدت أن تترك عصاك؟».

- «إلهي. كلا».

- «ها هي. ظننت أنها قد تكون نوعًا من التضحية».

كانت الدنيا تمطر، وهذا يجعل رائحة الياسمين البري حلوة في الليل.

وكانت ساقاي تترنحان لدرجة أنني احتجت فعلًا للعصا المصنوعة من ناب الحوت.

كانت مع ويلي السمين لفة من المناديل الورق موضوعة على المقعد بجواره ليمسح بها العرق عن رأسه.

- «سأثير دهشتك لأني أعرف من هي».

- «ستكسب».

- «قل لي يا إيثان، هنالك شخص كان يبحث عنك، شخص في سيارة كريزلر ضخمة يقودها سائق».

- «ماذا يريد؟».

- «لا أدري. أراد أن يعرف ما إذا كنت قد رأيتك، ولكني لم أبح ببنت شفة».

- «سأقدم لك هدية في عيد الميلاد، يا ويلي».

- «قل لي يا إيثان، ماذا جرى لقدميك؟».

- «كنت ألعب البوكر، فدب الخدر إليهما».

- «أجل. ذلك يحدث. هل أقول للفتى إذا رأيته إنك ذهبت للبيت؟».

- «قل له أن يأتي إلى المحل غدًا».

- «يركب سيارة كريزلر إمبريال، يركب سيارة في طول عربة قطار».

كان الفتى جوي يقف على الرصيف أمام الفورماستر، ويبدو متراخيًا مبللًا.

- «ظننت أنك ذهبت إلى نيويورك لتشرب زجاجة باردة».

- «الطقس شديد الحرارة، ولم أستطع التحمس للرحلة، ادخل وتناول شرابًا يا إيثان. إنني أشعر بانقباض».

- «الحرارة شديدة لا يناسبها الشراب يا مورفي».

- «حتى ولا زجاجة جعة؟».

- «الجعة تزيد من حرارتي».

- «تلك قصة حياتي، حين أكتئب، لا أجد مكانًا أذهب إليه، أو أحدًا أتحدث معه».

- «يجب أن تتزوج».

- «لن تكون الزوجة هي الشخص الذي تتكلم معه بما تشاء».

- «لعلك على صواب».

- «إنني مصيب تمامًا، فما من أحد يكون وحيدًا مثل رجل متزوج».

- «وكيف تعرف ذلك؟».

- «إنني أراهم. بل إني أتطلع إلى واحد منهم الآن. أعتقد أنني سأشتري صندوقًا من الجعة الباردة، وأرى إذا ما كانت مارجي يانج هنت ستستقبلني. إنها لا تحدد أوقات العمل».

- «لا أظنها في البلدة يا مورفي، فقد أخبرت زوجتي –أو على الأقل هذا ما أعتقده– أنها ستذهب إلى «مين» حتى تنقضي موجة الحر».

- «عليها اللعنة، حسنًا، إن فقدانها ربح لصاحب الشرب، فسوف أقص عليه الأحداث المحزنة التي

وقعت في حياة أنفقت هباء، ولن يصغي إليَّ بالتالي، إلى اللقاء يا إيثان، سر في رعاية الله. هذا ما يقولونه في المكسيك».

دقت العصا المصنوعة من ناب الحوت الرصيف واضعة علامات ترقيم لتساؤلي عما حدا بي إلى قول ذلك لجوي، فهي لن تتكلم، لأن ذلك سيفسد لعبتها، ويجب أن تبقي مسمار الأمان في قنبلتها اليدوية، لا أدري ما الذي حدا بي إلى قول ذلك.

حين استدرت من شارع «هاي» إلى شارع «إلم»، استطعت رؤية السيارة الكريزلر واقفة عند الحجر المجاور لبيت آل هولي العتيق، ولكنها كانت أقرب إلى عربة نقل الموتى منها إلى عربة قطار. كانت سوداء دون تألق بسبب نقط المطر ورذاذ الوحل السميك الذي تناثر عليها في الطرق الرئيسية، وكانت مصابيح إشارة التوقف التي فيها من زجاج أغبش.

ولابد أن الوقت كان متأخرًا جدًّا. فلم تنبعث أي أضواء متألقة من المنازل النائمة في شارع «إلم». كنت مبللًا ولابد أنني خطوت داخل بركة من ماء المطر، فقد كان حذائي يحدث صوتًا من اعتصاره للماء في أثناء سيري.

ورأيت خلال الزجاج الأمامي الغائم رجلًا يرتدي قبعة سائق، فوقفت إلى جوار السيارة المهولة ودققت على الزجاج بقبضتي، فانزلق الزجاج إلى أسفل محدثًا أزيزًا كهربيًّا. وأحسست بالطقس غير العادي الناتج عن التكييف يهب على وجهي.

- «أنا إيثان هولي. هل تبحث عني؟» ورأيت أسنانًا خلال الجو المعتم – أسنانًا تتألق وقد انعكس عليها نور شارعنا.

واندفع الباب مفتوحًا من تلقاء نفسه، وخطا إلى الخارج رجل نحيل أنيق الملبس، وقال: «أنا دنسكومب من فرع التليفزيون بشركة بروك وشوين. يجب أن أتحدث معك». وتطلع ناحية السائق وقال: «ولكن ليس هنا. هل نستطيع الدخول؟».

- «أعتقد ذلك، وأظن أن الجميع نيام. فإذا تكلمت تكلم بصوت خافت».

وتبعني سائرًا فوق الممشى المبلط المقام فوق المرجة المشبعة بالماء، كان نور الساهرة مضاء في القاعة، في أثناء دخولنا وضعت العصا المصنوعة من ناب الحوت في قدم الفيل.

وأضأت مصباح القراءة الذي يعلو مقعدي الضخم ذا القاعدة المحشوة بالزمبركات.

كان البيت ساكنًا، ولكنه بدا لي نوعًا غير عادي من السكون، سكون يثير الأعصاب، فألقيت نظرة سريعة من بئر السلم على أبواب غرف النوم بالطابق العلوي.

- «لابد أن الأمر مهم بحيث جعلك تأتي في مثل هذه الساعة المتأخرة».

- «إنه كذلك».

استطعت رؤيته الآن. كانت أسنانه هي سفراؤه في الحديث، ولم تعاونها في ذلك عيناه المتعبتان الحذرتان. قال: «نريد أن نبقي هذا الأمر سرًّا. فقد كانت هذه سنة سيئة كما لابد أنك تعلم. فقد انهار الأساس بفضائح برامج الألغاز وبعدئذ سرت الإشاعات حول برامج المسابقات ووصل الأمر إلى لجان الكونجرس. وعلينا أن نراقب كل شيء، فالفترة خطيرة».

- «أود لو تحدثني عما تريد».

- «هل قرأت مقال ابنك الذي بعنوان (أحب أمريكا)؟».

- «كلا، لم أقرأه. فقد أراد مفاجأتي به».

- «وقد فاجأك فعلًا. لا أدري لِمَ لَمْ نكتشف الأمر، ولكن هذا ما حدث». ومد لي يده بملف أزرق مقفول. «اقرأ ما تحته خط فيه». غطست في مقعدي وفتحت الملف، كانت الكتابة إما مطبوعة أو مكتوبة بإحدى تلك الآلات الكاتبة الحديثة التي تشبه حروفها حروف المطابع، ولكن شوهتها خطوط بقلم أسود خشن على كلا الهامشين.

**«أحب أمريكا»**

**بقلم إيثان آلان هولي الثاني**

«ما هو الإنسان الفرد؟ إنه ذرة تكاد لا تبين دون استعمال منظار مكبر، إنه مجرد بقعة موجودة على سطح الكون. إنه لا يبلغ ثانية زمن إذا قورن بالأبدية التي لا حصر لها ولا بداية ولا نهاية. إنه نقطة في الخضم الهائل الذي يتبخر ثم تذروه الرياح. إنه ذرة رمل سرعان ما تتحد بالغبار الذي خرجت منه. فهل يعترض مخلوق بهذه الضآلة والحقارة والزوال والفناء طريق الزحف السائر لأمة عظيمة يتحتم عليها أن تواصل الحياة دهورًا ودهورًا مقبلة، وهل يعترض ذلك المخلوق طريق السلسلة الطويلة من الذرية المتدفقة من أصلابنا لتحتمل البقاء طالما بقي العالم موجودًا؟ فلنتطلع إلى بلادنا ونسمو بأنفسنا إلى مصاف المواطنين الخلص النزهاء، ثم ننقذ بلادنا من كل خطر محيق. فما قيمتنا –بل ما قيمة أي إنسان– إذا لم يكن مستعدًّا وراغبًا في التضحية بنفسه من أجل بلاده؟».

وقلبت الصفحات فرأيت العلامات السوداء في كل مكان.

- «هل تعرف هذا الكلام».

- «كلا، ولكنه يبدو مألوفًا، ولعله يبدو مأخوذًا من شيء ما قيل في القرن الماضي».

- «إنه كذلك. نص من خطاب هنري كلاي الذي ألقاه عام 1850».

- «والباقي؟ هل كله من خطب كلاي».

- «كلا، بل شذرات وفقرات، بعضها لدانيال ويبستر، وبعضها لجيفرسون، والبعض منها –وليعني الله– فقرة من خطاب لينكولن رئيسًا للمرة الثانية. ولا أدري كيف فاتتني تلك بالذات. أعتقد لأنه كان أمامي ألوف من المقالات. شكرًا للمسيح لأننا ضبطناها في الوقت المناسب، بعد كل المشاكل الناجمة عن برامج الألغاز وفان دورين وما إلى ذلك».

- «ولكنه لا يبدو شبيهًا بأسلوب صبي في الكتابة».

- «لا أعلم كيف حدث ذلك. وقد كان من المحتمل أن تخدعنا المقالة لو لم نتلق بطاقة البريد».

- «بطاقة البريد؟».

- «بطاقة بريد مصورة، عليها بناية الإمباير ستيت».

- «ومن الذي أرسلها؟».

- «مجهول».

- «ومن أين أرسلت؟».

- «من نيويورك».

- «دعني أراها».

- «لقد تحفظنا عليها لإبرازها في حالة قيام أي مشكل. إنك لا ترغب في إثارة مشاكل، أليس كذلك؟».

- «وما الذي تريده؟».

- «أريد منك أن تنسى الموضوع كله. وسنسقط الأمر كله من حسابنا وننساه، هذا إذا نسيته أنت».

- «إنه أمر ليس نسيانه سهلًا».

- «يا للجحيم، إني أقصد أن تبقي فمك مطبقًا، ولا تسبب لنا أي مشاكل لقد كانت سنة سيئة. وفي انتخابات كهذه قد يكشف أي إنسان النقاب عن أي شيء».

أقفلت الملف الأزرق الثمين وناولته إياه قائلًا: «لن أسبب لك أي مشاكل». وبدت أسنانه وكأنها لآلئ منتقاة، وقال: «كنت أعرف ذلك. وقد قلته لهم. فقد استعلمت عنك. إن سجلك ناصع، وتنحدر من عائلة طيبة».

- «هل لك أن تنصرف الآن؟».

- «لابد أن تعلم أنني أفهم شعورك».

- «شكرًا. وأنا أيضًا أفهم شعورك. إن ما تريد إسدال الغطاء عليه شيء غير موجود».

- «لا أريد أن أنصرف وأتركك غاضبًا، إن اختصاصي هو قسم العلاقات العامة. ونستطيع أن ندبر لابنك شيئًا، مثل منحة دراسية أو ما شابه ذلك، شيئًا محترمًا».

- «هل أضربت الخطيئة طلبًا لرفع الأجور؟ كلا، عليك فقط أن تنصرف الآن، أرجوك».

- «سندبر شيئًا ما».

- «إني متأكد إنكم ستفعلون».

وتركته يخرج ثم جلست ثانية وأطفأت النور وأخذت أصغي إلى جو بيتي. كان يدق وكأنه قلب، ولعل هذا كان وجيب قلبي في بيت قديم ينبعث فيه حفيف.

وفكرت في الذهاب إلى الدولاب وتناول الطلسم بيدي، وقد وقفت للإتيان به.

سمعت صوت مضغ وصهيل كالذي ينبعث من مهر خائف، ثم وقع خطوات سريعة في القاعة أعقبها سكون. أحدث حذائي صوتًا وأنا أصعد الدرج، ودخلت غرفة إيلين ثم أضأت النور. كانت مكومة تحت ملاءة، وقد وضعت رأسها تحت وسادتها. وعندما حاولت رفع الوسادة تعلقت بها وكان علي أن أجذبها بعنف. كانت خط من الدم يسيل من ركن فمها.

- «لقد انزلقت في الحمام».

- «فاهم. وهل إصابتك خطيرة؟».

- «لا أظن ذلك».

- «أي بكلمات أخرى، ليس هذا من شأنك».

- «لا أريد أن يأخذوه إلى السجن».

كان آلان جالسًا على حافة سريره، عاريًا إلا من سروال مما يلبس لركوب الخيل. وقد جعلتني عيناه أفكر في فأر محصور في زاوية، وقد استعد أخيرًا لمقاومة يد المكنسة.

- «المتسللة النتنة!».

- «هل سمعت كل شيء؟».

- «سمعت ما فعلته تلك المتسللة النتنة».

- «وهل سمعت ما فعلته أنت؟».

وهنا هاجم الفأر المحصور. فقال: «وما أهمية ذلك؟ الكل يفعلونها. إنهم يفعلونها بنفس البساطة التي يلفون بها فطيرة».

- «هل تؤمن بذلك؟».

- «ألا تقرأ الصحف؟ الكل يفعلونها من أصغر واحد إلى أكبر واحد، عليك فحسب أن تقرأ الصحف. اقرأ الصحف فحسب، لتشعر بأنك قديس. وأراهن أنك اختلست شيئًا في زمانك؛ لأن الجميع يفعلون ذلك. ولن أتلقى الخبطات نيابة عن الجميع. أنا لا أهتم بشيء سوى تلك المتسللة النتنة».

ماري تستيقظ عادة ببطء، إلا أنها كانت مستيقظة. ولعلها لم تكن قد نامت. كانت تجلس على حافة السرير في غرفة إيلين. كان ضوء الشارع يحمل صورتها واضحة بدرجة كافية، وظلال أوراق الشجر تتحرك على وجهها. كانت صخرة، صخرة جرانيت ضخمة راسخة وسط تلاطم أمواج المد. كان صحيحًا أنها في قوة حذاء برقبة، لا تهتز ولا تستسلم ومطمئنة.

- «هل ستذهب إلى فراشك يا إيثان؟».

إذن فقد كانت تتسمع هي أيضًا.

- «ليس الآن يا عزيزتي الغالية».

- «هل ستخرج ثانية؟».

- «أجل، لأتمشى».

- «إنك في حاجة للنوم، وما زالت الدنيا تمطر. هل أنت مضطر للخروج؟».

- «نعم. هناك مكان ينبغي أن أذهب إليه».

- «خذ معطفك الواقي من المطر، فقد نسيته في المرة السابقة».

- «حاضر يا عزيزتي».

لم أقبلها عندئذ. فلم أتمكن من ذلك مع وجود الجسم المكور المغطى إلى جوارها. ولكني لمست كتفها ثم لمست وجهها وكانت قوية كحذاء برقبة.

ذهبت إلى الحمام لحظة لآتي بعلبة من شفرات الحلاقة.

كنت في القاعة أمد يدي داخل الدولاب بحثًا عن معطف واق من المطر كما أرادت ماري، حين سمعت هرجًا وتعثرًا واندفاعًا ثم ألقت إيلين بنفسها علي وهي تزوم وتخن. ودفنت أنفها الدامي في صدري، ثم أحاطتني بذراعيها فثبتت مرفقي إلى أسفل. كان جسدها الصغير كله ينتفض.

وأمسكت بناصيتها وجذبت رأسها إلى أعلى تحت ضوء الساهرة التي في القاعة.

- «خذني معك».

- «لا يمكنني ذلك أيتها الحمقاء. ولكنك لو جئت معي إلى المطبخ، فسأغسل لك وجهك».

- «خذني معك. إنك لا تنوي العودة».

- «ماذا تقصدين؟ إنني عائد طبعًا. وأنا أعود دائمًا. اذهبي إلى فراشك واستريحي. وعندئذ ستشعرين بتحسن».

- «ألن تأخذني معك؟».

- «لن يسمحوا لك بالدخول إلى المكان الذي سأذهب إليه. فهل تريدين الوقوف بالخارج في منامتك؟».

- «لا يمكنك الذهاب».

وتشبثت بي مرة أخرى، وأخذت يداها تتحسسان وتربتان على ذراعي وجنبي، ثم دفعت قبضتها المضمومتين في جيبيَّ الجانبين لدرجة أني خفت أن تعثر على شفرات الحلاقة. لقد كانت دومًا فتاة تحب الملامسة، وتحب التربيت. كانت فتاة مدهشة. وفجأة تركتني، ووقفت إلى الخلف رافعة الرأس ثابتة العينين بلا دموع.

فقبلت خدها الصغير القذر وشعرت بالدم المتجمد على فمي، وعندئذ استدرت في اتجاه الباب.

- «ألا تريد عصاك؟».

- «كلا يا إيلين. ليس الليلة. اذهبي إلى فراشك يا عزيزتي. اذهبي إلى فراشك». وجريت مسرعًا. وأعتقد أنني جريت لأهرب منها ومن ماري. فقد استطعت أن أسمع وقع خطوات ماري المرسومة وهي تنزل الدرج.

# الفصل الثاني والعشرون

كان المد في ارتفاع، فخضت مياه الخليج الدافئة وتسلقت داخلًا المكان وتحركت موجة أرضية بطيئة داخلة وخارجة من المدخل، فتسربت خلال سروالي، وانتفخت على عجزي طية الأوراق المالية السمينة في جيبي الخلفي، ثم ما لبثت أن رقت تحت ثقلي الذي أخذ يتشبع بالماء. كان البحر في الصيف مزدحمًا بسمك قنديل البحر الصغير الذي بحجم حبة التوت، وقد تدلت أطرافه المحلاقية وخلاياه اللاسعة. وعندما دفعه الموج فارتطم بساقي وبطني شعرت بتلك الأطراف تلسعني وكأنها نيران صغيرة حارقة، وظلت الموجة البطيئة تسري داخلة إلى المكان وخارجة منه، وصار المطر الآن مجرد ضبابة رقيقة جمعت كل النجوم ومصابيح البلدة ثم نثرتها بالتساوي؛ فأعطت لمعانًا داكنًا بلون الزنك واستطعت رؤية الصخرة الثالثة، ولكنها عند النظر إليها من المكان، لم تكن على خط مستقيم مع النقطة التي تستقر تحتها قاعدة البيل آدير الغارقة، وتحركت موجة أقوى فرفعت ساقي وجعلتني أحس أنهما طليقتان ومنفصلتان عني، ومن مكان غير محدد اندفعت ريح قوية قادت أمامها الضبابة وكأنها قطيع أغنام، وحينئذ تمكنت من رؤية نجم، تأخر إشراقه، بل تأخر جدًّا على حافة الأفق، وتناهى إلى سمعي صوت هدير مركب ذي شراع، وهذا ما بينه لي صوت آلته البطيء الخافت، ورأيت ضوء صاريه يرتفع فوق حاجز الأمواج المسنن المنهار، إلا أن ضوءيه الأحمر والأخضر كانا منخفضين عن مستوى نظري.

والتهبت بشرتي من طعنات قنديل البحر، وسمعت صوت إلقاء مرسى مركب، ثم انطفأ ضوء الصاري.

لازال نور مارولو يضيء، وكذلك نور القبطان العجوز ونور العمة ديبورا. ليس صحيحًا ما يقال من أن هناك مجموعة من الأنوار تمثل شعلة كبيرة للعالم كله، بل إن كل إنسان يحمل نوره الخاص، نوره المتوحد.

وانبعث صليل حين اصطدم سرب من السمك المفترس الصغير بالشاطئ، نوري ينطفئ، وليس هناك ما هو أكثر سوادًا من ذبالة.

وقلت في دخيلتي: «أريد الذهاب إلى البيت، لا، ليس إلى البيت، بل إلى الجانب الآخر من البيت حيث تمنع الأنوار.

إن الظلام يبدو أكثر سوادًا عندما ينطفئ نوره منه عما لو لم يسطع فيه نور على الإطلاق، والعالم مليء بالخرائب المظلمة، والطريق الأفضل –الذي لابد أن يكون آل مارولو قد عرفوه أيام روما القديمة– هو أنه يحل وقت لانسحاب لائق ومشرف، انسحاب لا مأسوي ولا يوقع عقابًا بالنفس ولا بالأسرة، مجرد وداع في حمام دافئ وشريان مفتوح، وبديله بحر دافئ وشفرة حلاقة.

أحدثت الموجة الأرضية التي يدفعها المد المتزايد حفيفًا وهي تدخل المكان، ورفعت ساقي وردفي

وأطاحتهما جانبًا، ثم حملت معها في خروجها معطفي المبتل المطوي.

تدحرجت على أحد ردفي ومددت يدي في جيبي الجانبي بحثًا عن شفرات الحلاقة، ولمست العلبة. وحينئذ، ولدهشتي تذكرت اليدين الملاطفتين المربتتين، يدي حاملة النور. وقاومت العلبة الخروج من جيبي المبتل لحظة. وحين صارت في يدي، جمعت كل نتفة من نور كانت هناك، ثم بدت حمراء.. حمراء داكنة.

ودفعتني موجة متلاطمة إلى آخر المكان. وتزايدت سرعة أمواج البحر، وكان عليَّ أن أصارع الماء كي أنفذ إلى الخارج، فقد كان لابد من الخروج.

تدحرجت وزحفت ونثرت الرذاذ حولي وأنا غاطس في الموج إلى صدري، ودفعتني الأمواج المتسارعة إلى سور البحر القديم.

حتم عليَّ أن أخرج، حتم عليَّ أن أعيد الطلسم إلى مالكه الجديد. وإلا فربما انطفأ نور آخر.

# الفهرس


مكتبة Telegram Network

القسم الأول الفصل الأول

الفصل الثاني

الفصل الثالث

الفصل الرابع

الفصل الخامس

الفصل السادس

الفصل السابع

الفصل الثامن

الفصل التاسع

الفصل العاشر

القسم الثاني الفصل الحادي عشر

الفصل الثاني عشر

الفصل الثالث عشر

الفصل الرابع عشر

الفصل الخامس عشر

الفصل السادس عشر

الفصل السابع عشر

الفصل الثامن عشر

الفصل التاسع عشر

الفصل العشرون

الفصل الحادي والعشرون

الفصل الثاني والعشرون

# Notes

[←1]

الغلفق: الطحلب، وهو الخضرة على وجه الماء.

[←2]

ستون وول: معناها الحائط الحجري، وبهذا تتضح الدعاية في اختيار الاسم.

[←3]

إحدى الألعاب التي تمارس بورق اللعب.

[←4]

حواريو المسيح: «طائفة أسسها في بنسلفانيا سنة 1810 توماس وإسكندر كامب بل. وهي طائفة تتمسك بالكتاب المقدس وحده، وتحتفل بالعشاء الرباني كل يوم أحد. وقد انفصلوا بكنائسهم وأصبحوا طائفة مستقلة، وسميت كنائسهم باسم «كنائس المسيح».

[←5]

Clo= χ λ oy كلمة يونانية قديمة، معناها: الغرس الحديث النماء، أو أولى بوادر نماء النبات. وقد يكون معناها هنا (يا شجيرتي الصغيرة).

[←6]

زيزان الحصاد: إحدى حشرات النباتات، وتتميز بأجنحة شفافة تحدث طنينًا مستمرًا.